مجلة الفكر والفن المعاصر

القاهرة

العددان (١٧٦) (١٧٧)
يوليه - اغسطس ١٩٩٧

بين الثورة

الإصلاح ...



الغرب متفرد لا كوني !! الغرب نفيس لا متفرد !!

الدولة والحاجات الثقافية للمصريين

الغلاف الأمامي :

نحت للفنان : جمال عبد الناصر

مجلة الفكر والفن المعاصر

شهرية تصدر يوم ١٥ من كل شهر. الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب

العـــدان (١٧٦)، (١٧٧)

يوليـة - أغسطس ١٩٩٧

الثمن في مصر: جنيهان

الثمن في الخارج

العراق - ١٥٠٠ فلس - الكويت ١,٢٥٠ دينار - قطر ١٥ ريالا - البحرين ١,٥٠٠ دينار - سوريا ٧٥ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٢٥٠ دينار - السعودية ٢٠ ريالا - السودان ٤٧٠٠ ق - تونس ٤ دينار - الجزائر ٢٨ دينارا - المغرب ٢٥ درهما - اليمن ١٧٥ ريال - ليبيا ١,٦ دينار - الإمارات ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥٠٠ ريال - غزة والضفة والقدس ٢٥٠ سنتا - لندن ٤٠٠ بنس - الولايات المتحدة دولاران.

الاشتراكات فى مصر:

عن سنة (١٢ عددا) ٣٢,٥ جنيها مصريا شاملا البريد.

الاشتراكات من الخارج [عن سنة ١٢ عدداً]:

- البلاد العربية: أفراد ٣٠ دولاراً، هيئات ٥٢ دولاراً شاملة مصاريف البريد.
- أمريكا وأوروبا: أفراد ٤٨ دولاراً، هيئات ٧٠ دولاراً شاملة مصاريف البريد.

العنوان: مجلة القاهرة - جمهورية مصر العربية - القاهرة - ١١١٧ كورنيش النيل - فاكس ٥٧٥٤٢١٣ ت/ ٥٧٨٩٤٥٥.

القاهرة

العــــــــــدد ان ١٧٦ - ١٧٧
يوليــــو - أغـــسطس ١٩٩٧

فـهــرســـت:

المواجهات

الفصول والغايات

المراجعات

الإيقاعات والرؤى

الملف:

الشعر:

القصص:

الإشارات والتنبيهات:

اللوحات الداخلية للفنان : محمود بقشيش

من المحــــرر

إشكالية الخطاب الثقافى المصرى

ثمة إشكالية يغيب عن معظم مفكرينا ومنظرينا مواجهتها بحسم ووضوح رغم كثرة التنظيرات والتحليلات والتفسيرات المتناقضة والمتصارعة والتى ينفى كل منها صلاحيات الأخرى، وهو قراءة وتأويل وتحليل عناصر مكونات الخطاب الثقافى المصرى الآن، والذى يعانى خلطاً فى الأوراق والانتقالية فى المناهج والرؤى أدت به إلى نوع من العشوائية جعل من الصعب على المتلقى والقارئ استيعابه واعتناقه كدليل عمل وقانون إنقاذ ومفتاح حياة يحكم اختياراته وسلوكياته الثقافية ويحصنه من الوقوع فى التلقائية والضياع والعبث وبالتالى الإحباط والانكسار.

وقبل محاولة تحديد وتحليل وإبراز عناصر الخطاب الثقافى المصرى يتعين علينا أن نشير بوضوح لوضعية فكرية معقدة وملتبسة تكاد تشكل أزمة فكرية محتدمة وهى بروز هذا الخطاب فى جو وسياق التناقض والاستقطاب بين قطبى أفكار ورؤى ونظريات الحداثة وما بعد الحداثة والتى تعكس تحولات لاهثة للثورة التكنولوجية ومجتمع المعلومات وعلوم الاتصال والأقمار الصناعية وشبكات المعلومات العالمية وأهمها الإنترنت ولغة الإلكترونيات وبين قطب مضاد هو أدنى مرجعيات الفكر الأصولى الإسلامى المتطرف الجاهلى الظلامى المعادى للعقلانية النقدية والعلمانية والرافض للفكر النسبى والحوار والتعددية وأسس المجتمع المدنى.

ولن نقترب من فهم وتعرية هذا المأزق الفكرى ودلالته المتعددة المستويات إلا بالعودة السريعة لقراءة المرجعية السياسية والاقتصادية المتناقضة والتى يمر بها مجتمعنا الآن والتى تبرز وتعرّى جذور أزمة الخطاب الثقافى كانعكاس للخطاب السياسى.

منذ منتصف السبعينيات وعقب الانقلاب على أساسيات المشروع الناصرى للنهضة شهد ويشهد المجتمع المصرى تحولات صدامية سياسية واقتصادية لعل أبرزها التحول من النظام الشمولى - نظام الاتحاد الاشتراكى إلى التعددية الحزبية المحكومة والمقننة من سلطة الدولة وحزبها الفوقى؛ الحزب الوطنى والذى لا يزال يستمد شرعيته من ثورة يوليو ١٩٥٢ وانتصارات أكتوبر ١٩٧٣ بجانب بروز دور النقابات المهنية وتمتعها بحرية الحركة والتغيير فى مساحة من الديمقراطية عن جماهيرها مما شكل توازناً سياسياً فى جدل الحركة السياسية للمجتمع.

كذلك بدأ التحول من الاقتصاد المركزى والتخطيط وعمليات التأميم إلى آليات اقتصاد السوق والانفتاح وقوانين الاقتصاد الرأسمالى ويدأ يتراجع دور القطاع العام الذى يتم الآن تفكيكه وبيعه وخصخصته فى قيادة العملية الاقتصادية وبروز نشاط القطاع الخاص وزادت نسبة تمثيله فى المشاركة فى عمليات التنمية والإنتاج والتسويق.

هذا التناقض بين الحرية الاقتصادية المتنامية وفتح الأبواب على مصراعيها للاستثمار الأجنبى والعربى وفى الوقت نفسه سيطرة الدولة على الإعلام المرئى والمسموع بجانب وجود صحافة قومية ملك لمجلس الشورى أدى إلى مأزق فى سيولة ومنطلقات توجهات الخطاب الثقافى فهو يتبدى فى مزيج غير متآلف ومتوازن بن فكر الدولة ورؤيتها لأركان العقد الاجتماعى والسياسة الخارجية وبين عديد من قوى المعارضة والاختلاف غير المتجانسة والمختلطة والعشوائية؛ قوى ناصرية وقوى راديكالية وقوى يسارية وقوى أصولية إسلامية معتدلة ومتطرفة، وقوى باهتة ليس لها وزن على الساحة السياسية وتأثير فعال فى الشارع المصرى بحيث أصبح المواطن المصرى أسير التلقائية والعشوائية فيما يقرأ أو يسمع من تحليلات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية تدير الرأس وتغرقه فى الحيرة والبلبلة. ولسنا نعارض تعدد الآراء والرؤى والمناهج، فلسنا ضد الحوار الخلاق المستنير والنسبية فى المعرفة ورفض المطلق واليقين والأحكام الجاهزة التراتبية والقمعية... غير أننا نتساءل عن مصير كل هذا الدوار الفكرى المفتقد لبرامج وخطط وإستراتيجيات تترجم هذه الرؤى والمناهج إلى سياسات توجه قوى الشعب وتجعله يقبض على مصيره ويخطط لمستقبله وسط عالم القطب الواحد والسيد الأمريكى الذى بدأ يشكل خطورة الهيمنة على شئون العالم وفى مواجهة حضارية شاملة وتاريخية للعدو الإسرائيلى والصهيونية العالمية التى تخطط وتعمل بتكثيف لتهميش دور مصر التاريخى وقدرها وفاعلية تواجدها فى قلب عالمها العربى ودفاعها المستميت عن حقوق الشعب الفلسطينى وحقه فى إقامة دولته المستقلة.

فى النهاية، فإن إشكالية الخطاب الثقافى المصرى تنبع من تغير وتحول البنى والسياقات الاجتماعية والاقتصادية وعدم تحديد ملامح وسمات مستقرة لها نتيجة الكم الوفير من القوانين والإجراءات الانتقالية، وهذا يشكل خطراً على العقل المصرى يشله عن إدراك قوانين الضرورة الطبيعية والاجتماعية وبالتالى فقدانه السيطرة على حركتها والتحكّم فى اتجاهاتها وبالتالى يضيع منه المستقبل. ■

الميزان

فما طبيعة الجسر الذى يمكن أن يصل بيننا والعالم، ونحن على مشارف الألف الثالثة من الميلاد؟

أهو الجسر الواهى الذى يشير إلى مجتمع منعزل، يتسلح بأوهامه عن اكتمال عالمه واستغنائه عن كل صلة بالخارج المحيط؟! أم يكون جسرًا صلبًا يبدأ طرفه الملاصق لنا من ترتيب أدواتنا المعرفية وتحديد زاوية النظر التى يجب أن نتوجه منها إلى العالم، ثم يمتد مستندًا ومدعومًا بالرغبة الأصلية فى معرفة أنفسنا، نقاط ضعفنا قبل مناطق قوتنا، يمتد الجسر ويقوى هيكله ودعاماته من السعى باتجاه المعرفة، وبالتالى تحديد غاياتنا، طموحنا للمستقبل فى تقاطعه مع ما يموج به العالم من مصالح وأهداف، الأمر الذى يحتاج لأذهان وأخيلة قادرة على استيعاب ما سوف ينضاف إلى تاريخ التقدم الإنسانى وما سيتراكم من مآسٍ.

فى «القاهرة» نتمسك بأن يكون الجسر بيننا وبين العالم من حولنا هو جسرٌ من المعرفة، فنجد باب المواجهات يشتمل على دارستين لأسباب الإصلاح الاجتماعى والثقافى فى مصر، الجانبين المرتبطين حتمًا بالإصلاح السياسى، أو بتنظيم العلاقة بين الدولة وسائر فئات المجتمع، و خصوصًا الفئات الفقيرة منها، الدراسة الأولى لأمين عز الدين، يستقرئ فيها سيرة حياة سيد شكرى (١٨٨٧ - ١٩٦٩)، رائد الإصلاح الاجتماعى ومؤسس جمعية «الفلاح» التى لعبت دورًا كبيرًا فى تأكيد فكرة الإصلاح الاجتماعى، أو إعادة صياغة العلاقات بين الطبقات المكوّنة للمجتمع، فيما يعود بالفائدة على المجتمع ويجنّبه، فى الوقت نفسه، الآثار السلبية للثورة أو للانقلاب. فى تتبعه لمسار سيد شكرى يستعرض أمين عز الدين حال المجتمع المصرى فى الفترة ما قبل ثورة ١٩١٩ وحتى ثورة ١٩٥٢، وهى الفترة التى ماجت بالأحداث والتحولات السياسية والاجتماعية وانتهت بوصول الجيش إلى الحكم.

وإذا كانت دراسة أمين عز الدين قد عنيتْ باستقراء هذه الحقبة من التاريخ المصرى الحديث، انطلاقًا من فكرة الإصلاح الاجتماعى، فإن دراسة سيد البحراوى وهى الدراسة المتممة لهذا الباب تعنى باستعراض الحاجات الثقافية للأغلبية المصرية من الموظفين والعمال والفلاحين الملتزمين بدفع ما عليهم من ضرائب، دون أن يحصلوا على الحد الأدنى من احتياجاتهم الثقافية، مما يؤكد ضرورة إحراز إصلاح اجتماعى لضمان استمرار العقْد الذهنى بين الدولة وطبقات المجتمع، يستخدم سيد البحراوى مصطلح «الحاجات الثقافية» بمعناه الواسع، الذى يشمل - إضافة لعناصر الثقافة المعروفة من إبداع فنى وفكرى وأدبى - عناصر التعليم والإعلام والمؤسسات الدينية والرياضية، وهو ما يشكل المدخل لمعرفة النسق الذى ينظم الأفكار والمعتقدات والمشاعر لأبناء هذا المجتمع فى لحظتنا الراهنة، منتهيًا من دراسته الموثقة بالإحصاءات، إلى أن الثقافة سلعة مرتفعة الثمن لا يقدر على شرائها معظم المصريين و خاصة ممن ينتمون إلى الطبقات الفقيرة رغم أنهم الممولون الأساسيون للثقافة المصرية.

ويشتمل باب الفصول والغايات على عدد من الدراسات ضمن محور يناقش فكرة صراع الحضارات التى طرحها صامويل هنتنجتون، فأصبحت الشغل الشاغل للمفكرين والكُتّاب فى هذه اللحظة، على اختلاف مشاريعهم وتوجهاتهم، يكتب هنتنجتون فى تفرد الغرب «الغرب متفرد لاكونى» مسهبًا فى توضيح ما يجعل الغرب غربيًا مثل الدين واللغة ومركزية القانون والمجتمع المدنى متوسلا بإزكاء الروح القومية الغربية وغير الغربية فى سبيل شغل الفراغ الظاهرى الناشئ من انهيار الاتحاد السوفيتى كقطب مناوئ للغرب، ومستبدلا بـ «الأمة الإسلامية» و«الأمة الصينية»، الطرف الثانى أو الآخر الضرورى لتحقق لعبة الصراع الدولى - فى سياق الرد على هذا الطرح تأتى مداخلات كل من جون إيكنبرى وتونى سميث ودافيد هاول وبروس نسباوم وجميعها تصب فى نقد ما يمثله طرح هنتنجتون من أيديولوجية جاهزة للقوميين فى كل مكان. يأتى ثالثًا مقال نعوم تشومسكى، «العدوان المشين» ليعيد تعريف مسميات تبدو ملتبسة فى سياق الممارسة العملية بينما يبدو أساسها المرجعى ناصعًا ومستقرًا، من هذه المسميات: الحق والعدالة والعدوان، يستعرض تشومسكى فى جرأة

الجديد

وموضوعية تطور هذه المسلمات وتطور استخدامها من قبل القوى العالمية وتحديداً الولايات المتحدة الأمريكية من خلال بعض الأحداث الدالة فيقارن بين التعريف الأمريكى للعدوان فى حادثة غزوها «لبنما» واعتقالها للجنرال دانييل أورتيجا وسجنه كمجرم فى أحد سجونها أو ضربها فيتنام بالأسلحة الكيماوية وذلك مقارنة بحادثة أخرى بدت فيها الولايات المتحدة الراعى الأول للأمن والسلام العالميين وهى حادثة غزو العراق للكويت، منتهياً إلى نتائج تعرى الوجه القبيح للقطب الواحد ولمسمى النظام العالمى الجديد.

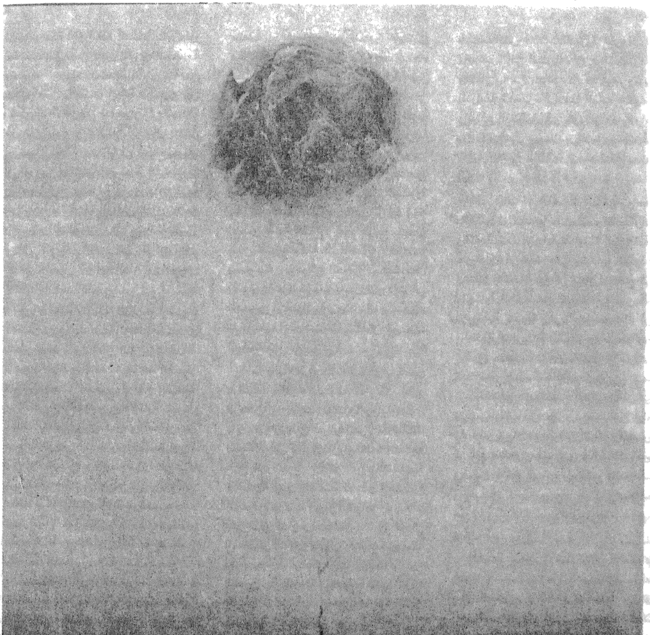
فى مقاله «نهاية التاريخ وصراع الحضارات» يربط عبد الوهاب المسيرى بشكل مدهش بين الحل النازى للمسألة اليهودية والذى يعتمد تنقية العنصر الألمانى فيما يسمى «الرايخ الثالث» وبين النزوع الصهيونى لإقامة الهيكل الثالث بتطهير القدس وفلسطين من أصحاب الأرض الأصليين (الفلسطينيين) وبين الاستنساخ والاستعمار، فى ذلك يقرأ النموذج الكامن وراء الأيديولوجيات العلمانية (النازية - الماركسية - الليبرالية) مما يمكن تعريفه بالتطور أحادى الخط أو القانون العلمى الطبيعى الواحد للتطور، الذى تخضع له المجتمعات والظواهر البشرية. فالنظرة إلى العالم باعتباره مادة استعمالية والنظر إلى الإنسان باعتباره جزءاً من العالم، هى نظرة أساسية يقوم عليها النظامان العالميان: القديم والجديد انطلاقاً من كون التقدم هو عملية متصاعدة من الترشيد المادى. ويكتمل هذا المحور بمقالين، الأول لـ علاء حمروش «الفلسفة وإشكالية العلاقة بين الشرق والغرب»، ويقرأ مهدى بندق فى المقال الثانى «الأصولية فى الغرب والإقطاع الكونى القادم» نشأة الأصولية الكاثوليكية فى الغرب الأوروبى وصعودها ثم سقوطها اقتراناً بصعود وسقوط الإقطاع مع قيام الثورة الفرنسية، هذا القوس الذى ترتبط فيه الأصولية بالإقطاع، يعيد طرحه مهدى بندق على اللحظة الحاضرة، فيما يسميه «الإقطاع الكونى» حيث تحل المجتمعات المتقدمة محل اللوردات فى العصور الإقطاعية، وتحل المجتمعات المتخلفة محل الأقنان فى هذه المجتمعات.

أما باب المراجعات فيحتوى خمس دراسات نقدية تطبيقية، يكتب عبد الرحمن أبو عوف، متناولا رواية سلوى بكر «ليل ونهار»: «العشوائية وتفكك المجتمع فى ليل ونهار» متتبعاً إشكالية طرح الموضوع الروائى بين «التلقائية والعفوية وبين القصد العمدى العقلانى النبرة»، ويكتب إدوار الخراط «تأويلات على متن فهارس البياض - شعر السؤال الفلسفى». عن ديوان ماجد يوسف «فهارس البياض»، ويكتب ياسين النصير «فى الرؤية الجبلية» متتبعاً موقع قصيدة سيف الرحبى على خارطة الشعر العربى الحديث من خلال ديوانه «جبال»، أما «تحولات الفيتورى» فهو عنوان الدراسة التى يتتبع فيها كمال نشأت تطور الفيتورى من خلال خصائص ثلاث: الثورة على الظلم والدعوة إلى الحرية، روح التصوف، والاقتراب من العالم بكل ما فيه. وتأتى الدراسة الأخيرة فى هذا الباب «القيمة والواقع المتخيل فى مريم النور» قراءة من الشاعر ميلاد زكريا يوسف فى رواية الكاتبة اللبنانية رجاء نعمة «مريم النور».

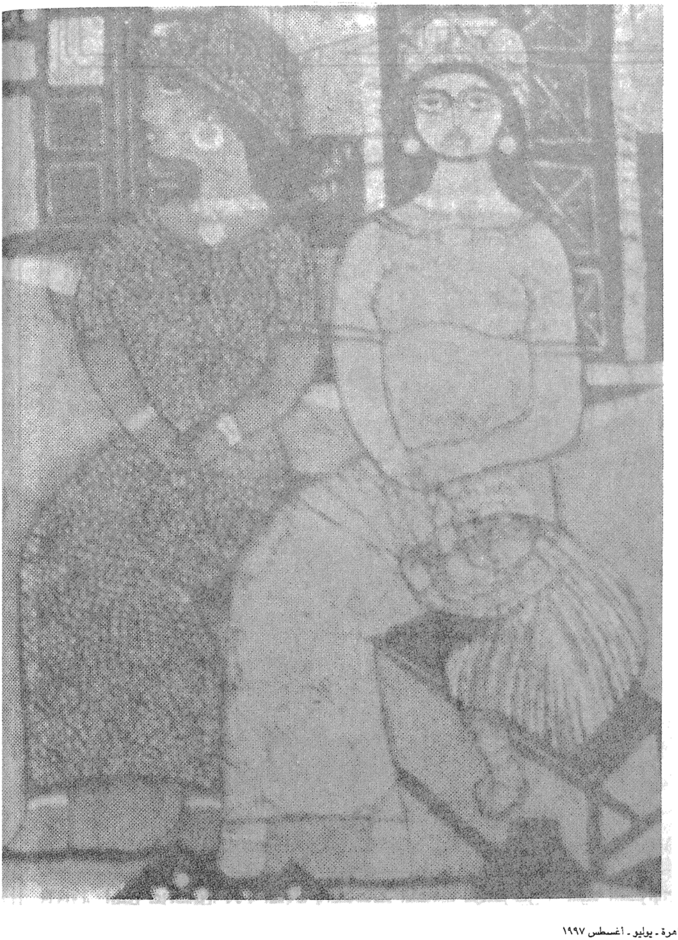
فى باب الإيقاعات والرؤى تواصل «القاهرة» تقديم مختلف التيارات والتوجهات الإبداعية جنبًا إلى جنب، حريصين فى ذلك على انتخاب النموذج الأكثر اكتمالا فى كل تيار لتتضح فى النهاية السمات العامة للخريطة الإبداعية مصرياً وعربياً إلى حد ما، فى «المختارات» يقدم الشاعر والمترجم بدر توفيق منتخبات من الشعر الأمريكى المعاصر لخمسة شعراء مبرزين، كما ترجم شوقى فهيم قصة للكاتب الأمريكى تنيسى ويليامز: «يوم سعيد من أيام أغسطس» بالإضافة إلى أشعار وقصص لـ عبد المنعم رمضان وجمال القصاص وحسن فتح الباب وإبراهيم اليوسف ومحمود نسيم وفؤاد قنديل وعاطف سليمان، وخالد إسماعيل وأحمد غريب وغيرهم.

أخيراً، تجدر الإشارة إلى انضمام عضو جديد إلى أسرة تحرير «القاهرة» وهو الصديق والشاعر أحمد طه، وهو ليس غريبًا عن أسرة التحرير، فأهلا ومرحبًا به داخل الأتون وكان الله فى عوننا جميعاً. ■

ك. ع



المواجهات



الإصلاح الاجتماعى بديلا للثورة الاجتماعية

سيد شكرى رائد جمعية الفلاح ١٨٨٧-١٩٦٩

أمين عز الدين



ولد الدكتور سيد شكرى(١) عام ١٨٨٧ بقرية «ميت يعيش» مركز «ميت غمر - دقهلية»، من «عائلة «دحروج» الميسورة الحال بفضل أملاكها من الأراضى الزراعية الخصبة، وبفضل ترابط أبنائها ومعيشتهم الجماعية الحميمة على أساس عملى فى توزيع العمل بينهم والمشاركة فى الخيرات والطيبات بالعدل والقسطاس (٢) يضاف إلى ذلك اهتمام الأسرة بتعليم أبنائها مع توازن فى الاختيار بين التعليم الدينى بالأزهر وبين التعليم العلمانى الحديث. ولتمكين أبنائها من أن ينهلوا العلم دون عقبات، استأجرت الأسرة منزلا فسيحًا (أو ربع) بحارة حوش قدم فى حى المغربلين وباب الخلق بالقاهرة، ليكون مقراً لمعيشة أبنائها من المجاورين بالأزهر ومن تلاميذ وطلبة المدارس الحديثة، كما يستقبل الوافدين من رجال الأسرة ونسائها لزيارة أضرحة الأولياء أو للعلاج.

وضماناً لانتظام تموين هذا المقر، اقتنت الأسرة مركبًا شراعيًا فى مجرى الرياح التوفيقى قرب مدينة بنها، لتنقل الزاد والزواد إلى المقرمرة كل شهر ترسو بها فى «ميناء» بولاق ومنه بالعربات «الكارو» إلى «حوش قدم» وأسند الإشراف على مجمل هذه العملية إلى الشقيق الأصغر الشيخ سليم دحروج.

الإصلاح الاجتماعي بديلا للثورة الاجتماعية



كان **سيد شكرى** ثالث ابن من أبناء الأسرة يلتحق بالتعليم الحديث ولا ينخرط فى مراتب التعليم الدينى بالأزهر، وكان التحاقه بمدرسة الأمريكان «بكفر يوسف رزق» (٣) - أحد كفور، ميت يعيش، - أول درجة بالنسبة له فى سلم التعليم الحديث، ومنها نال الشهادة الابتدائية عام ١٩٠١، انتقل بعدها إلى القاهرة ليواصل دراسته بالتجهيزى (الثانوى) بمدرسة التوفيقية.

ووقع الفتى **سيد شكرى** فى تلك المرحلة من مراحل تكوينه التربوى تحت تأثير عاملين رئيسيين: **أولهما** شخصية أخيه الأكبر المهندس **حسين بك حلمى** المقيم بمنزل الأسرة فى حوش قدم، والذى يتولى مسئولية الإشراف على نزلائه من الطلبة والمجاورين والمرضى والزائرين. وكان **حسين بك حلمى** فى واقع الأمر من أوائل المهندسين المصريين الذين تقدموا فى المناصب الحكومية ليحلوا محل المهندسين البريطانيين وقد شغل فى أخريات أيامه منصب مدير تنظيم القاهرة الذى كان وقفًا على الأجانب والبريطانيين خاصة. ولابد أن الفتى **سيد شكرى** قد بهرته مكانة أخيه، كما بهرته اهتماماته الفريدة بعلوم الفلك والتى مكنته من تأسيس مرصد حلوان وإدارته فترة من الزمن.

وثانيهما: التحاقه بالمدرسة التوفيقية، وهى مدرسة أبناء الذوات، حيث قضى بها، وهو الفتى الريفى، أربع سنوات يرقب مظاهر التفاوت الاجتماعى وأثره على زملائه من أبناء الفقراء، وزاد الطين بلة أن الدراسة فى التوفيقية - وفى غيرها من المدارس الحكومية - كانت سلسلة من التعذيب البدنى والنفسى؛ فالعقوبات الشديدة توقع على الطلبة لأهون سبب، والمدرسون الإنجليز الساديون يستعذبون إهانة الطلبة والهزء بهم. ومن خلال هذه التجربة، تشربت روحه بالعداء والكراهية ضد الإنجليز. والأرجح أنه حمل من وراء تلك التجربة رواسب فكرية عميقة رافقته طوال حياته، وجعلت من عدائه للمستعمر الأجنبى موقفًا أصيلا ودائما مع مرور الأيام، ولم تكن تجربته تلك تختلف عن تجارب زملاء عاصروه فى مدرسة التوفيقية مثل **سلامة موسى ومصطفى حسنين المنصورى** ممن انشغلوا بقضايا التحرر الوطنى والتغيير الاجتماعى فى مصر.

أتم **سيد شكرى** دراسته التجهيزية (الثانوية) فى ١٩٠٤، ثم التحق بالمدرسة العليا للطب عام ١٩٠٥، حيث وجد نفسه وسط أقرانه من طلبة المدارس العليا الذين سَماهم الزعيم الخالد **محمد فريد** «بالشبيبة الوطنية والشبيبة الحرة»، واعتبرهم عند تشكيل الحزب الوطنى فى ديسمبر ١٩٠٧، رصيد الحزب وطاقته المتفجرة.

ولسنا نعرف على وجه التحديد متى انضم **سيد شكرى** تنظيميا إلى الحزب الوطنى، وإن كنا نرجح أن يكون ذلك قد تم فى الفترة من ديسمبر ١٩٠٧ (تاريخ تشكيل الحزب) وأكتوبر ١٩١٠، تاريخ تخرجه فى مدرسة الطب، ففى تلك الفترة كان الحزب، بقيادة **محمد فريد**، يدعم قدراته التنظيمية بضم وتنشيط طلبة المدارس العليا وخريجيها، داخل صفوفه، وتسكينهم فى أرفع المواقع القيادية للحزب وللتنظيمات الجماهيرية التى أنشأها وأهمها نقابة الصنائع اليدوية ومدارس الشعب وأندية العمال والتعاونيات الزراعية، وحتى بعض الجمعيات السرية للكفاح الوطنى.

ولضمان المزيد من الارتباط بين الحزب وبين الشبيبة الحرة، أفسحت لائحة الحزب الطريق لعناصر المثقفين الشباب لكى يشغلوا المراكز القيادية فى مستوى لجان الحزب القاعدية (لجان القرى والمراكز) ولجان عواصم المديريات، وفى مستوى المؤتمر السنوى للحزب أو الجمعية العمومية، واللجان القيادية المنبثقة عنها وهى اللجنة الإدارية واللجنة التنفيذية العليا.

كما أفسح الحزب عدداً من المواقع القيادية للشبيبة الحرة فى نقابة الصنائع اليدوية، أوسع وأقوى التنظيمات الجماهيرية التى أسسها الحزب، فقد نص «قانون» هذه النقابة على نوع فريد من العضوية يتمتع بها المثقفون تحت اسم «المساعدين وأعضاء الشرف». وبمرور الزمن أصبح هؤلاء هم القادة الفعليون للنقابة، فضلا عن مسئوليات حملوها فى إدارة وتشغيل «مدارس الشعب» والأندية الرياضية التى أنشأها الحزب للعمال، ومن أبرز هؤلاء الشبان **على بك ثروت** ناظر مدرسة الصنائع بالمنصورة (سابقا) والذى كان أول رئيس للنقابة، و**إسماعيل زهدى** المحامى، أول سكرتير لها. وفى انتخابات النقابة التى جرت فى يناير ١٩١٣ انتخب سعادة **عبد الكريم حسن** رئيسا يعاونه عشرة أعضاء من «المساعدين»، منهم: **محمد لطفى جمعة، محمد أفندى صالح**، المحاميان، ومن الأطباء: **د. حافظ أفندى عفيفى ود. ابراهيم الشوربجى ود. عثمان لبيب ود. محمد توفيق**.

وكان أفراد هذه المجموعة من الأطباء، وجميعهم من زملاء **د. سيد شكرى**، يتبرعون بخدماتهم بالمجان لأعضاء النقابة وللدارسين بمدارس الشعب. وقد اتسعت دائرتهم لتضم زملاءً جدداً نذكر منهم د. **حسن مورو** الجراح ود. **فوزى أبو السعود** (للعيون) والصيدلى **نصر جودة** ود. **أحمد أفندى عيسى** الذى كانت عيادته المقر المبكر لعقد جلسات اللجنة الإدارية للنقابة.

وتميزت تلك المرحلة المبكرة من حياة د. **سيد شكرى** (من عام ١٩١٠ تاريخ تخرجه إلى عام ١٩١٤ تاريخ نشوب الحرب العالمية الأولى) بحدثين مهمين فى سيرته:

أولهما: سفره إلى دبلن (إيرلندة) عام ١٩١١ للحصول على دبلوم عال فى أمراض النساء والجراحة، وقد عاد بعدها إلى مصر عام ١٩١٢ حاملا أحلامه الوطنية للكفاح من أجل الاستقلال وأحلامه الاجتماعية لتوفير الخدمات لأبناء وطنه من الفقراء والفلاحين. ولا يغيب عن أذهاننا أن أيرلندة كانت حينذاك فى ثورة كبرى بقيادة الزعيم الخالد **ديفاليرا** الذى كان موضع إعجاب المصريين. وقد صادف كفاح الشعب

الأيرلندى هوى عميقاً فى نفس **سيد شكرى** ،واعتبره نموذجًا ومثلا رائعًا يمكن للشعب المصرى أن ينسج على منواله فى كفاحه ضد المستعمر البريطانى.

ثانيهما : انضمامه فور عودته من دبلن إلى البعثة الطبية المصرية التى شكلها الحزب الوطنى عام ١٩١٢ لخدمة المجاهدين العرب فى الحرب الطليانية الطرابلسية، ولا شك أن اختياره عضواً فى تلك البعثه لأكبر دليل على مكانته داخل الحزب الوطنى وتنظيماته الجماهيرية، وقد حملت البعثة معها، وعلى نفقة الحزب الوطنى وبتمويله كاملا، الأدوية والإسعافات الطبية، وهناك رافقت المجاهدين بقيادة البطل **سليمان الباروني** وهم يخوضون المعارك البطولية ضد الغزاة الطليان فى مناطق زوارة وجندوبة وورفلة وغيرها، حتى «انكسر العرب، كما يقولون، نتيجة خيانة الأتراك لهم. وعادت البعثة عبر الصحراء، ووصل أفرادها سالمين إلى أهليهم وحزبهم ووطنهم فى مارس ١٩١٤ والحرب العالمية الأولى تنذر بالانفجار.

خرج د. **سيد شكرى** من هاتين التجربتين، أيرلندة الثائرة وطرابلس الغرب المتصدية للغزو الأجنبى، بمزيد من الاقتناع بأن الطريق إلى الاستقلال يمر فقط - من فوهة البندقية، وليس من خلال الكلام والخطب والمفاوضات. وزاد من وهج تلك الأفكار والقناعات عنده، تعرفه فى طرابلس الغرب على البطل **عزيز المصرى**، وما انعقد بينهما من صداقة حميمة استمرت طوال حياتهما، ولأكثر من نصف قرن.

الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)

وجاءت سنوات الحرب فى مصر بكل ما حملته معها من التعاسة لشعب مصر وإهدار كرامته وما جرته على البلاد من شتى ألوان الجرائم والطغيان الذى مارسته السلطات العسكرية البريطانية. ولاشك أن ذلك كان بالنسبة للدكتور **شكرى** مصدراً لشقائه النفسى المشوب بالغضب، كما كان دافعا عنده لمزيد من المعاناة ومزيد من التفكير الثورى ضد المغتصب الأجنبى.

ولا غرو فقد شهد د. **شكرى**، كما شهد جميع أبناء مصر، كيف أعلنت بريطانيا الحماية على البلاد، وكيف وضع السير **چون ماكسويل**، قائد الجيوش البريطانية، القطر تحت الحكم العسكرى وأعلن الأحكام العرفية، ثم راح يصدر «البيانات» إلى الشعب، هذا يهدد باتخاذ أشد الإجراءات عند أول بادرة للحركة والمقاومة، وذاك يحذر الأهالى من تكدير السلام العام أو مساعدة الأعداء، ثم بيان ثالث بأن السلطة العسكرية «ستلزمها طلبات من خدمات الأفراد أو مما يملكونه»، وتلك وثيقة بإعلان خلع الخديوى **عباس الثانى** وارتقاء **حسين كامل** على عرش السلطنة المصرية.

فى هذا الجو القاتم، أخذت القاهرة تتحول تدريجيا إلى مدينة خلف الخطوط وإلى مركز للإمدادات والتموين الحربى وقاعدة لتجمع الجنود البريطانيين وجلب المستعمرات ومرتع للجنود المرحلين إلى الجبهة بكل ما يعتمل فى نفوسهم من خوف ومرارة، والجنود العائدين لقضاء إجازاتهم فى صخب واستهتار بكرامة المواطنين وممتلكاتهم.

واذا كانت عربدة المستعمر قد ظهرت وبأبشع صورها فى القاهرة والإسكندرية ومنطقة القنال، فإنها كانت فى البداية بعيدة عن الاحتكاك المباشر بالمواطنين فى الريف والمراكز، ولكن ذلك لم يستمر طويلا، فما لبث ذراع السلطة العسكرية البريطانية أن امتد إلى القرى ليستولى عنوة ودون مقابل على المحاصيل والدواب لقواتها المحاربة فى سيناء وفلسطين، كما امتدت الذراع نفسها الغاصبة لتفرض على الرجال من الفلاحين والعمال والحرفيين شكلا من أشكال **السخرة** للعمل فى «فيالق، خاصة ملحقة بالقوات البريطانية المحاربة فى فرنسا وغاليبولى والعراق وفلسطين، فيما عرف حينذاك باسم «العمل فى السلطة، وهى فيلق العمل المصرى Egyptian Labour Corp وفيلق النقل بالجمال Egyptian Camel Corp ، وقد بلغ عدد من سخروا فى هذه الفيالق وغيرها طوال سنوات الحرب نحو مليونى مواطن.

ولاشك أن د. **سيد شكرى** قد شهد بنفسه عملية خطف وجمع المسخرين من أبناء قرى ميت غمر وزفتى، وشهدهم على الأخص فى «مركز التجميع» بميت غمر وهم مقيدون بالحبال كالمواشى استعداداً لترحيلهم إلى مختلف الجهات.

كما أننا لانستبعد أن يكون الدكتور **سيد شكرى** قد عرف مزيداً من المعلومات حول ممارسة السخرة ضد المواطنين من زميله وصديقه د. **يوسف سابا** الذى التحق بقسم الخدمات الطبية فى فيالق العمل المصرية، وهاله ماكان يتعرض له العمال والفلاحون المسخرون من استغلال لا إنسانى، فكتب تقريراً خطيراً بمشاهداته يفضح فيه السلطات العسكرية البريطانية(٤).

وانتهت سنوات الحرب بما حملت من المهانة والقهر للشعب المصرى، فلما لاحت سنوات السلام، هب الشعب مطالبًا بحريته واستقلاله فى ثورته الوطنية؛ ثورة ١٩١٩، وكما كانت هذه الثورة علامة على طريق الأمه، فإنها كانت بالمثل علامة بارزة فى حياه د. **شكرى** وسيرته الحافله.

شكرى وثورة ١٩١٩

لم يقبل **د. سيد شكرى**، بعد عودته من طرابلس الغرب، أن يلتحق بعمل أو وظيفة حكومية رغم توفر الفرص أمامه، فهو يرفض العمل تحت الإدارة البريطانية التى تفرض وجودها ورجالها على الخدمات الطبية الحكومية، كما أنه لم يكن يحمل للبريطانيين، كمغتصبين لحرية بلده ووطنه، غير مشاعر العداء الشديد والاحتقار.

واختار **د. شكرى** الممارسة الحرة لمهنته الإنسانية بين أبناء الدقهلية؛ مديريته، وجيرانهم. ففتح عيادة رئيسية فى مدينة زفتى وفرعًا لها فى مدينة «ميت غمر»، وألحق بالعيادة صيدلية لخدمة المترددين من المرضى، ولصرف الدواء للفقراء بالمجان.

وآثر **د. شكرى** أن تكون ميت غمر الجميله الهادئة مقراً لإقامته، فاستأجر فيلا فاخرة على النيل (فرع دمياط) وجهز قارباً له تجهيزاً أنيقاً لينقله يوميا عبر النهر الخالد - ذهابا وإياباً - إلى زفتى، وجعل من مسكنه منتدى وطنيا وثقافيا لأصدقائه من المهنيين والمثقفين والأعيان.

وفى مدينة زفتى، كان اللقاء حتميًا بين **د. شكرى** وبين اثنين من أبناء عائلة **الجندى**، هما المناضلان الوطنيان **يوسف وعوض الجندى**، اللذان قادا فى عام ١٩١٩ أروع وأغرب تجربة ثورية ضد الإنجليز، المعروفة «بجمهورية زفتى» أو، إمبراطورية



الإصلاح الاجتماعي بديلا للثورة الاجتماعية

زفتي». وقد ظل **يوسف الجندى** المحامى، بالذات، صديقًا حميمًا له لأكثر من نصف قرن حتى لايكادا يفترقان.

واندلعت ثورة ١٩١٩ ... وتحمس لها د. **شكرى** حماساً شديداً، وأيدها من أعماق قلبه، وشارك بقدر ملحوظ فى العمل الثورى وتنظيماته، وخاصة فى منطقة زفتى وميت غمر، ولكنه بانتمائه إلى التيار الغالب داخل الحزب الوطنى، كانت لديه تحفظات كثيرة على قيادة **سعد زغلول** للثورة، فقد هاله وأحزنه إصرار **سعد زغلول** على استبعاد **محمد فريد** من الوفد بحجة أن عداءه الشديد لبريطانيا قد يفسد مهمة الوفد ويعرقل المفاوضات حول مطالب البلاد.

ومن ناحية أخرى، أحس **دكتور شكرى** بإحباط شديد من جراء ما حدث من انقسامات داخل الحزب الوطنى بين من قبلوا التعاون مع «الوفد»، وبين الرافضين لهذا التعاون، ومن خلال تأمله فى هذا الانقسام، وفيما بذره **سعد** من بذور الشقاق فى صفوف الوطنيين، وخاصة قادة الثورة. أخذ **دكتور شكرى** ينحاز تدريجيا إلى فكرة «الاستقلالية» فى العمل السياسى بعيداً عن الانقسامات الحزبية وما أشاعته من يأس وإحباط فى صفوف الحركة الوطنية.

ورغم كل ذلك، لم يتأخر دكتور **شكرى** لحظة عن المشاركة النشيطة فى الثورة، **فالثورة ليست ملكًا لسعد زغلول أو الوفد، وإنما هى ملك للأمة وجماهيرها التى صنعتها وقدمت لها أشجع شهدائها وأخلدهم ذكرًا.**

أما مشاركة **الدكتور شكرى** فى الثورة فقد جاءت من خلال ثلاثة أحداث شهيرة من أحداث المقاومة الشعبية ضد الإنجليز، وقعت جميعها فى نطاق مركزى ميت غمر وزفتى.

وقد بدأ مسلسل تلك الأحداث بعدوان بريطانى وحشى على قرية ميت القرشى مركز ميت غمر على أثر قطع الأهالى لخط سكك حديد الدلتا المار بقريتهم، فقد قامت السلطة العسكرية البريطانية بإحضار قطار حربى ليلا حتى مشارف القرية. ومع ظهور أول ضوء، وقبيل خروج الفلاحين إلى حقولهم، صبت المدفعية المحملة على القطار نيرانها الكثيفة على القرية الآمنة دون تمييز أو رحمة لتنزل بها أكبر الخسائر فى الأرواح والمواشى والدواب، ولتدمر جانبًا كبيراً من مبانيها، وحتى أشجار النخيل السامقة والتى كانت أبرز معالم ميت القرشى، لم تفلت من النيران والتدمير (٥).

ومع ثبوت سوء النية المبيتة فى هذا العدوان الغاشم وما أشاعه من الرعب بين أهالى المنطقة، فإن **الدكتور شكرى** لم يتردد فى أن يقود وفداً من أعيان ميت غمر للاحتجاج لدى قيادة الكتيبة الاسترالية المرابطة فى ميت غمر، وفوجئ قائد الكتيبة بهذا الأسلوب الاحتجاجى الذى لم يسبق للمصريين استخدامه فى مثل هذا المستوى المحلى، كما فوجئ **بالدكتور شكرى** وهو يحدثه بلغة إنجليزية رصينة، متهمًا بريطانيا بالهمجية ضد شعب مصر العريق حضارياً، وضد حقوق الإنسان والشعوب فى الحرية والاستقلال، وقال له: كان الأولى بالأستراليين، وبلدهم مستعمر مثل بلدنا، أن يتعاطفوا مع كفاح شعب مصر من أجل حريته.

ومن الطريف أن العدوان على ميت القرشى أثرى الموروث الشعبى بسيرة جديدة هى سيرة «**صديقه مرات عبد المجيد**» التى شاركت فى المعركة ضد الإنجليز وظلت تقاتلهم حتى وقعت تحت سنابك الخيل وراح جلدى بريطانى يركلها فى بطنها حتى أجهضها ـ ورغم اختلاط الأسطورة بالواقع، فإن هناك إجماعاً على أن **الدكتور شكرى** هو الذى قام بإسعافها وأنقذ حياتها. ومن يزور ميت القرشى اليوم سيجد أن قبرها قد أصبح مزاراً مثل مزارات الأولياء تخليداً لفروسيتها وشجاعتها فى المعركة.

وظهر **الدكتور سيد شكرى** مرة أخرى ضمن أحداث ثورة ١٩١٩، فى إطار قصة «إمبراطورية زفتى».

وقد بدأت فصول تلك القصة العجيبة فى ١٨ مارس ١٩١٩ عندما قاد الشاب الوطنى **يوسف الجندى** جماهير مدينة زفتى، رجالا ونساءً وأطفالا، ليستولى على مركز شرطة المدينة، **ويعلن استقلالها**.. وانضم إلى الثورة الضابط الوطنى **إسماعيل حمد**، مأمور مركز زفتى، ومعاونه الضابط **أحمد جمعة**، ليصبحا مستشارين عسكريين «للدولة» الوليدة.

وتشكلت لقيادة الثورة «لجنة» من الأعيان والمثقفين وصغار التجار عرفنا منهم: **عوض الكفراوى** والشيخ **مصطفى عمايم وإبراهيم خير الدين وأدمون بردا ومحمد السيد ومحمود حسن**. وتولت هذه اللجنة الثورية جمع التبرعات لتمويل عدد من المشروعات العامة لتوفير العمل للعاطلين، واستولت على مخازن الحبوب المجمعة للقوات البريطانية، وجندت الطلبة والمتعلمين فى فرق منظمة لتقوم بدوريات لحفظ الأمن وحراسة حدود الدولة ومنع تسرب المواد التموينية والإشراف على عمليات الرى، كما نظمت اللجنة إصدار النشرات والتعليمات للأهالى بعد طبعها فى مطبعة قديمة بالمدينة.

ورغم أن أغلب المصادر تؤكد مشاركة **الدكتور شكرى** فى عملية إعلان الثورة وبناء «إمبراطورية زفتى»، فإنها تختلف حول حقيقة عضويته فى «لجنة» الثورة، والأرجح أنه اتفق مع صديقه **يوسف الجندى** على أن يكون دوره من وراء حجاب حتى يمكنه التدخل للتهدئة فى حالة فشل الثورة.

وفى ٧ إبريل ١٩١٩ لعب اللورد اللنبى، المندوب السامى البريطانى الجديد، لعبته الكبرى لتصفية الثورة الوطنية الشاملة فأعلن أن النظام قد عاد إلى البلاد وأنه قد تم الإفراج عن **سعد زغلول** ورفاقه، وأنه لم يبق حجر على السفر ومبارحة البلاد، وهو الحجْر الذى منع الوفد من السفر إلى مؤتمر السلام بباريس لتقديم مطالب مصر الوطنية.

وفعل هذا الإعلان فعل السحر فى الجماهير التى اعتبرته انتصاراً كبيراً للثورة

مادامت السلطة التى اعتقلت سعداً قد اضطرت للإفراج عنه، وقد يكون ذلك تسكينا للثورة أو ترضية ومهادنة لها.

وفى زفتى لم تأخذ لجنتها الثورية الأمر بهذه البساطة ولم تهرول، كما هرولت المدن الأخرى، إلى فض المولد. وبدا وكأن اللجنة مصممة على استمرار الثورة فى زفتى والدفاع عن حدود «الدولة» الوليدة.

فى مواجهة هذا الموقف العنيد، لم تجد الحملة العسكرية الأسترالية مفراً من أن تشدد حصارها للمدينة، فاحتلت محلج رينهارت ومدرسة كشك عند أطراف المدينة، كما طالبت بتسليم عشرين مواطنا من المدينة لجلدهم جزاءً وتأديبا لهم على مشاركتهم فى الثورة.

وتلافيا لمواجهة دموية غير متكافئة مع القوة البريطانية الغاشمة، قبلت اللجنة الثورية بالحل السلمى بعد أن دبرت هروب **يوسف الجندى** إلى القاهرة، ثم سلمت عشرين فرداً من الوشاة والجبناء إلى الحملة العسكرية لجلدهم.

وهنا ظهر الدكتور **سيد شكرى** من جديد على رأس وفد من الأهالى يرافقه الضابط الوطنى **إسماعيل حمد**، وأقنعوا قائد الحملة لفك الحصار تمهيداً لعودة الأمور إلى نصابها.

ومن العجيب أنه رغم تصفية الثورة فى زفتى على هذا النحو وتلافى وقوع مجزرة جديدة على أيدى السلطة العسكرية البريطانية، فقد ظلت البلاغات البريطانية تنبه إلى «أن ميت غمر لاتزال مع زفتى وميت القرشى مركزاً للتمرد والفتن فى هذه المنطقة».

واتجهت شكوك السلطات العسكرية البريطانية إلى **الدكتور سيد شكرى**، وراحت هذه الشكوك تزيد يومًا بعد يوم بفعل الوشاة الذين ملئوا آذان السلطات ضده، وصوروه على أنه أخطر شخصية وطنية معادية لبريطانيا فى المنطقة.

وتصرفت السلطة العسكرية البريطانية تحت وطأة هذه الوشايات، فوجهت حملة مفاجئة لحصار قرية ميت يعيش؛ بلد د. **شكرى** وأسرته المعروفة بنفوذها، بحجة البحث عن السلاح والعتاد الذى قيل إن لجنة ثورية من شباب القرية تعمل تحت قيادة د. **شكرى** - تخفيه استعداداً للقيام بعمليات ضد القوات البريطانية.

وكعادتها فى مثل هذه الأحوال، هاجمت الحملة القرية فى الفجر، وأيقظت العمدة (الشيخ **إبراهيم حسين دحروج** الأخ الأكبر للدكتور **سيد شكرى**) ليرافق الجنود فى تفتيش بيوت القرية التى حددها الواشون. واحتال العمدة لتعطيلهم بأن عرض على قائد الحملة تقديم وجبة إفطار لأفراد القوة أولا ثم يقومون بعد ذلك بعملية التفتيش، وقبل قائد القوة دعوة العمدة للإفطار دون أن تداخله أى ريبة فى الأمر.

وبينما انشغل ضباط وأفراد الحملة بتناول الإفطار، سرّب العمدة النبأ إلى أعضاء اللجنة المحلية للثورة من مسلمين وأقباط، لإخفاء ما لديهم من أموال التبرعات ولنقل السلاح والعتاد إلى خارج القرية. وتم ذلك بالفعل عبر أسطح الدور ومنها إلى الغيطان الفسيحة من زمام القرية، فلما قامت قوة الحملة بالتفتيش لم تعثر على شىء يدين أهالى القرية ولم يقع فى أيديهم ما يشهد على صحة شكوكهم. ومع ذلك أصرت القوة على اعتقال عدد من شباب القرية وخاصة من هم من طلبة المدارس العليا المعطلة.(٦)

وحضر الدكتور **شكرى** من ميت غمر على متن موتوسيكل بعربة جانبية ليشهد المنظر الأخير لعمليات التفتيش وعلى وجهه ابتسامة ساخرة لم يكن يخفيها، وبادر بالحديث مع قائد الحملة مطالبا بحسن معاملة المعتقلين والسماح لهم باستخدام ركائبهم [illegible] ى ميت غمر وعدم تكبيلهم بأى نوع من السلاسل أو الحبال. ويبدو أن قائد الحملة استجاب لهذه المطالب تحت تأثير الحجج التى ساقها إليه الدكتور **شكرى** فى لغة إنجليزية ممتازة.

دروس مستفادة

لئن كانت تجربته الذاتية فى أيرلندة الثائرة على الاحتلال البريطانى، ثم فى طرابلس الغرب المكافحة ضد الغزو الطليانى قد غرست فى نفسه بذور الرؤية الوطنية التحررية التى تؤكد أن الطريق إلى الاستقلال يمر من فوهة بندقية، فإن تجربته فى ثورة ١٩١٩ كانت أعمق أثراً فى تكوين رؤيته السياسية، وفى تشكيل موقفه إزاء العمل الحزبى والأحزاب على الساحة المصرية.

كان دكتور **شكرى** يؤمن إيمانًا راسخًا بضرورة **الوحدة الوطنية كشرط لنجاح النضال الوطنى وتحقيق مطالب الأمة فى الاستقلال والحرية**، ولذا فقد أفزعه كثيراً أن يرى القوى السياسية فى البلاد تنقسم فيما بينها زمراً وجماعات وأحزاباً متناحرة؛ فالوفد، فى حياة **سعد زغلول** وبعده، يطرد عناصر وطنية ممتازة من صفوفه، وحزب الأمة القديم لا يقدر على تجاوز سنوات الثورة موحداً، فتخرج منه أحزاب انقسامية مثل الأحرار الدستوريين وغيرهم. . وحتى حزبه الأثير إلى قلبه؛ الحزب الوطنى، ينقسم إلى جماعات متناحرة، فتلك جماعة **أمين الرافعى** وتلك جماعة **الصوفانى** وتلك جماعة **رمضان**.

ومن خلال تأمله الحزين فى مختلف مظاهر هذه المأساة الوطنية، ازداد الدكتور **شكرى** اقتناعًا **بالاستقلالية فى العمل والفكر السياسى**، باعتبارها البديل الصحيح للتناحر والفرقة والتحيز والتحزب على حساب مصالح الوطن وطموحات الشعب.

والاستقلالية عند **دكتور شكرى** ليست هروباً من مسئوليات العمل السياسى، وإنما هى وسيلة لتجاوز الخلافات الفئوية والتحزبية، من أجل حماية مصالح الوطن والمواطنين، كما أن الاستقلالية عنده ليست عزلة أو انقطاعًا عن رجال السياسة المخلصين المرتبطين بهذه الأحزاب، فقد حرص الدكتور **شكرى** طوال حياته على الاحتفاظ بعلاقات وصداقات حميمة مع عديد من قادة الأحزاب والوزراء والشخصيات، ولم يدع لخلافاته السياسية معهم أن تفسد هذه العلاقات. وإن المرء ليعجب الآن لهذا العدد الكبير من الشخصيات المتباينة فى انتمائهم الحزبى، وهم يترددون ويتجمعون فى عزبته قرب ميت يعيش على مآدبه المشهورة، فكنت تجد عنده **يوسف الجندى وأحمد نجيب الهلالى ومحمود أبو النصر** من الوفد **وإسماعيل صدقى وحافظ عفيفى وشمس الدين عبدالغفار** من أحزاب الأقلية، ثم ذلك الرجل العظيم والفريد فى فكره ومواقفه **الفريق عزيز المصرى**.



الإصلاح الاجتماعى بديلا للثورة الاجتماعية

وقد ظل هذا النمط من الصداقة المجمعة لأطراف وشخصيات متناقضة، النمط الدائم فى حياته بما يتطلبه من قدرة على فرض التعامل الودى الحميم بين هذه الشخصيات التى طالما توزعت وتناحرت على المسرح السياسى والحزبى.

فى خدمة المجتمع المحلى

انتهت ثورة ١٩١٩ وغرق مسرح السياسة المصرية فى مستنقع من التناحر الحزبى المدمر للوحدة الوطنية، ووقعت البلاد فريسة للصراعات التى نشبت بين حزب الوفد وبين كتيبة من أحزاب الأقلية الطامعة فى الحكم والعاجزة عن تقديم الحلول لقضايا الوطن الأساسية. أما الحزب الوطنى فقد خسر قيادته التاريخية بوفاة **محمد فريد** فى المنفى، وتناحر رجال الصف الثانى فيه على قيادته فتفرقت كلمتهم وتكررت انقساماتهم.

ولم يكن الدكتور **شكرى** مستعداً للمشاركة فى ذلك العبث الحزبى أو أن يكون له أى دور فيه وكان مقتنعا بأن العمل السياسى فى مثل هذا المناخ الموبوء لا يفيد الوطن فى نيل حريته واستقلاله، ولا يفيد المواطنين فيما هم بحاجة إليه من تنمية الموارد وتوفير الخدمات والعيش الكريم.

وبدا الدكتور **شكرى** فى تلك المرحلة التى امتدت من العشرينيات وحتى منتصف الثلاثينيات، أكثر اقتناعاً وميلا إلى الانسحاب من الحياة العامة والسياسية فى **مستواها القومى**، مفضلا التركيز بكل طاقته على خدمة الجماهير الفقيرة والكادحة على **المستوى المحلى**. ولم يكن هذا المستوى المحلى عنده يتجاوز حدود مركزى ميت غمر وزفتى وما يتبعهما من قرى وكفور، كان أبرزها وأقربها إلى قلبه، قرية ميت يعيش وكفر يوسف رزق.

وينطلق مفهوم خدمة المجتمع المحلى عند الدكتور **شكرى** من إحساس صادق يمكن أن نسميه بالأبوية الخيّرة Benevolent Paternalism، وهو إحساس يجعل من صاحبه نبعًا للحب والحدب والعطاء نحو الآخرين، فيفيض عليهم بالخدمات والمساعدات، ولكنه يحرص على أن يحتفظ لنفسه بالكلمة الأخيرة فى اختيار هذه الخدمات، حتى وإن لم تأت على هوى المنتفع بها، كما يحتفظ لنفسه بحق متابعة أحوال المنتفعين ومحاسبتهم على ما يحققونه فى حياتهم من نجاح أو فشل بعد أن تلقوا هذه الخدمات.

والأبوة الخيّرة مكلفة لأصحابها لأنها تشكل عبئًا على مواردهم، ولكن يبدو أن الدكتور **شكرى** كان فى تلك الفترة، يحقق دخلا عاليا نسبيا من خلال ممارسته لمهنة الطب المجزية ومن حصيلة ريع الأراضى الزراعية التى تملكها، رغم أنها لم تكن ملكية واسعة، الأمر الذى مكنه من تحمل الأعباء المالية لممارسة الأبوية الخيرة.

واختار الدكتور **شكرى** عديداً من الخدمات التى رأى ضرورة توفيرها للمحتاجين الذين يلجئون إليه من أهالى ميت غمر وزفتى. ورغم التنوع الكبير فى تلك الخدمات فإنها كانت تندرج فى نهاية الأمر فى ثلاث: خدمات العلاج الطبى ـ خدمات التعليم ـ خدمات التشغيل والتوظيف.

ففى مجال العلاج الطبى، كانت عيادته فى زفتى تخصص جانبا كبيراً من نشاطها اليومى لعلاج فقراء المرضى ولإجراء العمليات الجراحية التى اشتهر بها الدكتور **شكرى**، فضلا عن صرف الدواء بالمجان من صيدلية ملحقة بالعيادة. ولسنا نعرف عملا خيّراً مشابهاً لذلك إلا عيادة الدكتور **محجوب ثابت** بحى السيدة زينب بالقاهرة، والذى كان ـ مثل الدكتور **شكرى**، عضواً بالحزب الوطنى فى فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى.

وفى مجال التعليم، اهتم الدكتور **شكرى** بتوفير فرص التعليم لكل طفل نابه فى أسرته وفى قريته. ولم يكن يسمع بأسرة فقدت عائلها حتى يسارع إلى توفير الضمانات باستمرار تعليم أبنائها، وخاصة الابن الأكبر، لكى يعين أسرته هذا إلى جانب تبرعاته الدورية «لكتاب» القرية، والسعى لإلحاق الصبية النابهين ممن حفظوا القرآن، بالمعاهد الأزهرية فى الزقازيق والقاهرة مع ضمان مخصص دائم لتمويل مراحل تعليمهم إذا أثبتوا جدارتهم لذلك. ووجد الدكتور **شكرى** فى مدرسة الإرسالية الأمريكية بقرية ميت يعيش فرصة سانحة لأبناء القرية لنيل الشهادة الابتدائية ثم التوظف أو مواصلة التعليم التجهيزى والعالى بالقاهرة. ولهذه المدرسة فضل كبير على كثيرين من أبناء ميت يعيش الذين نالوا الابتدائية منها ثم أكملوا تعليمهم العالى ليصبحوا من المهنيين المرموقين فى البلاد مثل المهندس **حسين بك حلمى دحروج**؛ الأخ الأكبر للدكتور **شكرى**، ومثل الدكتور العالم الكبير **عبد المعبود الجبيلى** أبرز علماء الذرة فى مصر، ومئات من كبار الموظفين ومتوسطيهم. ولسنا نعرف مثيلا لجهود الدكتور **شكرى** فى مجال تعليم النابهين من أبناء الفقراء إلا جهود **عبد العزيز باشا فهمى** لأبناء كفر المصيلحة بالمنوفية. ولكن جهود الدكتور **شكرى** لم تكن تتوقف عند حد إكمال المنتفعين لتعليمهم وإنما كانت تمتد بعد ذلك لمساعدتهم فى الحصول على الوظائف الملائمة.

ولعلنا لا نخرج على سياق هذا الموضوع إذا توقفنا لحظة هنا لنستعرض من خلالها موقف الدكتور **شكرى** من تعليم المرأة، وكيف ترجم ذلك إلى ممارسة عملية فى تربيته لبناته والتزامه برؤية ليبرالية واضحة فى فهم دور المرأة وتحديد مكانتها فى المجتمع. ولعل أفضل صيغة لوصف هذه الرؤية أنها كانت تجمع بين التمسك بالقيم الأصيله للأسرة وبين القبول العقلانى الرصين بما تفرضه المتغيرات الاجتماعية على حياة المرأة المصرية ومستقبلها، يضاف إلى ذلك أن الدكتور **شكرى** لم يتردد فى امتحان آرائه وأفكاره على الواقع، فتابع إلحاق بناته الثلاث (٧) بكافة مراحل التعليم الابتدائى والثانوى والجامعى. وكانت مثوبته على ذلك ما حققه فى حياته وتحت رعايته

من مستويات اجتماعية رفيعة ومكانة مرموقة فى الحياة العامة، حتى أصبحن نماذج مشرقة للمرأة المصرية الجديدة.

وانشغل الدكتور **شكرى** فى تلك المرحلة انشغالا كبيراً **بقضايا التنمية الزراعية** وتحديث مناهجها ووسائلها وعاونه فى ذلك صديقه **إبراهيم بك أبو حليقة** الذى طالما بهر أهالى قرى ميت غمر بتجاربه الزراعية الناجحة وإنتاجه من المحاصيل والفواكه الجديدة والنادرة. وقد نجح الدكتور **شكرى** بفضل تجاربه الزراعية فى إدخال فاكهة المانجو لأول مرة إلى مركز ميت غمر فضلا عما سجله من وسائل جديدة لتطوير طرق الوقاية ضد الآفات، وإنتاج سلالات جديدة من المحاصيل والفواكه.

لقد كانت تلك المرحلة بحق من أكثر مراحل حياته استقراراً وإنتاجاً، ومن أسخى الفترات عطاءً لخدمة المجتمع المحلى. ولاشك أن هذه الفترة كانت محصلة - وثمرة - لمجموعة من العوامل، أهمها عامل الاستقرار الأسرى؛ فقد كان الدكتور **شكرى** موفقًا فى زواجه عام ١٩١٥ بمصاهرة أسرة عارف العريقة التى انجبت نخبة من علماء مصر مثل الدكتور **حسين عارف**، عميد كلية الزراعة بجامعة القاهرة، وأخيه الأصغر **حسن عارف** المفكر التقدمى المعروف فى الأربعينيات.

وإذا أردنا أن نصف حياة الدكتور **شكرى** فى تلك الفترة، والتى امتدت من العشرينيات وحتى منتصف الثلاثينيات فإن أبلغ وصف لها أنها كانت فترة عشق خلالها المجتمع المحلى وتوفر فيها على خدمة الفقراء والفلاحين، وعكف على تطوير وسائل التنمية الزراعية وتحديثها. وتحت تأثير هذا العشق رفض الدكتور **شكرى** كثيراً من الإغراءات والدعوات التى تلقاها من أصدقائه الحزبيين للخروج من تلك «المحلية»، وقبول مناصب وزارية، كان يردها بلطف حفاظا على استقلالية السياسية أولا، وعلى راحة البال والحياة العائلية المستقرة.

ولكن ذلك لم يدم طويلا..

ففى منتصف الثلاثينيات اكتشف الدكتور **شكرى** أن مجتمع ميت غمر لم يعد يلائم متطلبات التعليم لأبنائه، وكان حتمًا عليه أن ينتقل بالأسرة إلى القاهرة لإلحاقهم بالمدارس اللائقة. وبانتقال الأسرة إلى القاهرة، قبل الدكتور **شكرى** العمل مديراً للقسم الطبى لهيئة السكك الحديدية تحت إلحاح صديقه **شاكر باشا**، رئيس الهيئة.

وهكذا بدأت مرحلة جديدة فى حياته تميزت بالخروج على «المحلية» التى طالما فرضها على نفسه، إلى «القومية والشمول» التى تفرضها الحياة فى القاهرة. وكان من أبرز آثار ذلك الانتقال أن عاد الدكتور **شكرى** إلى العمل السياسى من جديد دون أن يفقد استقلاليته.

ففى القاهرة توفرت للدكتور **شكرى** مساحة عريضة للرؤية ولمتابعة الحركة السياسية والحزبية فى مستواها الوطنى الشامل. ورغم حذره الشديد من أن يرتبط اسمه بأى حزب أو جماعة سياسية معينة، واحتفاظه بموقفه المستقل إزاء الأحزاب القائمة، فإن ذلك لم يقف حائلا بينه وبين أصدقائه الحزبيين من كل لون ودرب، الذين كانت تجمعه بهم تلك اللقاءات الحميمة والمنتظمة بنادى الجزيرة وحديقة «جروبى» وفى ڤيلته الأنيقة بشارع رشدان قرب ميدان المساحة (عبد المنعم) بالجيزه.

فمن خلال تلك اللقاءات، وماتجدد من الاتصالات بقدامى الرفاق من الحزب الوطنى وقدامى الأصدقاء من مختلف الانتماءات الحزبية، بدأ الدكتور **شكرى** يخرج من قوقعة «المحلية» ليوسع «اهتماماته» الاجتماعية خارج الحدود الضيقة لمركزى ميت غمر وزفتى، وليستشرف قضايا عامة وشاملة تبرز من بينها القضية الوطنية وقضايا الإصلاح الاجتماعى والتنمية الزراعية وخدمات الصحة للمواطنين.

ووقع الدكتور **شكرى فى القاهرة** تحت ضغوط كثيرة من جانب أصدقائه من الوزراء وقادة الأحزاب: الكل يريد اجتذابه إلى حظيرة حزبه. من الوفد، نشط **يوسف الجندى** المحامى الذى قاد ثورة زفتى، و**حسن نافع**، النائب الوفدى عن دائرة ميت يعيش وابن قرية دنديط (مركز ميت غمر) لإقناعه بالانضمام إلى حزب الوفد. وبالمثل كان **حافظ عفيفى** باشا، رفيق شبابه ومهنته، يحاول اجتذابه إلى حزب الأحرار الدستوريين ومنتدى الحزب فى جريدة السياسة التى يرأس تحريرها الدكتور **محمد حسين هيكل**، يعاونه صديقه **عبدالله عنان** ابن مركز ميت غمر (قرية بشلا)، والذى كان للدكتور **شكرى** الفضل فى تعيينه محرراً بمجلة السياسة (٨).

ولكن، رغم هذه الضغوط، ظل متمسكاً باستقلاليته وبموقعه الحر فى طرح آرائه السياسية حول قضايا الوطن ومعاناة المواطنين. وتأكد موقفه المستقل فى عام ١٩٣٨ عندما قرر خوض المعركة الانتخابية لمجلس النواب عن دائرة ميت يعيش كمرشح مستقل، وكانت هذه الدائرة يتبادلها الأستاذ **حسن نافع** عن الوفد منذ ١٩٢٤، والأستاذ **خليل محيى الدين** ابن قرية كفر شكر عن الأحرار الدستوريين، فلما علما برغبة الدكتور **شكرى**، بادرا إلى التنازل له وأعلنا انسحابهما، ونجح الدكتور **شكرى** المستقل بالتزكية.

ولكن عضويته بالمجلس لم تكن طويلة بالقدر الذى يسمح له بإبراز وطرح آرائه؛ فالحرب العالمية الثانية على الأبواب منذرة بأعمق التغيرات فى حياة الدكتور **شكرى** وفى حياة مصر والعالم أجمع.

شكرى والحرب العالمية الثانية

١٩٣٩ - ١٩٤٥

بإعلان الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر ١٩٣٩، أصبحت القوى السياسية فى مصر مطالبة بتحديد موقفها من أطراف الصراع؛ الحلفاء من ناحية، والفاشية الألمانية والإيطالية من ناحية أخرى (المحور).

كان الموقف الرسمى للحكومة المصرية موقفا تحدده معاهدة ١٩٣٦ التى لا فكاك من أحكامها.. صحيح أن مصر لم تكن طرفًا مباشراً فى الحرب، كما لم يكن لها فيها ناقة ولا جمل، ولكنها كانت مقيدة بالتزاماتها كحليف لبريطانيا العظمى، بحكم المادة (٧) من المعاهدة والتى تنص على أنه إذا اشتبك أحد الطرفين (مصر وبريطانيا) فى حرب فإن الطرف الآخر يقوم فى الحال بإنجاده بصفته حليفا، «وتنحصر معاونة صاحب الجلالة ملك مصر، فى حالة الحرب أو خطر الحرب الداهم، أو قيام حالة دولية مفاجئة يخشى خطرها، فى أن يقدم إلى صاحب



الإصلاح الاجتماعي بديلا للثورة الاجتماعية

الجلالة الملك والإمبراطور، داخل حدود الأراضى المصرية، ومع مراعاة النظام المصرى للإدارة والتشريع، جميع التسهيلات والمساعدة التى فى وسعه بما فى ذلك استخدام موانيه ومطاراته وطرق المواصلات، والحكومة المصرية ملزمة إلى جانب ذلك «بأن تتخذ جميع الإجراءات الإدارية والتشريعية بما فى ذلك إعلان الأحكام العرفية وإقامة رقابة واقية على الأنباء ولجعل هذه التسهيلات والمساعدة فعالة».

ورغم كل هذه الالتزامات والقيود التى تكبل مصر وحكومتها، ظل الإنجليز غير مطمئنين إلى قدرة حكومات الأقلية (٩) على تنفيذ التزامات مصر وفرضها على جماهير الشعب المصرى. وكان الحكم قد رسا أخيراً وبعد تجربة أكثر من وزارة ورئيس، عند وزارة **حسين سرى** الثانية والمشكلة من حزب الأحرار الدستوريين وحزب السعديين والحزب الوطنى ولحسم الأمر، اختار الإنجليز حزب الوفد ليؤلف وزارة جديدة باعتباره أكثر الأحزاب شعبيةً وقدرة على ضبط الجماهير أو خداعهم. وتم لهم ذلك بعد أن حاصرت دباباتهم قصر عابدين وهددت بعزل الملك **فاروق** ما لم يستدع **مصطفى النحاس باشا** لتشكيل الوزارة. وقد عرف هذا الحادث المشئوم باسم «حادث ٤ فبراير ١٩٤٢».

ولاشك أن هذا الحادث أوغر صدور قادة أحزاب الأقلية ورجال القصر وهز ولاءهم القديم لبريطانيا العظمى، فراحوا يتملون لها ولحلفائها الهزيمة، ودعا بعضهم بالنصر لدول المحور. ولم يكن هذا الوقت فى كثير من الحالات إلا تعبيراً انفعاليا على طريقة «عدو عدوى صديقى»!!

والسؤال الذى يهمنا هنا هو: **كيف كان موقف الدكتور شكرى من الحرب. ومن أطرافها؟**

الشيء المؤكد هو أن الدكتور **شكرى** كان يضمر عداء شديداً، لم يكن يخفيه، ضد الاحتلال البريطانى لمصر، ولم يحمل فى نفسه لبريطانيا إلا الدعاء لها بالهزيمة والخسران وهى تخوض غمار الحرب العالمية الثانية. ولكن عداءه لبريطانيا لم يحركه فى اتجاه التأييد لدول المحور الفاشية والتى لم تكن تقل طمعًا عن بريطانيا فى احتلال مصر وإذلال شعبها ونهب ثرواتها.

كان الدكتور **شكرى** يأمل أن تنهك الحرب كافة أطرافها من الدول الاستعمارية المتصارعة، فتتمكن مصر، وغيرها من المستعمرات، من تحرير إرادتها ونيل حريتها واستقلالها، ورغم هذا التفكير المنطقى، والسليم حقا، وجد الدكتور **شكرى** نفسه فى وضع لا يحسد عليه وسط الأحزاب السياسية؛ فموقفه المعادى لبريطانيا والحلفاء وضعه فى موقف التناقض مع حكومة الوفد المتعاونة مع الحلفاء والتى سخرت موارد البلاد المادية والبشرية لهم دون قيد أو شرط، كما وضعه فى مواجهة أحزاب الأقلية والجماعات الفاشية المحلية (مصر الفتاة - الإخوان المسلمين - جماعة القصر المنحازة إلى المحور) التى رحبت بالجيوش الألمانية الغازية لمصر من الصحراء الغربية، وناشدت **روميل** أن يتقدم ليحتل البلاد.

ولعل أصعب ما واجهه الدكتور **شكرى** فى هذا الموقف أن صديق عمره المناضل البطل **عزيز المصرى**، كان مندفعًا فى تأييده لدول المحور إلى الحد الذى لم يكن يرى ضيراً فى احتلالهم لمصر، متصوراً أن الألمان النازيين أكثر حباً لعيون مصر. وقد حاول **عزيز المصرى** بالفعل إجراء اتصال بالقيادة الألمانية فى الصحراء الغربية، ودبر مع مجموعة من شباب سلاح الطيران طائرة لتوصله إلى مقر قيادة **روميل**، ولكنها هبطت به اضطرارياً عند مدينة قليوب.. واختفى **عزيز المصرى** فترة عن عيون البوليس المصرى وعملاء بريطانيا وجواسيسها.

وكانت السلطات المصرية، والبريطانية أيضا، تضع ضمن الاحتمالات المتعلقة باختفاء **عزيز المصرى**، أن يكون قد لجأ إلى عزبة الدكتور **شكرى** القريبة من قرية «ميت يعيش»، ومن ثم فقد راحت هذه السلطات تتقصى الأمر حول هذا الاحتمال، فاتصلت بالدكتور **شكرى** ودياً لكى ينصح **عزيز المصرى** إن كان قد لجأ عنده، بتسليم نفسه أو على الأقل مغادرة العزبة حتى لا يوقع بين السلطة والدكتور **شكرى**. ولكن اتضح فيما بعد أن **عزيز المصرى** كان مختفيا عند صديق له بإمبابة كان يعمل أستاذاً بكلية الفنون الجميلة.

تابع الدكتور **شكرى** أنباء الحرب على جميع الجبهات باهتمام شديد ولم يكن الراديو يفارقه أينما ذهب.. وقد مكنه ذلك من مقارنة وتقييم الأنباء والدعايات التى يذيعها كل طرف من الأطراف المتحاربة.

ولما قاربت الحرب فى الجبهات الأوروبية على نهايتها وأصبح من المتوقع إنزال الهزيمة بالمحور، أخذ الشعور بالقلق على مصير مصر وشعبها يأخذ من الدكتور **شكرى** ويعذبه، تحسبا منه لما يمكن أن يحدث لها من قهر وإذلال على يد المنتصر وغطرسته.

ولعل أقسى ما كان يؤلمه حينذاك أن الحرب عطلت جهود مصر وشعبها لحل قضايا الوطن الأساسية، الوطنية والاقتصادية والاجتماعية. . وعلى أبناء مصر المخلصين اليوم أن يعوضوا ما ضاع من الوقت بسبب الحرب ومماطلة الحلفاء؛ فليس ثمة طريق آخر أمامهم إلا أن يبادروا - وقد قاربت الحرب على الانتهاء - إلى طرح قضاياهم وإعمال فكرهم لحلها، والتحرك الجماعى لكافة القوى الوطنية لتنفيذ هذه الحلول.. ولا مكان هنا اليوم للتحزب والتناحر الحزبى؛ فاليوم هو يوم **الوحدة الوطنية** ويوم الاتفاق على الأساسيات.

والسؤال الذى يطرح نفسه علينا هنا هو: كيف كان يفكر الدكتور **شكرى** فى هذه القضايا؟

لكى نكون موضوعيين فى الرد على هذا التساؤل، ينبغى أن نتذكر مجمل مواقفه السياسية السابقة، والخبرات التى اكتسبها من

خلال نضاله الوطنى وخدمة المجتمع المحلى، وهى المواقف والخبرات التى سيكون لها أعمق الأثر فى تشكيل فكره وهو مقبل على مواجهة قضايا الوطن الرئيسية فى أعقاب الحرب؛ ففى **القضية الوطنية** كان الدكتور **شكرى** يؤمن بالكفاح المسلح ضد بريطانيا لتحرير مصر، وأن ذلك يحتم وحدة القوى الوطنية وتحاشى الحزبية والتحزب فى مرحلة التحرر الوطنى. وفى **القضية الاقتصادية** لم ينشغل الدكتور **شكرى** كثيراً بقضايا التنمية فى حد ذاتها كما أنه لم يشارك أصدقاءه الاقتصاديين **طلعت حرب وحافظ عفيفى ومحمد عاشور**(١٠)، ممن تفرغوا للفكر والتخطيط الاقتصادى وإقامة المشاريع.. وكان اهتمامه الأكبر موجهاً، فكراً وعملاً، إلى المسألة الزراعية، لا من منظور قضية الملكية، وإنما من منظور البحث فى تطوير أساليب الزراعة وتحديثها وزيادة الإنتاج. أما فى **القضية الاجتماعية**، فقد كان الدكتور **شكرى** يؤمن بالإصلاح الاجتماعى Social Reform بمفهوم توفير الخدمات للمواطنين وخاصة من الفئات المطحونة اقتصاديا (العمال - الفلاحين - صغار الموظفين)، والمسئولية فى رأيه ينبغى أن تكون قسمة بين الحكومة وبين العمل الاختيارى Voluntary Action من الأهالى.

والدكتور **شكرى** فى كل هذه الآراء لم يكن منظراً أو ملتزماً بنظرية معينة من نظريات الفكر الاجتماعى، وتلك حقيقة مهمة ينبغى أن نتذكرها لا عندما نتناول محاولاته المتأخرة للتنظير فى بداية الخمسينيات.

بهذه المفاهيم الواضحة والمحددة، وهى عصارة خبرته الطويلة، راح الدكتور **شكرى** يطل على السنوات المقبلة بعد الحرب، ويحاول استشراف مستقبل مصر وشعبها وقضاياها الأساسية وطموحاتها التى طالما انتظرت تحقيقها.

فى الطريق إلى «جمعية الفلاح»

واجه الدكتور **شكرى**، وهو مقبل على تحديد موقفه من القضايا الأساسية للوطن، فى أعقاب الحرب، مجموعة من **المتغيرات والمستجدات** كان لها أعمق الأثر فى تشكيل فكره وفى صياغة مواقفه.

ويأتى فى مقدمة هذه المتغيرات والمستجدات، **اشتعال الصراع والتناحر الحزبى**، بعد أن كان قد خمد تماماً أو كاد، طوال سنوات الحرب أو لعدة سنوات منها. وكان من المتصور عند الكثيرين، وهو تصور تعلق به الدكتور **شكرى** نفسه، أن تعلو الأحزاب فوق خلافاتها وأن توحد صفوفها وهى تستعد لجولة مع بريطانيا، بالمفاوضة السلمية أو الكفاح المسلح، من أجل التحرر الوطنى.. ولكن شيئا من ذلك لم يتحقق، وتفجر الصراع الحزبى من جديد واتخذ أشكالا وأبعاداً لاعهد لنا بها من قبل. ولعب الملك ورجال القصر دوراً نشيطاً فى إشعال الصراع وفى بث روح ثأرية كريهة ضد حزب الوفد انتقاماً من «حادث ٤ فبراير» المشئوم. وسعى كل من يطمع فى أن تكون له حظوة عند الملك، بالوشاية ضد الوفد وضد صاحب كل رأى مستقل، وراح بعض الساسة الحزبيين يجهزون أنفسهم للاستيزار فى خدمة الملك وعلى حساب خدمة الوطن، بينما راح البعض الآخر يعرض نفسه وبضاعته لخدمة الإنجليز.

وعلى تناقض تام مع هذا التردى الحزبى، **تفجرت حركة الجماهير المطالبة بالجلاء والتحرر الوطنى**، معلنة رفضها لمشاريع الأحلاف الغربية. ونجحت الحركة فى تعطيل مؤامرات أحزاب الأقلية المؤيدة للأحلاف (**صدقى - بيفن**) وفضح المنافقين للقصر سراً وعلانية (الإخوان المسلمين).. وقد ظلت حركة الجماهير تضغط على حكومة الوفد التى تألفت فى ١٢ فبراير ١٩٥٠ حتى أجبرتها على إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وإعلان شرعية الكفاح المسلح ضد القواعد البريطانية فى مصر.

وإذا كان الدكتور **شكرى** قد رحب بحركة الجماهير، رغم اعتراضه على قيادتها من الشيوعيين واليسار، فإنه لم يسعده كثيراً أن يرى أصدقاءً له يشاركون فى الصراعات الحزبية أو يعملون لحساب القصر ويتجاوبون مع الرغبات الملكية، مثل **حافظ عفيفى** باشا الذى قبل منصب رئيس الديوان الملكى فى ٢٥ ديسمبر ١٩٥١، و**أحمد نجيب الهلالى** الذى وضع نفسه فى خدمة الملك ضد الوفد، فاتهمه الوفد بالانشقاق وقرر فصله فى ٧ نوفمبر ١٩٥١.

ولا شك أن المرارة والحزن قد ملآ صدر الدكتور **شكرى** وهو يسمع ضجيج التنابذ الحزبى يعلو على صوت العقل، وصوت الفرقة يعلو على دعوة التضامن والوحدة الوطنية.

وكان **ثانى المتغيرات والمستجدات، احتدام الصراع حول المسألة الزراعية فى مصر**، وهى مسألة أثيرة عند الدكتور **شكرى**. وربما كان هو من أوائل من شغلتهم هذه المسألة وسعى إلى إيجاد حلول لها، لا من منظور البعد الاجتماعى، وإنما من منظور الحاجة إلى تحديث الأساليب الزراعية وزيادة الإنتاج واستحداث سلالات جديدة فى الفواكه والمحاصيل.

والمعروف أن هذا الصراع الفكرى حول المسألة الزراعية يرجع إلى بداية عام ١٩٤٤ على وجه التحديد، واستمر مشتعلا خلال السنوات التالية حتى حسمته ثورة يوليو ١٩٥٢ بإصدارها قانون الإصلاح الزراعى.

صحيح أن المسألة الزراعية، لها بعدها ومضمونها السياسى، وأن الصراع الفكرى حولها كان ينطلق دائماً من منظور الصراع الطبقى فى ريف مصر، ولكن الجانب الأهم لهذه المسألة، فى رؤية الدكتور **شكرى**، كان الجانب الاقتصادى أو جانب الأداء الاقتصادى فى الميلاد.. فقد ثبت للجميع أن واقع الملكية الزراعية وأسلوب إدارتها المتخلف، أصبح قيداً على حركة التقدم الاقتصادى، وحجر عثرة فى طريق جهود تحسين الإنتاج وتطويره وزيادته.

ولم يكن من المتصور أن يقف الدكتور **شكرى** بمعزل عن الصراع حول المسألة الزراعية، وهى المسألة التى طالما انشغل بها نظريا وعمليا لسنوات طويلة، وسبق الكثيرين بما كان يبذله من جهود لتطوير أساليب الزراعة وتحديثها واستنبات سلالات زراعية جديدة فى عزبته المحدودة المساحة.

ولابد أنه تابع ذلك المسلسل من المشاريع والمقترحات والدعوات التى نبعت من مختلف الأحزاب والتنظيمات والجماعات والأفراد، حول **قضية الملكية الزراعية** أو العدالة الاجتماعية فى الريف، أو غير ذلك من المسميات التى راجت فى الفترة من ١٩٤٤ إلى ١٩٥٢.

الإصلاح الاجتماعى بديلا للثورة الاجتماعية



ويعتبر **مشروع الأستاذ محمد خطاب**؛ عضو مجلس الشيوخ السعدى، الذى قدمه إلى المجلس فى فبراير ١٩٤٤، **أول وأشهر مشاريع تحديد الملكية الزراعية**، وهو يقضى بوضع حد أعلى للملكية الزراعية لا يزيد عن (٥٠) فدانا، وقد أقرته لجنة الشئون الاجتماعية بمجلس الشيوخ بعد أن رفعت الحد الأقصى للملكية إلى (١٠٠) فدان. ويقول: المؤرخ الدكتور **عبد العظيم رمضان** (١١) ،إن البورجوازية المصرية الحاكمة أعلنت رفضها التام لأى تقييد للملكية كوسيلة من وسائل الإصلاح الزراعى، وتبدّى موقفها حين عرض **محمد خطاب** مشروعه على البرلمان؛ فقد ووجه بمعارضة شديدة من مجلس الشيوخ ومن الحكومة ومن الأحزاب ومن مفتى الديار المصرية. وانتهى مجلس الشيوخ بعد مناقشة عاصفة علت فيها الأصوات، وانقلبت إلى هدير، ثم تحول الهدير إلى زئير- إلى إحالة المشروع إلى لجنة لوأده. وقد قامت اللجنة بوأده فعلا حين قدمت تقريرها فى ٢٤ مارس ١٩٤٧ برفض المشروع.

وجاءت **المحاولة الثانية من ،جماعة النهضة القومية،** فى عام (١٢) ١٩٤٥، عندما أصدر **مريت غالى** باسم الجماعة، كتابه المشهور ،الإصلاح الزراعى، طالب فيه بوضع حد أقصى للملكية الزراعية لا يزيد على (١٠٠) فدان.

وفى عام ١٩٤٥ أيضا أصدر **صادق سعد**، من قادة الحركة الشيوعية المصرية كتابه ،مشكلة الفلاح، اقترح فيه أن يكون الحد الأقصى للملكية الزراعية (٥٠) فدانا، على أن تصادر الدولة ما يزيد على ذلك.

وفى العام نفسه ، **ظهر تيار جديد فى معالجة المسألة الزراعية**؛ تيار يرفض التحديد القانونى للملكية، ويقترح كبديل لذلك **فرض ضريبة تصاعدية** على الملكيات الزراعية كوسيلة مثلى لتحديدها، وكان يقود هذا التيار الدكتور **أحمد حسين**؛ الأستاذ بكلية زراعة القاهرة.. وقد عبّر عنه فى البحث الذى ألقاه ونشره حول الملكية الزراعية، وطالب فيه بفرض الضرائب التصاعدية على الملكيات الزراعية، بصورة تجعل امتلاك أو شراء ما يزيد على **مائة فدان** (مثلا) عملا غير مجد وغير مثمر. وقد وجد هذا التيار أنصاراً كثيرين: وخاصة من كبار الملاك الذين أفزعتهم فكرة تحديد الملكية بقوة القانون، وافزعتهم أكثر وأكثر دعوة الشيوعيين المصريين إلى مصادرة الأراضى الزراعية الزائدة على (٥٠) فدان للفرد. وكان **مصطفى نصرت** (١٣) الوزير الوفدى، من أبرز من أيدوا فكرة فرض الضرائب التصاعدية كأداة لتحديد الملكية.

وحمل الدكتور **أحمد حسين** أعلام هذا التيار معه إلى وزارة الشئون الاجتماعية عندما عين مديراً عاما لمصلحة الفلاح عام ١٩٤٦ ثم وكيلا للوزارة عام ١٩٤٨فإلى جانب المشروعات الخدمية التى خطط لتنفيذها فى الريف، وأشهرها مشروع المراكز الاجتماعية، جدد الدكتور **أحمد حسين** فى عام ١٩٤٨ اقتراحه بفرض ضريبة تصاعدية على الأطيان توازى، بعد حد معين، إجمالى دخل الأرض، وذلك حتى يتجه كبار الملاك بجزء من أموالهم نحو الاستثمار فى الصناعة والتجارة بدلا من الأراضى.

وكان آخر سهم اطلقه المصلحون لحل المسألة الزراعية، اقتراح النائب ،الاشتراكى، المهندس **إبراهيم شكرى** إلى مجلس النواب عام ١٩٥٠ بنقل ملكية مايزيد على (٥٠) فدان إلى الدولة مقابل سندات تستهلك على ٢٥ سنة بفائدة ٤ ٪.

وإذا عدنا إلى الدكتور **شكرى** سنجد أنه بروحه الاستقلالية الحرة لم يكن مستعداً لقبول أى من تلك المشاريع دون شروط؛ فهو وإن كان يتفق مع المنادين بمبدأ تقييد الملكية، فإنه يختلف معهم فى الوقت نفسه حول وسيلة التقييد وحول مصير الملكيات الزائدة وطريقة التعويض. والمعاصرون للدكتور **شكرى** فى تلك الفترة، والذين مارسوا الحوار معه حول المسألة الزراعية كقضية رائجة، يصورون موقفه حينذاك على النحو التالى:

١ - فى تقييد الملكية الزراعية:

يتفق الدكتور **شكرى** مع **مريت غالى** والدكتور **أحمد حسين** فى أن يكون الحد الأقصى للملكية الزراعية مائة فدان.. وهذا يعنى أنه يختلف مع **محمد خطاب وصادق سعد وإبراهيم شكرى** الذين حددوها بخمسين فداناً.

٢ - وسيلة التقييد:

لا يرفض الدكتور **شكرى** مبدأ الضريبة التصاعدية على النحو الذى اقترحه الدكتور **أحمد حسين** والوزير **مصطفى نصرت**، كما أنه لا يرفض تحديد الملكية بأداة تشريعية على طريقة **محمد خطاب وصادق سعد وإبراهيم شكرى**، ولكنه كان يفضل الجمع بين الوسيلتين بطريقة ما حتى لا يستثير الملاك الزراعيين.

٣ - مصير الملكيات الزائدة:

يؤيد الدكتور **شكرى** مبدأ تعويض أصحاب الأراضى عن أراضيهم الزائدة عن الحد الأقصى، ويرفض بشدة مبدأ المصادرة الذى طرحه الشيوعيون، كما يفضل أن يكون التعويض نقداً حتى ييسر للملاك تحويل استثماراتهم إلى الصناعة والتجارة.

نصل بعد ذلك إلى **ثالث المتغيرات والمستجدات** والتى تتصل هذه المرة بالروابط الأسرية للدكتور **سيد شكرى**؛ ففى عام ١٩٤٧ تمت مصاهرة بين الدكتور **أحمد حسين من عزيزة شكرى** كبرى بنات د ،**شكرى**، ؛ خريجة الجامعة الأمريكية بالقاهرة ومن النجوم الصاعدة فى سماء العمل الاجتماعى. وفى تقديرنا أن هذا اللقاء الاجتماعى - بالمصاهرة - بين الدكتور **شكرى** والدكتور **أحمد حسين**... هذا بخبرته ومكانته المرموقة، فى العمل الوطنى والتزامه بالاستقلالية وذلك بشبابه والوهج العلمى، الجامعى والوظيفى والرغبة الجامحة فى الإصلاح الاجتماعى... فى تقديرنا أن هذا اللقاء كان حدثاً مهماً ومؤثراً فى حركة الإصلاح الاجتماعى بمصر فى نهاية الأربعينيات.

فبفضل هذا اللقاء، وبما أحدثه من تبادل وحوار فكرى بين قطبين من أبرز المشتغلين بقضايا الوطن عامة وقضايا الإصلاح الاجتماعى خاصة، **تشكلت مسيرة جديدة من الفكر والدعوة فى مصر لم تلبث أن تطورت إلى تيار سياسى متميز يرى أن الإصلاح الاجتماعى، وخاصة فى الريف، هو البديل الوحيد لدرء مخاطر الثورة الاجتماعية والحد من تفاقم الاختمار الثورى الذى كان فى رأيهم يهدد البلاد بأوخم العواقب.**

واتخذ هذا التيار من «الفلاح» رمزاً وهدفاً لحركته، وأنشأ «**جمعية الفلاح**» المشهورة لتكون تنظيمـا وأداة له فى طرح أفكاره وعرض مشروعاته والتعبير عن طموحاته.

فما هى تلك الجمعية وما هى حقيقة رؤيتها وتنظيمها وموقعها على خريطة القوى السياسية فى مصر فى تلك الفترة؟ وما هى القوى الاجتماعية التى اعتبرت «الجمعية» حزبها، واعتبرت الدكتور **شكرى** والدكتور **أحمد حسين** اثنين من فرسانها وقادتها؟

«جمعية الفلاّح» موقعها على خريطة القوى السياسية

تشكلت «جمعية الفلاح» لتكون التنظيم الممثل والمعبر عن ذلك التيار الذى ظهر فى أعقاب الحرب العالمية الثانية على ساحة العمل السياسى فى مصر، والذى يرى أصحابه أن الإصلاح الاجتماعى، وخاصة فى الريف، هو السبيل الوحيد لدرء مخاطر الثورة الاجتماعية، وأنه كفيل بإجهاض الاختمار الثورى الذى راح - فى رأيهم - يهدد البلاد بأوخم العواقب. واتخذت الجمعية اسم الفلاح علماً عليها لأنه - كما تقول وثائقها - رمز المواطن المصرى.

واجتذبت الجمعية - بفضل تلك الرؤية الإصلاحية المحافظة - إلى عضويتها، كل نجوم الإصلاح والمصلحين تقريبا، من كافة الأحزاب القائمة، وشكلت منهم منتدى إصلاحيا يستحيل اتهامه بثورية اليسار، كما يستحيل ربطه بفاشية اليمين (الدينى أو العلمانى).

فمن صفوف حزب الوفد، اجتذبت الجمعية إلى جانب رئيسها الدكتور **أحمد حسين**، **أحمد أبو الفتح** والدكتور **محمد صلاح الدين**.

ومن صفوف أحزاب الأقلية (الأحرار الدستوريين والسعديين والحزب الوطنى) جاءها الدكتور **إبراهيم بيومى مدكور** والدكتور **عبد الجليل العمرى** والدكتور **نور الدين طراف** والوزير **حسين فهمى** والدكتور **عبد العزيز عبد الله سالم**.

ومن جمعية الرواد وحلقات المستقلين، جاءها الدكتور **عباس عمار** والدكتور **أحمد زكى** و**مريت غالى** و**مراد فهمى** والدكتور **سليمان حزين** والدكتور **محمد فؤاد جلال** و**حنا رزق** و**محمد عبد الواحد خلاف** و**السيد أبو النجا** و**أحمد الصاوى محمد** و**محمد زكى عبد القادر** و**يعقوب فام** و**أسماء فهمى** والدكتور **عبد المنعم الشافعى**. وهؤلاء فى الأغلب من أساتذة الجامعات والمهنيين والتكنوقراط.

وتتضح حقيقة هذا التجمع الإصلاحى من خلال برنامج محاضرات الجمعية ومناقشاتها خلال عام ١٩٥٢ - ١٩٥٣، الذى نورد صورته بالصفحة التالية:

أما من **الناحية التنظيمية**، فإن وثائق الجمعية لا تكاد تكشف عن رؤية جديدة يعتد بها، أو أية صورة من صور الإبداع فى صياغة لائحة النظام الأساسى للجمعية. ويبدو أن الدكتور **شكرى** والدكتور **أحمد حسين** قد اكتفيا باستخدام اللائحة النموذجية للجمعيات والتى يتم بمقتضاها تسجيل هذه الجمعيات فى وزارة الشئون الاجتماعية. الأمر الذى يقلل من قيمة لائحة النظام الأساسى لجمعية الفلاح كمصدر عن فكر الجمعية وسياساتها وخططها.

ففى صياغة تغلب عليها العمومية والإنشائية، تستعرض اللائحة، **أغراض الجمعية ووسائل تحقيقها**، فتقول إنها:

«جمعية إصلاحية اجتماعية غرضها الأساسى تحقيق قوة الوطن وخير المواطنين... والعمل على تحقيق العدل الاجتماعى فى البلاد حتى توفر العزة والكرامة للمواطنين جميعاً».

وواضح أن المصطلحات الواردة فى هذه الفقرة مثل قوة الوطن وخير المواطنين والعدل الاجتماعى، وهى مصطلحات كانت رائجة حينذاك، إنما تصف أموراً بالغة التجريد وسيفسرها كل مواطن حسب رؤيته الخاصة ويضفى عليها ما يعن له من مضمون يلائم أزمته وتفكيره ومصلحته.

وتزداد اللائحة إغراقاً فى العمومية والتجريد وهى تتناول فى المادة الثالثة موضوع **الوسائل التى ستستخدمها الجمعية لتحقيق أغراضها** فتقول:

«تسعى الجمعية إلى تحقيق أغراضها باتخاذ مختلف الوسائل التى تؤدى إلى تنمية روح العزة القومية والسمو الروحى والتمسك بالمثل العليا وتنمية الوعى الاجتماعى السليم - إذ لا يمكن أن تقوم نهضة الوطن إلا على أكتاف مواطنين صالحين مستنيرين يؤدى كل منهم واجبه بأمانة ويدافع عن حقه بشجاعة حتى يكون عضواً كريماً فى مجتمع كريم...»

وترسم اللائحة بعد ذلك الطريق أمام عضو الجمعية لممارسة جهوده من أجل تحقيق أغراض الجمعية، فتقول:

«الوسيلة الأولى التى يتخذها أعضاء الجمعية لتحقيق أغراضها هى أن يبدأ كل عضو بنفسه فيعطى القدوة العملية، ويساعد غيره فى بيئته ومحيطه ووطنه ليكون ذلك المواطن المستنير الكريم، وأن يعمل الجميع معاً على إقناع الرأى العام بفئاته المختلفة بأهمية تكوين المواطنين الصالحين وأهمية النهوض الاجتماعى الشامل، وأهمية التعاون فى هذا الشأن».

وتحدد اللائحة **أدوات العمل المتاحة للأعضاء** فى:

«بالاتصال الشخصى أو بالمحاضرات أو حلقات الدراسة أو المؤتمرات أو النشر فى الصحف أو إصدار الكتيبات والنشرات. وسواء أقامت الجمعية بذلك وحدها أو تعاونت مع غيرها من الهيئات الأهلية أو الحكومية التى تهدف إلى الأغراض نفسها».

وتعدد اللائحة بعد ذلك بعض مجالات العمل والنشاط لأعضائها فتؤكد على التربية الأساسية ودراسة حالة المجتمع دراسة علمية واقتراح البرامج والنظم والتشريعات والوسائل الأخرى التى تؤدى إلى النهوض بالأمة، فضلا عن مجال تربية الشباب من خلال المعسكرات والأندية والرحلات والرياضة

جمعية الفــــلاح

برنامج محاضرات الجمعيـــة ومناقشاتها

سنة ١٩٥٢ – ١٩٥٣.

١٤ديسمبر	جمعية الفلاح اهدافها ووسائلها	محاضرة لحضرة الدكتور احمد حسين
١٦ديسمبر	جمعية الفلاح اهدافها ووسائلها	مناقشة يديرها حضرة الدكتور احمد حسين
٢١ديسمبر	النهوض التعليمى	محاضرة لحضرة الاستاذ اسماعيل القبانى
٢٣ديسمبر	النهوض التعليمى	مناقشة يشترك فيها الاستاذ الدكتور محمد كامل حسين والاستاذين عبدالرحمن حمادة ومحمد عبد الواحد خلاف
٢٨ديسمبر	النهوض الاقتصادى	محاضرة لحضرة الاستاذ عبدالجليل العمرى
٣٠ديسمبر	النهوض الاقتصادى	مناقشة يديرها حضرة الاستاذ حسين فهمى
٤ ينـاير	النهوض الصحى	محاضرة لحضرة الدكتور نور الدين طراف
٦ ينـاير	النهوض الصحى	مناقشة يشترك فيها الدكاترة : سيد شكرى ، احمد محمد كمال ، محمد على بدر الدين
١١ينـاير	النهوض الاجتماعى	محاضرة لحضرة الاستاذ محمد فؤاد جلال
١٣ينـاير	النهوض الاجتماعى	مناقشة يديرها حضرة الاستاذ مراد فهمى
١٨ينـاير	الاصلاح الزراعى	محاضرة لحضرة الاستاذ عبد العزيز عبد الله سالم
١٠ينـاير	الاصلاح الزراعى	مناقشة يشترك فيها الدكاترة : القونى ، حسنى السعيد ، حسن داود
٢٥ينـاير	العدالة الاجتماعية	محاضرة لحضرة الدكتور عباس عمار
٢٧ينـاير	وسـائل التعريف بمبادئ الجمعية واهدافها	مناقشة يشترك فيها الاساتذة : السيد ابو النجا ، احمد الصاوى محمد ، حسين فهمى حسين
١ فبراير	المواطن الصالح	محاضرة لحضرة الدكتور ابراهيم بيومى مدكور
٣ فبراير	المواطن الصالح	مناقشة يشترك فيها حضرات الاساتذة : محمد زكى عبد القادر ، احمد ابوالفتح ، محمد حمزة
٨ فبراير	اثر الدين فى تكوين المواطن الصالح	محاضرة لفضيلة الاستاذ احمد حسن الباقورى
١٠فبراير	كيف يؤدى العضو واجبه فى الجمعيـة	مناقشة يشترك فيها الاساتذة : حنا رزق ، السيد البسيونى ، عبدالمنعم شوقى
١٥فبراير	جمعية الفلاح وحركة الشباب	محاضرة لحضرة الدكتور محمد صلاح الدين
١٧فبراير	جمعية الفلاح وحركة الشباب	مناقشة يشترك فيها الاستاذان على حافظ ويعقوب فام والدكتور على فؤاد
٢٢فبراير	دور المراة فى رسالة جمعية الفلاح	محاضرة لحضرة السيدة اسماء فهمى
٢٤فبراير	كيف تؤدى الجمعية واجبها فى المجتمع	مناقشة يشترك فيها الدكاترة : عبد العزيز سامى ، سليمان حزين ، عبد الفتاح الزيات
١ مارس	تنظيم الادارة الحكومية كوسيلة للاصلاح	محاضرة لحضرة الاستاذ مريت غالى
٢ مارس	الاداة الحكومية	مناقشة يديرها الدكتور عبد المنعم الشافعى
٨ مارس	الدراسة والبحث العلمى كاساس لبرامج الاصلاح	محاضرة لحضرة الدكتور احمد زكى

تلقى المحاضرات وتدار المناقشات الواردة فى هذا البرنامج بدار جمعية الفلاح ١٧ شارع طلعت حرب باشا (الشيخ ابوالسباع سابقا) فى الساعة السادسة من مساء يومى الاحد والثلاثاء اسبوعيا والدعوة عامة

«وكل ما يؤدى إلى تكوين جيل جديد سليم الجسم، سليم العقل سليم الروح».

والتزامًا بقانون الجمعيات، وكما ينبغى أن نتوقع، فإن المادة الرابعة من اللائحة تنص على أن الجمعية:

«لا تتدخل فى المنازعات الحزبية والخلافات الدينية الطائفية إيمانا منها بأن خدمة الوطن والذود عن حقوقه وعزته وأمنه هى الواجب الأول لكل المواطنين الصالحين وإن تباينت مبادئهم الحزبية أو عقائدهم الدينية».

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو: **ما هو موقع الجمعية على خريطة القوى السياسية فى مصر؟** وما هى سمات ومضمون الإطار السياسى والاجتماعى لنشوء الجمعية، وإلى أى مدى كان الدكتور **شكرى** على وعى بمفردات هذا الإطار ومعطياته؟

الحقيقة أنه بانتهاء الحرب العالمية الثانية فى أوروبا عام ١٩٤٥، تجدد العمل الوطنى فى مصر حول قضيتين أساسيتين: **أولهما** قضية التحرر الوطنى **وثانيهما** القضية الاجتماعية.

فى الأولى كان الشعب المصرى يتطلع إلى إجلاء قوات الاحتلال البريطانى وتحرير الإرادة الوطنية من كل قيد أو أحلاف وغير ذلك من المسميات. **وفى الثانية** كان المطلب الأساسى للشعب هو ضرورة إحداث التغيير فى العلاقات الاجتماعية من أجل إقرار العدالة الاجتماعية فى البلاد.

وكما نوهنا سابقًا، لم تكن الأحزاب المصرية متفقة ولا حتى على الحد الأدنى، بشأن أسلوب ومنهج العمل لتحقيق آمال الشعب فى هاتين القضيتين.. **ففى قضية التحرر الوطنى** كان قطاع من الأحزاب يؤمن بالأساليب السلمية ويفضلها، بينما قطاع آخر يؤمن بأن الاستعمار لن يحمل عصاه ويرحل إلا بقوة السلاح وحرب التحرير.. وفى قضية **العدالة الاجتماعية:** كان الشيوعيون وهم الأعلى صوتاً وضجيجاً، ومعهم فصائل أخرى من اليسار، يرون أن العدالة لن تستقر ما لم تنصهر فى أتون الصراع الطبقى وما لم تنصهر قوى العمال والفلاحين على غيرها من قوى المجتمع.. أما بقية الأحزاب فقد رفضت منطق العنف ونادت بالسلام الاجتماعى سبيلا لإقرار العدالة الاجتماعية.

وهكذا اختلفت (وربما اختلطت أيضا) رؤية الأحزاب حول قضايا التحرر الوطنى والعدالة الاجتماعية.. واتسعت دائرة الخلاف أحيانا كثيرة لتشمل أدق التفاصيل. وتفجرت دوائر الجدل والتنابذ حتى كادت أن تخفى جوهر القضايا وتفتح دروبًا جانبية وهامشية على حساب الجوهر.

كانت جميع الأحزاب، باستثناء الشيوعيين، تتحرك فى إطار القبول بالتفاوض السلمى مع بريطانيا، الدولة المستعمرة، كما كانت أغلبية هذه الأحزاب تقبل بالارتباط بالمعسكر الغربى بصيغة أو بأخرى من صيغ الأحلاف.. وانبهر بعضها بعملية الإحلال وتبادل الكراسى الموسيقية داخل المعكسر الإمبريالى والتى جعلت من أمريكا العرّاب الصاعد على حساب النفوذ البريطانى والفرنسى القديم. وبدأت بعض أحزاب الأقلية وبعض أجنحة حزب الوفد، تتنكر لروابطها القديمة ببريطانيا وفرنسا، وتقبل التعامل - والعمالة - مع أمريكا: ذلك القادم والواعد الجديد. وعلى الوجه الآخر من العملة راحت التنظيمات الشيوعية واليسارية تنادى بالانفتاح على الاتحاد السوفيتى ودول الكتلة الشرقية، وتطرح صيغة من صيغ الانحياز التام لها، أو صيغة مخففة تحت شعار الحياد أو التوازن فى العلاقات بين الكتلتين.

واختلفت الأحزاب أيضًا حول القضية الاجتماعية، فأحزاب الأقلية رفضت التغيير الاجتماعى والسعى إليه، أما الوفد فقد انقسم على نفسه بين جناحين: جناح رجعى محافظ يقوده **فؤاد سراج الدين**، وجناح تقدمى مستنير من شباب الحزب يقوده الدكتور **محمد مندور** والأستاذ **عزيز فهمى** والدكتور **عبد الرءوف أبو علم**. الجناح المحافظ يرفض التغيير ويعرقل المشاريع ذات المضمون الاجتماعى التقدمى مثل الإصلاح الزراعى وتحديد الملكية الزراعية وتطبيق تشريعات العمل على الفلاحين المعدمين.. أما الجناح التقدمى فإنه يقبل التغيير ويسعى إليه ويطوعه من أجل مزيد من المشاركة الشعبية فى الثروة القومية ونيل الكادحين نصيباً أكبر من الدخل القومى.

يبقى بعد ذلك الشيوعيون ومن يساندهم من فصائل اليسار؛ فقد تميزوا فى تلك الفترة بما يمارسونه من المراهقة الفكرية والتنظير المجرد والجهل بالواقع المصرى، الأمر الذى جعلهم فى معزل عن حركة الجماهير ونبضها وطموحاتها، إلا فى فترات محدودة ركبوا خلالها المد الشعبى التلقائى.

فى كنف هذا الإطار السياسى والاجتماعى المتشابك، ولدت «جمعية الفلاح»، وكان عليها أن تجد موقعها على خريطة العمل السياسى فى البلاد.

وكما ينبغى أن نتوقع، فإن ظهورها على المسرح أثار عديداً من التناقضات بينها وبين الأحزاب والتنظيمات السياسية النشيطة على الساحة، بما طرحته من أفكار ورؤى وحلول لعديد من القضايا الأساسية، وفى مقدمتها القضية الوطنية والقضية الاجتماعية.

ففى **القضية الوطنية**، لم تكن قيادة الجمعية ترى طريقًا أمامها غير طريق المفاوضات السلمية، ولكنها كانت فى الوقت نفسه تعلق آمالا كباراً على مساعدة الولايات المتحدة الأمريكية لمصر فى مفاوضاتها مع بريطانيا.. وكان قادة الجمعية وخاصة الدكتور **أحمد حسين** والدكتور **شكرى**، مقتنعين بضرورة استغلال التناقضات داخل المعسكر الغربى بين قوى الاستعمار القديم (بريطانيا وفرنسا) وبين الولايات المتحدة الأمريكية؛ ذلك القادم الجديد (لم يقبلوا أن يسموه بالاستعمار الجديد على طريقة الشيوعيين)، لصالح القضية الوطنية.

ويؤخذ على قادة الجمعية فى هذا الصدد تجاوزهم - أو تسامحهم - عن سوءات الموقف الأمريكى، وما كانت تطرحه الولايات المتحدة الأمريكية من مشاريع لإقامة احلاف عسكرية إمبريالية تنقص من استقلال مصر وحريتها، فضلا عما كانت تقدمه من مساعدات لإسرائيل ضد العرب. وجر هذا التجاوز على الجمعية كثيراً من هجوم الشيوعيين وفصائل اليسار المصرى، رغم أن موقف الجمعية هنا لم يكن يختلف كثيراً عن موقف أحزاب الأقلية والجناح المحافظ والمسيطر داخل حزب الوفد.

وفى **القضية الاجتماعية**، كانت قيادة الجمعية فى هم وقلق شديدين للمدى الذى بلغته حالة التردى فى الواقع

الإصلاح الاجتماعي بديلا للثورة الاجتماعية



الاجتماعي لمصر، ومدى تفاقم الجهل والفقر والمرض (بلغة العصر) وقصور الجهد عن إصلاح الحال، سواء في ذلك جهد الحكومة أو الجهد الأهلي الاختياري.. وكانت قيادة الجمعية ترى أن استمرار هذا التردي الاجتماعي وتفاقم مظاهره، كفيل بأن يدفع البلاد إلى ثورة دموية لايعرف مداها، ولاسبيل إلى درء خطر الثورة غير تنشيط حركة الإصلاح الاجتماعي وتقديم الخدمات والمشروعات العملية والتشريعات الاجتماعية، حتى نسد الباب في وجه عوامل الثورة ونخفف من حدة الاختمار الثوري وسط الجماهير.

والإصلاح الاجتماعي غير الثورة الاجتماعية؛ فالإصلاح كما تراه الجمعية لا يتطلب إحداث تغيير في علاقات الملكية بالمجتمع، وإنما يتطلب فقط تأكيد الوظيفة الاجتماعية للملكية وإشراكها بصورة عملية، وشبه ملزمة، في خدمة المجتمع وخدمة الفرد وتمويلها أساسًا عن طريق الضرائب التصاعدية، وحتى المسألة الزراعية يمكن حلها بالضرائب التصاعدية إلى الحد الذي يجعل ملكية الفرد لأكثر من مائة فدان أمراً دون ثمرة.. ولا شك أن الدكتور أحمد حسين نقل إلى الجمعية «نظريته»، في الضرائب التصاعدية الزراعية يمكن حلها بالضرائب التصاعدية كبديل لتحديد الملكية، كما نقل إليها ثقته في قدرة الملاك على إنشاء وتمويل «المراكز الاجتماعية الريفية»، وتوجيه خدماتها نحو مكافحة الجهل والفقر والمرض في القرية المصرية.

بهذه الرؤى والمواقف والأفكار، حددت «جمعية الفلاح» موقعها المتميز على خريطة، العمل السياسي والاجتماعي في مصر وجاءها مدد كبير من شخصية وجهود الدكتور شكري ومثابرته على حضور ندواتها والمشاركة فيما يجري بها وعلى منبرها من حوار لا ينتهي حول قضايا الساعة وقضايا الوطن. وكانت بعض عناصر اليسار المعادي للجمعية تتسلل إلى هذه الندوات التخريبها فيتصدى لهم الدكتور **شكري** بروحه المرحة وعناده في الحق، ثم هيبته، فينهزمون أمامه، وهم في عجب وإعجاب به. والصادقون منهم يعترفون دائما بأنهم إنما يواجهون فيه رائداً ومناضلا وطنيا، ومصلحاً اجتماعيا لايزال رغم كبر سنه، يفيض بحماس يفوق حماس الشباب، ويمتلك قدرة فائقة على الأحلام وعلى استشراف المستقبل بروح متفائلة رغم معرفته بالصعاب والمعوقات التي ستواجهه على الطريق.

كان اليساريون الذين يحاورونه يكنون له كل الاحترام والتقدير لأنهم لا يواجهون فيه سياسيا محترفًا يسعى إلى السلطة أو ينافق القصر كما يفعل الحزبيون، وإنما يواجهون فيه رجلا يحمل أفكاره المستقلة في كبرياء ويسعى لتوسيع دائرة الحوار من أجل الظفر بتأييد عريض من المثقفين الوطنيين.

لقد كان الدكتور **شكري** ديمقراطيا أكثر من كثيرين من أدعياء الديمقراطية، ووطنيا أكثر من أدعياء الوطنية، وكان رغم سنه حالماً رومانسيا يسعى لإقامة مجتمع مصري مبرأ من الجهل والفقر والمرض.

بعد رفض طويل للحزبية وللوزارة

عرفنا الدكتور **شكري** مجافيا للحزبية والتحزب، حريصًا على استقلاليته.. وكانت الأحداث ومعطيات الواقع الحزبي في مصر تزيده اقتناعًا بسلامة موقفه يوما بعد يوم، فما أضاعته الصراعات الحزبية من المصالح الوطنية خلال أربعين عاماً، وما جرته على البلاد من مآس، كان يفوق كل تصور.

كان في مقدور الدكتور **شكري**، ومعه الدكتور **أحمد حسين**، أن ينشئا حزباً سياسياً بدلا من تأليفهما لجمعية الفلاح، فالمساحة السياسية التي شغلتها الجمعية كانت أوسع بكثير من المساحات التي شغلتها أحزاب سياسية عديدة.

وإذا كان الدكتور **شكري** والدكتور **أحمد حسين** متفقين في رفض العمل الحزبي، وبالتالي رفض إنشاء «حزب» للفلاح بدلا من «جمعية» للفلاح، فإنهما كانا في واقع الأمر مختلفين في الأساس الفكري الذي انطلق منه كل منهما في رفضه لفكرة إنشاء الحزب.

فالدكتور **شكري** عندما يرفض فكرة إنشاء الحزب فإنه يفعل ذلك انطلاقا من **موقف مبدئي** أملته عليه خبرته الوطنية والسياسية منذ ثورة ١٩١٩، ولم يكن مستعداً بعد ثلاثين عامًا من الاستقلالية اللاحزبية أن يتقهقر بفكره ويتدنى بموقفه إلى مستوى الصيغة الحزبية التي طالما شهد آثارها المدمرة على القضية الوطنية والقضية الاجتماعية في مصر.

المنطلق عند الدكتور **شكري** إذن منطلق مبدئي، وهو في ذلك يختلف عن موقف الدكتور **أحمد حسين** الذي لا يمكن وصفه إلا بأنه **موقف تكتيكي بحت**، ففي حوار على صفحات مجلة «روز اليوسف» (١٤) يشيد الأستاذ **إحسان عبد القدوس** بالدكتور **أحمد حسين** قائلا إنه وجد فيه مثلا للوعي الوطني القائم على العلم، وطلب إليه أن يجمع حوله فريقًا كبيراً من الشبان المصريين الذين كفروا بالأحزاب، وأن تكون «جمعية الفلاح» حزباً لا جمعية.

ورد عليه الدكتور **أحمد حسين** بأنه يفضل ألا يحول جمعيته إلى حزب لثلاثة أسباب:

أولها: تمكين موظفي الحكومة والجامعات من الانضمام إلى الجمعية حيث تمنع القوانين انتماءهم إلى الأحزاب.

ثانيها: تلافي نشوب المعارك والصراعات بينه وبين الأحزاب الأخرى، منذ البداية.

ثالثها: تمكين أعضاء الأحزاب الأخرى من الانضمام إلى جمعيته.

ويعلق الكاتب **طارق البشري** (١٥) على ذلك بقوله:

«يظهر من هذا أن **جمعية الفلاح كانت نواة لتكوين حزبي** أراد صاحبها (د. **أحمد حسين**) أن يمكن لها أسباب النمو في نجوة عن الحياة الحزبية وأن يجذب إليها

من يستطيع استمالته من أعضاء الأحزاب الأخرى ومن الموظفين حتى إذا نجحت التجربة أمكن تحويلها إلى تنظيم حزبى سافر».

وبتجميد قضية «جمعية أم حزب» عند هذا الحد، بقيت أمام الدكتور **شكرى** والدكتور **أحمد حسين قضية الاستيزار** أو المشاركة فى وزارات ما بعد حريق القاهرة (١٦)، ويبدو أن الموقف التكتيكى الذى اتخذه **أحمد حسين** إزاء العمل الحزبى، واستعلاءه على فكرة إنشاء حزب يعمل ضمن بقية الأحزاب القائمة، قد قوّى من مكانته على المسرح السياسى المصرى حينذاك.. يضاف إلى ذلك بريق شخصيته وسمعته باعتباره أول وزير فى حكومة وفدية ينسحب من الوزارة احتجاجاً على استشراء الفساد فيها، ويحدث ضجة كبرى فى البلاد.. هذا فضلاً عن لمعانه كمصلح اجتماعى على قواعد علمية حديثة. (١٧)

فى أول الأمر، تلقى د. **أحمد حسين** من **على ماهر** باشا دعوة للاشتراك فى وزارته التى تألفت عقب الحريق فى ٢٧ يناير ١٩٥٢، وطلب إليه أن يعد برنامجا للإصلاح الاجتماعى تتبناه الوزارة. ورفض **أحمد حسين** هذا العرض عندما وجد أن **على ماهر** باشا غير مقتنع بمقترحاته الإصلاحية، والتى كان أشهرها اقتراحه بأن يعلن الملك تنازله عن أملاكه أو عن نصفها لصالح الشعب.

وجاء **الهلالى** باشا فى أعقاب **على ماهر** ليحاول إغراء الدكتور **أحمد حسين** بدخول وزارته الأولى التى ألفها فى أول مارس ١٩٥٢، وكان **الهلالى** على اتصال سابق به قبل استدعائه لتشكيل الوزارة؛ فقد جمعتهما ثورتهما على استشراء الفساد داخل الوفد وحكومته.. ويقول المؤرخ **طارق البشرى** (١٨) إنهما كانا متفقين على عدة أسس وهى: طرد رجال الحاشية الملكية، وعدم السماح بتدخل الملك فى اختيار الوزراء، وضم عناصر عرفت بالشجاعة، ثم أن يصدر الإنجليز إعلاناً بالجلاء من طرف واحد، ثم يجرى تطهير جميع الأحزاب.. فلما استدعى **الهلالى** بالفعل لتشكيل الوزارة، تخلى عن هذا الاتفاق وانزلق فى تيار خدمة القصر وتصفية الحسابات مع الوفد. وتوقع الدكتور **أحمد حسين** الفشل للوزارة وأعلن رفضه الاشتراك فيها.. وقد صدقت نبوءته تماماً حول فشل وزارة **الهلالى** وانحرافها.

بهذا أفلت الدكتور **أحمد حسين** من كمين الاستيزار الذى نصبه له **على ماهر** ثم **الهلالى**.

ولكن يبدو أن **الهلالى** لم ييأس من مواصلة الضغط والمساعى لتوريط قيادة جمعية الفلاح فى مخططه الوزارى، واعتبر نجاحه فى ذلك كسباً كبيراً له ولأى وزارة يشكلها؛ فالجمعية بقيادتها المخلصة لم يكن قد طالها شىء من الفساد وسوء السمعة المنتشرة حينذاك فى المؤسسات الحزبية، فضلا عن أنها كانت تحمل راية تيار «الإصلاح الاجتماعى» فى البلاد.

وإذا كان الدكتور **أحمد حسين** قد أفلت منه، فقد بقيت لدى **الهلالى** باشا فرصة أخرى سيجدها حتماً فى صديقه الدكتور **شكرى** الذى يفوق الدكتور **أحمد حسين** سمعة ووطنية واندفاعًا على طريق الإصلاح الاجتماعى. وجاءت الفرصة **للهلالى** بالفعل عندما عرض عليه الملك تشكيل الوزارة فى يوليو ١٩٥٢، ففاتح الدكتور **شكرى** فى الاشتراك فيها كوزير للصحة العمومية، فوافق.

وإن المؤرخ ليعجب عجبًا شديداً كيف ولماذا وافق الدكتور **شكرى** على الاشتراك فى وزارة **الهلالى**، بينما تؤكد كل المقدمات والمؤشرات أن رفضه أمر حتمى لا جدال فيه، خصوصاً وأنه كان معروفًا عنه عداؤه، وبصوت عالٍ، للملك **فاروق** وبطانته.

ولسنا نريد أن نقدم تبريراً لهذا القبول، ولكننا مطالبون بأن نكشف عن العوامل أو وسائل الإقناع التى لابد أن يكون **الهلالى** قدر استخدمها حتى حمل الدكتور **شكرى** على قبول الوزارة، وهو الذى رفضها أكثر من مرة طوال ثلاثين عاماً.

وما نسوقه هنا من تلك العوامل أو وسائل للإقناع بأن نكشف عن العوامل، أو وسائل الإقناع إنما نسوقها على سبيل الترجيح فقط، وهى:

١ ـ أن يكون **الهلالى** باشا قد استعان بالدكتور **حافظ عفيفى باشا**، رئيس الديوان الملكى، والصديق الدائم والحميم للدكتور **شكرى**، لإقناعه بالقبول.

٢ ـ أن يكون **الهلالى** باشا قد أقنع الدكتور **شكرى** بأن وزارته ليست حزبية وأنها ستركز على أمرين: تطهير البلاد والحياة العامة من الفساد، ثم الإصلاح الاجتماعى، الأمر الذى يتيح الفرصة للدكتور **شكرى** لتحقيق مشاريعه الاجتماعية الإصلاحية.

٣ ـ أن يكون **الهلالى** باشا قد أقنع الدكتور **شكرى** بما فشل أن يقنع به الدكتور **أحمد حسين**، فيما يتصل بطرد رجال الحاشية الملكية ووقف تدخل الملك فى اختيار الوزراء.

ومهما يكن من أمر هذه العوامل المرجحة، وسواء اقتنعنا نحن بها أو لم نقتنع، فإن الحقيقة التى لا مراء فيها هى أن كثيرين من أصدقاء الدكتور **شكرى** ومحبيه، فوجئوا بقبوله المشاركة فى وزارة **الهلالى** باشا التى شكلت فى ٢٢ يوليو ١٩٥٢، وسفره بالفعل إلى الإسكندرية للمشاركة فى مراسم تنصيب الوزارة وحلف اليمين الدستورية أمام ملك فاسد ومنحل، يعرف الجميع أن الدكتور **شكرى** يكرهه ويحتقره، وأشفق العارفون ببواطن الأمور داخل دهاليز القصر من أن يحتك الدكتور **شكرى** بهذا أو ذاك من عبيد القصر المستوزرين من أمثال **مرتضى المراغى**؛ وزير الداخلية، أو **زكى عبد المتعال**، الطاووس المختال.. ولكن خفف من قلقهم عليه أن الوزارة كانت تضم جماعة من أصدقائه الحميمين مثل **طراف على باشا**، وزير المواصلات، وراضى **أبو سيف راضى**، وزير الشئون الاجتماعية، و**مريت غالى** بك؛ وزير الشئون البلدية والقروية.

وفى الإسكندرية، اكتشف الدكتور **شكرى**، بالمشاهدة المباشرة، مدى عبودية وتزلف الوزراء للملك؛ فقد تركهم «جلالته» عدة ساعات منتظرين أن يستدعيهم لحلف اليمين، فلم يحتج منهم أحد على تلك المعاملة المهينة أما الدكتور **شكرى** فقد أوقف **مرتضى المراغى** الذى تكرر دخوله وخروجه على الملك، ليقول له فى حدة:

ـ هوه الواد بتاعك ده مش حا يستقبلنا بقه؟

ورد عليه **المراغى** قائلا:

الإصلاح الاجتماعي بديلا للثورة الاجتماعية



ـ دى مش طريقة للكلام عن مولانا الملك، فنهره الدكتور **شكرى** غاضبا:

ـ اسمع يا جدع انته. إذا سيدك لم يستقبلنا خلال خمس دقائق فإننى سأغادر هذا المكان دون رجعة.

وتدخل **الهلالى باشا** وآخرون لتهدئة الدكتور **شكرى** الذى نجح تهديده؛ فقد استقبلهم الملك على الفور.

وأحرج الدكتور **شكرى** الجميع مرة أخرى عندما شذ عنهم جميعا فلم يقبّل اليد الملكية الكريمة!

ويبدو أن القدر كان عطوفاً على الدكتور **شكرى** فلم يشأ له التورط فى العمل الوزارى بأكثر من حضور مراسم حلف اليمين؛ ففى صباح اليوم التالى ـ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ـ أعلنت الثورة وسقطت وزارة **الهلالى باشا** بكل ما حملته من أوزار رئيسها.

الدكتور شكرى وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

لم يُفاجأ الدكتور **شكرى** بقيام حركة الجيش فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وذلك فى رأينا، لسببين:

أولهما: أن جوهر تفكيره لفترة طويلة كان مؤسسًا على الاقتناع بأن الاختمار الثورى لدى الجماهير المصرية سيصل حتماً إلى حد الانفجار خصوصًا إذا فشلت حركة الإصلاح الاجتماعى فى خلق ظروف تؤجل هذا الانفجار أو تمنع حدوثه بالمرة. وكان الدكتور **شكرى** يراقب بأسى نمو الإحباط العام فى البلاد نتيجة لاستفحال الفساد فى القصر والأحزاب والحكومة، وعجزهم جميعاً عن إيجاد حل للقضية الوطنية والقضية الاجتماعية لشعبنا.

ثانيهما: وهو سبب نورده على سبيل الترجيح، وهو أن يكون صديقه الفريق **عزيز المصرى** قد أسر إليه بما كان لديه من معلومات عن تنظيم الضباط الأحرار وقرب قيام هذا التنظيم بانقلاب أو حركة لتطهير البلاد.. ويؤيد ذلك ما تردد فى أول أيام الثورة عن أن الدكتور **شكرى** كان يعرف **جمال عبد الناصر** شخصيا قبل الثورة، وأن **عبد الناصر** زاره فى بيته بصحبة **عزيز المصرى** لاستشارته أو استبصار رأيه فى بعض الأمور خاصة حول المسألة الزراعية .. وإذا كان الدكتور **شكرى** لم يفاجأ بحركة الجيش، فإنه أيضا لم يرهبها كما فعل كثيرون من الساسة الحزبيين، ولا نحسب أنه قد انتابه ذلك الخوف الذى ألمّ «بوزراء العهد البائد» تحسبًا من أن تدبر حركة الجيش تصفيتهم سياسيًا وتحميلهم وزر العهد البائد بكل سلبياته وجرائمه فالدكتور **شكرى** بكل المعايير، لم يكن ممن تنطبق عليهم مواصفات وزراء العهد البائد بأية صورة من الصور؛ فقد كان بالتأكيد ضمن الشخصيات الوطنية البارزة ذات السمعة الطيبة. وارتبط اسمه دائمًا بالدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى وبالجملة ضد فساد الحكم والعداء للمستعمر، فإن كانت حركة الجيش مخلصة فيما أعلنته من مبادئ وفيما أطلقته من شعارات، فليس ثمة ما يخشاه الدكتور **شكرى** منها، بل إن اللقاء بينه وبين قادة هذه الحركة يصبح أمراً حتميا.. يضاف إلى ذلك أن الدكتور **شكرى** لم يكن له أى مطمع فى السلطة أو فى شغل المناصب الوزارية فى ظل حركة «الجيش»، والأرجح أنه تنفس الصعداء يوم تحرر من أول وآخر منصب وزارى لم يشغله أكثر من ٤٨ ساعة.

هنا وقد شهد عاما ١٩٥٢ و١٩٥٣ من تلك المرحلة المبكرة من عمر الثورة، تقارباً وعلاقات طيبة بين قادة الثورة وبين قادة جمعية الفلاح وجمعية الرواد اللتين كانت العضوية فيهما مشتركة تمامًا أو تكاد تكون مشتركة.. ومن خلال هذا التقارب، قدمت جمعية الفلاح بالذات مجموعة من خيرة أعضائها لشغل مناصب وزارية فى ظل الثورة نذكر منهم: **مريت غالى**؛ وزير الشئون القروية، و**مراد فهمى**؛ وزير الأشغال العامة والدكتور **نورالدين طراف**؛ وزير الشئون البلدية فى وزارة **على ماهر**، ثم الدكتور **عباس عمار**؛ وزير الشئون الاجتماعية، و**وليم سليم حنا**؛ وزير الشئون البلدية والقروية، والدكتور **عبد الرزاق صدقى** وزير الزراعة فى وزارة **محمد نجيب** (ديسمبر ١٩٥٢).

كان أول لقاء حقيقى بين الدكتور **شكرى** وبين حركة الجيش من خلال المسألة الزراعية، عندما طرحت حركة قضية الإصلاح الزراعى على بساط البحث، وتعددت الآراء والاتجاهات حول تحديد الملكية، وبعثت الخلافات القديمة حول تقييد الملكية ووسيلة هذا التقييد ومصير الملكيات الزائدة، وكلها ـ كما نعرف ـ من القضايا التى شغلت فكر الدكتور **شكرى** وتابعها منذ أن قدم الأستاذ **محمد خطاب** مشروعه المشهور عام ١٩٤٤، حتى قيام حركة «الجيش عام ١٩٥٢».

والمعروف أن تحرك رجال الثورة حول المسألة الزراعية بدأ مبكراً عندما أوكل مجلس قيادة الثورة إلى **جمال سالم** متابعة إعداد مشروع قانون للإصلاح الزراعى بمساعدة الدكتور **راشد البراوى** والأستاذ **أحمد فؤاد**، ونجحت هذه اللجنة أو المجموعة فى إعداد الصيغة الأولى للمشروع فى زمن قياسى، ثم أحالته للمراجعة القانونية إلى الدكتور **عبد الرازق السنهورى** والأستاذ **سليمان حافظ**.. وبادر **السنهورى** إلى تشكيل لجنة فنية متخصصة ضم إليها عدداً من معاونيه لإعداد «مشروع القانون» فى صورته النهائية للعرض على رئيس الوزراء حينذاك؛ **على ماهر باشا**، فلما أنجزت اللجنة عملها، بعد عمل متواصل وسهر طويل، قام **السنهورى** بإحالة المشروع إلى رئيس الوزراء، متوقعًا إصداره بالسرعة المطلوبة والمتوقعة من جانب مجلس قيادة الثورة.

وفوجئ الجميع **بعلى ماهر باشا** يجمد المشروع فى مكتبه مجاملة للإقطاعيين وكبار الملاك الذين أثاروا عاصفة من النقد لفكرة الإصلاح الزراعى من أساسها.. ولمزيد من التسويف فجّر **على ماهر باشا** مسألة خلافية قديمة، وهى مسألة المفاضلة بين تحديد الملكية الزراعية عن طريق فرض ضريبة تصاعدية وبين تحديدها عن طريق وضع حد أقصى قانونى بأداة تشريعية.

ولمواجهة هذا التسويف شكلت قيادة الثورة «مؤتمراً» موسعا (بلغة العسكريين) برئاسة مجلس الوزراء، ضم **محمد نجيب** رئيس مجلس قيادة الثورة، و**جمال سالم** و**صلاح سالم**؛ عضويّ مجلس قيادة الثورة، و**بهى الدين بركات باشا**؛ عضو مجلس الوصاية ورئيسه **رشاد مهنا**، ثم الدكتور **عبد الرازق السنهورى** رئيس مجلس الدولة والدكتور **عبدالجليل العمرى**؛ وزير المالية.. وبعد مناقشات مستفيضة، تقرر بناءً على إصرار الدكتور **العمرى**، رفع الحد الأقصى للملكية الزراعية إلى مائتى فدان بحجة إضافة مائة فدان للأبناء. كما تقرر استبعاد فكرة الضريبة التصاعدية كأداة لتقييد الملكية الزراعية. وقد عرف حينذاك أن قيادة الثورة كانت على اتصال دائم بالدكتور **شكرى** ضمن مجموعة من الشخصيات المختارة، وقد ظهرت بالفعل بعض بصماته وأفكاره فى القانون ١٧٨ لسنة ١٩٥٢ للإصلاح الزراعى، خاصة الأحكام المتصلة بالتنمية الزراعية فى الظروف الجديدة.

ويتضح لنا من كل ذلك أن الدكتور **شكرى** قد قبل أخيراً بفكرة تقييد الملكية الزراعية بأداة تشريعية وبحد أقصى مائتا فدان، وهذا يعنى أنه تخلى عن فكرة الضريبة التصاعدية التى طالما تمسك بها من قبل.

ويبدو أن التشاور بينه وبين قادة الثورة لم ينقطع حول السياسات الزراعية المستقبلية، وإلا ما كان يقبل منصب رئيس الجمعية الملكية الزراعية عام ١٩٥٣ والتى خصصتها الثورة لكى تلعب دوراً رئيسيا ومهماً فى التنمية الزراعية وخدمات التقاوى المحسنة والتسميد والمعارض وتربية الخيول العربية وعشرات الخدمات الأخرى فى المجال الزراعى.

وكان اختيار الضيب الجراح لهذا المنصب الزراعى الخطير إنما يدل على ما بلغه الدكتور شكرى من العلم والخبرة، وما ناله من **ثقة الثورة وتقديرها** للرجال الوطنيين العظام من أمثاله. **وقد ظل الدكتور شكرى** يشغل هذا المنصب الخطير حتى قرب وفاته عام ١٩٦٩ حين آثر التقاعد والراحة بعد تلك المسيرة الطويلة والحافلة من حياته وما قدمه لقضايا مصر الوطنية والاجتماعية من إسهامات.

نحو ملتقى فكرى يحمل اسمه

انتقل الدكتور **شكرى** إلى جوار ربه فى منتصف عام ١٩٦٩ مخلفاً لنا سيرته العطرة كسجل مفتوح من الفكر والعمل الإنسانى الرفيع فى خدمة قضايا الشعب المصرى الأساسية وفى خدمة حركة الإصلاح الاجتماعى الذى هو من أبرز رواده وقادتها.

لقد كانت حياة الدكتور **شكرى** بحق معينا يتدفق بالقيم والمواقف التى لا تزال تحتفظ إلى الآن بمصداقيتها وبأريجها الزكى، رغم تتابع المتغيرات عليها، ورغم تبدل الظروف الموضوعية فى المجتمع المصرى. وسيجد السائرون على دربه والراغبون فى إحياء ذكراه، سجلا غنيا لهذه القيم والمواقف التى تصلح دروسا لتربية الأجيال، ومادة رفيعة المستوى للاحتفال بذكراه بين أهله وبين جماهير المواطنين فى كل مكان.

فمن ناحية، كان الدكتور **شكرى** متميزاً فى شبابه وفى دراسته وفى المهنة التى اختارها، عن بقية أبناء أسرته وجيله. ولكن ذلك لم يعزله عنهم، فقد اتخذ من مهنة الطب وإنسانياتها معبراً للعودة دائما إلى مجتمع قريته، والمجتمع المحلى لمركزى ميت غمر وزفتى، **ليضع علمه فى خدمة المجتمع** كما رأينا ذلك من خلال حياته المبكرة؛ فقد خصص عيادته وصيدليته فى زفتى وميت غمر لخدمة الجميع ودون مقابل فى أغلب الحالات، وهذا يعنى أن الدكتور **شكرى** لم يشأ أن يحمل شعاراً بأن العلم للمجتمع ثم يتركه معلقا فى الهواء؛ فالشعار عنده يستمد قيمته ومصداقيته من التطبيق. وبالمثل.. كان العلم عنده لخدمة الوطن، وتجربته فى البعثة الطبية خلال الحرب الإيطالية الطرابلسية، خير دليل على التزامه وصدقه.

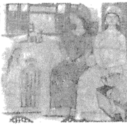
ومن ناحية ثانية، ومن خلال متابعتنا لمسلسل القيم والمواقف فى حياة الدكتور شكرى، يلفت نظرنا **موقفه الوطنى المعادى** للاستعمار، وهو الموقف الذى لم يتخلّ عنه فى أى يوم من أيام حياته، وبينما مال الهوى بكثيرين من أبناء جيله نحو مهادنة الاحتلال البريطانى والارتباط به، ظل الدكتور **شكرى** كالصخرة العتيدة، وطنيا حتى النخاع، ومعادياً صلباً للمستعمر الأجنبى.

ومن ناحية ثالثة، وانطلاقاً من عدائه الشديد للاستعمار، وحتمية الصدام معه، آمن الدكتور **شكرى بوحدة القوى الوطنية**، وضرورة هذه الوحدة كشرط أساسى للنجاح فى مواجهة الاستعمار ودحره. ومن هنا كان **رفضه للحزبية والتحزب فى مرحلة التحرر الوطنى**، والتزامه بنوع من الاستقلالية فى الرأى والعمل لم يتزحزح عنها طول حياته. والاستقلالية عند الدكتور شكرى لم تكن هروباً من مسئوليات العمل السياسى، كما لم تكن عزلة أو انقطاعاً عن أصدقائه الحزبيين وإنما كانت درعاً واقياً له ضد سلبيات التحزب والحزبية وآثارها المدمرة للوحدة الوطنية.

ومن ناحية رابعة، إذا كانت الثورية هى القبول بالتغيير والسعى لإحداثه، فإن الدكتور **شكرى** كان ثوريا إلى آخر المدى، حتى وإن اختلف مع كثيرين حول وسائل الثورة وإحداث التغيير؛ فقد كان مقتنعاً بأن الإصلاح الاجتماعى هو الأسلوب الأمثل لمكافحة الجهل والفقر والمرض، وأن المزيد من الخدمات هو الأسلوب الأمثل لتلافى تفجر الثورة الاجتماعية.

ومن هذا العرض لرؤيته وفكره ومواقفه، يمكننا أن نلخصها فى مجموعة من الشعارات والقناعات آمن بها الدكتور **شكرى** والتزم بها طوال حياته.. وتلك هى:

- العلم للمجتمع وللوطن.
- العداء للاستعمار ولامهادنة معه.
- وحدة القوى الوطنية فى مرحلة التحرر الوطنى.
- الاستقلالية فى الفكر والعمل الوطنى والسياسى دون أن تتحول إلى عزلة عن حركة المجتمع.
- القبول بالتغيير الاجتماعى والسعى إلى إحداثه من خلال مشاريع الإصلاح الاجتماعى، الحكومية والاختيارية، تلافياً لانفجار الاختمار الثورى المدمر.



الإصلاح الاجتماعي بديلا للثورة الاجتماعية

والسؤال الآن هو: **كيف السبيل إلى إحياء ذكرى الدكتور شكرى والتعريف بمجمل القيم والمواقف التى شكلت حياته وسيرته العطرة؟**

إن مسئولية الاجابة عن هذا السؤال إنما تقع أساساً على عاتق إبنائه، ثم على مريديه ومحبيه. وحبذا لو اجتمع بعض هؤلاء وهؤلاء حول فكرة محددة أو مقترح عملى لإحياء ذكراه سنوياً والتنبيه إلى القيمة التربوية العالية لسيرته.

ونحن من جانبنا، ونحن نختتم هذه الدراسة - نقترح تنظيم «ملتقى سنوى» يحمل اسم الدكتور **شكرى**، وينعقد فى قرية «ميت يعيش» أو فى عزبته القريبة منها، ويخصص فى الأساس لثلاثة أمور:

أولها: البحث النظرى فى الفكر الإصلاحى للدكتور **شكرى**.

ثانيها: دراسة وإقامة بعض المشاريع الخدمية لصالح المجتمع المحلى الذى أحبه.

ثالثها: إنشاء مؤسسة اجتماعية دائمة باسمه (مدرسة - مستوصف - مركز تدريب مهنى - مكتبة أطفال ... إلخ).

ولنا فى أبناء وشباب قرية شرباص قدوة «مثل طيب وهم يحتفلون سنويا بذكرى المهندس **أحمد الشرباصى**» وزير الأشغال السابق.

وإذا كانت الدراسة الحالية قد تأخرت بضع سنين، كما تأخر البحث فى أسلوب لتخليد ذكرى الدكتور **شكرى** والتنبيه إلى محتوى سيرته العطرة من القيم والمواقف، فإن الفرصة لاتزال سانحة لنعوض هذا التأخير ولنؤدى نحوه بعض ما فى أعناقنا له من فضل. ■

الهوامش

(١) جرت العادة فى كثير من المدارس المصرية طوال القرن ١٩ وبداية القرن العشرين، وبتأثير من الموروث الشعبى التركى، على إضافة أسماء تركية إلى اسم التلميذ مثل حشمت وشكرى وحلمى وصفوت وبهجت إلخ. وكان اسم شكرى من نصيب الفتى سيد حسين دحروج.

(٢) أنشأتها إحدى الإرساليات الأمريكية كأداة للدعوة البروتستانتية وسط الأقباط المصريين الأرثوذكس.

(٣) بعث د. سابا بهذا التقرير إلى سعد باشا زغلول بباريس فى ١٨ فبراير ١٩٢٣، ولكن سعد زغلول رفض استغلاله فى الدعايه ضد البريطانيين فى مؤتمر السلام.

(٤) بلغ عدد القتلى من أهالى القرية مائة قتيل حسب تقرير السلطة العسكرية البريطانية.

(٥) كان من ضمن المعتقلين على إبراهيم دحروج، والد المؤلف، وعمر حسين دحروج وحمدى الجبيلى وبطرس أفندى من قادة الأقباط بميت يعيش وكفر يوسف رزق.

(٦) السيدة عزيزه شكرى حرم د. أحمد حسين وزير الشئون الاجتماعية وسفير مصر فى أمريكا - السيدة عصمت شكرى حرم د. عبدالعزيز سامى عميد طب القاهرة الأسبق - الدكتوره ليلى شكرى، أستاذ الاجتماع بالجامعة الأمريكية وحرم د. أحمس الحماصى. وهناك من الذكور الدكتور الأستاذ محمد إكرام شكرى، الأستاذ بطب عين شمس.

(٧) جاء فى مذكرات عبد الله عنان (ثلثا قرن من الزمان - كتاب الهلال - يناير ١٩٨٨ ص ٦٢ - ٦٣) مايلى: «أعود بعد ذلك إلى موضوعى الأصلى، وهو اتصالى بجريدة السياسة، **وفضل صديقى المرحوم الدكتور سيد بك شكرى فى** عقد هذا الاتصال، وكانت تربط الدكتور صداقة متينة العرى بالمرحوم الدكتور حافظ عفيفى (باشا) زميله فى الدراسة بمصر وأوروبا، وكان يومئذ من أقطاب الأحرار الدستوريين، ويتولى إدارة «جريدة السياسة». وكانت «السياسة» تصدر يومئذ عن دارها الأولى فى شارع المبتديان، فقدمنى إليه الدكتور شكرى وأطنب فيما كنت أتمتع به من معارف ومزايا لغوية وتحريرية. ووافق الدكتور عفيفى فى الحال على أن يضمنى إلى تحرير «السياسة».

(٨) تشكلت خلال العامين والنصف الأولى من سنوات الحرب (سبتمبر ١٩٣٩ - فبراير ١٩٤٢) أربع وزارات من أحزاب الأقلية برئاسة على ماهر - حسين صبرى - حسين سرى - حسين سرى مكرر.

(٩) محمد عاشور بك من رجال مجموعة بنك مصر وكان يشغل منصب السكرتير العام لشركة المحلة الكبرى للغزل والنسيج، وهو من أبناء مركز ميت غمر (وهم عم الكاتب الدرامى الكبير نعمان عاشور رحمة الله عليه).

(١٠) - مجلة الكاتب - العدد ١٢٥ - أغسطس ١٩٧١ ص ٢٣ - ص ٢٤.

(١١) من أبرز رجال هذه الجماعة الصحفى محمد زكى عبد القادر ود. إبراهيم بيومى.

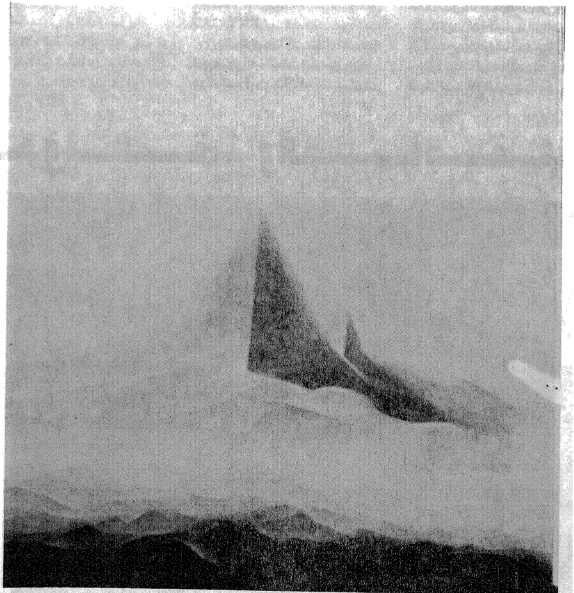
(١٢) كان وزيراً للزراعة من ١٩٤٢/٦/٢ إلى ١٩٤٤/١٠/٨ ثم وزيراً للتجارة والصناعة من يوليو ١٩٤٩ بوزارة حسين سرى الانتقالية، وأخيرا كان وزيراً للحربية والبحرية فى آخر وزارة وفدية من ١٩٥٠/١/١٢.

(١٣) روز اليوسف يومى ١٢، ١٩ مايو ١٩٥٢.

(١٤) طارق البشرى: الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥/ ١٩٥٢ ص ٥٧٠.

(١٥) نقصد بوزارات مابعد الحريق تلك الوزارات التى تشكلت فى الفترة من ٢٦ يناير ١٩٥٢ (تاريخ حريق القاهرة) و٢٣ يوليو ١٩٥٢ (تاريخ قيام حركة الجيش) وهى (وزارة على ماهر ١٩٥٢/١/٢٧ - ١٩٥٢/٣/١ - وزارة أحمد نجيب الهلالى ١٩٥٢/٣/١ - ١٩٥٢/٧/٢ وزارة حسين سرى ١٩٥٢/٧/٢ - ١٩٥٢/٧/٢٢ وزارة أحمد نجيب الهلالى ١٩٥٢/٧/٢٢ - ١٩٥٢/٧/٢٤).

(١٦) قبلت استقالته من حكومة الوفد فى أول أغسطس ١٩٥١ وخلفه فى وزارة الشئون الاجتماعية عبد اللطيف محمود باشا، وزير الزراعة.



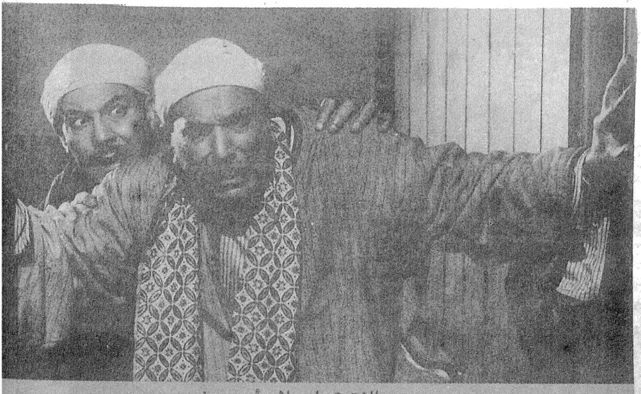
الدولة .. والحاجات

سيد البحراوي

تمثل دراسة الثقافة مدخلا مهمًا لمعرفة وضع مجتمع ما.. فبما أن الثقافة هى النسق الذى ينظم أفكار ومعتقدات وقيم ومشاعر أبناء هذا المجتمع فى لحظة تاريخية محددة، ويجسد نمط حياتهم، فإن معرفة هذا النسق يستطيع أن يكشف ملامح هذه اللحظة وخصائص هذا النمط.. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يجد تطور المجتمع أو تغيره صداه المباشر فى الثقافة، حتى قبل أن يحدث هذا التطور أو التغير، لأنه فى هذا المجال يحدث التمهيد الذهنى الضرورى كى يتقبل أبناء المجتمع هذا التغير أو يسهموا فيه، وذلك تبعاً لطبيعة العلاقة بين النظام الحاكم والشعب، ديكتاتورية أو ديموقراطية وتبعًا لطبيعة التغير ذاته ولمصلحة من من فئات المجتمع وطبقاته.

إن الدولة الحديثة، كى تمتلك مشروعية الهيمنة على بقية طبقات المجتمع، عليها أن تمتلك القدرة على معرفة الاحتياجات الحياتية لهذه الطبقات المختلفة، وأن تعمل على تحقيق قدر من هذه الاحتياجات، يحقق درجة من التوازن بين الطبقات ويضمن استمرار الهيمنة ذاتها. ولاشك أن الاحتياجات الثقافية هى من أهم هذه الاحتياجات، نظراً لأنها تمثل العقد الذهنى المشترك والمتفق عليه بين أبناء المجتمع، وعلى أساسه يتم التعامل بين جميع الأفراد وجميع الطبقات.

ولاشك أن معرفة الاحتياجات الثقافية لمجتمع ما، بتعدد فئاته وطبقاته وبيئاته، وتعقد المكونات الثقافية فى الحاضر وامتدادها فى الماضى، هو أمر أصعب كثيراً ربما من بقية الاحتياجات، الاقتصادية على سبيل المثال، لأن هذا التعرف لايمكن أن يتم بناءً على تقارير رقمية تصدرها الهيئات الرسمية، بل لابد له من معايشة حقيقية ومستمرة لمختلف الفئات لمتابعة التغيرات الدائمة التى تحدث لهذه الاحتياجات، ناهيك - بالطبع -



«الفتوة» لصلاح أبو سيف

الثقافية للمصريين

عن معرفة الأساسيات التى تمثل نسق القيم المستقر والثابت والممتد من أزمان إلى أخرى، هذا الذى يمكن أن يسمى بالهوية.. وهذا التعرف يحتاج إلى أن يكون شديد الدقة والوعى، كى يستطيع التمييز بين ما هو ضرورى وأصيل وثابت ولا يمكن الاستغناء عنه فى نسق القيم، وما هو عارض وزائل ويمكن تغييره، دون أن يصاب النسق بالانهيار الكامل.. ومثل هذا التعرف، هو الذى يستطيع، وحده، أن يسهم فى تحقيق الاحتياجات الثقافية للمجتمع، وتغييرها أو تطويرها، دون أن يهدم أساسه وهويته المميزة.

انطلاقاً من هذه الأسس، تسعى هذه الدارسة إلى محاولة فهم موقف الدولة المصرية، إزاء الاحتياجات الثقافية لفقراء المصريين الذين نعرف أنهم يشكلون الأغلبية الساحقة فى المجتمع المصرى، ويقدّرون بنحو ٨٤٪ من مجمل السكان (رشدى سعيد، الهلال، يناير ١٩٩٥).. وهؤلاء يمتدون فى ربوع الوطن ريفه وحضره، جنوبه وشماله، وتتحكم الدولة فى «أكل عيشهم» سواء بالأجور (العمال والموظفون) أو بالسياسات الزراعية (الفلاحون)، ولذلك فهم أكثر الفئات الاجتماعية التزاماً بدفع الضرائب، لأنها تقتطع منهم إجباراً من قبل الدولة.. ولذلك، فإننا حين نستخدم مصطلح الاحتياجات الثقافية، نستخدمه بالمعنى الواسع، الذى لا يشمل فقط عناصر الثقافة المعروفة تقليدياً «أى الإبداع الفنى والأدبى والفكرى»، بل يتضمن كثيراً من العناصر التى يدرجها علماء الاجتماع تحت مصطلح «شغل أوقات الفراغ»، ويدخل فيها دور الإعلام والتعليم والمؤسسات الدينية والرياضية»؛ فنحن نتجنب استخدام مصطلح الخدمات الثقافية التى تستخدمه أجهزة الدولة، لأن هذه الأنشطة ليست خدمات تقدمها الدولة للفقراء، بل هى مدفوعة مسبقاً من خلال الضرائب، ولذلك فإن تلبيتها، ليس ضرورياً فقط لاستمرار هيمنة الدولة كما سبق القول، بل لأنها حقوق مدفوعة مسبقاً، وعدم تلبيتها يمثل حرماناً من هذا الحق، أقرب إلى السرقة.(١)

وسوف تعتمد الدراسة على الرصد الرقمى كلما توفرت الأرقام ثم استنتاج دلالاتها الأساسية فى موضوع الدراسة، مع الاستعانة بالقراءة النوعية لطبيعة الأنشطة الثقافية من خلال الخبرة المباشرة، وتنتهى إلى نوع من الاستشراف لمستقبل الوضع الثقافى فى ظل التطورات الحالية للمجتمع المصرى والعالم.

\- ١ -

تشير إحصائيات وزارة التخطيط، إلى أن إجمالى الإنفاق العام لقطاع الثقافة، أى للوزارة والأجهزة التابعة لها للعام ١٩٩٢ / ١٩٩٣، قد بلغ ٥٤٥٫٩ مليون جنيه



«شىء من الخوف» لحسين كمال

مصرى.. وبمقارنة هذا المبلغ بإجمالى الإنفاق العام فى الموازنة العامة للدولة لنفس العام (٩٢/٩٣) وهو ٦٢٥٣٣ مليون جنيه مصرى (٢)، يتضح أن النسبة هى ٠ر٠٨٧٪، ويكون نصيب الفرد (٣) من هذه الخطة هو ٤٧ر٩ جنيه مصرى.. وهذه الأرقام تشير بوضوح إلى تضاؤل نصيب الثقافة فى الموازنة العامة للدولة، على نحو مخجل، خاصة إذا أدركنا أن نصيب الفرد فى هذه الموازنة لا يذهب إليه دون مقابل، بل هو مدفوع مقدمًا من خلال الضرائب، من ناحية، وأنه يعود ليشترى السلع والمنتجات التى تنتجها الوزارة بهذه المبالغ.. وعلى سبيل التوضيح، فإن نصيب الفرد من إنفاق الهيئة المصرية العامة للكتاب (وهى ٤٨٦ر٢٤ مليون) (٤) والذى يقدر بـ ٤٢ قرشًا، لا يقدم للفرد كهدية، وإنما ينفق فى عمليات إنتاج كتب تباع للجمهور مرة أخرى، بحيث تدر ربحاً على الهيئة (قدر فى عام ١٩٩٥ بمليون ونصف مليون جنيه).. وهذا الوضع نفسه ينطبق على معظم منتجات وزارة الثقافة، فيما عدا بعض أنشطة هيئة قصور الثقافة الجماهيرية وبعض صناديق الخدمات وأنشطة المركز القومى للفنون التشكيلية.. وفى المقابل هناك أنشطة ثقافية ينتجها القطاع الخاص ولا تنفق عليها وزارة الثقافة، مثل الإنتاج السينمائى على سبيل المثال. وعلى هذا الأساس، فإننا لو قدرنا الحد الأدنى من احتياجات المواطن من أنشطة وزارة الثقافة فى حدود صحيفة يومية ومجلة أسبوعية ومجلة شهرية وفيلم أو مسرحية أو عرض موسيقى فى الأسبوع، وكتاب واحد فى الشهر لكان المتوسط (بأسعار ٩١/ ٩٢) حوالى ٣٥ جنيه فى الشهر.. وهذا الرقم إذا قارناه بمتوسط أجر العامل فى العام نفسه وهو ٢٤٦٣ر٨ سنويا، (٥) لأصبح ما ينبغى على المواطن إنفاقه فى سبيل الحصول على هذه الاحتياجات يساوى ١٧٪ من دخله السنوى، وهو طبعًا الأمر المستحيل فى ظل الاحتياجات الحياتية الأكثر إلحاحًا وضرورةً لمجرد الاستمرار فى الحياة. وإذا راعينا متوسط الأجر السنوى العام فى القطاعات الفقيرة من السكان، لأدركنا أن الوضع أسوأ بكثير، حيث يقدر نفس المصدر متوسط أجر العاملين فى مجال الخدمات الاجتماعية

الدولة والحاجات الثقافية

والشخصية بـ ١٨٥٤ جنيه سنوياً، وللعاملين فى مجال الزراعة ١١٣٠ جنيه سنوياً (٦)، ناهيك طبعًا عن العاطلين عن العمل الذين يُقدرون بحوالى ١٤٪ من القادرين على العمل، وذلك فى عام ١٩٨٦. والنتيجة الأساسية، هى أن الثقافة سلعة مرتفعة الثمن لا يقدر على شرائها معظم المصريين، وخاصة الطبقات الواسعة الفقيرة، رغم أنهم ممولوها الأساسيون.

وننتقل الآن من الموقف العام إلى قدر من التخصيص ونبحث عمن تصلهم أنشطة وزارة الثقافة، التى تتوزع طبقًا للكتاب السنوى للإحصاءات الثقافية الصادر عن وزارة الثقافة على النحو التالى:

البيت الفنى للمسرح، البيت الفنى للفنون الشعبية والاستعراضية، المركز القومى للفنون التشكيلية، المركز القومى للسينما، المركز القومى لثقافة الطفل، المركز القومى للمسرح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الهيئة العامة لقصور الثقافة الجماهيرية، وغيرها من المراكز والهيئات والإدارات غير الموجهة للجمهور الواسع بصفة أساسية.

وبمتابعة أنشطة هذه الهيئات نلاحظ ما يلى:

١ - أن إجمالى عدد المستفيدين من البيت الفنى للمسرح، على سبيل المثال، هو ١٣٢٠٥٢ رائدًا (جدول رقم (١))، والمستفيدون من نشاط البيت الفنى للفنون الشعبية هو ٤١٢٥٨٥ رائدًا (جدول رقم (٢) ومن دار الكتب وفروعها (جدول رقم (٣)) هو ١٩٢١٨٥ قارئًا.. أما مجمل الكتب الصادرة عن الهيئة العامة للكتاب فهو ١١٥٤٢٠٠ نسخة، ينال الفرد منها ٠٢ر من الكتاب (٨).

٢ - وفى المقابل نجد أرقامًا أعلى بكثير للمستفيدين من نشاط هيئة قصور الثقافة الجماهيرية.. فإذا كان عدد مسارح القطاع العام مثلا ١٦ مسرحًا، فإن الهيئة تمتد إلى مسارح قصور وبيوت الثقافة التى تصل إلى ٢٥٢ قصرًا وبيتًا (جدول رقم (٥)).. ورغم أنه لاينبغى التعويل على النسبة الكبرى من هذا الرقم أى البيوت التى تخلو فى الغالب من المسرح أو السينما وغيرهما من الأنشطة (ورقم البيوت ٢٥٣ بيتًا فى مقابل ٣٩ قصرًا فقط، تتركز فى عواصم المحافظات والمدن الكبرى كما سنرى).. رغم ذلك فإن أرقام المستفيدين أعلى بكثير من المستفيدين من نشاط البيوت والمراكز والهيئات الأخرى.. فالمستفيدون من المسرح مثلا ٤١٨٢٢١ مشاهدًا ومن رواد السينما ٩٢٥٩٣٧ مشاهدًا.. وفى حين يقل المستفيدون من نشاط مثل الحرف البيئية ليصل إلى ٢١٣٦٨ شخصًا (جدول رقم (٦))، نجد أنه يرتفع بشدة مع المستفيدين من نشاط المكتبات ليصل إلى ١١٦٣٠٠١ مترددًا (جدول رقم (٨)) وذلك نظرا لأن المكتبات هى النشاط الوحيد - فى الغالب - الذى يوجد فى البيوت، بينما تقتصر معظم الأنشطة الأخرى على القصور.. وهذا النشاط يعتبر أكثر أنشطة الهيئة، بل وزارة الثقافة عامة، انتشارًا.

٣ - ومع ذلك - فإن هذا الانتشار إذا قيس إجماله إلى عدد المواطنين، يصبح انتشارا محدودا.. فإذا أجملنا المستفيدين من كل أنشطة هيئة قصور الثقافة، ودون اعتبار أن الشخص الواحد يمكن أن يستفيد من أكثر من نشاط من هذه الأنشطة وهذا هو المؤكد، لوصلنا إلى رقم ٧٤٠٢٧٣٠ مواطنًا - وهو يعنى أنه لا يمثل سوى ١٢,٨٪ من مجمل المواطنين.

٤ - فإذا انتقلنا خطوة أبعد للتعرف على هذا الرقم الأخير بالتفصيل، ولنعرف من هم المواطنون الذين يمثلون هذه النسبة، لوجدنا، من خلال إعادة قراءة ذات الجداول (بغض النظر عن مدى دقتها أو صدقها)، أن معظم الأنشطة الثقافية مركزة أساسًا فى مدينة

القاهرة، تليها عواصم المحافظات وعلى رأسها الجيزة والإسكندرية، ثم أولوية فى كثير من الأحيان لمحافظات الوجه البحرى على محافظات الصعيد.. تلى ذلك أهمية لبعض المراكز ببعض المحافظات، وحيث توجد بيوت الثقافة، أما القرى فنادرا مايصلها نشاط ثقافى ويستثنى من ذلك بعض القرى الكبيرة التى توجد بها بيوت ثقافة أو يزورها قافلة من القوافل الثقافية على فترات شديدة التباعد.

فعلى سبيل المثال، يكشف الجدول رقم (١)، أن عدد المسارح التابعة للبيت الفنى للمسرح، بالقاهرة هو ١٢ (٩) من جملة ١٦، بنسبة ٧٥٪، بلغ نصيبها من الحفلات ٩٥٪ ومن عدد الرواد نسبة ٩٢و٧٪، فى حين أن أربع مدن أخرى قد حظيت بمسرحين (الإسكندرية) أو مسرح واحد، لم يقدم بعضها (الإسماعيلية) سوى حفلة واحدة فى العام، لايذكر الجدول رقما لعدد روادها؟

وتتفق مع هذه النتائج، أرقام الجدول رقم (٢) الخاص بنشاط البيت الفنى للفنون الشعبية والاستعراضية، رغم أنه نشاط متنقل - ويمكنه أن يستفيد من مسارح قصور الثقافة أو دور السينما أو حتى مسارح الأفراح أو الملاعب أو مراكز الشباب.. إلخ.. كذلك تتفق نتائج معارض ومبيعات كتب هيئة الكتاب - حيث تحتل القاهرة ١٤ فرعاً ومركز بيع للكتب، بنسبة ٥٦٪، يمثل إيرادها نسبة ٦١,٦٪ من جملة مبيعات الهيئة فى الدولة كلها.. أما دار الكتب، فإن الجدول لا يذكر سوى فروعها فى القاهرة دون فروعها فى المحافظات وهى محدودة جداً بالطبع.

ويكشف الجدول رقم (١) المستخلص من نتائج تقرير التنمية البشرية عن فداحة أكبر فى المقارنة بين ما تحصل عليه القاهرة، وبقية المحافظات، وبين ما يحصل عليه الحضر، وما يحصل عليه الريف عامة.. ففى حين يصل عدد المترددين على السينما سنويا لكل ألف فى القاهرة إلى ١٨٥٩ وعلى المسرح ٥٢ وعلى المتاحف ٣٦٤، نجد أن محافظتين كاملتين تخلوان تماماً من هؤلاء المترددين وهى محافظتا جنوب سيناء، والوادى الجديد، وخمس محافظات تخلو تماماً من رواد السينما والمسرح وهى محافظات الحدود وكل المحافظات غير الحضرية تخلو من رواد المسرح.. وينطبق الأمر نفسه على عدد الكتب بالمكتبات فهى فى القاهرة ٤٣٩ كتاباً لكل ألف قارئ و٩١ للوجه البحرى و١٤٠ للوجه القبلى و١٨٧ لمحافظات الحدود.

أما المقارنة بين الريف والحضر فتكشف نفس الشئ وإن لم تكن الأرقام كافية فى الجدول، وهذا يتضح من المقارنة بين المحافظات الحضرية ومحافظات الحدود، فستجد أنهما على طرفى نقيض وبينهما محافظات الوجه البحرى والوجه القبلى.

(٥) ويكشف التأمل فى بعض الجداول أن القاهرة - التى تحظى بأعلى المعدلات فى كل المجالات، ليست كتلة واحدة.. صحيح أنه يعيش بها نحو ربع سكان مصر (١٠)، غير أنه صحيح أيضاً أن معظم هؤلاء السكان يعيشون فى المناطق العشوائية والفقيرة، وإذا كان منطقيا (؟) أن يندر وجود الأنشطة الثقافية فى المناطق العشوائية، فإنه ليس منطقيا أن تتركز معظم الأنشطة فى المناطق الغنية المتخمة دون المناطق الفقيرة - ولكن هذا ما يحدث.. فى الجدول رقم (١١) المستنتج من جدول توزيع نشاط قصور وبيوت الثقافة داخل القاهرة - وجدنا أن الأحياء الغنية تحتل سبعة عشر قصراً وبيتاً من بيوت الثقافة (هذا بالإضافة إلى القصور المتخصصة مثل قصر السينما بجاردن سيتى والقصور الأثرية فى منطقة الحسين والغورية.. إلخ) فى مقابل ثمانية فقط فى المناطق الفقيرة، علما بأننا توسعنا إلى حد ما فى تحديد المناطق الفقيرة فأدخلنا فيها قصر ثقافة الوفاء والأمل وقصر ثقافة ١٥ مايو والسلام وغيرها).. وهذه المناطق الغنية استأثرت إذن بنسبة ٦٨٪ من مواقع الثقافة الجماهيرية فى القاهرة، قدمت فيها نسبة ٥٨,٨٪ من جملة العروض، استفاد منها ٥٨٪ من المستفيدين منها.

- ٢ -

مما سبق يمكننا الوصول إلى نتيجة نطمئن إليها إلى حد كبير، وهى أن الأنشطة الثقافية التى تمارسها وزارة الثقافة لا تصل إلا إلى عدد محدود من المصريين، وأغلبيتهم من بين الأغنياء، ونصيب الفقراء فيها محدود جداً، بل إن هذا النصيب - وهذا هو الأهم - غير مناسب تماماً، فقد كشفت الجداول السابقة أن أكثر أنشطة وزارة الثقافة انتشاراً فى القرى هى المكتبات، فى حين أننا نعرف أن هذه المناطق تزداد فيها نسبة الأمية، حيث تصل نسبة الأمية فى الريف (حسب ١٩٨٦) إلى ٦٩٪ فى حين كانت فى الحضر ٤٠٪ فقط (تقرير التنمية البشرية ص ١٢٦).. والمنطقى أنه فى هذه المناطق ينبغى أن تقدم الأنشطة الفنية السمعية البصرية وليس الكتب.. ومعلوم أن هذه الأنشطة لا تصل إلى القرى إلا فى بعض المناسبات المتباعدة جداً.

غير أنه كما سبق القول - تسهم أجهزة ووزارات أخرى فى النشاط الثقافى بالمعنى الواسع، وليس وزارة الثقافة فقط.. من هذه الوزارات: وزارة التربية والتعليم، ووزارة الإعلام، ووزارة الأوقاف، وجهاز الشباب والرياضة.. ويبدو لنا أن ترتيب هذه الوزارات فى الأهمية يمكن أن يتم على نحو تصاعدى فيبدأ من المجلس الأعلى للشباب والرياضة باعتباره مسئولا عن قطاع محدد من المواطنين، فوزارة الأوقاف المسئولة أيضاً عن قطاع من الأنشطة هى الأنشطة الدينية ثم وزارة التربية والتعليم المسئولة عن قطاع واسع هو المتعلمون الذين قد يصل تعليمهم حتى أعمار متأخرة (فى حالة الإعداد لرسائل الدكتوراه)، ثم وزارة الإعلام المسئولة عن أخطر الأجهزة فى عالم اليوم والتى تصل إلى كل المواطنين تقريباً، ونقصد جهاز التليفزيون، بالإضافة إلى وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة.. وهذا الجهاز والوسائل الأخرى متماسة بالطبع مع بقية الأنشطة والأجهزة الثقافية وغير الثقافية؛ مثلما أن الوزارات الأخرى أيضاً تتداخل أعمالها وتتماس سواء من حيث طبيعة النشاط، أو من حيث المستفيدين من هذا النشاط.

فالمجلس الأعلى للشباب والرياضة مسئول عن قطاع الشباب (أخطر الأعمار) بالإضافة إلى النشاط الرياضى فى الوطن بصفة عامة، وهو نشاط موجه ليس إلى الشباب فقط وإنما إلى مختلف الأعمار، كما أنه يستفيد من جهاز التليفزيون فى الوصول إليهم.. غير أن هذا الجهاز يمارس مهامه

أساساً من خلال الأندية الرياضية المتمركزة فى العاصمة الكبرى وعواصم بعض المحافظات، بالإضافة إلى مراكز الشباب المنتشرة فى كل القرى تقريبًا بسبب الاعتماد على الجهود الذاتية لأهالى القرى فى إقامة هذه المراكز.. غير أن هذا الانتشار الذى كان يمكن أن يكون وسيلة ثقافية مهمة ـ يخلو تقريبًا من أى أهمية نظراً لانحصار أنشطته فى جهاز تليفزيون ومائدة للعبة التنس وأحيانا مكتبة صغيرة محدودة الكتب عدداً وقيمة ـ وبعض المباريات الرياضية التى تقام فى الإجازة الصيفية.. ويعود هذا الانحصار إلى محدودية الميزانية من ناحية وفساد الإدارة من ناحية أخرى إما بسبب الإهمال أو فساد الذمة المالية، بحيث يصبح المستفيدون من هذه المراكز عددا محدودا من الشباب (مجلس الإدارة والمحيطون بهم)، وتصبح الاستفادة محدودة فى مجرد تضييع وقت الفراغ على نحو عبثى أو ممل وسلبى على كل حال.. ولعل هذه هى القيمة الأساسية التى تتحقق أيضا عبر الأنشطة الرياضية على المستوى الوطنى العام، حيث إننا نجد أن لعبة كرة القدم قد أصبحت بفضل التشجيع الحكومى هى اللعبة الشعبية الأولى ويتحمس لها أعداد كبيرة من المواطنين، غير أن حماسهم هذا هو حماس منحرف إلى صراعات فئوية بين الأندية المختلفة، وليس حماسًا للمنافسة النزيهة أو للكرة المصرية على الصعيد الوطنى بصفة عامة.. ولاشك أن محدودية الميزانية وسوء الإدارة يسهمان فى إضعاف مستوى الأداء القومى الرياضى الذى يتبدى فى الخسائر الدائمة التى تحققها الفرق القومية، فى مقابل بعض النجاحات التى يحققها هذا الفريق المستقل أو ذاك.. ولاشك أن فشل الفريق القومى فى الألعاب المختلفة يكرس قيمة الدونية والإحساس بعدم قدرتنا على الدخول فى منافسة مع العالم (المتقدم) فى أى مجال حتى الرياضة التى يبذل لاعبوها أقصى جهودهم، ويمتلكون فى بعض ألعابها تميزاً ملحوظاً، لكنه يهدر بسبب سوء التنظيم أو نقص الإمكانيات أو ضرورة الاعتماد على المدربين الأجانب.. إلخ.. ونتيجة لقصور هذا الجهاز عن تحقيق الاحتياجات الشبابية سواء على المستوى الفيزيقى أو على مستوى القيم، سنجد أن الشباب فى القرى والأحياء الشعبية ينصرفون

الدولة والحاجات الثقافية

عن مراكز الشباب ويلجئون إلى وسائل بديلة كالمقاهى وأندية الفيديو أو أماكن اللعب الخاصة، أو حتى إلى إقامة بعض الألعاب فى الشوارع والحارات (كما هو الحال فى كرة القدم وتنس الطاولة).. ورغم أن هذه الوسائل تحقق ـ بالفعل ـ بعض الاحتياجات التى لا تحققها الدولة، فإنها يمكن أن تؤدى إلى أخطار جسيمة على الشباب سواء من ناحية الانحلال الخلقى أو التطرف الدينى، وهذا هو الحادث عملياً الآن، وهذا راجع إلى أنها تلبية عشوائية لاحتياجات ضرورية، وليست خاضعة لخطة منظمة قادرة على تنظيمها وتطويرها وتوظيفها فى اتجاه هدف وطنى عام.. ولذلك فإنها يمكن أن تتحول إلى وسائل لتشويه الشخصية الإنسانية بدلا من تنميتها وإنضاج أفضل ما فيها.

وتقديرى أن نشاط وزارة الأوقاف يؤدى إلى نتيجة قريبة من هذه النتيجة، وإن كانت أخطر، لأنها تمس كل المتدينين؛ فوزارة الأوقاف هى المسئولة عن كل المساجد فى مصر والتى تزايدت وتتزايد بصورة ملحوظة خلال العقود الثلاثة الأخيرة، إما بسبب المد الدينى فى المجتمع بصفه عامة والناتج عن الإحباط القومى العام وغيرها من العوامل، أو بسبب الإعفاء الضريبى الذى يحققه ستار مسجد فى المبانى الجديدة المتكاثرة غير أن وزارة الأوقاف لا تمارس مسئوليتها على كل المساجد وخاصة المساجد الأهلية التى هى مؤهلة للتجمعات الإسلامية على نحو طبيعى سواء كانت منظمة من قبل القوى السياسية ذات الطابع الدينى ـ أو مرشحة لهذا التنظيم. ورغم تنبه الوزارة إلى هذه الظاهرة فى الفترة الأخيرة ومحاولة حصار هذه المساجد ومراقبتها بالتعاون مع أجهزة الأمن أو اعتمادا عليها) فالشك قوى فى قدرتها على تحقيق هذا الحصار ليس لنقص الإمكانيات (فقد وجهت الدولة كل إمكانياتها فى الفترة الأخيرة لمواجهة ما يسمى بالإرهاب)، وإنما لفقدان الدافع العميق والتنظيم الدقيق والقيم المتكاملة وهذا واضح فى النشاط الذى إن مهمة الوزارة تنحصر فى تعيين موظف أو أكثر (فى كل مسجد حسب أهميته)، لإقامة الشعائر وبصفة خاصة صلاة الجمعة الأسبوعية، لكنها تهتم بأن تراقب هؤلاء الموظفين لتضمن أنهم مجرد موظفين أى تطبق عليهم شروط الأداء الروتينى الخالى من الدوافع الخاصة حتى ولو كانت دوافع إيمانية بحتة ـ ولذلك فإن معظم الموضوعات والأفكار التى ينبغى أن ينقلها خطيب المسجد إلى المصلين هى موضوعات وأفكار إما تقليدية منقولة من الكتب الصفراء بذات الصياغات المحفوظة، أو مفروضة على الخطيب من قبل الوزارة، التى كثيرا ما تصدر تعميما على الخطباء شفاهيا أو مكتوبا حول موضوع محدد والنتيجة هى أن خطبة الجمعة تتحول إلى مناسبة مملة يضطر المصلون إلى المشاركة فيها من أجل إتمام الصلاة لكن الكثيرين منهم تحولوا عن هذه الخطبة إلى المساجد الأهلية التى تتمتع بدوافع ذاتيه أعلى نظرا لقربها من المنظمات الإسلامية فى الغالب ولأن هذه المساجد الأهلية لم تكتف بمجرد إقامة الشعائر أو صلاة الجمعة وإنما تحول المسجد إلى مركز نشاط للحى أو للمنطقة حيث يجد فيه المواطنون مستوصفا صحيا ومدرسة أو مشغلا أو دارا مناسبا للعزاء أو لعقد القرآن.. بالإضافة طبعًا إلى دروس الوعظ وتحفيظ القرآن للصغار

وعلى هذا النحو فإن تصور وزارة الأوقاف وخضوع وظيفتها تماما لخدمة سياسة الدولة المباشرة على نحو يكاد يكون قريبا من الوظيفة الأمنية وكما بدا فى المحاورات مع «الإرهابيين» فى السجون خلال السنوات السابقة) أدى بها إلى تكريس قيم السلبيه لدى (المتدينين وتحويلهم إلى فريسة سهلة للقوى الدينية المنظمة بعد أن طردتهم من مؤسسة المسجد الرسمى بروتينية

وإمـلاله وعـدم قـدرته على أن يمسك بالخصائص الدينية التى تميز المصريين عن غيرهم من المسلمين والتى تتمثل فى ملامح كثيرة تختلف عن الإسلام السنّى، أنتجها الخاص للمصريين عبر الحضارات المتعاقبة التى عاشوها وتمثلوا قيمها، سواء بالايجاب أو بالسلب.

إن التعرف العلمى الدقيق على منظومة القيم التى يهمن عليها المنظور الدينى أو الإيمانى لدى المصـريين وخـاصـة لدى الطبقات الشعبية يمكن أن يكشف عن خطوط فلسفة عميقة للحياة بصفة عامة، تكون النسق القيمى الذى يشكل الأساس الذهنى والنفسى للمواطنين وبه يعيشون حياتهم ويواجهون مصاعبها ويبدعون فى أحلك اللحظات بل ومن خلالها يقيمم احتفالاتهم المتعددة والتى تصل إلى حـد الشكل الكرنفـالى من مـوالد الأولياء والقديسين والاحتفالات الطرق الصوفية وطقوسها المختلفة. وهذا التعرف العلمى لايعنى القبول أو الرفض، مثلما تفعل وزارة الأوقـاف بشـأن الموالد حين تسـمح بإقامتها مع تحريم كـثير من طقوسها وشعائرها وإنما يعنى الإمساك بالجوهرى والعميق والصلب والحى والعمل على تنمية وإثرائه لأن هذه التنمية ثراء للهوية وللدافع الحيوى للإنسان أن يحيا ويقاوم ويبدع وهذا التعرف يمكن أن يكون كـفيلا بتحقيق مواجهة الدولة للتطرف السلفى لو أنها كانت تريد حقا مواجهته.. ولو كانت تمتلك المنظور الاستراتيجى العميق فى معالجة المشاكل وأمور الحياة بصفة عامة وهذا يعنى أن عدم القيام بهذه المهمة، ليس فقط نكوصًا عن تلبية الاحتياج الروحى العميق للمصريين، بل وتزييف هذا الاحتياج ببديل سنى شكلى تتفق فيه المؤسسة الدينية الرسمية مع التيارات السلفية، وسوف يؤدى إما إلى إهدار هذه القيم الروحية العميقة لدى المصريين أو إخراجهم من الصراع الدائر بين الدولة والمتطرفين وكلها نتائج تقع أخطارها على حاضر المصريين ومستقبلهم وقد تصيب الدولة ذاتها فإذا انتقلنا إلى وزارة التربية والتعليم ارتقينا فى درجة الخطورة نظرا لأن هذه الوزارة تعمل فى مجال شديد الحساسية من حيث طبيعة المراحل العمرية الدقيقة للأطفال والشباب الذين يتعلمون وبسبب المهمة الضخمة التى ينبغى أن يقوم بها التعليم. إن مهمة التعليم لاتعنى تعليم الفرد القراءة والكتابة وإنما بناء نسق قيم متكامل للفرد لاينبغى أن يقوم على أساس القيم التقليدية المستقرة فى المجتمع فحسب، وإنما على اساس تجديد هذه القيم وتنميتها وتطويرها (دون تحطيمها كما سبق القول) يتبنى إنسانا جديدا قادرا على تجديد المجتمع وتحقيق احتياجاته الجديدة والمتجددة باستمرار وللأسف الشديد فإن الخبرة المتاحة تشير إلى أن التعليم المصرى أصبح فى حال من التدهور لايستطيع معه القيام بأى دور من الأدوار المنوطة به بل يمكن أن يؤدى إلى نقيضها.

فرغم ارتفاع نسبة الإنفاق على التعليم فى السنوات الأخيرة، حيث وصلت إلى ٩,٨ ٪ من إجمالى الإنفاق العام سنة ١٩٩٠ إلا إنها تظل نسبة متواضعة إذا قورنت بالنسبة المخصصة للتعليم فى الدول الأخرى (١١)، كما أن هذه النسبة ذاتها ليست ثابتة ويمكن أن تنخفض فى سنوات وتزيد فى سنوات أخرى (١٢) وضعف الإنفاق على التعليم ينعكس تلقائيا على أداء الوزارة لمهامها، والقصور فى تحقيق الأهداف المرجوة ويتجلى هذا القصور فى عدم القدرة على استيعاب كل التلاميذ المفروض استيعابهم فى المراحل العمرية المختلفة وهذا واضح من رقمين الأول هو نسبة القيد فى التعليم الأساسى والثانوى التى تصل إلى ٨١ر٤ ٪ سنة ١٩٩٠ ومعدلات التسرب التى وصلت سنة ١٩٩٢ إلى ٣٠ ٪ (١٣) ومعنى الرقمين معا أن نسبة المقيدين الذين يواصلون تعليمهم حتى نهاية المرحلة الثانوية لايزيد عن ٥٠ ٪ من البالغين سن الثامنة عشرة وهذه النسبة العامة الفاجعة تخفى النسب التفصيلية الأكثر خطورة حيث تتدنى نسبة المقيدين فى الوجه القبلى إلى ٣٧,١ ٪ ويصبح من الطبيعى فى ظل هذا الوضع ألا تحل مشكلة الأميه لأن النظام التعليمى ليس قادرا على حلها فقط وإنما هو يغذيها من باب آخر هو التسرب بحيث تصل نسبة غير الملمين بالقراءة والكتابة فى الحضر إلى ٤٠ ٪ وفى الريف إلى ٦٩ ٪ أرقام ١٩٨٦) (١٤) ومن الطبيعى أن هذه النسبة المرتفعة من الأميين سوف تكون صيدا سهلا لأى نوع متخلفة يمكنها أن تستفيد من أميتهم ويحاول أن تسد هذا النقص عبر مكاتب تحفيظ القرآن والحضانات المنتشرة فى المساجد على سبيل المثال ومعظمها موظف من قبل تيارات الإسلام السياسى المختلفة.

فإذا عدنا إلى الذين ينجح نظام التعليم فى استيعابهم وجدنا أن الشروط التى تتم فيها العملية التعليمية فى المراحل المختلفة تعوق تحقق المهام الأساسية أو لأهداف التعليمية إلا فى حدود ضئيلة ومن الأرقام الدالة على هذه الشروط نسبة المبانى المدرسية غير الصالحة وقد كانت ٤٠ ٪ سنة١٩٩٠(١٥) وكثافة الفصل فى الإبتدائى التى تصل إلى ٤٤ وفى الإعدادى تصل إلى ٤٣ تلميذا فى الفصل (١٦) وهذه الأرقام تجد أصداء قوية لها فى مراحل التعليم الجامعى، وخاصة الجامعات الإقليمية وما يسمى بالكليات ذات الأعداد الكبيرة وخاصة بعد تطبيق نظام الانتساب الموجه الذى يضاعف أعداد طلاب بعض الكليات أو الأقسام.

ولا يقتصر الأمر على نقص الأماكن وعدم صلاحيتها فقط فهذان مؤشران على نقص الإمكانيات المادية التى يمتد إلى نقص المعامل والآلآت الضرورية كما تمتد إلى نقص أجور المدرسيين والعاملين فى حقل التعليم عامة مما يؤدى إلى نتائج أخرى تؤثر على كيفية أداء العملية التعليمية نفسها ذلك أن إنسانا لايحصل من عمله على الحد الأدنى الذى يكفى حياته لايستطيع أن يقوم بوظيفته على خير وجه هذا هو الحادث بالفعل حيث نجد أن درجة الإجادة فى أداء التدريس فى كل المراحل متدنية جداً وهذا أدى مع عوامل أخرى كثيرة إلى القضاء على الدور التربوى للمدرسة لصالح دور المنزل أو المسجد فى إطار ظاهرة الدروس الخصوصية سواء الفردية أو المنظمة وهى ظاهرة لاتمثل عبئا اقتصاديا على كاهل الأسرة وخاصة الأسرة الفقيرة فقط وإنما تمثل فعلا ماذا فى النظام التربوى نفسه لأنه يخلق اللانظام والإحساس المتحقق بالفوضى فى نفوس المتعلمين منذ صغرهم كما أنه يسهم فى تكريس المنهج التلقينى الذى لايهتم سوى يحفظ معلومات تصلح لاجتياز الامتحان دون أن يهتم بتنمية عقلية المتعلم وقدراته النقدية والإبداعية فيخرج شخصية

الدولة والحاجات الثقافية

ممسوحة لاقدرة لديه على التفكير أو الإبداع أو القدره على التعامل مع مشكلات الحياة وإذا أضفنا إلى هذه العوامل فقدان المتعلمين أنفسهم للدافعية إلى التعليم نظراً لأن الخريج لا يملك فى نهاية دراسته خبرة حقيقية لا إنسانية ولامهنية ولأن فرص العمل قد تضاءلت ومازالت تتضاءل باستمرار، يصبح الطرف الآخر فى العملية التعليمية أى الطلاب معرضين عنها وبالتالى أصبحت المؤسسة التعلمية فوضى غير مثمرة وتخرج أجيالا من الجهلة الذين يشكلون جيشا احتياطيا للانحراف أو التطرف وهذا الأمر سوف يتفاقم بعد افتتاح الجامعات الخاصة لأبناء الأغنياء الذين سيستولون على ماتبقى من فرص العمل بدون أن يكونوا قد حصلوا على تعليم حقيقى وقبل أن يصل هؤلاء مع غيرهم من غير المتعلمين إلى الانحراف أو التطرف وفى الطريق إليهما يأتى دور وسائل الإعلام هى أخطر الأدوات نظرا لاتساع رقعة انتشاره وللخصوصية النوعية فى كيفية تأثيرها على الجمهور فمن حيث الانتشار نجد ان ٣٤ مواطنا من كل ألف تصلهم الصحف اليومية وأن عدد أجهزة التليفزيون لكل ألف أسره هو ٧٣٠ فى المتوسط وبالطبع ترتفع بالنسبة فى الحضر إلى ٨٩٢ وتنخفض فى الريف إلى ٥٨٥ (١٧) وهذه الأرقام تشير إلى أن وسائل الإعلام وخاصة التليفزيون هى أكثر الوسائل وصولا إلى الجماهير الواسعة ولذلك فإن اهتمام الدول بها واضح للعيان إذ يزداد عدد القنوات التليفزيونية والإذاعية باطراد كما يزداد عدد ساعات الإرسال، وطبقا للكتاب الإحصائى للجهاز المركزى للتعبئة العام والإحصاء لسنة ١٩٩١ زاد متوسط عدد ساعات الإرسال الإذاعى من ١٥ ساعة يوميا ١٩٥٢ إلى ٢٣٠ ساعه سنة ١٩٨٥ إلى ٢٧٢٫٣ سنة ١٩٩٠ وكذلك الأمر بالنسبة لساعات الإرسال التليفزيونى من ١٤٫٢ ساعة سنة ١٩٦٠ إلى ٣٨٫٧ ساعة سنة ١٩٧٨ ولاشك أنها تضاعفت الآن بعد افتتاح القنوات الخاصة والسادسة والسابعة والثامنة وقناة النيل الدولية بالإضافة إلى القناة الفضائية المصرية وفى الطريق قنوات أخرى قادمة وامتداد أكبرلساعات الإرسال وتشير إحصاءات وزارة التخطيط إلى أن إنفاق اتحاد الإذاعة التليفزيون قد ارتفع من ٧٣٧٫٥٠٤ مليون جنيه سنة ٩٢/٩١ إلى ١٠٠٧/٥٩٩ مليون سنة ١٩٩٣/٩٢ وزعم أن هذا الاهتمام بانتشار التليفزيون يحدث أيضا بالنسبة للصحافة حيث تنشأ صحف جديدة باستمرار لتغطى المجالات المختلفة: الرياضة، الفنون، الآداب وهى صحف تابعة للدولة أو للأحزاب أو لأفراد إلا أن انتشار الصحافة كما أشارت الأرقام السابقة لايعلى النتيجة نفسها التى يعنيها انتشارالتليفزيون لذلك فإن اهتمام الدولة بكل من الوسيلتين هو اهتمام مختلف حيث يسمح فى الصحافة بدرجة، أعلى من التنوع وقدر من حرية الاختلاف والنقد لايسمح بهما فى التليفزيون ولذلك فإن اهتمام الدولة بالتليفزيون يشير إلى أنها تعتبره، وهو كذلك بالفعل أداتها الرئيسية فى التوجيه الأيديولوجى ولابد أن يكون خاضعا تماما لتوجيهها ولايسمح فيه بالمناقشة كما لايمكن السماح لمناقشته لقنوات خاصة أو قادمة من الخارج عبر الفضاء هذا رغم أن نسبة ٣٥ ٪ من برامج التليفزيون المصرى مستورد من الخارج(١٨) ولكن هذا الاستيراد المحكوم ومحكوم بإشراف أجهزة الدولة أو هكذا يتصور المسئولون فى حين أن الحقيقة أنه محكوم أيضا بأيديولوجيات خططه التى تتسلل بالضرورة مع المادة المذاعة وخاصة إذا كانت درامية وهذا هو الحال بالفعل فى المواد المستوردة وأغلبها أمريكى الصنع ورغم أن نسبة البرامج الثقافية والتربوية فى التليفزيون المصرى محدودة ولا تزيد عن ١٧ ٪ (١٩) إلا أن مفهوم الثقافة هنا لابد أن يتسع ليشمل كل القيم وأنماط السلوك والمشاعر التى تدفقها البرامج بمختلف أنواعها وبهذا المعنى الواسع ومن هنا تأتى أهمية توصيف هذا النموذج الثقافى الذى يقدمه التليفزيون المصرى لأننا فى النهاية سوف نصل إلى حد توصيفه بأنه نقيض للثقافة بالمعنى الدقيق.

إن عددا من البرامج التليفزيونية يقدم دون شك ـ مساهمة ثقافية سواء كانت معلومات أو أخباراً أو ترفيه للأذواق الفنية وغيرها غير أن هذا العدد من البرامج محدود ولا ينفى الطابع الغالب على البرامج والذى يميل إلى الجفاف والوقوع فى أسر صورة أو نموذج للإعلام المنفصل عن الحقيقة وعن الواقع وغير القادر على تقديم المعلومات وليس بالمعنى الدعائى المشوش، إن المعلومة فى نظرية المعلومات ليست فقط غير المعروف وإنما أساسا غير المتوقع، وهذا يعنى أن المعلومة ليست حقيقة مطلقة تصل إلى المتلقى من مصدرها دائماً، وإنما هى نتاج تفاعل حقيقى بين مصدر المعلومة ومتلقيها إذ يجتهد ذهن المتلقى كى يتلقى الرسالة كى يربط عناصر المعلومة فى علاقات يستنتج منها الرسالة فى النهاية بهذا المعنى تكون المعلومة نوعًا من تنمية الإبداع والقدرات البشرية وهذا النمط ليس هو المتوفر فى التليفزيون المصرى الذى يعتمد فى نسبة كبيره من برامجه على المادة المصنوعة فى الخارج أو على معرفة ناقصة أو مشوهة بالواقع الداخلى والذى يرضع لمجموعة من المحرمات المتعلقة بأمن الدولة (أى النظام) وخاصة فى ميدان النقد السياسى أو حتى النقد بصفة عامة.

غير أن هذه الملامح لاتشكل نسقا متكاملا من القيم التى تصل إلى المتلقى ذلك أن هيمنة الدولة على التليفزيون لاتنفى تسلل عناصر قيمية قد تشكل أنساقا تيمية متصارعة مع النسق الأيديولوجى العام للدولة، وقد تتفق معه لكن هذا الاتفاق يجعل النسق العام مشتتا ومهترئا وقابلا للانهيار والمقصود هنا أن هناك نسقا من القيم الدينية التى تبثها برامج التليفزيون لاتختلف كثيراً عن القيم التى يدعو إليها أعضاء الجماعات الدينية سواء المتطرفة منها أو المعتدلة وهذا النسق يبدو فى كثير من الأحيان متعارضا مع التوجه العام للدولة الذى يحب بعضهم أن يسميه تنويرياء كذلك هناك نسق من القيم

الاستهلاكية التى تبثها المسلسلات الأجنبية والمساحات الضخمة المعطاة للإعلانات التجارية قد تبدو أيضا متعارضة مع القيم الدينية المبثوثة فى البرامج الدينية ولعل نموذج مايحدث فى برامج شهر رمضان أن يكون مثالا واضحا على هذه التعارضات.

ولأن هذه التعارضات واضحة وهناك محاولات واضحة أيضا لإزالتها دون جدوى يصبح من المنطقى أن نعتبرها سمة من سمات النسق الأيديولوجى للتليفزيون يؤدى إلى اعتباره نسقا مشتتا غير متكامل، وبالتالى لايؤدى إلى وظيفة استيعاب المتلقى بالإقناع، والحقيقة أنه يقمعه ويسلب شخصيته ويوقعه فى مجرد إغراء الصورة والاستجابة لها دون أن يكون مقتنعًا تمامًا وهذا يقترب مما يمكن أن نسميه غسيل المخ وهو قضية الدور الذى ينبغى أن تقوم به الثقافة ومن ثم فإن الأثر النهائى للتليفزيون على المشاهدين يتفق مع الآثار التى رصدناها للأجهزة الأخرى سابقًا وهى تشويه شخصية المواطن المصرى بالإضافة إلى عدم تحقيق احتياجاته الروحية العميقة.

وفى ظل هذا الوضع تلجأ الطبقات المختلفة من الشعب العربى إلى وسائل إعلامية بديلة ولاشك أن أجهزة الاستقبال الفضائى والڤيديو والكاسيت هى أكثر هذه البدائل انتشارًا وخاصة لدى الطبقات الغنية والمتوسطة وأما الطبقات الفقيرة التى لاتستطيع امتلاك هذه الأجهزة فإنها تلجأ إلى التعامل السرى أو شبه السرى مع هذه الأجهزة عبر نوادى الڤيديو أوالمقاهى أو «الدش الحرامى» وما إليها وهى وسائل غير خاضعة للرقابة، ومن ثم يمكن أن تؤدى إلى نتائج منحرفة أو غير مضمونة على كل حال لأنها فى الغالب تحقق الاحتياجات الغرائزية على أنحاء مشوهة بل تسهم فى تنمية هذه الاحتياجات وإبرازها على حساب نسق القيم الكلى الذى يضمن السلامة النفسية للمواطن فى ظل اتساق الهوية وتماسكها.

إن مجمل الأوضاع التى رصدناها سابقا تشير إلى أن فقراء المصريين يعيشون دون أن تلبى احتياجاتهم الثقافية بالمعنى العميق والإنتاج الثقافى المقدم حتى للمتوسطين والأغنياء غير مرض وغير قادر على أن يحقق شروط التماسك والتكامل الضروريين ناهيك عن التنوع العميق، وتقديرنا أنه فى ظل صراع بيروقراطية الدولة ومصالحها الطبقية مع شروط سياسة التكيف الهيكلى ومع التطور القادم لتكنولوجيا الإعلام والاتصال فإن المآزق التى سبق رصدها سوف تزداد وسوف تزداد أزمة الثقافة ليس فقط بالمعنى الضيق والمحدود وإنما بالمعنى الواسع الذى يشمل نسق القيم المحدود لهوية الوطن المواطن فإذا أضفنا إلى ذلك التخطيط الواسع لإنجاز مايسمى بالسوق الشرق أوسطية التى تصبح فيها إسرائيل مهيمنة تكنولوجيا واقتصاديا على المنطقة يتضح أن خطر ضياع الهوية هو خطر حقيقى أما المثقفون الوطنيون فإن دورهم قد تقلص وحوصر إلى أقصى درجة بحيث إننا لانستطيع الاعتماد على فعاليتهم فى إنقاذ الوضع فى اللحظة الراهنة ومالم تتغير كل الأوضاع التى تشكل المهاد المناسب لهذه الأزمة. ■

الهوامش

(١) يشير أطلس معلومات العالم العربى الذى أعده رفيق البستانى وفيليب فارج وصدر مترجما عن دار المستقبل بالقاهرة سنة ١٩٩٤ إلا أن أكثر من ٥٠٪ من ميزانية مصر يعتمد على الضرائب والعوائد ص ١١٤.

(٢) المصدر الإحصاء الاقتصادية للبنك الأهلى، النشرة الاقتصادية، المجلد السابع والأربعون، العدد الثانى ١٩٩٤، ص ٢٠٩.

(٣) علما بأن عدد السكان مقدر فى المصدر نفسه بـ ٥٧,٦ مليون نسمة.

(٤) إحصاء وزارة التخطيط.

(٥) النشرة الاقتصادية للبنك الأهلى، المجلد ١٩٩٢،٤٥، ص ١١٠.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) المصدر بيانات الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء نقلا عن د. مديحة أحمد عبادة، تحليل سوسيولوجى لمشكلة البطالة فى واقع الاقتصاد المصرى، بحث مقدم للدوة الأبعاد الاجتماعية لسياسات التكيف الهيكلى، قسم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٥ - ١٦ مايو ١٩٩٥.

(٨) يشير تقرير التنمية البشرية الصادر عن المعهد القومى للتخطيط ١٩٩٤ إلى أن عدد المترددين على دور السينما سنة ١٩٨٩ قد وصل إلى ٥٢٣ لكل ألف، والمسرح ١٧ لكل ألف، والمتاحف ٩٩ لكل ألف، أما عدد الكتب بالمكتبات فهى ١٧٠ كتابا لكل ألف. راجع جدول رقم (١٠).

(٩) لابد هنا أن نضيف إلى نصيب القاهرة من المسارح الخاصة ومسارح أخرى تابعة للدولة مثل المركز الثقافى القومى ودار الأوبرا ومركز المؤتمرات العالمى والجامعات وأكاديمية الفنون وقاعات النقابات والوزارات والهيئات المختلفة.. إلخ.

(١٠) يشير تقرير التنمية البشرية إلى أن نصيب القاهرة من السكان حسب تعداد ١٩٨٦ هو ١٢,٦٪ ولكن هذا الرقم خاص بالقاهرة وليست الكبرى فى حين أن نصيب كل من الجيزة والقليوبية اللتين تشتركان فى القاهرة الكبرى هو ١٣٪ تقريبا، ولو أن نصف هذا النصيب أضيف إلى الرقم الأول لوصل إلى ٢٠٪.

(١١) فى الأردن مثلا ١٢٪ وفى تونس ١٥٪ وفى السعودية ١٣٪ وفى المغرب ١٧٪ وفى اليمن ١٦٪ نقلا عن أطلس معلومات العالم العربى بنك المعلومات.

(١٢) تقرير التنمية البشرية مرجع سابق ص ٣٠٧٢.

(١٣) نفسه ص ٧٣، ١٢٠.

(١٤) نفسه ص ١٢٦.

(١٥) نفسه ص ١٣٠.

(١٦) المصدر نفسه والصفحة.

(١٧) تقرير التنمية البشرية مرجع سابق ص ١١٤ والأرقام لعام ١٩٩٠.

(١٨) أطلس معلومات العالم العربى ص ٦٣.

(١٩) نفسه ص ٦٣ ويشير الكتاب السنوى للتعبئة العامة والإحصاء سنة ١٩٩١ إلى أن نسبة البرامج الثقافية فى الإذاعة تصل إلى ١٥٪ فى سنة ١٩٩٠.

ملحق بالجداول والإحصاءات

جدول رقم (١)
نشاط البيت الفنى للمسرح عام ١٩٩٢

المدينة	عدد المسارح	النسبة	عدد الحفلات	النسبة	عدد الرواد	النسبة
القاهرة	١٢	٧٥٪	١٠٤٩	٩٥٪	١٢٢٤٦٠	٩٢,٧٪
الإسكندرية	٢	١٢,٥٪	٥٣	٤,٥٪	٩٥٤٩	٧,٢٪
بورسعيد	١	٦,٢٥٪	٣	,٢٧٪	٤٣	٠,٠٣٪
الإسماعيلية	١	٦,٢٥٪	١	,٠٩٪	- (؟)	,٠٠
الجملة	١٦		١١٠٦		١٣٢٠٥٢	

* لاحظ أن عدم وجود رواد فى حفل الإسماعيلية لايتفق مع وجود إيراد مرصود، وقدره ٥٠٠ جنيه.

المصدر الإحصائيات الثقافية بوزارة الثقافة الكتاب السنوى ١٩٩٢ .

جدول رقم (٢)
نشاط البيت الفنى للفنون الشعبية والاستعراضية لعام ١٩٩٢

المدينة	عدد الحفلات	النسبة	عدد الرواد	النسبة
القاهرة	٩٣٨	٩٠,٢٪	٣٥٩٨٢٥	٨٧,٢٪
الإسكندرية	٧٧	٧,٤٪	٧٥١٠	١,٨٪
الأقصر وأسوان	٢١	٢,٠٪	٤٢٠٠٠	١٠,٢٪
طنطا والمحلة	٠٤	٠,٤٪	٣٢٥٠	٠,٧٨٪
الإجمالى	١٠٤٠		٤١٢٥٨٥	

المصدرالسابق

جدول رقم (٣)
نشاط دار التأليف

عدد الكتب				عدد المجلات		الحملة	
مؤلفة	النسخ	مترجمة	النسخ	العدد	النسخ	العدد	النسخ
١٨٠	٦٤٣٧٠٠	٥٥	١٩٧٦٠٠	٧٢	٣١٢٩٠٥	٣٠٧	١١٥٤٢٠٠

المصدر نفسه ص ١٥٠

جدول رقم (٤)
نشاط دار الكتب

المدينة	دار الكتب	المكتبات الفرعية
عدد الكتب المعارة	١٥٠٠٥٩	٣٣٢٧١٣
عدد القراء	٧٣١٠٠	١٨٤٨٨٥

المصدر نفسه ص ١٥٠

جدول رقم (٥)
عدد قصور وبيوت الثقافة بالجمهورية عام ١٩٩٢

المحافظة	عدد القصور	عدد البيوت	الجملة	النسبة
القاهرة والجيزة	٥	٤١	٤٦	
الإسكندرية	٤	٥	٩	
وجه بحرى (١٤ محافظة)	٢٠	١٢٦	١٤٦	
وجه قبلى (١٠ محافظات)	١٠	٨١	٩١	
الجملة	٣٩	٢٥٣	٢٩٢	

المصدرالسابق ص ٢٢٦

جدول رقم (٦)
نشاط قصور وبيوت الثقافة

	عروض	مستفيدون
المسرح	١٠٠٣	٤١٨٢٢١
الموسيقى	١٢١٢	٣٦٤٦٦٦
الفنون الشعبية	١٠٨١	٤٢٣٥٦٨
السينما	٧٧٤٠	٩٢٥٩٣٧
الفنون التشكيلية	١٤٧٧	٣٧٣١٠٤
الثقافة العامة		٨٢٢٦٩٦
القافلة		٣٠٩٠٦٧
الحرف البيئية		٢١٣٦٨

المصدر السابق

جدول رقم (٧)

نشاط قصور وبيوت الثقافة الجماهيرية ١٩٩٢

موزعاً حسب كل محافظة لكل الأنشطة [المسرح - الموسيقى - الفنون الشعبية - السينما - الفنون التشكيلية - ثقافة عامة - قافلة)

المحافظة	عدد العروض المختلفة
القاهرة	١٣٢٤
الإسكندرية	٦٢٨
مرسى مطروح	٣٩١
البحيرة	١٣١٠
كفر الشيخ	٧١١
الغربية	٦٩١
المنوفية	٨٨٧
القليوبية	٩٦٧
بور سعيد	٢٠٥

المحافظة	عدد العروض المختلفة
الإسماعيلية	٦٩٦
السويس	٤٧٩
شمال سيناء	٤٤٨
جنوب سيناء	١١٨٥ (؟)
دمياط	٥٣٢
الدقهلية	١١٠٩
الشرقية	١٢٨٧
الجيزة	٢٧٥
الفيوم	٥٠٠

تابع جدول رقم (٧)

تابع نشاط قصور وبيوت الثقافةموزعاً على كل محافظة. سنة ١٩٩٢

المحافظة	عدد العروض المختلفة
بنى سويف	١٠٥٤
المنيا	١٩١٤ (؟)
أسيوط	٤٨٤
سوهاج	٦٨١
قنا	١١٩٢ (؟)
أسوان	١٠٥٠
الوادى الجديد	٧٩٥
البحر الأحمر	٢١٧
الإجمالى	٢١٠١٢
إجمالى المستفيدين:	٦٣٣٩٧٢٩

المصدرالسابق .

جدول (٨)
نشاط مكتبات قصور وبيوت الثقافة سنة ١٩٩٢

المحافظة	عدد القراء	النسبة	عدد الكتب المعارة	عدد المكتبات	النسبة
القاهرة	٢١٢٤٦		١٠٥٤٣	٢٢	
الإسكندرية	٣٨٤٣٢		١٥٤٠٤	٦	
مرسى مطروح	٣٩٠٩		٧١٨٨	٦	
البحيرة	١٠٣٩٥٣		٣٤٠٣٥	٢٦	
كفر الشيخ	٧٨٧٧٠		٨٧٦٧٣	٢١	
الغربية	٤٤٠٧٨		٣٥٢٨٢	٢٧	
المنوفية	٤٥٤٤٩		٩٤٥٦٤	١٥	
القليوبية	٥٥٥١١		١٦٩٨٦	١٧	
بورسعيد	٦٣١٣١		٥٧٦٤٣	٨	
الإسماعيلية	٢٥٠٨٧		٥٢٠٧٩	٧	
السويس	٤٨٩٣		٩٧٨١	٦	
شمال سيناء	٧٢٧٠		٢٨٨٨	١٠	
جنوب سيناء	١٢١٥٧		١٢٧١٣	٨	
دمياط	٥٢٢٩٨		٥٠٩٤٣	١٣	
الدقهلية	١٣٠١٥		١٦٦٩٥	٣٠	
الشرقية	١٠٦٥٠		٩٢٤٧	١٧	
الجيزة	٥٣٦٣		١٠٤٠٦	١٨	
الفيوم	٣٠٦٦١		٣٨٨٦٨	١٢	
بنى سويف	٥١٨٦		٤٩٧٨	٩	
المنيا	٤٦٩٩٩		٤٨٧٦٧	١٥	
أسيوط	٤٠٤٢٧		٥٩٢١٩	١٤	
سوهاج	٤٨٠١٨		٥٢٠٤٧	١٣	
قنا	٧٨٣٤١		٧٧٠٨٧	١٥	
أسوان	٣٢٧٤٣		٩١١١	١٥	
الوادى الجديد	٢٢٩٥٦		٢٣٠٧١	١٤	
البحر الأحمر	٣٣٥٢		١٦٦٩	٥	
الإجمالى	١١٦٣٠٠١		١١٦٧٥٣٨	٣٧١	

المصدر السابق

جدول (٩)
مبيعات هيئة الكتاب سنة ١٩٩٢

الفرع أو المكتبة	المبلغ	النسبة
القاهرة	٨٠٨٥٣٨	٦١٫٦٪
١٤ فرعاً ومركزاً		
الإسكندرية	٢٠٢٢٧٣	
فرع ومركز		
بقية المحافظات	٢٣٣٢٧٧	
٩ مكتبات		
الجملة	١٣١٢١٧١	١٠٠٪

المصدر السابق ص١٥٣ ـ ١٥٦

جدول رقم (١٠)
بعض الملامح الأساسية للاتصال (الثقافة)

المحافظة	أجهزة التليفزيون لكل ألف أسرة		عدد المترددين على دور السينما سنويا لكل ألف نسمة ١٩٨٩	عدد المترددين على المسارح سنويا لكل ألف نسمة ١٩٨٩	عدد المترددين على المتاحف سنويا لكل ألف نسمة ١٩٩٠	عدد الكتب بالمكتبات ولكل ألف نسمة ١٩٨٨
	إجمالى ١٩٨٦	ريف ١٩٨٦				
القاهرة	٩٨٥	ـ	١٨٥٩	٥٢	٣٦٤	٤٣٩
الإسكندرية	٩٣٤	ـ	١٤٩٦	٤٤	٣٧٥	٢٧٧
بورسعيد	٩٨٨	ـ	١٠١١	ـ	١٩٤	ـ
السويس	٩٣٣	ـ	٢٧٧	٧٦	ـ	٤٤٧
المحافظات الحضرية	٩٥٢	ـ	١٦٥٥	٥٢	٣٤٦	٣٩١
دمياط	٧٩٠	٧٥١	٧٠٧	ـ	٣٥	ـ
الدقهلية	٧٣٥	٦٨٤	٨٢	ـ	٧	ـ
الشرقية	٦٦٢	٦٣٨	١٨٣	ـ	٤	ـ
القليوبية	٧٨٩	٧٢٣	٢٠٩	ـ	١٢	ـ
كفر الشيخ	٦٠٥	٥٣٩	١٩٢	ـ	ـ	ـ
الغربية	٧٥٩	٦٨٥	٤٦٨	ـ	١٠	ـ
المنوفية	٧٠٦	٦٧٥	٢٩	ـ	صفر	ـ
البحيرة	٦٢١	٥٤٩	٢٤٠	ـ	٦	ـ
الإسماعيلية	٨٣١	٧٤٦	٦٤٣	ـ	٣٢	ـ
الوجه البحرى	٧١٤	٦٥٠	٢٣٢	٦	٧	٩١
حضر	٨٦٣		ـ	ـ	ـ	ـ
ريف	٦٥٠		ـ	ـ	ـ	ـ
الجيزة	٩٠٨	٨٤٤	٣٨٨	ـ	٢٣٢	ـ
بنى سويف	٤٨٣	٤٣٤	٥٣	ـ	ـ	ـ
الفيوم	٤٢٤	٩٢٣	٢١٢	ـ	٨	ـ
المنيا	٤٩٩	٤٣٣	١٤٨	ـ	٨	ـ

تابع جدول (١٠)
بعض الملامح الأساسية للاتصال (الثقافة)

المحافظة	أجهزة التليفزيون لكل ألف أسرة إجمالى ١٩٨٦	ريف ١٩٨٦	عدد المترددن على دور السينما سنويا لكل ألف نسمة ١٩٨٩	عدد المترددن على المسارح سنويا لكل ألف نسمة ١٩٨٩	عدد المترددن على المتاحف سنويا لكل ألف نسمة ١٩٩٠	عدد الكتب بالمكتبات لكل ألف نسمة ١٩٨٨
أسيوط	٤٩٦	٤٢٠	٢١٢	–	١	–
سوهاج	٥٢٩	٤٧٢	١٦٦	–	–	–
قنا	٦٢٩	٥٨٤	٩٤	–	١١٤	–
أسوان	٧٥٦	٧٠٢	١٣٥٣	–	١٠٩	–
الوجه القبلى	٦١٥	٥١٣	٢٦٠	١٠	٧٧	١٤٠
حضر	٨١٥		–	–	–	–
ريف	٥١٣		–	–	–	–
البحر الأحمر	٨٢٩	٤٩١	–	–	٨٣	صفر
الوادى الجديد	٧٩٣	٧١٩	–	–	–	صفر
مرسى مطروح	٥٠٢	١٥٥	–	–	١٢٦	–
شمال سيناء	٥٢١	٢٠٤	–	–	٨٠	–
جنوب سيناء	٣٧٧	١٦٢	–	–	–	–
محافظات الحدود	٦١٠	٣٢٣	٤٣	٨	٧٨	١٨٧
حضر	٨٠١		–	–	–	–
ريف	٣٢٣		–	–	–	–
مصر	٧٣٠		٥٢٣	١٧	٩٩	١٧٠
حضر	٨٩٢		–	–	–	–
ريف	٥٨٥		–	–	–	–

المصدر: تقرير التنمية البشرية ـ المعهد القومى للتخطيط القاهرة ١٩٤٤ ص ١٣١.

جدول (١١)
توزيع ونشاط قصور وبيوت الثقافة داخل القاهرة سنة ١٩٩٢

الأحياء	عدد القصور والبيوت	النسبة	عدد العروض	عدد المستفيدين	النسبة
الأحياء الغنية:	١٧	٪٦٨	٧٧٨	٧٢٧٩٧	٪٥٨
الأحياء الشعبية:	٨	٪٣٢	٥٤٦	٥٣٣٣٩	٪٤٢
الإجمالى	٢٥		١٣٢٤	١٢٦١٣٦	

الإحصاءات الثقافية بوزارة الثقافة، الكتاب السنوى، مصدر سابق ص ١٧٨ ـ ١٨١

تلخيص للجدول رقم ٥٤ وقد شمل كل العروض والمحاضرات والندوات، فيما عدا البند الأخير الخاص بالحرف البيئية.



الفصول والغايات



توقيع الماجنى كارتا. لوحة قديمة

الغرب متفرد لا كونى

صامويل ب. هنتينجتون

التحديث ليس كافياً:

فى الأعوام الأخيرة أعاد الغربيون تأكيد ذواتهم وأثاروا حنق الآخرين بتوضيحهم لفكرة أن ثقافة الغرب هى، وينبغى لها أن تكون، ثقافة العالم.. اتخذت هذه الغطرسة شكلين؛ الأول هو مسألة استعمارية الكولا، ويدعى مناصروها أن الثقافة الشعبية الغربية، وبتحديد أكبر الأمريكية، تغلف العالم: طعام أمريكى، ملابس، موسيقى البوب، أفلام، وسلع استهلاكية يتزايد انكباب الناس عليها فى كل قارة. والشكل الآخر يتعلق بالتحديث، ولا يدّعى هذا الشكل أن الغرب قد قاد العالم إلى المجتمع الحديث فقط وإنما يدّعون كذلك أنه بقدر ما يتم تحديث الناس فى الحضارات الأخرى يتم غربنتهم(١)، بتخليهم عن قيمهم التقليدية ونظمهم الإجتماعية وعاداتهم وتبديهم لتلك السائدة فى الغرب. كلا الطرحين يقدمان صورة عالم غربى بازغ يتصف بالعالمية والتآلف ـ وكلاهما، بدرجات متفاوتة، ضال متعجرف وزائف وخطر.

يحدد دعاة مسألة استعمارية الكولا الثقافة بأنها استهلاك السلع المادية. إن قلب أى ثقافة يتضمن، بأية حال، لغة وديانة وقيمًا وتقاليد وعادات. إن احتساء الروس لمشروب الكوكاكولا لا يجعلهم يفكرون كأمريكان بأكثر مما يؤدى أكل الأمريكان للسوشى إلى أن يفكروا كيابانيين. عبر التاريخ الإنسانى، انتشرت التقاليع والسلع المادية من مجتمع لآخر دون أن يحدث ذلك تحويلا بالغ التأثير فى الثقافة الأساسية للمجتمع المتلقى لها. اجتاحت العالم الغربى، بصورة دورية، الحماسة لعديد من مفردات الثقافة الصينية والهندوسية والثقافات الأخرى، دون حدوث تجاوز مستمر يمكن ملاحظته. إن الادعاء بأن انتشار الثقافة الشعبية pop culture والسلع الاستهلاكية فى أنحاء العالم، يمثل انتصار الحضارة الغربية هو أمر يستخف بقوة الثقافات الأخرى بينما يقلل من قدر الثقافة الغربية بحصرها فى الأغذية الدسمة والبنطلونات ذات الألوان الباهتة والمشروبات الفوارة. إن جوهر الثقافة الغربية هو الخريطة الهائلة، وليس ساندويتش الماك الضخم.



الغرب متفرد لا كوني

إن دعوى التحديث أمر أكثر جدية، من الوجهة العقلية، من مسألة استعمارية الكولا، ولكنهما معيبان بالدرجة نفسها . لقد مكن الاتساع الهائل للمعرفة العلمية والهندسية، والذى تحقق فى القرن التاسع عشر، الإنسان من التحكم فى بيئته وتشكيلها بطرق غير مسبوقة. إن التحديث يتضمن التصنيع والتمدن وارتفاع مستوى التعلم والتعليم والصحة والتعبئة الاجتماعية social mobilization، وبنيات مهنية متنوعة وأكثر تركيبا.. إنها عملية ثورية مقارنة بالانتقال من مجتمعات بدائية إلى مجتمعات متحضرة فى وادى دجلة والفرات، وادى النيل، وادى السند حوالى ٥٠٠٠ ق.م. إن مواقف وقيم ومعرفة وثقافة من ينتمون إلى مجتمع متحضر، تختلف تماماً عن تلك الخاصة بمن ينتمون إلى مجتمع تقليدى. كان الغرب، باعتباره الحضارة الأولى التى تأخذ بالتحديث، هو أول من أتم اكتساب ثقافة الحداثة. وحيث إن المجتمعات الأخرى اتخذت أنماط التعليم نفسها والعمل والصحة والبنية الطبقية، فإن دعوى التحديث تمضى، وستصبح ثقافة الغرب تلك هى ثقافة العالم.

إن وجود اختلافات بالغة الأهمية بين الثقافات الحديثة والتقليدية هو أمر يتجاوز النقاش.. ففى عالم تتميز بعض مجتمعاته بالتحديث الفائق فيما بعضها الأخرى تقليدية سيكون بلا شك عالما أقل تجانسًا من عالم تكون كل مجتمعاته حديثة بنحو متناظر.. لايتبع ذلك بالضرورة أنه على المجتمعات ذات الثقافات الحديثة أن تكون أكثر تشابها مما عليه المجتمعات ذات الثقافات التقليدية؛ فمنذ عدة مئات من السنين فقط كانت كل المجتمعات تقليدية.. هل كان ذلك عالما أقل تجانسا من عالم التحديث الكونى المستقبلى المحتمل نشوؤه؟ ربما لا. إن صين مينج(٢)..كانت بلا شك أقرب إلى فرنسا فالوا(٣)، كما يرى **فرناند برودل**(٤) بأكثر مما كانت عليه صين **ماوتسى تونج** بالنسبة إلى فرنسا الجمهورية الخامسة، إن للمجتمعات الحديثة كثيراً من الأشياء المشتركة، ولكن هذه المجتمعات لا تندمج بالضرورة بنحو متجانس، والادعاء بأنها تستند إلى افتراض أنه ينبغى للمجتمع الحديث مقاربة نمط مفرد؛ النمط الغربى؛ حيث إن الحضارة الحديثة حضارة غربية، والحضارة الغربية حضارة حديثة. ذلك، بأية حال، تطابق زائف . واقع الأمر أن كل دارسى الحضارة يتفقون على أن الحضارة الغربية بزغت فى القرنين الثامن والتاسع وطورت سماتها الخاصة خلال القرون اللاحقة. إنها لم تأخذ بأسباب التحديث حتى القرن الثامن عشر. الغرب، باختصار، كان غربيا لمدة طويلة قبل أن يصبح حديثًا.

ما الذى يجعل الغرب غربياً؟

ما هى السمات المميزة للحضارة الغربية خلال مئات الأعوام قبل أن تأخذ بأسباب التحديث؟ يختلف عديد من الباحثين ممن أجابوا عن هذا السؤال حول بعض الأمور المعينة ولكنهم اتفقوا على عدد من النظم، الممارسات والمعتقدات التى قد تكون تحددت بنحو مشروع باعتبارها لب الحضارة الغربية.

الإرث الكلاسيكى: ورث الغرب، باعتباره الجيل الثالث للحضارات، كثيراً من الحضارات السابقة، ومن بينها أكثر الحضارات الكلاسيكية شهرة. والموروثات الكلاسيكية فى الحضارة الغربية عديدة، وتتضمن الفلسفة والعقلانية اليونانيتين والقانون الرومانى واللغة اللاتينية والمسيحية. لقد ورثت كل من الحضارتين الإسلامية والأرثوذكسية من الحضارة الكلاسيكية وإنما بدرجة لا تدانى ما ورثه الغرب.

المسيحية الغربية: إن المسيحية الغربية بدءا بالكاثوليكية ثم البروتستانتية، هى التميز التاريخى الأكثر أهمية وتفردا للحضارة الغربية، وبالفعل، فإن ما يعرف الآن باعتباره الحضارة الغربية، كان خلال معظم ألفيته الأولى، يدعى بالعالم المسيحى الغربى. كان هناك شعور نام بالمجتمع بين المسيحيين الغربيين؛ شعور جعلهم يحسون بالتمايز عن الأتراك والعرب والبيزنطيين وغيرهم. وعندما خرج الغربيون لغزو العالم فى القرن السادس عشر قاموا بذلك لأجل الرب وكذا لأجل الذهب. ويعد الإصلاح الدينى Reformation(٥) وأيضا الإصلاح الدينى المضاد وانقسام العالم المسيحى الغربى إلى بروتستانتية وكاثوليكية - والنتائج السياسية والفكرية لهذا الصدع - ملامح مميزة للتاريخ الغربى، تغيب تماما عن الأرثوذكسية الشرقية وأقصيت من التجربة اللاتين أمريكية.

اللغات الأوروبية: اللغة هى التالية فى الترتيب للدين كعامل مميز لأولئك المنتمين إلى ثقافة ما عن المنتمين إلى ثقافة أخرى. ويختلف الغرب عن معظم الحضارات الأخرى بما لديه من تعدد فى اللغات. فاليابانية والهندية والصينية والروسية وحتى العربية عرفت باعتبارها اللغات الجوهرية لحضارات أخرى. لقد ورث الغرب اللغة اللاتينية، لكن عديداً من الأمم نشأت فى الغرب، ومعها نمت لغات محلية تم تصنيفها بنحو غير دقيق تحت مقولتى الرومانية والجرمانية. وحوالى القرن السادس عشر تقلدت هذه اللغات أشكالها المعاصرة، وأفسحت اللاتينية المجال للفرنسية كلغة عالمية مشتركة للغرب، وفى القرن العشرين أذعنت الفرنسية فى مواجهة اللغة الإنجليزية.

فصل السلطة الدينية عن السلطة الدنيوية: طوال التاريخ الغربى، قامت السلطة الدينية Church أولا، ثم عديد من الكنائس بعدها، بنحو منفصل عن الدولة. الله والقيصر، الكنيسة والدولة. السلطة الروحية والسلطة الدنيوية كانا يشكلان ثنائية سائدة فى الثقافة الغربية. فقط فى الحضارة الهندية، كانت السياسة والدين منفصلين بنفس هذا القدر من الوضوح. فى الحضارة الإسلامية، الله هو الحاكم. فى الصين واليابان، قيصر هو الإله. فى الأرثوذكسية الرب هو الشريك الأصغر للقيصر. هكذا فإن الفصل ومعاودة الفصل - بين كنيسة ودولة، والذى يمثل الحضارة الغربية، لم يتحقق فى

حضارة أخرى، وقد أسهم ذلك الفصل بين السلطات بقدر هائل فى نمو الحرية فى الغرب.

قاعدة القانون.

إن تصور مركزية القانون للوجود المتحضر، موروث من الرومان. وقد تقصى مفكرو العصور الوسطى فكرة القانون الطبيعى، والذى كان يفترض فى الملوك أن يزاولوا سلطاتهم بحسبه، وقد نشأ فى إنجلترا تقليد القانون العام. وخلال فترة الحكم الاستبدادى المطلق فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، لوحظت قاعدة القانون فى حالات مخالفتها بأكثر من حالات تطبيقها، غير أن فكرة إخضاع القوة الإنسانية لكابح خارجى تواصلت: لا يوجد إنسان مهيمن وإنما إله وقانون Non sub homine sed sub deo et lege، لقد وضع تقليد قاعدة القانون Rule of Law أساس الحكم الدستورى وحماية حقوق الإنسان، وضمنها حقوق الملكية، فى مقابل الممارسة الاستبدادية للسلطة، وفى بعض الحضارات الأخرى كان القانون عاملا أقل أهمية بكثير فى تشكيل الفكر والسلوك.

التعددية الاجتماعية والمجتمع المدنى

كان المجتمع الغربى على مر التاريخ تعددياً بنحو كبير. إن ما هو مميز فيما يتعلق بالغرب كما يذكر كارل دويتش «هو نشوء واستمرار جماعات شتى تتمتع بالحكم الذاتى وغير مؤسسة على علاقات الدم أو الزواج.»(٦) بدءا من القرنين السادس والسابع، تضمنت هذه الجماعات الأديرة والنظم الرهبانية والطوائف فى أول الأمر، ولكنها انتشرت بعد ذلك فى أنحاء أوروبا لتحتوى عديداً من الجماعات والمجتمعات.. ولأكثر من ألف عام، كان للغرب مجتمعه المدنى الذى ميزه عن الحضارات الأخرى. تعددية ارتباطية مدعمة بتعددية طبقية، وقد تضمنت معظم المجتمعات الغربية الأوروبية طبقة أرستقراطية ذاتية الحكم وقوية نسبيا، وطبقة عظيمة من الفلاحين، وطبقة ضئيلة ولكن ذات أهمية من التجار ورجال الأعمال. كانت قوة الأرستقراطية الإقطاعية مهمة بنحو خاص لأجل تحجيم قدرة الحكم الاستبدادى على ترسيخ جذوره فى معظم الأمم الأوروبية.. وتتباين تلك التعددية الأوروبية بحدة مع فقر المجتمع المدنى وضعف الأرستقراطية وقوة الإمبراطوريات البيروقراطية المركزية التى تواجدت خلال نفس الفترات الزمنية فى روسيا والصين والأراضى العثمانية وفى المجتمعات اللاغربية الأخرى.

الكيانات النيابية: فى تاريخ مبكر ساعدت التعددية على نشوء الطبقات estates ومؤسسات أخرى مثلت مصالح الأرستقراطية ورجال الدين والتجار والجماعات الأخرى. وفرت تلك الكيانات أشكالا من التمثيل تخلقت خلال عملية التحديث فى النظم الاجتماعية للديموقراطية الحديثة. وفى بعض الأحوال، خلال عصر الحكم الاستبدادى، تم إلغاؤها، أو تقليص قدراتها بصورة كبيرة، ولكن حتى مع حدوث ذلك، فقد استطاعت تلك الكيانات كما فى فرنسا، أن تستعيد وجودها كأداة للمشاركة السياسية الواسعة. واليوم، ليس ثمة حضارة تملك مثل هذا الإرث من الكيانات التمثيلية التى تعود إلى ألف عام. كذلك تطورات حركات الحكم الذاتى self-government على المستوى المحلى، بادئة فى القرن التاسع فى مدن إيطاليا ثم توسعت شمالا، تنتزع السلطة من الأساقفة والنبلاء وأخيراً، فى القرن الثالث عشر، مؤدية إلى تلك التكوينات الكونفدرالية من «المدن المستقلة القوية»، مثل كتلة هانزياتيك Hanseatic League. بالتالى كان التمثيل على المستوى القومى مدعوما بمعيار من الاستقلال السياسى الذاتى على المستوى المحلى. وهو معيار لم ير فى أى من مناطق العالم الأخرى.

الفردية: أسهمت عديد من الملامح السابقة للحضارة الغربية فى ظهور حس بالفردية وتقليد يخص الحقوق الفردية وحريات متفردة فيما بين المجتمعات المتحضرة. نمت الفردية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وفى حوالى القرن السابع عشر، ساد فى الغرب قبول بحق الاختيار الفردى والذى يصوغه كارل دويتش فى عبارة «ثورة رميو وجولييت»، كما نشأت مطالب تنادى بالحقوق المتساوية للجميع «للفقراء فى إنجلترا حياة يحيونها مثلما للأغنياء». وإن لم يتم قبولها فى كل أنحاء العالم. تظل الفردية ملمحا مميزا للغرب فى حضارات القرن العشرين. إذ نجد فى أحد التحليلات، والذى يتعرض لجماعات سكانية متماثلة من ٥٠ دولة، أن الدول العشرين التى تسجل أعلى مؤشر لمعدل الفردية تتضمن تسع عشرة دولة أوروبية. وفى استقصاء ثقافى مقارن آخر حول الفردية والجماعية collectivism، تأكد بنحو مماثل هيمنة الفردية فى الغرب مقارنة بسيادة الجماعية فى الأنحاء الأخرى من العالم، مستنتجا أن «القيم ذات الأهمية العظمى فى الغرب، تعد ضئيلة الأهمية فى أنحاء العالم.»(٨) وثانية ومجددا فإن كلا من الغربيين واللاغربيين يشيرون إلى الفردية باعتبارها العلامة المركزية المميزة للغرب.

إن القائمة السابقة ليست إحصاء شاملا للسمات المميزة للحضارة الغربية، كما أنه لم يقصد بها أن تتضمن أن تلك السمات كانت موجودة دائما فى كل أنحاء المجتمع الغربى. بالتأكيد ليست كذلك: إن عديداً من الطغاة فى العالم الغربى تجاهلوا باستمرار قاعدة القانون وعلقوا العمل بالكيانات التمثيلية.. وكذا لم ترم إلى افتراض أن سمة من تلك السمات لم تظهر فى الحضارات الأخرى. من الواضح أن تلك الحضارات قد اتسمت بها: فالقرآن والشريعة يشكلان القانون الأساسى للمجتمعات الإسلامية، كما حازت اليابان والهند نظماً طبقية توازى تلك التى للغرب (وربما كنتيجة لذلك كانا هما المجتمعين اللاغربيين الكبيرين والوحيدين اللذين أيدا حكومات ديموقراطية لأى مدة من الزمن). بنحو فردى، فإن من هذه العوامل تقريبا لاينفرد بها الغرب، ولكنه ينفرد بالتوليفة التى تتكون منها معا، والتى منحت الغرب خاصيته المتميزة. لقد كانت تلك التصورات والممارسات والنظم الاجتماعية أكثر شيوعا فى الغرب منها فى الحضارات الأخرى. إنها تشكل اللب الجوهرى الدائم للحضارة الغربية، إنها ما هو غربى، ولكن ليس ما هو حديث فيما يتعلق بالغرب.

كذلك أسسوا الالتزام تجاه الحرية الفردية التى تميز الآن الغرب عن الحضارات الأخرى. إن أوروبا، كما ذكر آرثر م. شليسينجر، الصغير، هى «المصدر - المصدر الفريد لأفكار الحرية الفردية والديموقراطية

الغرب منفرد لاكوني



السياسية وقاعدة القانون وحقوق الإنسان والحرية الثقافية... تلك أفكار أوروبية، ليست آسيوية أو أفريقية أو شرق أوسطية إلا في حالات تبني هؤلاء لها...(٩) تشكل تلك المفاهيم والسمات المميزة - بمقدار واسع - جزءا من العوامل التي مكنت الغرب من أن يكون له السبق في تحديث نفسه وتحديث العالم. لقد جعلت من الحضارة الغربية حضارة فريدة، والحضارة الغربية نفيسة ليس لأنها عالمية وإنما لأنها متفردة.

هل يمكن للآخرين نسخ الغرب؟

لتحقيق التحديث، أينبغي للمجتمعات اللاغربية أن تتخلى عن ثقافتها وأن تتبنى العناصر الجوهرية للثقافة الغربية؟ من وقت لآخر كان قادة مثل هذه المجتمعات يفكرون في أن ذلك أمر ضروري. كل من **بيتر الأعظم ومصطفى كمال أتاتورك**، عزما على تحديث بلديهما مقتنعين بأنه لتحقيق ذلك ينبغي لمجتمعيهما تبني الثقافة الغربية حتى إلى الحد الذي يمكن معه أن يستبدلوا بغطاء الرأس التقليدي مثيله الغربي.. وخلال إنجازهما لذلك خلقا بلدانا «متفسخة»، غير موقنة من هويتها، كما أن المستجلبات im-ports الثقافية الغربية لم تساعدهم بنحو مهم في سعيهم لتحقيق التحديث. وفي الأغلب فإن قادة المجتمعات اللاغربية قد سعوا إلى إنجاز التحديث ونبذوا الغربنة west-ernization وتلخص هدفهم في عبارات Ti-yong (التعليم الصيني للمبادئ التأسيسية، والتعليم الغربي للاستخدام العملي)، woken,yose (الروح اليابانية، والتقنية الغربية) قالها المصلحون الصينيون واليابانيون منذ قرن مضى، وفي المملكة السعودية علق الأمير بندر بن سلطان عام ١٩٩٤ قائلا، إن المستجلبات الأجنبية حسنة «كأشياء» براقة وعالية الجودة.. غير أن النظم الاجتماعية والسياسية المجردة المستجلبة من مكان آخر قد تكون مدمرة - اسألوا شاه إيران إن الإسلام بالنسبة لنا ليس مجرد ديانة ولكنه أيضًا أسلوب حياة، نحن السعوديين نرغب في التحديث ولكنا لا نرغب بالضرورة في الغربنة. لقد أصبحت اليابان وسنغافورة وتايوان والسعودية وبدرجة أقل، إيران مجتمعات حديثة دون أن تصبح مجتمعات غربية: إن الصين تقوم بالتحديث ولكن من المؤكد أنها لا تقوم بالغربنة.

إن التفاعل والاستعارة فيما بين الحضارات أمر دائم الحدوث، وقد أصبح يحدث على نطاق أوسع بفضل الوسائل الحديثة للنقل والاتصالات. على أية حال فإن معظم حضارات العالم العظيمة بقيت على الأقل ألف عام وفي بعض الأحيان عدة آلاف من السنين، ولتلك الحضارات سجل واضح من الانتحال من الحضارات الأخرى، بوسائل تزيد من فرصها في البقاء. استيعاب الصين لبوذية الهند، يوافق الباحثون على أنه لم ينجح في «هندنة Indianization الصين»، وإنما في جعل البوذية صينية. لقد عدّل الصينيون البوذية لأجل أن توافق أغراضهم وحاجاتهم. على الصينيين أن يؤرخوا لتغلبهم الدائم على الجهود الغربية المكثفة لتنصيرهم، وإذا ما كان قد حدث في لحظة ما أن استجلب الصينيون المسيحية، فإنه أكثر من مجرد احتمال أنه كان سيتم استيعابها وتعديلها بطريقة تؤدي إلى تعزيز لب الثقافة الصينية الدائم.

بنحو مماثل، في قرون سابقة، قام العرب المسلمون بتلقي وتقدير واستخدام «إرثهم الهيليني لأسباب استعمالية جوهريا، ولكونهم شديدي الاهتمام بانتحال أشكال أو مظاهر تقنية خارجية معينة، فقد عرفوا كيف يهملون كافة العناصر في الكيان الفكري اليوناني والتي قد تتعارض مع «الحقيقة»، كما تأسست في المعايير والفروض القرآنية الساسية»،وقد اتبعت اليابان النهج نفسه. ففي القرن السابع استجلبت اليابان الثقافة الصينية وقامت «بإجراء التحويل، دونما إيعاز خارجي، وبعيد عن أي ضغوط اقتصادية وعسكرية، لترقى بالحضارة». «وخلال القرون التالية، كان ثمة فترات من العزلة النسبية عن التأثيرات القارية، تم خلالها فرز المستجلبات السابقة واستيعاب المفيد منها، تلتها فترات من الاتصال المتجدد والانتحال الثقافي». وبالكيفية نفسها، تقوم اليابان ومجتمعات لا غربية أخرى اليوم باستيعاب عناصر مختارة من الثقافة الغربية مستخدمين إياها لترسيخ هويتهم الثقافية. سيكون الأمر، كما يرى برودل Broudel، أقرب إلى «الطفولية»، أن نعتقد أن « انتصار الحضارة في المفرد»، سوف يؤدي إلى نهاية تعددية الثقافات التي تجسدت لقرون في حضارات العالم العظيمة(١٠).

رد فعل ثقافي مضاد

إن التحديث والتنمية الاقتصادية لايحتاجان ولا ينتجان غربنة ثقافية، على العكس، فإنهما يتعهدان إنعاشًا، والتزامًا متجدداً تجاه الثقافات المحلية. على المستوى الفردي، فإن حركة الناس داخل أعمال ومنشآت اجتماعية ومدن غير مألوفة تحطم روابطهم المحلية التقليدية، وتولد مشاعر الاغتراب واللامعيارية anomie(١١)، وتخلق أزمة هوية والتي غالبا ما يزودها الدين بحل. وعلى المستوى الاجتماعي، فإن التحديث ينمي الثروة الاقتصادية والقوة العسكرية للدولة ككل كما يحث الناس على الثقة في تراثهم وأن يصبحوا شديدي الوثوق ثقافيا كمحصلة، فعديد من المجتمعات اللاغربية رأت عائد الثقافات المحلية. وهي تتخذ في الغالب شكلا دينيا، والانبعاث العالمي للدين هو نتيجة مباشرة للتحديث. في المجتمعات اللا غربية يتخذ ذلك الإحياء، بشكل لازم تقريبًا، قالب مناهضة الغرب، كما يرفض - في بعض الحالات - الثقافة الغربية بسبب كونها مسيحية ومخربة، وفي حالات أخرى بسبب أنها علمانية ومتفسخة، وعائد الثقافة المحلية يمكن ملاحظته بوضوح في المجتمعات الإسلامية والآسيوية. لقد تبدت النهضة الإسلامية في كل بلد إسلامي؛ وفيها جميعا تقريبا أصبحت حركة فكرية وثقافية واجتماعية كبيرة، وفي معظم هذه البلدان كان تأثيرها قويًا في السياسة. في عام ١٩٩٦، كانت كل البلدان الإسلامية بالفعل، عدا إيران، أكثر إسلامية دينا وتوجها في نظرتها وممارستها ونظمها الاجتماعية

مما كانت عليه منذ ١٥ عاما: ففى البلدان التى لا تشكل فيها القوى السياسية الإسلامية الحكومات، نجدها تسيطر بنحو متزايد وغالبا ما تحتكر موقع المعارضة للحكومة، وعبر العالم الإسلامى يتخذ الناس رد فعل مضاد «للتسميم التغريبى Westoxification» لمجتمعاتهم.

مرت مجتمعات شرق آسيا بإعادة اكتشاف مواز للقيم المحلية، وخططت بصورة متزايدة مقارنات غير مداهنة بين ثقافتهم والثقافة الغربية. ولعدة قرون، ومعهم شعوب لا غربية أخرى، غبطوا الازدهار الاقتصادى والخبرة التكنولوجية والقوة العسكرية والتماسك السياسى للمجتمعات الغربية. لقد تقصوا سر هذا النجاح، فى الممارسات والعادات الغربية، وعندما تعرفوا على ما اعتقدوا أنه قد يكون مفتاح هذا النجاح حاولوا تطبيقه فى مجتمعاتهم. والآن على أية حال - فإن تغييرا أساسيا قد تحقق. واليوم تعزو دول شرق آسيا تطورها الاقتصادى الدرامى لا إلى استيرادهم للثقافة الغربية وإنما إلى تمسكهم بثقافتهم. لقد نجحوا، يقولون، لا بسبب أنهم أصبحوا شبيهين بالغرب، وإنما بسبب أنهم ظلوا مختلفين عنه. وبكيفية مشابهة إلى حد ما، حينما شعرت المجتمعات اللا غربية بالضعف فى علاقتها بالغرب، توسل عديد من قادتها القيم الغربية المتعلقة بحق تقرير المصير والليبرالية والديمقراطية والحرية ليبرروا معارضتهم للهيمنة الغربية العالمية. والآن بعدما زال ضعفهم وتزايدت قوتهم فإنهم يدينون القيم نفسها والتى استحضروها من قبل لدعم مصالحهم بأنها «إمبريالية حقوق الإنسان». وفيما تتقلص القوة الغربية، كذلك تتقلص جاذبية القيم والثقافة الغربيتين، يواجه الغرب الحاجة لتهيئة نفسه لحالة التداعى التى تنتاب قدرته على فرض قيمه على المجتمعات اللاغربية. وبنحو جذرى فإن كثيرا من دول العالم تصبح أكثر حداثة وأقل غربنة.

وأحد تعينات هذا الاتجاه هو ما صاغه رونالد دور «ظاهرة محلانية in-digenization الجيل الثانى»، ففى كل من البلدان اللاغربية سواء كانت مستعمرات غربية سابقة أو كانت مستقلة، فإن «أول القائمين بالتحديث، أو جيل، ما بعد الاستقلال، يكون غالبا قد تلقى تدريبه وتعليمه فى جامعات أجنبية (غربية) بلغة غربية عالمية، إلى حد ما، بسبب أنهم يذهبون أولا إلى الخارج كشباب قابل للتأثير، وقد يكون استيعابهم للقيم وأساليب الحياة الغربية عميقا. أما معظم أفراد الجيل الثانى والأكبر، فعلى العكس، يتلقى تعليمه فى الوطن فى جامعات أسسها الجيل الأول، حيث تستخدم اللغة المحلية، بديلة للغة الاستعمارية، فى التدريس.. وتلك الجامعات «توفر اتصالا أخف كثيرا بثقافة العالم المتحضر» و «اصطبغت المعرفة فيها بالصبغة المحلية، بواسطة الترجمات. عادة ما تكون محدودة النطاق ونوعية ضئيلة القيمة». يستاء المتخرجون فى تلك الجامعات من هيمنة الجيل السابق المؤهل غربيا ومن ثم فغالبا «ما يخضعون لإغراءات حركات المعارضة الوطنية». ومع تقلص التأثير الغربى، فإن القادة الشباب الطامحين لا يستطيعون التوجه إلى الغرب ليوفر لهم القوة والثروة - فيكون عليهم أن يعثروا على وسائل النجاح فى قلب مجتمعهم، ومن ثم أن يتوافقوا مع قيم وثقافة ذلك المجتمع.

لقد نمت المحلانية بواسطة التناقض الديمقراطى: عندما تبنت المجتمعات اللاغربية الأسلوب الغربى للانتخابات، نجد أن الديمقراطية تشجع، وغالبا ما تضع فى السلطة، الحركات الوطنية المناهضة للغرب ففى ستينيات وسبعينيات هذا القرن كانت حكومات الدولة النامية، التى تم غربنتها وتلك المشايعة للغرب، مهددة بانقلابات وثورات، وفى الثمانينيات والتسعينيات تزايد خطر إقصائهم عن السلطة فى الانتخابات. تجنح الديمقراطية إلى جعل المجتمع أكثر محدودية فى نظرته، وليس أكثر عالمية، فلا ينجح السياسيون فى المجتمعات اللاغربية فى الانتخابات بإظهارهم إلى أى مدى هم غربيون، إذ تحثهم المنافسة الانتخابية على أن يعملوا بكيفية يعتقدون أنها ستكون ذات جاذبية شعبية أكبر.. وهم عادة عرقيون وقوميون ودينيون فى شخصياتهم، والنتيجة هى تعبئة شعبية ضد الصفوة ذات التوجه الغربى والغرب بشكل عام.. تلك العملية، والتى بدأت فى سيريلانكا فى الخمسينيات، امتدت من بلد لآخر فى آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط وتتبدى فى نجاحات الأحزاب ذات التوجه الدينى فى الهند وتركيا والبوسنة وإسرائيل فى انتخابات ١٩٩٥- ١٩٩٦. وهكذا فإن الإرساء الديمقراطى Democratization على خلاف مع الغربنة.

إن التيارات القوية للمحلانية والنشطة فى العالم، تسخر من التوقعات الغربية بأن الثقافة الغربية ستصبح ثقافة العالم. إن العنصرين المركزيين لأى ثقافة هما اللغة والدين. واللغة الإنجليزية، كما تأكد، ستغدو هى لغة العالم.. من الواضح أنها أصبحت لغة التخاطب للاتصالات فى الأعمال متعددة الجنسيات والدبلوماسية والمؤسسات الدولية والسياحة والطيران.. ذلك الاستخدام للإنجليزية للاتصال بين الثقافات، بأية حال، يفترض وجود ثقافات مختلفة، فالترجمة والتفسير مثلا وسائل للتوافق مع تلك الاختلافات، لا إقصاءها. فى الواقع، فإن نسبة سكان العالم من متحدثى الإنجليزية ضئيلة وآخذة فى النقصان. وبحسب معلومات شديدة الوثوق، موضوعة بواسطة سيدنى س. كلبرت، بروفيسور فى جامعة واشنطن، فإنه فى عام ١٩٨٥ كان زهاء ٨و٩٪ من البشر يتحدثون الإنجليزية كلغة أولى أو ثانية، فى عام ١٩٩٢ كانت النسبة ٧,٦ ٪. إن لغة أجنبية بالنسبة إلى ٩٢ ٪ من سكان العالم ليست بلغة للعالم. وبالمثل، ففى عام ١٩٥٨ كان ٢٤ ٪ من البشر يتحدثون بإحدى اللغات الخمس الأساسية للغرب؛ وفى عام١٩٩٢ كانت النسبة أقل من ٢١ ٪ .. والوضع مشابه بالنسبة للدين؛ حيث يؤلف المسيحيون الغربيون الآن حوالى ٣٠ ٪ من سكان العالم، ولكن النسبة تتناقص باطراد، وفى لحظة ما فى العقد القادم، أو حوالى ذلك، سيزيد عدد المسلمين على عدد المسيحيين. وفيما يختص بالعنصرين المركزيين للثقافة «اللغة والدين»، فإن الغرب فى تراجع مثلما لاحظ ميشيل هاوارد أن الافتراض الغربى العام بأن التنوع الثقافى هو فضول تاريخى سرعان ما بلى بفعل نمو ثقافة عالم الأنجلوفونية الغربى التوجه والعام، مشكلا قيمنا الأساسية.. هو ببساطة غير حقيقى»(١٣).

وحيث إن المحلانية تنتشر وتضمحل جاذبية الثقافة الغربية، فإن المشكلة المركزية فى العلاقات بين الغرب وبقية العالم هى الهوة بين الجهود الغربية، وبشكل خاص الأمريكية، لدعم الثقافة الغربية باعتبارها



الغرب متفرد لا كوني

الثقافة العالمية وقدرتها المتضائلة على تحقيق ذلك. لقد فاقم انهيار الشيوعية من هذا التفاوت من خلال توطيد النظرة فى الغرب بأن أيديولوجيته الليبرالية الديموقراطية، قد انتصرت عالميا وأنها بالتالى صالحة على المستوى العالمى. يعتقد الغرب - وبخاصة الولايات المتحدة، والتى كانت دائما الأمة المبعوثة - أنه ينبغى على الشعوب اللاغربية أن تتعهد بالالتزام بالقيم الغربية كالديموقراطية والسوق الحرة والحكومات المحدودة السلطة والفصل بين الدين والدولة وحقوق الإنسان والفردية وقاعدة القانون، وأن عليها تجسيد تلك القيم فى مؤسساتها. أقليات فى الحضارات الأخرى من تعتنق وتؤازر هذه القيم، لكن الاتجاهات السائدة نحوها فى الثقافات اللاغربية تتفاوت من الشك وحتى المعارضة الشديدة. إن ما يعده الغرب نزعة عالمية يعده الآخرون استعمارا.

إن اللاغربيين لا يترددون فى الإشارة إلى الأخاديد بين المبدأ الغربى والممارسة الغربية. رياء ومواقف مزدوجة هى ثمن الادعاءات بالعالمية. لقد تم دعم الديموقراطية، ولكن ليس إذا كانت ستأتى بالأصوليين الإسلاميين إلى السلطة، لقد نصحت العراق وإيران بالحد من التسلح ولكن ليس إسرائيل،والتجارة الحرة إكسير النمو الاقتصادى، ولكن ليس الزراعة، حقوق الإنسان قضية قائمة مع الصين، لكن ليس مع السعودية، الإعتداء على الكويتيين أصحاب البترول يدفع بالقوة الغاشمة، ولكنه ليس اعتداء قويا ضد البوسنيين الذين لايملكون بترولا.

إن الاعتقاد بأنه ينبغى للشعوب اللاغربية أن تتبنى القيم والنظم الاجتماعية والثقافة الغربية هو، إذا أخذنا الأمر بجدية، اعتقاد لا أخلاقى فى فحواه. إن السيطرة الأوروبية شبه العالمية فى نهاية القرن التاسع عشر وهيمنة الولايات المتحدة على العالم فى النصف الثانى من القرن العشرين قد نشرت عديداً من مظاهر الحضارة الغربية فى أنحاء العالم، غير أن النزعة العالمية للغرب لن تقوم.. وكذا سيتقلص التسلط الأمريكى إذا لم تعد هناك حاجة لها لحماية الولايات المتحدة ضد تهديدات الحرب الباردة السوفيتية. الثقافة تتبع السلطة، وإذا ما تمت إعادة تشكيل المجتمعات اللاغربية بواسطة الثقافة الغربية، فسوف يحدث ذلك فقط كنتيجة لتوسع واحتشاد القوة الغربية. الاستعمار هو النتيجة اللازمة والمنطقية للنزعة العالمية، غير أن بعض أنصار النزعة العالمية يؤيدون التوجه العسكرى والإكراه الوحشى الذى قد يكون ضروريا لتحقيق هدفهم. بالإضافة إلى ذلك، باعتبارها حضارة ناضجة، لم يعد الغرب حائزا للدينامية الاقتصادية والسكانية المطلوبة لفرض إرادته على المجتمعات الأخرى، وأية جهود فى هذا السبيل ستجرى متناقضة مع القيم الغربية لتقرير المصير والديموقراطية . فى مارس من هذا العام، قال رئيس الوزراء الماليزى ماهزير لرؤساء الحكومات الغربية المجتمعين: «إن القيم الأوروبية قيم أوروبية؛ أما القيم الآسيوية فهى قيم عالمية». وبينما تشرع الحضارات الإسلامية والآسيوية فى تأكيد الشأن العالمى لثقافاتهم، سيصل الغربيون إلى تقدير الرابطة بين النزعة العالمية ، والاستعمار وأن يروا فضائل العالم المتعدد.

تعزيز الغرب

لقد حان أوان تخلى الغرب عن وهم العالمية وأن يدعم قوة وتماسك وحيوية حضارته فى عالم الحضارات. إن مصالح الغرب لم تتحقق بالتدخل السافر فى خلافات الشعوب الأخرى. فى الحقبة البازغة، ينبغى للمسئولية الأولى فى احتواء وحل الصراعات الإقليمية أن تقع على عاتق الدول الكبرى للحضارات السائدة فى تلك المناطق. «مجمل السياسة، سياسة محلية» ، كما يذكر **توماس ب. «تيب» أونيل** ، المتحدث السابق للبيت الأبيض ، والنتيجة الطبيعية لتلك الحقيقة أن «مجمل السلطة، سلطة محلية».لا يمكن لأى من الأمم المتحدة أو الولايات المتحدة أن تفرض على الصراعات المحلية حلولا طويلة المدى تشذ عن وقائع السلطة المحلية. . وكما لا يخفى عن أى خبير بالجريمة، فإن أفضل تأمين للنظام والقانون المحلى يكون بواسطة شرطى مترجل، لا بواسطة الظهور المحتمل فى الأفق لفرقة عسكرية من رجال الشرطة الراكبة. فى عالم متعدد الأقطاب والحضارات، تكون مسئولية الغرب هى تأمين مصالحه الخاصة، لا أن يدعم مصالح الشعوب الأخرى ولا أن يحاول إنهاء الصراعات بين الشعوب الأخرى عندما تكون الصراعات ذات أهمية ضئيلة أو عديمة الأهمية للغرب.

يعتمد مستقبل الغرب فى قسم كبير على وحدة الغرب، يرى دارسو الحضارات أنها تتطور خلال عهود من الاضطرابات ومرحلة من الدول المتحاربة، تؤدى فى النهاية إلى دولة عالمية للحضارة التى قد تكون إما مصدر تجديد أو مقدمة انحطاط وتحلل. تخطت الحضارة الغربية مرحلة الدول المتحاربة متجهة صوب مرحلتها الخاصة بالدولة العالمية.. تلك المرحلة مازالت غير مكتملة ، مع وجود الأمة - الدول للغرب المتماسك فى شكل دولتين شبه عالميتين فى أوروبا وأمريكا الشمالية.. ذلكما الكيانان ووحداتهما التى تشكل مقوماتهما، على أية حال، مترابطان معا بشبكة مركبة بنحو يفوق العادة من الروابط التأسيسية الرسمية وغير الرسمية. إن الدول العالمية للحضارات السابقة كانت إمبراطوريات، ومنذ أصبحت الديموقراطية هى الشكل السياسى للحضارة الغربية، لم تعد الدولة العالمية الناشئة للحضارة الغربية إمبراطورية، بل بالأحرى توليفة من الاتحادات والاتحادات التعاهدية confederations ونظم الحكم الدولية.

إن المشكلة بالنسبة للغرب، فى هذا الوضع، هى أن تحافظ على ديناميكيتها وأن تعزز تماسكها.. وتعتمد وحدة الغرب على الأحداث فى الولايات المتحدة بأكثر من تلك الواقعة فى أوروبا ، وحاليا تتجاذب الولايات المتحدة اتجاهات ثلاث، تتجذب جنوبا بفعل

الهجرة المتواصلة لسكان أمريكا اللاتينية وتنامي حجمهم وقوتهم؛ وبفعل عدم مشاركة المكسيك في اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية (النافتا) Nafta وإمكانية توسيع مجال اتفاقية النافتا لتشمل بلدان نصف الكرة الغربي، وبفعل التغيرات الثقافية والاقتصادية والسياسية في أمريكا اللاتينية مما جعلها أكثر شبها بالولايات المتحدة. في الوقت نفسه، تنجذب الولايات المتحدة غربا بفعل تزايد ثروة ونفوذ مجتمعات شرق آسيا، وبفعل الجهود الدائبة لتطوير مجتمع باسيفيكي، تلخص في اجتماع التعاون الاقتصادي الآسيوي ـ الباسيفيكي (APEC)؛ وبفعل الهجرة من المجتمعات الآسيوية. إذا ما كان للديموقراطية والأسواق الحرة وقاعدة القانون والمجتمع المدني والفردية والبروتستانتية جذورا راسخة في أمريكا اللاتينية، فتلك القارة، التي ظلت ثقافتها وثيقة الصلة بثقافة الغرب، سوف تندمج بالغرب وتصبح هي الدعامة الثالثة للحضارة الغربية. إن تقاربا مثل هذا غير محتمل مع المجتمعات الآسيوية التي يرجح، بدلا من ذلك، أن تثير تحديات اقتصادية وسياسية متواصلة للولايات المتحدة بشكل خاص وللغرب بشكل عام. وثالثا تنجذب تجاه أوروبا ، وهو الأكثر أهمية،. فالقيم المشتركة والنظم الاجتماعية والتاريخ والثقافة هي ما أوجبت ارتباط الولايات المتحدة القوي والدائم بأوروبا. وما هو لازم ومرغوب فيه، هو تطور إضافي للروابط التأسيسية عبر الأطلنطي، متضمنة التفاوض حول اتفاق التجارة الحرة الأوروبية الأمريكية وإنشاء منظمة اقتصادية شمال أطلسية كنظير لحلف شمال الأطلسي Nato.

إن الاختلافات الرئيسية الحالية بين أوروبا وأمريكا لا تنشأ عن صراعات المصالح المباشرة مع بعضهما بعضا، وإنما عن سياستيهما تجاه الجماعات الأخرى، ومن بين مسائل أخرى، فهي تتضمن توفير الدعم للحكم الإسلامي للبوسنة، أولوية احتياجات الأمن الإسرائيلي في السياسة الشرق أوسطية، جهود الولايات المتحدة لمعاقبة الشركات الأجنبية التي تقيم علاقات عمل مع إيران وكوبا، والحفاظ على تأييد اقتصادي تام ضد العراق، كما ينبغي أن يكون لحقوق الإنسان الجزئية والاهتمامات المتزايدة بالتسليح دور في التعامل مع الصين. لقد حاولت القوى اللاغربية بشدة، وخاصة الصين، استغلال هذه الاختلافات للوقيعة بين دولة غربية وأخرى، لقد نشأت تلك الاختلافات نفسها وبشكل عام عن وجهات النظر الجيوبوليتيكية والمصالح السياسية والاقتصادية الإقليمية المختلفة. إن الحفاظ على وحدة الغرب، على أية حال. أمر جوهري لإبطاء انهيار التأثير الغربي في العلاقات الدولية. إن ما لدى الشعوب الغربية من الأمور المشتركة يفوق بكثير ما بينها وبين الشعوب الآسيوية أو الشرق أوسطية أو الأفريقية؛ فلدى الدول الغربية الكبرى أشكال من الثقة والتعاون فيما بينها، في شكل مؤسساتي، لا يملكونه، باستثناءات نادرة، مع المجتمعات الكبرى الأخرى. طالما بقي الغرب متحدا، سيظل وله حضور هائل في المشهد العالمي، وبانقسامه سيكون نهبا لجهود الدول اللاغربية لاستغلال اختلافاته الداخلية بتقديم مكاسب قصيرة المدى لبعض البلدان الغربية مقابل خسارة طويلة المدى لجميع البلدان الغربية. إن على شعوب الغرب، بعبارة **بنيامين فرانكلين**، أن يتآزروا معا، وإلا فمن المؤكد تفككهم.

إن تعزيز تماسك الغرب يعني كلا من صون الثقافة الغربية داخل الغرب، وتعيين حدود الغرب.. ويتطلب الأمر الأول، من بين أشياء أخرى، التحكم في الهجرة من المجتمعات اللاغربية، مثلما فعلت الدول الغربية الأخرى ومثلما شرعت الولايات المتحدة في القيام به، مع تأمين استيعاب المهاجرين، الذين سمح لهم بتلك الهجرة، في الثقافة الغربية.. ويعني ذلك أيضا إدراك أنه في عالم ما بعد الحرب الباردة، فإن الناتو هو منظمة أمن الحضارة الغربية، وأن هدفه الأول هو الدفاع عن وحماية تلك الحضارة. وبالتالي. ينبغي على الدول الغربية تاريخاً ودينا وثقافة، إذا رغبت أن تكون قادرة على الانضمام للناتو.. وإذا تحدثنا بنحو عملي، فإنه ينبغي لعضوية الناتو أن تكون متاحة لدول Visegrad، دول البلطيق وسلوفينيا وكرواتيا، ولكن ليس للدول ذات التاريخ الإسلامي أو الأرثوذكسي أساسا. وفيما يركز النقاش الدائر تماما على توسع لا تقليص الناتو، يكون من الضروري أيضا إدراك أنه بتغيير مهمة الناتو، فإن الروابط التركية واليونانية بالناتو ستضعف ويمكن لعضويتهما فيه أن تنتهي وتصبح غير ذات معنى. إن الانسحاب من الناتو هو الهدف المعلن لحزب الرفاه في تركيا، أما اليونان فهي حليفة لروسيا بمثل ما هي عضو في الناتو.

لقد مر الغرب بمرحلة أوروبية من التطور والتوسع استمرت عدة قرون ومرحلة أمريكية سادت خلال هذا القرن إذا ما قامت الولايات المتحدة وأوروبا بتجديد حياتهما الأخلاقية، معتمدين على المشاركة الثقافية، وطورا أشكالا أقوى من التكامل الاقتصادي والسياسي لدعم تعاونهما الأمني في الناتو، فسيمكن لهما تكوين مرحلة أورو أمريكية ثالثة من التأثير السياسي والرفاهية الغربية. إن تكاملا سياسيا مهما سوف يجابه، إلى حد ما، الإنهيار النسبي في نصيب الغرب من سكان العالم والناتج الاقتصادي القدرات العسكرية، كما سيحيي قوة الغرب في عيون قادة الحضارات الأخرى. إن المسئولية الرئيسية لقادة الغرب هي عدم محاولة إعادة تشكيل الحضارات الأخرى بحسب صورة الغرب ـ والتي تزيد باستمرار عن قدراتهم ـ وأن يتعهدوا بالرعاية والتجديد الخصائص الفريدة للحضارة الغربية.. وتقع المسئولية بنحو كبير، على الدولة الغربية الأعظم قوة؛ الولايات المتحدة الامريكية. لن تحقق النزعة العالمية أو الانفصالية، ولا التعددية أو الأحادية، المصالح الأمريكية، وإنما ستتحقق مصالحها بصورة فعالة إذا تحاشت الولايات المتحدة تلك المصالح المتطرفة، وأن تتبنى عوضا عنها سياسة أطلسية من التعاون الوثيق مع الشركاء الأوروبيين؛ سياسة سوف تحمي وتدعم المصالح والقيم والثقافة الخاصة بالحضارة النفيسة والفريدة التي يشاركون فيها. ■

الهوامش:

* صامويل ب. هينتنجتون هو بروفيسور جامعة البرت ج. ويزرهد الثالث لدى جامعة هارفارد، حيث يشغل أيضا منصب مدير معهد جون م. أولن للدراسات الإستراتيجية ورئيس أكاديمية هارفارد للدراسات المحلية والعالمية. وتلك المقالة مأخوذة من كتابه «صدام الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمي».

١ ـ الغربنة westernization: إضفاء الملامح والسمات الغربية على المجتمعات اللا غربية الأخرى (م).

المصدر: مجلة علاقات خارجية Foreign affairs، المجلد ٧٥. العدد ٦، نوفمبر/ ديسمبر ١٩٩٦.

الغــرب متفــرد لاكــونى



٢ ـ يقصد هنا أسرة مينج التى حكمت الصين فى الفترة من عام ١٣٦٨ إلى ١٦٤٤. (م)

(٣) أسـرة فـالو Valois التى أنجـبت ١٣ ملكا وحكمت فـرنسـا فى الفـتـرة من ١٣٢٨ إلى ١٥٨٩ (م).

(٤) فرناند برودل، عن التاريخ، شيكاجو: مطبعة جامعة شيكاجو، ١٩٨٠، ص. ٢١٣.

(٥) The Reformation حركة الإصلاح: يقصد بهـا حـركـة الاضطراب الدينى التى سـادت أوروبا فى القرنين الخـامس عشـر والسـادس عـشـر، وكـان من شـأنهـا أن تقـسم الديانة المسيـحيـة فى الغرب إلى قسمين الكاثوليك والبرتستانت. وقد كان من أهم أهدافها تحدى سلطة البابا والنظام الدينى الذى كان سائدا فى أواخر العصور الوسطى، كما كانت تهدف إلى إعادة توزيع السلطة السياسية ومهاجمة نظام نبـلاء الإقطاع وسلطة الكهنة التى كـانت مـرتبطة به. [مـعـجم مـصطلحـات العلوم الاجتماعية ـ أحمد زكى بدوى](م)

(٦) كارل دويتش «حول القوميـة، أقاليم العالم، وطبيـعة الغرب» فى بيـر تورفـيك، تحـرير، التعبئة، بنى حافة المركز وبناء الأمم، برجن، Universitetsforlaget، ١٩٨١، ص. ٧٧.

(٧) شـتـاين روكـان «أبعـاد تشكيل الدولة وبناء الأمة» فى شارلز تيلى، محرر، تشكيل الأمة ـ الدول فى أوروبا الغـربيـة، برنيـسـتـون، مطبعةجامعة برينستون، ١٩٧٥، ص. ٥٧٦.

(٨) جيرت هوفستد، «الثقافات القومية فى أبعاد أربعة»، دراسات دولية فى التنظيم والإدارة، ١٩٨٣، ج. ١٣، ٤؛ هـارى س. تـريـانـدز، «دراسات ثقافية مقارنة للفردية والجماعية»، «ندوة نبراسكا البحثية حول الدافعية، ١٩٨٩»، لينكولن، مطبعة جامعة نبراسكا، ١٩٩٠، ص ٤٤ ـ ١٣٣ ، مقتبسة فى كتاب دانيل كولمان «الجماعة والذات: تمحيص جديد لا للصدع الثـقـافى»، «نيـويورك تايمز»، ٢٥ ديسـمـبـر، ١٩٩٠، ص ٤١.

(٩) آرثر م. شليسينجر، الصغير، انشقاق أمريكا، نيويورك: و.و. نورتون، ١٩٩٢، ص. ١٢٧.

(١٠) آدآب. بوزمـان «حـضـارات تحت الضغط» دورية فـرجينيـا الموسـمـيـة، شـتـاء، ١٩٧٥، ص٧، ويليـام . أ ناف، «أفكار حـول مـسألة شرق وغرب من وجهة نظر اليابان»، دورية الحـضـارات المقـارنة،خـريف، ١٩٨٦، ص. ٢٢٢، برودل، حــول التــاريخ، ص ص. ٢١٢-٢١٣.

(١١) Anomy,Anomie الأنـومــيـــة، أو اللامـعـيـارية: تشير إلى حـالة انهيار البناء الثقافى، وتظهر بصفة خاصة عندما تنحل الروابط بين المعايير والأهداف الثقافية، وبين القدرات الاجتماعية عند الأفراد للقيام بسلوك يتسق معها. وهى تقابل التضامن الاجتماعى، إذ هى حـالة الفوضى وانعدام الأمن وفقدان المعايير. [د. أحمد زكى بدوى] (م).

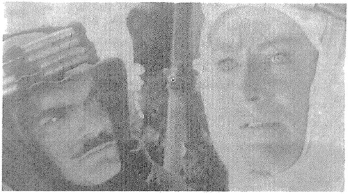
(١٢) رونالد دور، «الوحـدة والتنوع فى الثـقـافـة العـالميـة المعـاصـرة»، تحرير، هدلى بول وآدم واتسون، توسع المجـتمع الدولى، أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٨٤، ص ص. ٤٢٠-٤٢١.

(١٣) ميشيل هوارد، أمريكا والعالم، (محاضرة لوين السنوية) سان لويس: جامعة واشنطن، ١٩٨٤، ص ٦.

ترجمة : ناصر الحلوانى



ردود



الغرب: نفيس ... لا متفرد

حضارات تتجه نحو نموذج فقير

ج . جون إيكنبرى[1]

فما إن حسبنا أن الحال آمن لننال بعض الراحة، حتى وصل **صامويل ب. هنتينجتون** بأخبار سيئة: قد يكون عالم سياسة الواقع والتوترات العظمى للقوة قد اضمحل، ولكن استبدل به عالم أكثر قبحًا وأقل تكهنًا؛ عالم من الصراع الثقافى والدينى الذى يلوح فى الأفق («الغرب: متفرد، لاعالمى»، نوفمبر/ ديسمبر ١٩٩٦). وعلى خلاف عصر القوة السياسية المنصرم، يدّعى **هنتينجتون**، فإن السياسة الحضارية تقاوم العقل والحل.. وعلى الغرب المتعقل أن يقبل هذا الواقع الجديد الخطر، وأن يحتشد معًا، ويتهيأ للأسوأ.

إن مشكلة أطروحة **هنتينجتون** المستفزة أنه بولغ فى توصيفها بصورة كبيرة، وأنها - إذا كان لأفكار المفكرين البارزين أى تأثير فى العالم الواقعى - ذات خطورة محتملة. لنبدأ، فإن الملامح السياسية التى نسبها **هنتينجتون** للغرب - الديموقراطية والحكومة محدودة السلطات وقاعدة القانون - ربما انبعثت فى أوروبا أولاً، ولكنها أساسًا ليست ظاهرة ثقافية أو حضارية.. إنها نظم اجتماعية وممارسات تتبدى عبر ثقافات ومجتمعات عدة، وتم التعامل معها، بواسطة الرأسمالية والمطالب العملية للتبادل، كأى شىء آخر.

إضافة إلى ذلك، إن التفاؤل بصدد انتشار العادات والمبادئ «الغربية» لا يتطلب اعتقادًا ساذجًا بالتقارب كما يعلم **هنتينجتون**، فإن الصيغ المتطورة لنظرية التحديث لم تتوقع أبدًا تقاربًا للثقافات والمجتمعات فى نموذج غربى عالمى. يعنى التحديث تأقلمًا مشتركًا للتصنيع، مع الظهور المتوقع للنظم المختلطة والمتزايدة التعقيد والتى دمجت عديدًا من العناصر، الغربية واللاغربية. لقد كانت هناك تغيرات صادمة فى الثقافة السياسية فى المجتمعات اللاغربية الكبرى، وليست اليابان أقل فى ذلك. إن أكثر التطورات تميزًا فى عصر ما بعد الحرب كان التحول التام فى البنية الاجتماعية والسياسية العسكرية

والاستعمارية لليابان (وألمانيا). يبدو أمراً لاعقلانياً تقدير التطور الدرامي في الثقافة السياسية للدول الفاشية والإصلاحية الماركسية للقرن العشرين ومع ذلك يدعي أن الدول اللاغربية أسرى ثقافاتهم.

خلافا لما يقول **هنتينجتون**، فإن اعتقادا بالعالمية والتجانسية الثقافية العالمية ليس أمراً ضروريا لتطلب نظام يتجاوز الغرب المعهود تاريخيـاً. كل مـا هو مطلوب دول ذات التزامات تجاه الديموقراطية والأسواق الحرة وقاعدة القانون. يمكن للمجتمعات والحضارات أن تواصل تطوير التزامات عميقة الجذور بتلك المبادئ التنظيمية الأساسية كنتيجة، فإن المجتمع السياسي الأكثر متانة ومناسبة لا يقتصر على العالم الأطلسي وإنما يمتد إلى ما وراء ذلك تماما ـ إلى تجمع أكبر (ولكن بالتأكيد ليس عالمياً) للبلدان الديموقراطية المتسمة باقتصاديات السوق الموجهة.

حتى إذا كان **هنتينجتون** محقاً في تأكيد أن الغرب مختلف بصورة جوهرية عن الباقين، فإن الصراع بين الحضارات محتوم لامحالة ـ ولكنه ربما يكون أكثر احتمالا إذا ما اكترث قادتنا بأطروحة **هنتينجتون**. إن إعلان الانقسام الحضاري قد يستدعي تجمعات مضادة ويخاطر تحديداً بإثارة أنماط النزاعات التي يتوقعها **هنتينجتون**؛ ذلك هو المكافئ الحضاري «للمأزق الأمني» ـ إن **هنتينجتون** يريد من الغرب أن يقوم بالحراسة بصورة دفاعية ضد الصدام الآتي، ولكن بالنسبة للقوى الأخرى مثل الصين واليابان، فإن حومان العربات الغربية سوف يبدو أشبه بإعلان حرب باردة جديدة.

إن جاذبية أطروحة **هنتينجتون** أنها توفر أيديولوجيا جاهزة وفي متناول اليد لدعم العلاقات الأمريكية بأوروبا، ولكن بانتهاء الحرب الباردة «ماذا سيكون اللاصق الذي سيعمل على تماسك الحلفاء الأطلسيين معاً؟ الإعجاب بالحضارة الغربية ـ التي تفصل «نا» عن «الآخرين» ـ يبدو كمكان مناسب للبدء. لسوء الحظ، مثل هذا الإعجاب يحل مشكلة واحدة ـ كيف تحقق الصلابة لهوية أطلسية عامة ـ بخلق هويات أكثر خطورة عبر محيطات وقارات أخرى.

أخيراً، فإن **هنتينجتون** يفشل في تقدير المجتمع السياسي الأوسع لديموقراطيات السوق الحرة التي ابتناها الغرب، بقيادة الولايات المتحدة. وعلى الرغم من أنه، بلاشك، قد رسا في العالم الأطلسي، فإن هذا المجتمع يؤلف الآن قسماً كبيراً من العالم. لقد طور ـ هذا المجتمع ـ نظمه الاجتماعية وعاداته بنحو متين وموسع لأجل إدارة الصراع وحل النزاع، وأضفى عليه استقراراً غير مسبوق.. ذلك المجتمع الأكبر، قد يكون أصعب في تصنيفه، ولكنه أكثر أهمية بكثير من رؤية **هنتينجتون** للحضارة الغربية.

يرى **هنتينجتون** الرؤى العظمى البديلة للمستقبل كحضارة عالمية تأسست على انتشار الاستهلاكية والثقافة الشعبية الغربية أو ما يعتبره الواقع الأكثر اتزاناً للانقسام الحضاري، ولكن ذلك ليس هو الاختيار. إن العالم متجه إلى انقسام أفضل ما يرى كانقسام بين المجتمعات المفتوحة ذات الحكومات المسئولة والآخرين. وتقف الولايات المتحدة في وسط ذلك المجتمع العريض للديموقراطيات، وسيعد بمثابة تبديد مأساوي لهذا الإنجاز بالاكتفاء بنظرة داخلية وغرب ضئيل، دفاعي.

حدس خطر

توني سميث[٢]

إن السهولة التي يجزئ بها **هنتينجتون** العالم إلى حضارات مقسمة بواسطة خطوط سياسية معيبة يذهلني. إن تقرير ما هو بالضبط «الغربي»، هو نقطة الخلاف الأولى. في بادئ الأمر، لماذا لا يُعد أمريكا اللاتينية «غربية»، مع اعتبار رحلتهم الشاقة خلال العقدين الماضيين، رحلة اقتربت بها سياسيا واقتصاديا وثقافيا تجاه أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية بأكثر مما كانت عليه لقرون مضت؟ وإذا كانت أمريكا اللاتينية تنحو في تطورها منحى غربيا، لما لا يكون الآخرون كذلك؟ أين في حسابات **هنتينجتون** موقع بلدان مثل اليابان والهند والفيلبين وإسرائيل؟ بتقديمه لقائمة ملتبسة من المعايير لتحديد من يكون عضوا في النادي الغربي، كما يبدو أنهم لم يعودوا منتمين للغرب بأكثر من أمريكا اللاتينية، على الرغم من نظمهم السياسية الديموقراطية واقتصادياتهم المتحررة، وكما في حالة إسرائيل واليابان، التحالف طويل المدى مع الغرب، هو أمر سيئ أيضاً علينا الافتراض، بالنسبة للآتين مؤخرا مثل جنوب أفريقيا وكوريا الجنوبية.. وبالمثل لروسيا، والتي تعد أجنبية بنحو جلي ولا أمل فيه بالنسبة للغرب بفضل سمتها المسيحي الأرثوذكسي ـ والذي تشارك فيه اليونان، إنه سرعان ما يتم طردهم من الناتو، لسبب لايفوقه سبب آخر، هو إرثها الأرثوذكسي.

كل هذه الأمور المتعلقة برسم حدود قد لاتزيد عن كونها مجرد مراوغة أكاديمية، ألم ينشر **هنتينجتون** نداء صريحا للغرب لتقلد ملابس الحرب استعدادا للصراعات التي يتوقعها من العالم اللاغربي ـ وبشكل خاص، علينا أن نفترض، مع العالم الإسلامي والصين. إن الخطر، بالطبع، هو أن هذا النوع من التفكير يحوز منطق التجاوب الذاتي. ربما ستنشأ الصراعات مع الحضارات الأخرى بأية حال، ولكنها ستصبح جميعها أكثر احتمالا إذا ما افترضنا أن الحضارات الأخرى يتأصل فيها الشر وأن على الغرب أن يقيم الاستحكامات ضدها بدلا من أن نقيم توافقا لاختلافاتنا معهم.

في كلتا الحالتين، إذن، فإن مقال **هنتينجتون** هو تصريح غير كاف على الإطلاق؛ فهو لا يوفر صورة دقيقة للحدود السياسية المتطورة للعالم، أو تكهناً موثوقاً فيه لما يحمله المستقبل من تهديدات حقيقية للأمن.

شرق يتجه غربا

دافيد هاول[٣]

إن **هنتينجتون** يتخلف عن الزمن. إن استعمارية الكولا قصة قديمة. أما اليوم فالقضية ـ على الأقل في أوروبا ـ ليست غربنة الشرق وإنما شرقنة Easternization الغرب.

يناقش الأوروبيون الآن الكيفية التي يمكنهم بها الاستفادة من القوة المالية والتكنولوجية لآسيا لتعزيز اقتصادياتهم التي لاتباري، وتشكيل تحالفات مع عمالقة آسيا

المندمجين فى كيان مشترك. لذا لدينا هنا إصلاح ميجى Meiji Restoration فى المقابل. ولكن الأمور تذهب إلى أبعد من ذلك. ينظر المفكرون السياسيون الأوروبيون كذلك إلى قدرة المجتمع الكونفوشيوسى على تعزيز منظومة القيم المتهرئة للغرب.

أخشى أن نداء هنتينجتون بالعودة إلى البحيرة الأطلسية، بحضارتها «النفيسة والمتفردة»، يجيء متأخرا جدا إلا إذا تعلمنا بسرعة من المجتمعات الأكثر تماسكا والأكثر نجاحا بصورة كبيرة للشرق الديناميكى، وأن ننسج معا أفضل ما يمكن نسجه لتقديمه مع الأفضل من تقاليدنا، وهكذا سيبقى القليل من الحياة الغربية الفعلية مما يتسم بكونه نفيسا أو متفردا.

رأسمال، لاثقافة

بروس نسباوم[٤]

بالرغم من الشهرة الفائقة التى حازها **هنتينجتون**، فإن أطروحته تتسم بقوة تفسيرية واهنة بقدر كبير، كما لا تقدم إرشاداً فعليّا فى السياسة الخارجية التطبيقية. إن تكهنه بصراع حضارى يعكس ندرة نماذج السياسة الخارجية فى فترة ما بعد الحرب الباردة، وليس التبصر الغض **لجورج كِنان** للألفية.

إن حجته واهنة، فى المقام الأول، بسبب أنها مبنية على مفهوم «الثقافة»، والذى لايزيد تعريفه على تعريف حبة ثلج فى يونيو. إن كل الثقافات تتضمن كل القيم بصورة عالمية، ولكن التشكيل المحدد للصفوة وللنظم الاجتماعية والتكنولوجية داخل نظام اقتصادى معين، هو ما يحدد القيم المهيمنة فى فترة معينة. ماذا تكون «الكونفوشيوسية»، فى ١٩٩٧؟ أهى الاشتراكية المركزية المتسلطة للصفوة المفوض إليها السلطة فى الصين، والتى تستخدم النزعة القومية والنزعة المناهضة للغرب المفرطتين لإحلال أيديولوجيا شيوعية ضالة؟ أم أن الكونفوشيوسية اليوم هى ديموقراطية السوق فى تايوان؟ وماذا عن كوريا، مع اتحادات عمالها، والانتخابات الحرة والسجن الحالى للديكتاتوريين العسكريين السابقين؟ حتى أكثر التحليلات سطحية لكوريا خلال العقد الماضى تظهر تحولا مذهلا من السلطوية العسكرية إلى ديموقراطية شرسة وخشنة. هل حولت الثقافة الكورية نفسها بشكل ما فى تلك الفترة الزمنية القصيرة؟ لا، ولكن حدث تغيير مؤكد فى الاقتصاد والقيادة والأحزاب.

يمكننا ممارسة اللعبة نفسها مع كل حضارة يذكرها **هينتنجتون**. إذا ما رغبت فى شكل تحليلى أكثر إفادة للسياسة الخارجية بعد الحرب الباردة، لا يكون عليك الذهاب أبعد من القرن التاسع عشر «الممتد»، والذى استطال حتى ثلاثينيات القرن العشرين. إنه ليس صدام الحضارات وإنما صدام الرأسمالية ما يجرى اليوم. لقد أعادت نهاية الحرب الباردة فتح الاقتصاد العالمى، كما ازداد حجم الرأسمالية العالمية إلى ثلاثة أضعافها، حيث تنمو رأسمالية ثنائية الأقطاب، دعاة مذهب التجاريين merchantilists ضد دعاة التجارة الحرة والباسيفيكى ضد الأطلنطى والصين ضد الولايات المتحدة وأوروبا. إن تدافع الدول التى تكافح لأجل صعود السلم الاقتصادى والجهود الرهيبة للآخرين الذين ينحدرون عليه هو ما يعين العصر الحالى، إنه توازى قوى مستعاد، مع تكنولوجيا متطورة ذات بريق. وللإيحاء فإنه هنرى، وليس سام sam، مترنيخ وليس فيبر Weber.

إن أفضل ما يقال عن أطروحة **هنتينجتون** هو أنها تثير الغضب، وأسوأ مايمكن أن يقال عنها إنها قد توفر ذخيرة فكرية زائفة للقوميين فى كل مكان والذين يسعون إلى تبرير للأفكار القبيحة والأفعال الأكثر قبحاً. ■

ترجمة : ن.ح

الهوامش :

* المصدر: مجلة علاقات خارجية Foreign affairs، المجلد ٧٦، العدد ٢٢ مارس/إبريل ١٩٩٧.

(١) ج. جون إيكنبرى أستاذ مشارك للعلوم السياسية فى جامعة بنسلفانيا.

(٢) تونى سميث رئيس قسم العلوم السياسية فى جامعة تافت وزميل مركز وودرو ويلسون الدولية للباحثين.

(٣) دافيد هاول عضو البرمان البريطانى ورئيس مجلس اللجنة العامة للعلاقات الخارجية.

(٤) بروس نسباوم محرر الصفحة الافتتاحية فى دورية Business Week.



العدوان المشين!

نعوم تشومسكى

وقع ثانى عمل عدوانى فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة فى ٢ أغسطس ١٩٩٠، عندما غزت العراق الكويت، ومن ثم ضمتها بالكامل بعد فرض المقاطعة الدولية مباشرة. إن أى أزمة شرق أوسطية تتخذ أبعاداً هائلة فى الحال نظراً لاحتياطيات الطاقة الهائلة الموجودة فى المنطقة. وبالتالى لم تكن أحداث أغسطس استثناءً لهذه القاعدة.

اتخذت ردود الفعل تجاه عدوان صدام حسين طريقين محددين، ومن الصعب الربط بينهما. فوراً، أدان مجلس الأمن الغزو ودعا إلى المقاطعة الاقتصادية ويتضمن هذا المنهج طريقًا دبلوماسيًا لترتيب الانسحاب بعد المفاوضات. والمدهش هنا أن هذا البديل قد توفرت له احتمالات نجاح مرتفعة وهذا لسبب واحد هو أن الدول التى اعتادت خرق الحظر والمقاطعة (أى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وحلفاءها) قد أيدت المقاطعة فى هذه الحالة المعينة تأييداً شديداً. فى الوقت نفسه اتخذت الولايات المتحدة وبريطانيا طريقًا آخر وأعدتا لضربة عسكرية ضد العراق وقواته التى تحتل الكويت. وهذا التفاوت مفهوم فى ضوء التاريخ وتوزيع القوى فى عالمنا المعاصر.

كان بترول الشرق الأوسط أولا فى أيدى إنجلترا، وفرنسا، ثم شاركتهما بعدئذ الولايات المتحدة فى اتفاق صاغته اتفاقية الخط الأحمر عام ١٩٢٨. وبعد الحرب العالمية الثانية أبعدت فرنسا باستخدام حيل قانونية وتسنمت الولايات المتحدة الدور السيادى. وكما قلنا سابقاً كانت السياسة الهادية لحكومة الولايات المتحدة دائماً هى أن بترول الشرق الأوسط يجب أن يكون تحت سيطرة الولايات المتحدة وحلفائها وعملائها وشركاتها البترولية ولا يمكن تحمل أى نزعات استقلالية من قبيل القومية الجذرية. وتلك السياسة هى وجه من أوجه العداء العام تجاه النزعات القومية الاستقلالية فى دول العالم الثالث بيد أنها ذات أهمية خاصة. وقد ردت الولايات المتحدة وحليفتها بريطانيا على التحدى العراقى لامتيازاتها الخاصة رداً عنيفا. فأظهرت القيادة السياسية والمديرون العقائديون استياءهم الشديد من تجرؤ دولة قوية على غزو جارتها المسالمة العزلاء،

وأُعطيت المسألة أبعاداً كونية باستخدام خطاب فخم حول نظام عالمى جديد على أساس من السلام والعدالة واحترام القانون الدولى. نظام وصلنا إليه أخيراً بعد انتهاء الحرب الباردة بانتصار أولئك الذين احترموا هذه القيم احتراماً شديداً. وأوضح فى هذا الصدد وزير الخارجية جيمس بيكر قائلا: «نحن نحيا فى لحظة من لحظات التحول النادرة فى التاريخ. لقد انتهت الحرب الباردة وبدأت مرحلة محملة بالآمال. وبعد فترة ركود طويلة صارت الأمم المتحدة منظمة أكثر فعالية. وأصبحت القيم المثالية الخيالية فى ميثاق الأمم المتحدة حقائق. لقد حطم عدوان صدام حسين رؤيا عالم أفضل فيما بعد الحرب الباردة. فى الثلاثينيات كوفئ المعتدون وفى عام ١٩٩٠ أوضح الرئيس موقفنا تماماً: هذا العدوان لن تتم مكافأته».

لقد أصبح الشبيه بهتلر وميونيخ نوعاً من الكليشيه الشائع.. فبرغم عدم قدرة العراق على هزيمة إيران برغم مساندة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وأوروبا وكل العالم العربى تقريبا له، تستعد العراق الآن للاستيلاء على الشرق الأوسط والسيطرة على العالم. كانت المراهنات كبيرة، إن مسار التاريخ سيتقرر على حسب قدرتنا على الانتقام من عدوان صدام حسين على دولة ضعيفة عزلاء.

ـ هذا العمل البشع الذى لم يسبق له مثيل ـ وتدمير هتلر الجديد قبل أن يفلت الزمام.

وعلى الفور أرسلت الولايات المتحدة قوة استطلاعية ضخمة تضاعفت تقريباً بعد انتخابات نوفمبر. وإذا كان من الممكن استبقاء قوة ردع فى الصحراء وفى مياه الخليج فمن المستحيل إبقاء مئات الألوف من الجنود فى مكانهم فترة طويلة. والتأثير الحتمى لهذا القرار هو قطع الطريق على المقاطعة التى كانت ستؤتى ثمرها بعد فترة زمنية بعيدة. وقد أوضحت الولايات المتحدة بجلاء شديد أنها لن تتحمل الدبلوماسية وستقتصر الاتصالات مع العراق على توصيل إنذار نهائى. وهذا الرفض الصريح للدبلوماسية هو ما أسماه الرئيس بوش «السير حتى ما بعد النهاية» لاستكشاف كل الإمكانيات الدبلوماسية وفيما عدا قلة قليلة فقد سار الرأى العام المثقف خلف قائده.



العــدوان المشــين



ولتبرير رفضها الذى لم يسبق له مثيل للدبلوماسية، ادعت الولايات المتحدة أنها تلتزم بمبادئ سامية لا يمكن الحياد عنها، وهو موقف كلامي قطع الطريق بنجاح على أى شكل من أشكال الدبلوماسية (والتى دعيت فى بعض الأحيان باسم الاتصالات) وكذلك أعاق أيضًا انسحاب القوة الاستطلاعية بدون خضوع العراق. وهذا الموقف اللفظى لا يتحمل - ولو للحظة واحدة - أى فحص أو تمحيص، بيد أن هذا لا يمثل أى مشكلة. لأنه لم يتعرض إطلاقًا لأى فحص أو نظر من قبل التيار الأساسى فى أجهزة الإعلام. لقد استمر الخلاف ولكن حول موضوعات تكتيكية ضيقة وفى إطار كانت الحكومة الأمريكية متأكدة من سيطرتها التامة عليه. إذن ومنذ اللحظة الأولى فقد اختزلت الخيارات إلى التهديد باستخدام القوة أو استخدام القوة.

١ - قيمنا التقليدية:

فصل بروفسور مرموق يقوم بتدريس النظرية السياسية فى جامعة كمبردج الأطروحة الأساسية تفصيلا جليا فقال: «ثبت لحسن الحظ أن تقاليدنا تحمل فى جوهرها قيما عالمية كونية. بينما من العسير أحياناً التمييز بين قيمهم وبين العدمية العنيفة (المدججة بالسلاح). ولم يكن بوسع الرئيس **بوش** أن يطرح القضية بشكل أوضح من هذا... اليوم فى الخليج العربى».

إن من يفشل فى ابتلاع هذا المبدأ ستتعسر عليه التفرقة بين غزو صدام حسين للكويت وبين جرائم أخرى عديدة بعضها أفظع بكثير مما ارتكبه صدام، جرائم تحملها بسهولة ودعمها بثقة بل واقترفها الغرب مباشرة، بما فى ذلك حالة حدثت قبيل الغزو العراقى بعدة أشهر فقط، رغم الدروس المستفادة من الغزو بصدد النظام العالمى الجديد.

كانت تقاليدنا وقيمنا فى جوهرها واضحة جلية منذ أمد بعيد فى الخليج. ولو اقتصرنا على العراق فقط، لوجدنا مثالا رائعا لها خلال الثورة على الحكم البريطانى وهى أحد فصول «القلاقل المعدية التى أصابت الإمبراطورية البريطانية فى مصر إلى الهند». «لقد تأثرت الأحاسيس البريطانية المرهفة تأثراً عميقًا من جراء هذه العدمية العنيفة التى كانت بمثابة طعنة فى الظهر فى وقت ضعفت فيه الإمبراطورية نتيجة للحرب العالمية. وأرغى السير **أرنولد ويلسون** قائلا: «إن أكثر وسائل قضاء وقت الفراغ شعبية فى الشرق هو أن تضرب رجلا جاثياً، هذا الشرق الذى يجهل المبادئ والمثل منذ قرون خلت». وقد أرجع مكتب الهند الثورة العراقية إلى المتطرفين المحليين الذين يودون «إلغاء كل أشكال السيطرة الأوروبية على أرجاء الشرق» ووافقهم **ونستون تشرشل** وأسمى الثورة «مجرد حالة من ضمن حالات الهيجان العامة المنتشرة ضد الإمبراطورية البريطانية وكل ما تمثله».

ومن الواضح أن الموقف كان يستدعى تدابير رادعة. ففى الهند وقبل هذا بعام أطلقت القوات البريطانية النار على اجتماع سياسى سلمى فى أمريتسار مما أدى إلى مصرع قرابة ٤٠٠ شخص. ونظراً لقلة المشاة والقوات البريطانية فى العراق لجأت بريطانيا إلى القصف الجوى للقرى العراقية ليس لغرض التدمير فى ذاته ولكن كجزء من إستراتيجية عامة أوسع. لقد صرح **تشرشل** - وكان وقتها وزير المستعمرات - بأن «القوة وحدها» لا تكفى «لإخضاع بلاد ما بين النهرين. إن ما تحتاجه تلك البلاد هو حكومة وحاكم يتقبلهما الشعب العراقى ويقبلهما بحرية - ولمجرد ضمان ألا يفسد خروج أى فرد عنه، هذا الإجماع الحر - «يدعمهما سلاح الطيران البريطانى وقوات عميلة تنظمها بريطانيا و٤ كتائب إمبراطورية». بيد أن هذا التكتيك له مشاكله فلقد حذر وزير الدولة للشئون الحربية فى معرض تعليقه على «الوسائل المستخدمة الآن فى الواقع، وتحديداً «قصف النساء والأطفال فى القرى»، من أنه «لو أدرك العرب أن السيطرة السلمية على بلاد ما بين النهرين تعتمد على قصف النساء والأطفال فأنا أشك كثيراً فى أننا سننجح فى الحصول على موافقتهم، التى كان **تشرشل** يأمل فيها. ونجحت بريطانيا فى إقامة نظام عميل بينما استمر سلاح الطيران الملكى فى عمليات القصف الإرهابية للتغلب على «القلاقل القبلية» [كما وصفها وزير المستعمرات فى وزارة حزب العمال برئاسة رمزاى **ماكدونالد** عام ١٩٢٤] واستمرت فى جمع الضرائب والمكوس من رجال القبائل الذين كانوا لا يستطيعون دفعها لفقرهم الشديد.

لقد أتيحت **لتشرشل** بوصفه وزير دولة فى وزارة الحرب عام ١٩١٩ فرص عديدة لتنفيذ قيمنا التقليدية. فلقد طلبت إليه قيادة سلاح الطيران الملكى فى الشرق الأوسط السماح باستخدام أسلحة كيميائية ضد «العرب المتقلبين على أساس التجربة»، ووافق **تشرشل** على التجربة. وغض البصر عن اعتراضات وزارة الهند بوصفها غير معقولة قائلا: «أنا لا أفهم معنى كل هذا اللغط حول استخدام الغاز.... أنا أؤيد استخدام الغاز السام ضد القبائل غير المتمدينة تأييداً شديداً.... لا ضرورة لاستخدام الغازات المميتة ذات المفعول الأشد فمن الممكن استخدام الغازات التى تسبب مشاكل ضخمة ومن ثم تنشر رعبا حقيقيًا بيد أنها لا تترك آثاراً خطيرة دائمة على معظم الذين يتأثرون بها».

وأضاف **تشرشل**: «لا يمكننى بأية حال من الأحوال التغاضى عن استخدام أية أسلحة متاحة من أجل الإنهاء السريع للمشاكل التى تسود الجبهة، إن الأسلحة الكيميائية ما هى إلا «مجرد تطبيق العلم الغربى على الحرب الحديثة». وفى الواقع فقد استخدمها سلاح الجو البريطانى ضد البلاشفة فى شمال روسيا بنجاح ساحق وفقًا لما أعلنته القيادة البريطانية. إن الاعتقاد الشائع أن «تحريم استخدام الأسلحة الكيميائية تحريماً قاطعاً منذ الحرب العالمية الأولى قد فقد معظم أثره» نظراً لأفعال العراق وتهديداتها ما هو إلا اعتقاد كاذب حتى لو تناسينا لجوء الولايات المتحدة إلى استخدام أسلحة كيميائية وعلى نطاق واسع فى جنوب فيتنام مما أدى إلى

خسائر بشرية رهيبة،وهذا لا أهمية له لحراس قيمنا التقليدية. عقب الحرب العالمية الأولى نظر إلى الأسلحة الكيميائية مثلما نظر إلى الأسلحة النووية بعد هيروشيما ونجازاكي. من ثم فلم تكن مفاجأة حقًا أن يلح تشرشل حتى قبل حصار برلين عام ١٩٤٨، على حكومة الولايات المتحدة بأن تهدد الاتحاد السوفيتي بالحرب النووية ما لم ينسحب الروس من ألمانيا الشرقية.

فى يوليو ١٩٥٨ هدد الانقلاب العسكرى الذى قام به ضباط قوميون فى العراق السيطرة الأمريكية البريطانية على مناطق إنتاج النفط للمرة الأولى (فقد أجهض التدخل الأمريكى البريطانى لإعادة الشاه إلى الحكم فى إيران قبلئذ بنحو خمسة أعوام، التهديد الذى مثلته الحكومة القومية المحافظة). وأدى الانقلاب إلى حدوث ردود أفعال واسعة المدى بما فى ذلك إنزال لقوات مشاة البحرية الأمريكية فى لبنان. وقد استنتج وليام كوانت فى تحليله للأزمة على أساس السجلات العامة «أن الولايات المتحدة قد وافقت - على ما يبدو - على أن ترعى المصالح النفطية البريطانية وخاصة فى الكويت» مع تأكيده بأن أية تحركات عراقية ضد الكويت تؤثر على المصالح البريطانية هو أمر لا يمكن تحمله، رغم أن هذه التحركات لا تبدو متوقعة.

ويعتقد كوانت أن الرئيس أيزنهاور كان يشير إلى الأسلحة النووية عندما أمر، مستخدمًا كلماته نفسها، رئيس الأركان المشتركة الجنرال توينتج «أن يستعد للتعبئة حالما يتلقى الموافقة [من أيزنهاور] مهما كانت الوسائل الضرورية لمنع أى قوى معادية من التحرك نحو الكويت»، ولقد نوقش الموضوع عدة مرات أثناء الأزمة، كما يضيف كوانت. وكان الهم الأعظم فى هذه الأيام هو جمال عبد الناصر المصرى - هتلر هذا الزمان - وقوميته العربية.

وتضيف الوثائق السرية التى كُشف عنها النقاب مؤخراً معلومات جديدة رغم أن سجلات الولايات المتحدة ناقصة نظراً للرقابة الثقيلة التى تعكس - على الأغلب - التزام الفترة الريجانية بحماية سلطة الدولة من الجمهور. فقد أرسل وزير الخارجية البريطانية سلوين لويد برقية سرية إلى رئيس وزرائه بعد مباحثاته فى واشنطن عقب الانقلاب العراقى مباشرة. وأوضح فى هذه البرقية أن ثمة خيارين بالنسبة للكويت «إما احتلال شبه المحمية تلك احتلالا مباشراً بالقوات البريطانية وفوراً» أو التحرك نحو استقلال اسمى. ونصح بعدم اتباع الخيار الأشد. رغم «أن فائدة هذا العمل هى أننا سنضع أيدينا بشدة على نفط الكويت» فمن المحتمل أن يثير مشاعر قومية فى الكويت «ولن يكون تأثيره حسنا على الرأى العام العالمى وبقية العالم العربى». أما السياسة الأفضل فهى إقامة «نوع من سويسرا الكويتية حيث لا يمارس البريطانيون السلطة المباشرة» ولكن «لو قبلنا هذا الخيار فيجب أن نقبل أيضاً ضرورة التدخل فوراً تدخلا عنيفا لو لم تجر الأمور على هوانا بغض النظر عن سبب المتاعب» وأكد أن «ثمة مساندة تامة من الولايات المتحدة لنا فيما يتعلق بالخليج» بما فى ذلك الحاجة «لاتخاذ موقف صلب للحفاظ على موقعنا فى الكويت» «والقرار نفسه اتخذته» الولايات المتحدة «بالنظر إلى حقول بترول أرامكو» فى المملكة العربية السعودية» فقد «وافق الأمريكيون على أن تظل كل آبار البترول [فى الكويت والسعودية وقطر والبحرين] فى أياد غربية مهما كانت التكلفة. وقبل الانقلاب العراقى بستة شهور لاحظ لويد «أنه لا محالة من حدوث تغيرات طفيفة فى اتجاه استقلال أكبر» بالنسبة للكويت على سبيل المثال الاضطلاع بالخدمات البريدية. وقد أعلن أيضاً ملخصاً «المصالح البريطانية» وفى الواقع الغربية فى منطقة الخليج العربى على النحو التالى:

(أ) ضمان حرية حصول بريطانيا وغيرها من الدول الغربية على البترول الذى تنتجه بلاد الخليج.

(ب) ضمان توفر هذا البترول بشكل مستمر وبشروط ملائمة للإسترلينى، والحفاظ على أوضاع ملائمة لاستثمار عوائد النفط الكويتى الفائضة.

(جـ) منع انتشار الشيوعية وأشباه الشيوعية فى المنطقة وما بعدها وكشرط قبلى لهذا الدفاع عن المنطقة ضد القومية العربية التى تفضل الحكومة السوفيتية أن تتقدم تحت غطائها فى هذه الآونة.

وتحدد وثائق الولايات المتحدة فى الفترة نفسها الأهداف البريطانية بالمعنى نفسه :- «لقد أكدت المملكة المتحدة أن استقرارها المالى سيتهدد تهديداً خطيراً إن لم يتوفر بترول الكويت ومنطقة الخليج العربى للمملكة المتحدة بشروط معقولة وإذا انسحبت الاستثمارات الضخمة التى تستثمرها دول المنطقة من المملكة المتحدة وإن حرم الإسترلينى من الدعم الذى يوفره بترول الخليج العربى». ومثلت هذه الاحتياجات البريطانية وحقيقة أنه «من الضرورى وجود مصدر مأمون للنفط لاستمرار حيوية اقتصاد أوروبا الغربية»، حجة الولايات المتحدة «لدعم أو عند الضرورة مساعدة البريطانيين فى استخدام القوة للاحتفاظ بالسيطرة على الكويت والخليج العربى». وكانت الحجة المضادة هى أن القوة ستؤدى إلى المواجهة مع «القومية العربية الجذرية» و «أنت علاقات الدول المحايدة بالولايات المتحدة ستتأثر تأثراً شديداً».

وفى نوفمبر ١٩٥٨ أوصى مجلس الأمن القومى بأن تستعد الولايات المتحدة «لاستخدام القوة ولكن كملاذ أخير فقط سواء بمفردها أو بدعم من المملكة المتحدة» لضمان الحصول على النفط العربى. ونصح مجلس الأمن القومى أيضًا بأن إسرائيل ستمثل حاجزاً للقومية العربية وبذا وضع أساس أحد عناصر نظام السيطرة على الشرق الأوسط المدعو [«الأمن» أو «الاستقرار»].

وقد امتد القلق على توفر ثروات ونفط الخليج لتدعيم الاقتصاد البريطانى المتداعى مع بداية السبعينيات، إلى الاقتصاد الأمريكى الذى كان من الواضح أنه يتراجع بالنسبة لليابان وأوروبا بقيادة ألمانيا. وأكثر من ذلك مثل التحكم فى النفط وسيلة للتأثير فى أولئك الخصوم الحلفاء. ووفر تدفق رءوس الأموال من العربية السعودية والكويت وغيرهما من إمارات الخليج للولايات المتحدة وبريطانيا دعما ملحوظاً لاقتصاديات الدولتين وشركاتهما ومؤسساتهما المالية. وتلك من بين الأسباب التى تفسر عدم معارضة الولايات المتحدة وبريطانيا لزيادة أسعار البترول.

إن تلك المسائل معقدة وشديدة التداخل بحيث يصعب سيرها هنا. بيد أن تلك العوامل



العدوان المشين

لها أثر أكيد. وهكذا، لم تكن مفاجأة شديدة أن الدولتين اللتين أسستا دعامة الاستعمار وكانتا المستفيدتين الرئيسيتين منه والمحافظتين عليه، كانتا تتوقان إلى الحرب في الخليج بينما حافظ الآخرون على مسافاتهم.

٢ ـ صياغة الموضوعات:

بينما يتشابه العملان العدوانيان في فترة ما بعد الحرب الباردة باستخدام معايير المبدأ والقانون فثمة فروق بينهما لا محالة. وأهم فارق ملحوظ هو أن غزو الولايات المتحدة لبنما هو غزو قمنا نحن به ومن ثم فهو غزو حميد، بينما يمكن أن يمثل الغزو العراقي للكويت تهديداً لمصالح الولايات المتحدة الأمريكية الحيوية ولذا فهو عدوان مشين، يخرق معظم المبادئ السامية للقانون الدولي والأخلاق.

وترتيب الأحداث بهذا الشكل يطرح عدة تحديات عقائدية. وأول معضلة هي تصوير الديكتاتور العراقي **صدام حسين** بوصفه طاغية شرساً وزعيم عصابات دولي. وكانت تلك مهمة سهلة فمن الواضح أنها حقيقية. وكانت المعضلة الثانية هي النظر في خشوع إلى من غزا بنما وأدار «الاستخدام غير المشروع للقوة» ضد نيكاراجوا وهو يقوم بإدانة الاستخدام غير المشروع للقوة ضد الكويت ويعلن التزامه الأبدي بميثاق الأمم المتحدة مصرحًا بأن أمريكا تقف حيثما كانت دائمًا ضد العدوان وضد أولئك الذين يودون استخدام القوة لتحل محل حكم القانون، «ولو تعلمنا أي شيء من التاريخ فقد نتعلم أنه يجب علينا مقاومة العدوان أو سيدمر العدوان حرياتنا» [٢٠ أغسطس ١٩٩٠]. وقد يبدو أن هذه المعضلة أصعب من الأولى بيد أنها ليست كذلك. فلقد احتل وجه الرئيس ذي النظرة الصلبة الصفحات الأولى جنبًا إلى جنب مع كلماته عن الحاجة إلى مقاومة العدوان مع التأكيد على هذه المقولة حتى يحترم الجميع شجاعته وإقدامه وإيمانه بالمثل التي نقدسها. حتى استخدامه للذكريات الحية عن فيتنام بوصفها درساً عن الحاجة إلى مقاومة العدوان واحترام حكم القانون، مر بدون ملاحظة ولو همسة عتاب وتلك هي علامة الانضباط الحقيقي. لقد لاحظت الصحافة بالإجماع «أن **بوش** قد أثبت أن الولايات المتحدة هي القوة العظمى الوحيدة القادرة على تطبيق القانون الدولي بالرغم من إرادة معتد قوي». فيما عدا ذلك فقد رددت الصحافة وأجهزة الإعلام التزامنا الذي لا يتزعزع، بحكم القانون وقدسية الحدود. وعبر مدى الطيف السياسي كان هناك تقدير لهذا الإثبات المتجدد لدفاعنا التاريخي عن طرق السلام رغم أن بعض اليمينيين التقليديين قد تساءلوا: لماذا يتعين علينا أن نقوم بالدور القذر؟ وفي أقصى حالات الانشقاق كتبت **ماري مكجروري** «بأنه قد يكون **لصدام حسين** اتباع بين العرب الفقراء، لكن رغم هذا فالأمريكيون ملتزمون التزاما عاطفيا بالتخلص من الوحش، بطريقة أو بأخرى. واقترحت قصف بغداد رغم أن هذا قد يكون تصرفا أخرق، بسبب احتمال الانتقام من الأمريكيين. وقد سربت جريدة الواشنطن بوست خطة البيت الأبيض للقضاء على الوحش والتي وافق عليها الرئيس عندما أخبره مدير وكالة المخابرات المركزية **وليام وبستر** أن «**صدام حسين** يمثل تهديداً للمصالح الاقتصادية بعيدة المدى للولايات المتحدة». وقد وافق بالإجماع كل من البيت الأبيض والمعلقون السياسيون على أن هذه المصالح الاقتصادية هي المحرك الأساسي للقرارات السياسية. ولذا أرسلت الولايات المتحدة قوات عسكرية ضخمة إلى المملكة العربية السعودية وساعدت على تنظيم مقاطعة دولية وتقريبا حظر تام. وهذا بدعم فاتر بشكل ملحوظ من قبل معظم حلفائها الذين ولا شك يفضلون أن تكون الولايات المتحدة وعملاؤها هم المؤثرون الأساسيون في إنتاج وسعر النفط وليس **صدام حسين**. بيد أنهم بدوا مترددين في المخاطرة أو الإنفاق كثيراً لتحقيق هذه الغاية. وهم بالتأكيد يشاركون واشنطن في إيمانها بالمبدأ السامي في أن القوة لا تصنع الحق إلا عندما نريد نحن ذلك.

ولم يمر العدوان الأمريكي بدون ملاحظة إطلاقًا. فلقد أعلن صراحة رئيس هيئة الأركان المشتركة السابق الجنرال **وليام كرو** «أننا هنا لسنا بصدد بنما ولاجرانادا»، وحذر من مخاطر إرسالياتنا الحالية «إن التكاليف والمخاطر مهولة»، ووافقه محررو النيويورك تايمز قائلين: «إن هذه العملية تتعدى عمليات الولايات المتحدة العسكرية في لبنان وجرانادا وبنما». ووصف المراسل العسكري السابق للتايمز **برنارد ترينور** وهو الآن مدير برنامج الأمن القومي في كلية كنيدي للدراسات الحكومية بهارفارد، **صدام حسين** بأنه «**نوريجا** الشرق الأوسط ومثله مثل نظيره البنمي يجب أن يذهب». وفي الحقيقة تقف المقارنة بين **صدام حسين ومانويل نوريجا** عند هذا الحد فقط. لكن التشابهات لم تمر بدون ملاحظة. ففي كل الأحوال كانت الولايات المتحدة تعمل دفاعا عن النفس وفي خدمة النظام العالمي والمبدأ السامي - مجموعة أخرى من حقائق المنطق التي تطفو بأمان وسلام فوق عالم الواقع. وقد مدح محررو البوسطون جلوب الليبرالية **بوش** لوقوفه بجانب قيمنا الرئيسية ورسمه خطاً في الرمال أمام الثور الهائج «هذا الخط كان أوضح من الخط المرسوم في كوريا وفيتنام ولبنان، كما لاحظوا. واسترجع آخرون كذلك الدلائل السابقة على نيتنا الخالصة في مواجهة أية مصاعب لتأديب الذين يلجئون إلى القوة أو يبتعدون بشكل ما عن تقاليدنا السلمية والتزامنا بحكم القانون.

وفي المقابل فقد أشارت خطابات القراء مرات عديدة إلى نفاق وخواء هذا الموقف وتساءلت «عن الفرق بين غزونا لبنما وغزو العراق للكويت؟»، في معرض ذكرها لحالات أخرى عديدة من حالات عدواننا الحميد. ومرة أخرى يتضح من الفرق الدرامي بين خطابات القراء وتعليق المحترفين، فشل الهجوم العقائدي الذي شُن في الأعوام الماضية في تخطي حدود الصفوة المتعلمة والوصول إلى كل قطاعات الجمهور العادي،

أما خارج الحدود فمن الممكن تبين الحقائق البسيطة دونا عن مراكز القوى العظمى حيث الانحراف عن الحقائق المستقرة هو أمر شديد الخطورة. فيذكرنا المقال الرئيسى بجريدة السداى تريبيون الدبلنية وعنوانه «السخط الأخلاقى رياء خالص» برد الفعل الغربى تجاه غزو العراق لإيران وغزو الولايات المتحدة لجرانادا وبنما وغزو إسرائيل للبنان و«الظلم الواقع على الفلسطينيين وهو سبب مستمر للغضب المبرر فى الشرق الأوسط، وسيؤدى «إلى اضطراب مستمر».. ولاحظ مراسل التايمز الأيرلندية فى واشنطن سين كرونن الكلمات المحمومة لمندوب الولايات المتحدة فى الأمم المتحدة توماس بكرنج تدعيما لقرار مجلس الأمن بإدانة العراق وتذكر المراسل بعض الأحداث التى لم يكن قد مضى عليها أكثر من ٨ شهور: «الاعتراض الأمريكى فى ٢٣ ديسمبر ١٩٨٩ على قرار مجلس الأمن الذى يدين غزو بنما «بمساعدة بريطانية وفرنسية فى هذه الحالة»، وعلى قرار الجمعية العامة فى ٢٩ ديسمبر ٨٩ الذى يطالب بانسحاب «قوات الغزو المسلح الأمريكية من بنما» ويسمى الغزو «خرقًا شنيعًا للقانون الدولى وانتهاكًا لاستقلال وسيادة ووحدة أراضى دولة عضو بالأمم المتحدة».

بيد أن المعلقين المحترمين فى الوطن لم يرمش لهم جفن. فتم تجاهل التشابه مع غزو بنما تجاهلا تامًا بينما وصل القارحون الذين لاحظوا أن الهجوم هو أفضل دفاع، إلى حد مقارنة أفعال جورج بوش فى بنما بإرساله القوات إلى السعودية وليس بغزو صدام حسين للكويت. وذكرت كذلك وبشكل منتظم جرانادا وفيتنام ولبنان بوصفها سوابق لدفاعنا عن مبدأ عدم التدخل. وبالإجماع نفسه فشل المعلقون المسئولون فى تذكر غزو إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢ بغرض إقامة نظام عميل دمية فى شكل «نظام جديد» يخضع لمصالح إسرائيل، وبهدف إيقاف مبادرات منظمة التحرير الفلسطينية المتزايدة والمقلقة من أجل التوصل إلى تسوية سلمية دبلوماسية. وقد نوقشت كل تلك الأمور بصراحة داخل إسرائيل منذ اللحظات الأولى رغم أنها منعت من الوصول إلى الجمهور الأمريكى. ويتأهل هذا العمل العدوانى الذى قامت به دولة عميلة ليكون عملا حميداً. ولذا يستفيد من الدعم النشيط لحكومة ريجان رغم إدانة الليبراليين الديمقراطيين وغيرهم من اليسار المتطرف لها، لأنها لم تتحمس بشكل كاف لهذا العدوان الآثم الذى أدى إلى وفاة ما يزيد على ٢٠ ألف مواطن غالبيتهم العظمى من المدنيين. والملاحظ أيضًا أنه لم تعقد مقارنة مع الاحتلال الإسرائيلى المستمر للأراضى التى غزتها عام ١٩٦٧ وضمنها القدس الشرقية ومرتفعات الجولان السورية، ورد الفعل الأمريكى. وتم أيضًا تجاهل التدخل السورى الدامى فى لبنان بمساندة أمريكية فى مراحله الأولى عندما كان ضد الفلسطينيين وحلفائهم اللبنانيين. ونسينا كذلك الغزو التركى لشمال قبرص الذى أدى إلى وقوع آلاف الإصابات ومئات الألوف من اللاجئين بعد حفلة ماجنة من القتل والتعذيب والاغتصاب والنهب من أجل استئصال البقايا الأخيرة للحضارة الإغريقية بما فى ذلك الآثار الكلاسيكية. وقد مدح جورج بوش تركيا لأنها تعمل «كحارس للسلام» بعد انضمامها لأولئك الذين «وقفوا إلى جانب القيم الحضارية فى العالم». وقلة هى التى تستطيع تذكر الغزو المغربى الذى أيدته الولايات المتحدة للصحراء الغربية فى ١٩٧٦ والذى بررته السلطات المغربية على أساس أنه «تكفى كويت واحدة فى العالم العربى» فمن الظلم وقوع موارد ضخمة مثل تلك فى أيدى حفنة ضئيلة من البشر. ولو خرجنا عن المنطقة فقد كان من السهل تناسى الدعم الأمريكى الحاسم (وكذا الفرنسى والبريطانى والهولندى وغيرها) للغزو الأندونيسى لشرق تيمور الأمر الذى قارب الإبادة والمستمر حتى الآن مثلما يتم تناسى أمور مشابهة كثيرة واضحة.

ولقد قام العرب وغيرهم من مراقبى العالم الثالث بإجراء تلك المقارنات المفتقدة وظهرت أحيانا كعينات صحفية. بيد أنها توقفت عند هذا الحد. أو تم توجيه اللوم والتوبيخ لمن قام بها، لأنهم ضد أمريكا ويطلون وعاطفيون وسذاجتهم مفرطة. وفى تقرير للنيويورك تايمز حول ردود الفعل العربية الأمريكية تذكر فلستى بارنجر العرب الذين تقابلهم بأن المقارنة التى يعقدونها مع الغزو الإسرائيلى للبنان عام ١٩٨٢ «لا تأخذ فى الحسبان فارقا حاسماً: إن الكويت لم تهاجم العراق، بينما كان الجنوب اللبنانى موئلا للقواعد الفلسطينية التى كانت تقصف الأراضى الإسرائيلية بشكل مستمر» ويعانى عتاب بارنجر الرقيق هذا من نقيصة واحدة هى: غياب الوقائع باختصار شنت إسرائيل على جنوب لبنان هجمات عنيفة مدمرة منذ أوائل ١٩٧٠ وعادة بدون حتى ادعاء الانتقام والاستفزاز فقتلت ألوف البشر وطردت مئات الألوف من مساكنهم وكان غرضها الذى صاغه الدبلوماسى الإسرائيلى أبا إيبان هو الاحتفاظ بكل السكان رهائن تحت تهديد الإرهاب بغرض «تحقيق الهدف المنطقى المتحقق لا محالة»، وهو «خضوع السكان المتأثرين» للمطالب الإسرائيلية. وبعد الغزو الإسرائيلى للبنان عام ١٩٧٨ والذى وضع الجزء الجنوبى تحت السيطرة الإسرائيلية، قامت إسرائيل بقصف الأهداف المدنية قصفًا مكثفًا. وأدت موجة من الهجمات الإسرائيلية المحمومة بدون أى سبب عام ١٩٨١ إلى تبادل لإطلاق النار سقط فيه ستة قتلى إسرائيليون ومئات من القتلى الفلسطينيين واللبنانيين عندما قصفت إسرائيل مناطق آهلة بالسكان. والتزمت منظمة التحرير الفلسطينية بوقف لإطلاق النار رعته الولايات المتحدة ولكن إسرائيل كررت خرقه مراراً مما أدى إلى سقوط عديد من الضحايا المدنيين، وكان هذا فى غمار سعى إسرائيل اليائس والمحموم لاستفزاز منظمة التحرير الفلسطينية لفعل شىء يمكن استخدامه كذريعة للغزو المدبر من قبل. وبعد غزو ١٩٨٢ عادت إسرائيل إلى عادتها القديمة فى قصف لبنان على هواها مع ممارسة الإرهاب البشع «فى منطقتها الأمنية» فى الجنوب.

بيد أنه من الظلم أن نلوم بارنجر على قلبها الحقائق رأسًا على عقب؛ فالحواديت التى قصتها هى النسخة القياسية الموجودة فى النيويورك تايمز وغيرها وقلة هى التى تفكر فى مساءلة وتحدى الدوجما المستقرة. ومن ثم فإن قلب الوقائع فى هذه الحالة على أية حال، هو مجرد نصر ضئيل لا يقاس بالإنجازات الحقيقية المذهلة التى حققها جهاز الدعاية من قبيل تحويل عدوان الولايات المتحدة على جنوب فيتنام إلى جهد نبيل للدفاع عنها ضد الاعتداء.

وبوسعنا أن نقول القول نفسه عن المعلقين الآخرين الذين غضبوا وأدانوا العرب



العـــدوان المشـــين

بقسوة لمحاولتهم المقارنة مع حرب ١٩٦٧ وأدانوا بالدرجة نفسها «تفاهة وجهل» المقدمين التليفزيونيين والصحفيين الذين أتاحوا لهم الفرصة ليتفوهوا بمثل هذا الهراء [هنرى سيجمان المدير التنفيذى للمؤتمر اليهودى الامريكى] وفى كلتا الحالتين فسر سيجمان لأولئك المجانين التافهين ما حدث «فقد غزت الدول العربية دولة جارة لهم مسالمة بدون أدنى استفزاز أو سبب» رغم أن «المعتدين الأول فى ١٩٦٧، كانوا «سوريا ومصر والأردن» وليس العراق. وأعلن محرر التايمز تأييدهم وهم يدينون موسكو وغيرها من الأوغاد الآثمين لمحاولتهم «تقنين حجة بغداد فى أن استيلاءها على الكويت يمكن مقارنته بأية حال من الأحوال بالاحتلال الإسرائيلى للضفة الغربية» وهى مغامرة «خاطئة ومرتبكة بشكل عبثى» لأن احتلال الضفة الغربية قد بدأ «فقط بعد هجوم الجيوش العربية على إسرائيل». ولا يوجد حتى داع للسؤال عما إذا كانت إسرائيل قد هاجمت مصر عام ١٩٦٧ وأن الأردن وسوريا قد دخلتا الحرب مثلهما مثل إنجلترا وفرنسا عندما هاجمت ألمانيا حليفتها بولندا فدخلتا الحرب عام ١٩٣٩. يجوز للمرء أن يجادل أن الهجوم الإسرائيلى كان مشروعاً ولكن تحويل الهجوم إلى غزو عربى هو قرح صريح، أو يبدو أنه كذلك لو لم يكن هو الأسلوب المعتاد.

ونلاحظ أن المقال الرئيسى للتايمز قد صيغ بشكل حريص. فهو يشير إلى الضفة الغربية وليس إلى غزة وهضبة الجولان فمن الأفضل التغاضى عن غزة لأن الأكيد أن إسرائيل قد هاجمت مصر واستولت على غزة. من الصعب أيضًا الدفاع عن حالة مرتفعات الجولان. ليس فقط لأن إسرائيل قد ضمت هذه الأراضى السورية (وأدانها مجلس الأمن بالإجماع لولا أن الفيتو الأمريكى قد منع تنفيذ المقاطعة والقرارات) ولكن أيضًا لأن إسرائيل هاجمتها واحتلتها خارقة وقف إطلاق النار. أما فى حالة الضفة الغربية. فالمحررون سيستطيعون أن يدعوا فى معرض دفاعهم عنها أن القوات الإسرائيلية قد استولت عليها بعد دخول الأردن الحرب - وفقا لاتفاقهما مع مصر التى هاجمتها إسرائيل.

وعلى طول الخط، نرى كم هو مـــهم امتلاك التاريخ وتشكيله حسب الأغراض التى يطلبها الأقوى وكم هى قيّمة مساهمات الخدم المخلصين الذين يؤدون وظائفهم.

٣ - طرق للابتعاد عن الكارثة:

ولفترة قصيرة ومض تهديد فى الأفق من أن العلاقة الخاصة مع إسرائيل يجوز أن تأتى إلى المقدمة بعد ١٢ أغسطس ١٩٩٠ عندما اقترح صدام حسين تسوية تربط بين الانسحاب العراقى من الكويت والانسحاب من بقية الأراضى العربية المحتلة: سوريا من لبنان وإسرائيل من الأراضى التى احتلتها عام ١٩٦٧. وذكرت الفايننشيال تايمز اللندنية أنه رغم أن عرض صدام لم يخفض الأخطار المحدقة فإنه من الممكن «أن يفيد بشكل ما» ويوفر «طريقاً للابتعاد عن الكارثة خلال المفاوضات» وأكثر من ذلك «فربما كان على حق فى إشارته إلى أن رفض إسرائيل التخلى عن سيطرتها على الأراضى المحتلة يمثل مصدرا للنزاع فى المنطقة» وكذا «فى ربطه الانسحاب العراقى من الكويت بالانسحاب الإسرائيلى من الأراضى السورية والفلسطينية «عبر السيد صدام حسين عن شىء لا يستطيع أى قائد أو مواطن عربى مهما كان متحيزاً لأمريكا أن يرفضه» وإن رفض مناقشة الموضوع يمكن أن «يقرب مخاطر الحرب الشاملة فى الشرق الأوسط وقد تدخل فيها الدولة اليهودية» «إن الموضوع الآتى هو الانسحاب العراقى من الكويت» ولكن فى ضوء الاقتراح العراقى مهما كان غير مرض كما قد يبدو «فإن مسئولية كل فرد متداخل بما فى ذلك القوى الشرق أوسطية والغربية هى أن ينتهز تلك المبادرة ويربط المبادرة الدبلوماسية باستعراض القوة السياسى والعسكرى والاقتصادى الذى يُعرض الآن فى الخليج». كان رد الفعل الأمريكي مختلفًا، سواء فى الاستجابة الرسمية أو التعليقات العامة. لم ترد أية فكرة أنه يجوز استكشاف العرض لإيجاد حل سلمى لأزمة شديدة الخطورة. لم تحدث حتى بادرة كاذبة نحو إمكانية جواز أن توجد نقطة لها قيمة مطمورة فى مكان ما فى هذا الاقتراح. على العكس فقد رفض العرض باستخفاف شديد. وفى هذا اليوم فى نشرة أنباء التليفزيون ظهر الدينامو **جورج بوش** وهو يبحر مسرعًا بيخته الشراعى ذى المحرك ويجرى بعنف ويلعب التنس والجولف وينفق طاقته المذهلة بشتى الوسائل فى أمور مهمة. وكما صرح كان مشغولا جداً بالتنزه بحيث لم يستطع إضاعة كثير من الوقت فى هش الذبابة المراوغة ذات الزى العربى. وقد حرصت أنباء التليفزيون على التأكيد على أن انزعاج الرئيس من هذا المزعج كان شديداً لدرجة أنه اضطر حتى إلى إيقاف ضربة من ضربات الجولف للتعبير عن احتقاره لما أسماه المعلق «ما يدعى بعرض صدام حسين» الذى لا يجب النظر إليه بوصفه عرضًا جدياً. واستحق العرض العراقى عبارة شجب واحدة فى تقرير إخبارى عن المقاطعة الدولية فى جريدة النيويورك تايمز فى اليوم التالى. وبسرعة محقت مخاطر بحث تلك المقترحات. وقد مرت وسائل الإعلام مرور الكرام على واقعة حدثت قبل هذا بيومين حيث نشرت وزارة الزراعة الإسرائيلية تصريحات على صفحة كاملة فى الجرائد تقول «إنه من الصعب تصور أى حل سياسى يتفق مع بقاء إسرائيل لا يتضمن سيطرة إسرائيل المستمرة والكاملة على أنظمة الرى والصرف (فى الأراضى المحتلة) وعلى البناء التحتى الملازم لها بما فى ذلك إمدادات القوى وشبكة الطرق اللازمة لتشغيلها وصيانتها والوصول إليها» كما أن منح الفلسطينيين حق تقرير المصير الحقيقى «سيهدد المصالح الإسرائيلية الحيوية تهديداً خطيراً» كما أكدت التصريحات على أن «استمرار الوجود الإسرائيلى» مرهون بضمان السيطرة الإسرائيلية على الضفة الغربية. باختصار من غير المتخيل أى انسحاب له معنى من الأراضى المحتلة أو قبول للحقوق القومية للشعب الفلسطينى وهو الموقف

الرفض المستمر للولايات المتحدة وإسرائيل والذى شكل على مدى ٢٠ عاماً الحاجز الأول ضد أى حل سلمى للصراع العربى الإسرائيلى. وأُلغيت الوقائع تماماً من الصحافة الأمريكية بما فى ذلك الموقف الأمريكى الحالى: وهو تأييد خطة شامير - بيريس التى تعلن أن الأردن هى الدولة الفلسطينية وتمنع أى تغيير فى مكانة الأرض التى تحتلها إسرائيل عدا وفقاً لمقترحات الحكومة الإسرائيلية والتى تمنع أى تقرير مصير حقيقى وترفض التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية ومن ثم تنكر على الفلسطينيين حقهم فى اختيار ممثليهم السياسيين وتدعو إلى «انتخابات حرة» تحت السيطرة العسكرية الإسرائيلية الفظيعة ومع تعفن معظم القيادات الفلسطينية فى سجون إسرائيل. ومن ثم فليس من الغريب أن شروط الموقف الأمريكى، والتى تسمى «عملية السلام» و «اللعبة الوحيدة فى المدينة»، لم تنشر أبداً فى وسائل الإعلام الأساسية.

وفى ١٩ أغسطس ١٩٩٠ ظهرت مشكلة جديدة مع اقتراح صدام حسين بترك مشكلة الكويت لتكون مسألة «عربية خالصة» تتعامل معها الدول العربية فقط بدون تدخل خارجى كما فى الاحتلال السورى للبنان ومحاولة المغرب الاستيلاء على الصحراء الغربية.

وتم رفض الاقتراح بناء على الأسس المعقولة التى تقول إنه فى هذه الحلبة يمكن أن يأمل صدام حسين فى الوصول إلى أغراضه عن طريق التهديد باستخدام القوة أو حتى استخدام القوة. ولكن تم التغاضى عن واقعة مهمة: إن الديكتاتور العراقى قد انتزع مرة أخرى ورقة من كتاب واشنطن. إن الموقف التقليدى للولايات المتحدة بالنسبة للنصف العالم الغربى هو أنه لا حق للغرباء فى التدخل، فإذا تدخلت الولايات المتحدة فى أمريكا اللاتينية أو الكاريبى فذلك موضوع خاص بالنصف الغربى من العالم ويجب حله فى النصف الغربى من العالم دونما تدخل خارجى. الرسالة هى: أيها الغرباء انتظروا فى الخارج فنحن قادرون على علاج شئوننا فى الحلبة التى يستطيع الإقطاعى المحلى أن يتوقع سيطرته التامة عليها.

ولنذكر مثالا واحداً فقط ومن الجلى أنه مفيد هنا: فى ٢ إبريل ١٩٨٢ وضعت الولايات المتحدة سابقة بتصويتها ضد قرارين لمجلس الأمن فى موضوعين مختلفين فى اليوم نفسه. دعا القرار الأول إسرائيل لإعادة ثلاثة من عمد الضفة الغربية المنتخبين إلى مناصبهم وقد كانوا أهدافاً طازجة للإرهاب اليهودى. ودعا القرار الثانى الأمين العام للأمم المتحدة إلى إعلام مجلس الأمن باستمرار عن تطورات الأزمة فى أمريكا الوسطى وبدون ذكر أسماء ولا اتهام ولكن القرار ضمنيا موجه ضد التدخل الأمريكى فى نيكاراجوا. وقد اعترض مندوب الولايات المتحدة على أساس أن القرار ينمى روح الرياء ويسخر من جهود السلام ويدمر النظام بين الأمريكتين، ذلك النظام الذى له الحق فقط فى معالجة هذه المسائل بدون تدخل الأمم المتحدة. وهكذا، تنويعة أكثر تطرفا من موقف صدام حسين اليوم.

فى ٢٣ أغسطس ١٩٩٠، حمل مسئول أمريكى عالٍ سابق لمستشار الأمن القومى برنت سكوكروفت عرضاً عراقياً آخر وقد نشر كنوت رويس فى النيوزداى فى ٢٩ أغسطس ١٩٩٠ العرض على الجمهور. هذا العرض الذى أكده الرسول الذى حمله والمذكرات المتبادلة. ووفقاً لمصادر مسئولة عن الموضوع عرضت العراق الانسحاب من الكويت والسماح برحيل الأجانب فى مقابل رفع الحظر وضمان الوصول إلى الخليج والسيطرة الكاملة على حقل بترول الرميلة، «الذى يمتد من الأراضى العراقية إلى داخل الأراضى الكويتية بعض الشىء». كما أكد (رويس) - وهى منطقة حوالى ميلين من الأراضى المتنازع عليها. ووفقاً للمذكرات التى اقتطف منها رويس فمن مقترحات العرض الأخرى أن يتفاوض العراق والولايات المتحدة على اتفاق نفطى يرضى مصالح الأمن القومى للأمتين». «وتعملان معاً على استقرار الخليج» و «تطوران خطة مشتركة لعلاج مشاكل العراق المالية والاقتصادية». ولا ذكر لانسحاب أمريكى من السعودية أو أى شروط مسبقة أخرى. وقد وصف مسئول بالحكومة متخصص فى شئون الشرق الأوسط العرض بأنه جاد وقابل للتفاوض.

ومرة أخرى كان رد الفعل موحياً. سخر المتحدث الرسمى للحكومة من الموضوع برمته. وذكرت النيويورك تايمز تقرير النيوزداى باختصار فى صفحة ١٤ وهى صفحة بها تتمة مقالة عن موضوع آخر. واقتطفت من أقوال متحدثين رسميين للحكومة رفضوا الموضوع بوصفه «كذبا دعائيا». وبعد وضع الموضوع فى إطاره الصحيح اعترفت التايمز بأن القصة دقيقة واقتطفت من أقوال مصادر البيت الأبيض التى قالت إن الموضوع لم يؤخذ بجدية لأن السيد بوش يطلب الانسحاب العراقى غير المشروط من الكويت «ولاحظت التايمز أيضاً بهدوء، أن دبلوماسياً شرق أوسطى له اتصالات وثيقة، أخبر النيويورك تايمز منذ أسبوع [أى فى ٢٣ أغسطس] عن عرض مماثل ولكن الحكومة رفضته أيضاً «تلك الأنباء لم تنشر رغم أنه أصبح من المستحيل تجاهلها تماماً بعد تسريبها إلى الجريدة الإقليمية نيوزداى بعد أسبوع وهى جريدة تباع وتعرض فى محلات نيويورك مما يعطى صورة موحية ونظرية واضحة لما حدث. وقد تخلص آخرون من المشكلة بالكيفية نفسها.

هنا تتضح عدة مميزات لنظام وسائل الإعلام. ومن الممكن أن تحدث انحرافات عن الخط الدعائى بسهولة أكبر مثلما فى تلك الحالة كلما خرجنا عن نطاق دائرة الضوء القومية، ومن ثم نواجه عندئذ مشكلة تحجيم الخسائر. إن الآلية الصحفية القياسية لإخفاء الوقائع غير المرغوب فيها والتى ظهرت إلى النور مع الأسف الشديد ولسوء الحظ، هى ذكر تلك الوقائع فى سياق النفى الحكومى لها. وبشكل عام ولاستيفاء شروط الموضوعية توضع القصة الخبرية وفقاً لأولويات القوة. فى هذه الحالة فإن التقرير الإخبارى فى التايمز - ذلك الذى سيدخل «التاريخ» - يستقى مصدره من السلطات الحكومية. أولا يتم إنكار الوقائع غير المرغوب فيها بوصفها كذبا ثم يتم الاعتراف بدقتها وصحتها ولكن بعدم أهميتها لأن واشنطن غير مهتمة. ونعرف أيضاً أن الجريدة قد أخفت من قبل عروضاً سابقة «كاذبة» للسبب نفسه. وهذا ينهى الموضوع برمته، ويمكننا التنفس بسهولة وارتياح فقد ألغى التهديد بإمكانية وجود «طريقة لتجنب الكارثة من خلال المفاوضات».



العدوان المشين

٤ ـ المضى قدماً:

تظهر بعض المشكلات عند معالجة حقيقة أن حلفاء الولايات المتحدة ليسوا جذابين على وجه الخصوص. فثمة فارق ضئيل بين **صدام حسين** وبين **حافظ الأسد** بغض النظرعن الخدمات الحالية لاحتياجات الولايات المتحدة. وفى ٢ نوفمبر ١٩٩٠ ذكر تقرير غير ملائم لمنظمة العفو الدولية أن قوات الأمن السعودية قد عذبت وأهانت مئات من «العمال اليمنيين الضيوف» وطردت أيضًا ٧٥٠ ألفا منهم «بدون سبب واضح غير جنسيتهم أو الشك فى معارضتهم لموقف الحكومة السعودية فى أزمة الخليج». وتغاضت الصحافة عن ذكر ذلك، رغم أنه فى حالة الدول العربية توجد وفرة فى المعلقين الذين يكشفون طبيعتها الشريرة.

أيضًا يحتاج التحالف مع تركيا «حامية السلام» فى قبرص إلى بعض الحرص، خاصة بسبب مسألة الأكراد فى شمال العراق فمن الصعب ألا نلاحظ أنه من الممكن إضعاف القوات العراقية المواجهة للقوات الامريكية إضعافًا شديداً لو ساندت الولايات المتحدة تمرداً كردياً. وقد رفضت واشنطن هذا الخيار على الأغلب لخوفها من انتشار التمرد الكردى من العراق إلى شرق تركيا حيث يعانى السكان الأكراد (الذين لا يعترف الأتراك بكونهم كذلك) من اضطهاد وحشى. وقد لاحظت الوول ستريت جورنال فى انتباه صحفى نادر للموضوع، أن الغرب يخشى من أن يضعف التحالف المعادى للعراق لو أثيرت «المسألة الكردية» مع «تركيا وسوريا وإيران». ويضيف التقرير «أن حكومة الولايات المتحدة رفضت رفضاً باتاً مقابلة زعيم كردى عراقى زار واشنطن فى أغسطس «لطلب الدعم» وأن الأكراد يقولون إن أنقرا تستخدم أزمة الخليج وما نجم عنها من شعبية لتركيا فى الغرب من أجل قمع الأكراد».

حتى فى هذا الموضوع المأساوى، تم الحفاظ على النظام. وبصعوبة شديدة سنجد كلمة واحدة [وربما لا نجد أى كلمة على الإطلاق] عن استعداد حكومة **بوش** للتضحية بعدة ألوف من أرواح الأمريكيين ـ حتى مع تغاضينا عن مأساة الأكراد الذين استغلوا بأقصى درجة من درجات الرياء والنفاق على يد الحكومة ووسائل الإعلام. من الضرورى أيضًا أن نتعامل بشكل ما مع واقعة أنه قبل هجوم **صدام حسين** على الكويت، عاملته حكومة **بوش** وأسلافها هذا القاتل السفاح على أنه صديق حميم وشجعت التجارة مع نظامه والقروض لمساعدته على شراء البضائع الأمريكية. وقبلئذ دعمت واشنطن غزوه لإيران ثم ازداد ميلها إلى العراق فى حرب الخليج حتى إنها أرسلت قوات عسكرية لحماية النقل البحرى من إيران (وكان التهديد الرئيسى للنقل البحرى هو التهديد العراقى) واستمرت فى هذا الخط حتى بعد أن هاجم الطيران العراقى البارجة الأمريكية ستارك فى ١٩٨٧. وبينما تسارعت الأمة لتدمير الوحش أعلن عضو الكونجرس عن تكساس **هنرى جونزأليس** رئيس لجنة البنوك فى ـ المجلس أن بنكًا واحداً فقط مقره أطلانطا قد قدم ٣ بلايين دولار خطابات ضمان للعراق منها ٨٠٠ مليون دولار تضمنها هيئة القروض المتعلقة بالمنتجات الزراعية والتى تضمن القروض البنكية لتمويل تصدير المنتجات الزراعية الأمريكية، وادعى **جونزاليس** كذلك أن ثمة دليلا ملموساً على أن العراق قد حصل على أسلحة وربما أسلحة كيميائية أيضًا فى غمار هذه الصفقة، وقال «لا شك أن تلك النقود قد مولت غزو الكويت حقًا» و «لا شك أيضًا أن الجانب الأعظم من هذا القرض كان للتسليح» ولقد ناقشنا من قبل محاولات حكومة **بوش** لتدعيم **صدام حسين** التى أعلنت مع بداية عملية «الهدف النبيل» لتخليص العالم من ظلم **مانويل نورييجا** وعدم وجود أى رد فعل أو حتى ملاحظة. ومن الصعب تجنب هذه المسألة غير المريحة تجنباً تاماً، ففى ١٣ أغسطس اعترفت النيويورك تايمز أخيراً أن العراق قد وصل لقمة قوته «بموافقة الولايات المتحدة وأحياناً بمساعدتها، بما فى ذلك «تجارة الحبوب المزدهرة مع المزارعين الأمريكيين والتعاون مع وكالات المخابرات الأمريكية وصمت البيت الأبيض عن نقد فظائعها فى مجال حقوق الإنسان والعمليات الحربية» فمنذ ١٩٨٢ «صارت العراق واحدة من أكبر مستوردى القمح والأرز الامريكى» فاستوردت ما قيمته ٥,٥ بليون دولار من الماشية والمحاصيل باستخدام قروض فدرالية مضمونةً ودعم زراعى ونقدها الصعب» وتسلمت كذلك حوالى ٢٧٠ مليون دولار قروض مضمونة من الحكومة لشراء بضائع أمريكية أخرى بالرغم من تخلفها عن سداد الديون. وحسب بيانات ١٩٨٧ ـ وهى آخر البيانات المتاحة ـ استورد العراق ما يزيد على ٤٠ ٪ من طعامه من الولايات المتحدة وتسلم العراق فى ١٩٨٩ بليون دولار ضمانات قروض ويأتى فى هذا الصدد فى المركز الثانى بعد المكسيك. ويذكر **تشارلز جلاس** أن الولايات المتحدة قد صارت السوق الرئيسية للنفط العراقى «فى الوقت الذى مدحت فيه الغرفة التجارية الأمريكية العراقية والتى يرأسها دبلوماسيون سابقون ورجال أعمال مرموقون، **صدام حسين** مدحًا شديداً نظراً لاعتداله واتجاهه نحو الديمقراطية» وتغاضت حكومتا **بوش وريجان** تقريبًا عن شراء العراق لطائرات مروحية أمريكية وتحويلها للأغراض العسكرية مما يخرق الوعود التى قطعتها على نفسها، وكذلك عن استخدامها للغازات السامة ضد القوات الإيرانية ومواطنيها من الأكراد وأيضًا عن تهجيرها لنصف مليون كردى وسورى بالقوة ضمن غيرها من الفظائع.. مجرد خطأ فى التقدير أو وفقاً للرواية الرسمية إحدى نكات التاريخ. ولم يطرح أى تساؤل عن سبب نشر التايمز لهذا الآن بعد تحول واشنطن ضد العراق وليس قبلئذ ـ مثلا عند غزو بنما ـ عندما كان الدليل متوفراً وبسهولة وربما كان هذا النشر قد ساعد على تجنب ما يحدث الآن!!

وكانت ثمة مهمة أخرى هى إخفاء واقعة أن مبررات العراق لخرقه الصريح للقانون الدولى تشابه تلك التى تقبلها وسائل الإعلام بل فى بعض الأحيان تمدحها فى حالة العدوان الحميد الذى تقوم به الولايات

المتحدة وعملاؤها. فقد زعمت العراق أن ثمة تهديداً خطيراً لاقتصادها نتيجة خرق الكويت لاتفاق الأوبك حول حصص الإنتاج النفطية من شأنه أن يضر بمحاولة العراق تخطى أزمة حربه مع إيران. ولا جدال أن هذا الخرق يضر العراق ضرراً شديداً. وتم تجاهل شكوى العراق في هذا الصدد تجاهلا تاما مثلها مثل اتهامها - قبل هجومها على الكويت، للكويت بأنها تسحب النفط من الحقول الحدودية مما يؤدى حسب الزعم العراقي إلى نضوب الحقول العراقية ويشكل «سرقة تصل إلى حد الاعتداء العسكرى». ويبدو أنه لا ذكر لهذه الاتهامات في ذلك الوقت رغم أنه بعد شهر من هذا كان ثمة اعتراف متأخر «بأنه سواء كان صدام حسين مثل هتلر أولا فثمة بعض العذر في جانبه، ومن وجهة نظر العراق فقد تصرفت الحكومة الكويتية «تصرفات عدائية وتمثل حرباً اقتصادية». وبالتأكيد ثمة رنة مألوفة لهذه الحجج العراقية؛ فقد سمح ميثاق الأمم المتحدة للولايات المتحدة بحق «الدفاع عن مصالحنا بالقوة»، وفقًا لوجهة النظر الرسمية المقدمة لتبرير غزو بنما. وقد كان الهجوم الإسرائيلى على مصر عام ١٩٦٧ بسبب المتاعب الاقتصادية الناجمة عن تعبئة الاحتياطى أثناء فترة الأزمة والتوتر. وقد بررت الولايات المتحدة خطواتها لمواجهة العدوان العراقى «بوجود تهديد ضمنى للمصالح الاقتصادية الأمريكية كما في حالات عديدة من حالات التدخل والتخريب»، ولم يكن التهديد الذى شكلته الأفعال الكويتية على المصالح الاقتصادية العراقية تهديداً ضمنياً. وبشكل أكثر عمومية فقد برر الديكتاتور العراقى عدوانه على أنه عمل نبيل «دفاعًا عن الأمة العربية» مدعيا أن الكويت كيان مصطنع وجزء من تراث الاستعمار الأوروبى الذى شكل العالم العربى وفقاً لمصالحه الأنانية.. وضمنت هذه الآليات ألا تفيد الثروة النفطية الضخمة للعالم العربى الجماهير العربية ولكن القوى الصناعية الغربية وقلة محدودة من النخبة المرتبطة بها. وبرغم الخلل الشديد في موقف صدام حسين فإن الاتهامات لا تخلو من وجاهة ولها قبول جماهيرى ملحوظ، ليس فقط بين ٦٠٪ من السكان غير الكويتيين الذين يؤدون العمل الذى يثرى الأقلية المواطنة وليس «الأشقاء العرب». وقد لوحظت كراهية الولايات المتحدة بين شعوب العالم العربى ولكن بدون أى تحليل جدى لسبب وحتمية وجود هذه الكراهية، ورد الفعل المعهود هو إرجاع هذه الكراهية إلى المشاكل الشعورية والعاطفية لشعوب تخطتها مسيرة التاريخ نظراً لنقائصها. وقد يكون من المستحيل تقديم تقرير منطقى عن مسائل محورية مثل التفاعلات المتبادلة بين الولايات المتحدة وإسرائيل وفلسطين حيث إن الجهود الأمريكية المضنية والناجحة جداً لمنع تحقيق تسوية سلمية سياسية قد حذفت من التاريخ بكفاية منقطعة النظير. ويسهّل التوتر الشديد والعنصرية المضادة للعرب في الثقافة السائدة من اللعبة المعهودة التى ترجع كراهية الولايات المتحدة لأخطاء الآخرين. والتيار السائد هو أن العرب لا حق لهم أساساً في النفط الذى وضعته الصدفة الجيولوجية تحت أقدامهم. وكما شرح والتر لاكور المسألة عام ١٩٧٣ يمكن تدويل نفط الشرق الأوسط ليس لمصلحة بضع من شركات النفط ولكن لمصلحة كل البشرية؛ ويمكن تحقيق هذا باستخدام القوة فقط بيد أن هذا لا يمثل معضلة أخلاقية «لأن كل الرهان هو مصير بعض مشايخ الصحراء».. فقط من الضرورى تفسير هذا بعض الشىء.

اقرأ بدلا من كلمة «تدويل» عبارة «سيطرة الولايات المتحدة وعملائها، «طالما ظلوا مؤيدين مخلصين لإسرائيل» وأقرأ بدلا من كلمات «بضع من شركات النفط» عبارة العرب الذين لا يستحقونه». وهو المنطق نفسه الذى يسوقه المغاربة عند غزوهم للصحراء «تكفى كويت واحدة». من الظلم أن تقع الموارد الغنية في أيدى بشر لا أهمية لهم عندما يكون الرجال الأغنياء الذين يحكمون العالم في حاجة إليها. وبالطبع فمنظور الغرب أوسع بكثير من منظور المغرب فهو يغطى كل المنطقة، وكل مواردها في الواقع موارد العالم بأجمعه.

وبالمثل فإن الاهتمام الشديد «بمصلحة البشرية» الذى أظهره لاكور وآخرون لم يؤد بهم إلى اقتراح تدويل نفط أمريكا الشمالية ونفط الشرق الأوسط أثناء أعوام ما بعد الحرب العالمية الثانية عندما كان الغرب «بقيادة الولايات المتحدة» يسيطر سيطرة تامة على مصادر الطاقة، ولا جعلهم يصلون للاستنتاجات نفسها فيما يتعلق بموارد الغرب الزراعية والمعدنية والصناعية التى تستغلها بمنتهى السعادة والرضا الأمم الغنية، وكالعادة يرتكز التميز على قيمة «الأهمية».

من المفيد أن نتذكر كم هو قليل الجديد في كل هذا. لنذكر التفسيرات السابقة حول عدم أحقية المكسيكيين عديمى الكفاية البؤساء في التحكم في مصير أراضيهم الغنية. وعند بداية هذا القرن أوضح المؤرخ والإستراتيجى المشهور ألفريد. ت باهان الأدميرال المعروف بالتزامه بالقيم المسيحية وقانون الحقوق الطبيعية أوضح أن هذه الحقوق يجب تحويرها في حالة البلاد عديمة الكفاية مثل الصين وأنه يجب تحقيقها بتلك الكيفية بحيث تضمن الحق الطبيعى للعالم بأجمعه لضمان عدم إهمال تلك الموارد أو إساءة استخدامها؛ فإن حقوق البشرية أهم من حقوق الصينيين فهم «خراف بدون راع» وتجب قيادتهم وتقسيم بلادهم وتعليمهم الحقائق المسيحية وباختصار «التحكم فيهم من قبل الساسة الغربيين لتأكيد الذات العادلة فقط لا لغرض أنانى ولكن لرفاهية البشرية جمعاء. إن الأفكار العظيمة لها أسلوبها في تكرار الظهور في كل عصر.

٥ - الأمم المتحدة تتعلم قواعد السلوك:

وعلى غير العادة تلقت الأمم المتحدة تقريظاً كبيراً. فقد حيا محررو البوسطن جلوب تحت عنوان «قدوم عصر الأمم المتحدة»، حدوث تغير ملحوظ في تاريخ المنظمة»، وظهور جو جديد من المسئولية والجدية»، والأمم المتحدة تؤيد مبادرات الولايات المتحدة لمعاقبة المعتدى ورحب عدة آخرون بهذا الابتعاد المحموم عن النمط السابق المخجل.

وقد عُزى التغير الممدوح في سلوكيات الأمم المتحدة إلى التحسن في سلوك العدو السوفيتى وانتصار الولايات المتحدة في الحرب الباردة. ويقرر مقال إخبارى في الجلوب أن «إدانة موسكو للغزو العراقى بسرعة قد حررت مجلس الأمن الذى ظل مشلولا فترة طويلة بسبب النزاع بين القوى العظمى ومكنته من أن يلعب دوراً حاسمًا» في الرد على الاعتداء.. وكتب مراسل التايمز ز.و.أبل أن واشنطن «ازداد اعتمادها



العدوان المشين

كثيراً فى صياغة سياساتها على الأمم المتحدة التى صارت الآن أكثر وظيفية وحركية عنها فى عقود خلت وهذا سبب انتهاء الحرب الباردة، ورحب مقال افتتاحى فى التايمز «بالتغير المذهل فى اتجاه الريح» مع تحول الأمم المتحدة أخيراً إلى الجدية، فضمنت «معظم نقادها» وأتاحت للرئيس **بوش** الفرصة فى متابعة مجهوده النبيل لخلق «نظام عالمى جديد لحل النزاعات عن طريق الدبلوماسية متعددة الفروع والأمن الجماعى»، وراجع **جون جوشكو** فى الواشنطن بوست خلفية هذه اللحظة النادرة فى تاريخ الأمم المتحدة «التى فجأة بدأت فى العمل بالطريقة التى صممت من أجلها وتحولت إلى هيئة من أجل السلام العالمى بعد سنوات من رفضها نظراً لفشلها الذريع ولأنها صارت منصة لديماجوجية العالم الثالث خلال نزاعات الحرب الباردة الطويلة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وحلفائهما». لقد تداعى المفهوم الأصلى للأمم المتحدة كحارس للسلام فى العالم من البداية كنتيجة للحرب الباردة المستعرة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى. فى هذه الأعوام الأولى كانت صورة الأمم المتحدة التى انطبعت فى ذهن العالم هى صورة المندوبين السوفييت المتجهمين وهم يعترضون على قرارات مجلس الأمن أو ينسحبون منه، بينما حولت الدول الأعضاء الجديدة من العالم الثالث الجمعية العامة إلى منصة للهجوم العنيف على الغرب..... ثم ومنذ عامين تقريبًا بدأ يحدث تغير فى هذا كنتيجة للتغيرات فى السياسة السوفيتية الخارجية الموجهة نحو الوفاق. وأضاف معلق البوست السياسى الرئيسى **دافيد برود** (بصمته قائلا: «أثناء أعوام الحرب الباردة جعل الفيتو السوفيتى وعدائية معظم دول العالم الثالث من الأمم المتحدة هدفًا لاحتقار معظم المواطنين والسياسيين الأمريكيين.. لكن فى المناخ المتغير اليوم ثبت أنها أداة فعالة لقيادة العالم وضمنيا هيئة يمكنها أن تؤثر فى السلام وحكم القانون فى المناطق المضطربة». ويفتتح **جورج بول** تحليله النقدى لسياسة الحكومة فى النيويورك ريفيو بقوله «مع نهاية الحرب الباردة وبداية أزمة الخليج صار بإمكان الولايات المتحدة الآن أن تختبر قيمة المفهوم الويلسونى عن الأمن الجماعى اختباراً امتنعه طوال الأعوام الأربعين الماضية الفيتو السوفيتى الآلى فى مجلس الأمن»، ويقول المحرر مارك أوربان فى تقرير للبى بى سى عن الأمم المتحدة «مراراً وتكراراً أثناء الحرب الباردة، استخدم الكرملين الفيتو لحماية مصالحه من تهديد تدخل الأمم المتحدة، فلطالما ظلت الإجابة هى «لا» بالروسية». ظلت مناقشات مجلس الأمن معادية «لكن الآن، اختلف السلوك السوفيتى تماماً، مع اقتصاد يتداعى «وقائد يؤمن بالتعاون». من ثم علينا أن ندرك أن الخلاف بين القوى العظمى والتعلب الروسى والفيتو السوفيتى المستمر والمشاكل النفسية لدول العالم الثالث، قد حال دون تحمل الأمم المتحدة لمسئولياتها فى الماضى».

وقد تكررت تلك الموتيفات فى عشرات من المقالات الحماسية وكلها ذات خاصية ملحوظة: لا يوجد دليل يقدم لدعم هذا الذى يبدو أنه حقائق جلية لا تحتاج إلى أدلة. وثمة طريقة لتحديد سبب فشل الأمم المتحدة فى أداء دورها فى حفظ السلام. يلزم فقط مراجعة سجل الفيتو فى مجلس الأمن وسجل الاعتراض السلبى المعزول فى الجمعية العامة. وتوضح نظرة سريعة إلى الوقائع سبب وضع التساؤل على الرف لمصلحة الثيولوجية السياسية ذاتية الخدمة.

فمنذ عام ١٩٧٠ والولايات المتحدة تتقدم - وبمسافة كبيرة - الجميع فى الاعتراض على قرارات مجلس الأمن ورفض قرارات الجمعية العامة فى كل الموضوعات ذات الأهمية. يأتى بعدها فى المركز الثانى ولكن بفارق كبير بريطانيا وأساساً فى مجال دعمها للنظام العنصرى فى جنوب أفريقيا. إن المندوبين المتجهمين الذين يصوتون معترضين يتحدثون الإنجليزية بطلاقة. بينما صوت الاتحاد السوفيتى بانتظام مع الغالبية الساحقة. وفى الحقيقة كان من الممكن ازدياد شدة عزلة الولايات المتحدة لولا حقيقة أن قوتها المهولة قد منعت معظم الموضوعات الدولية من الوصول إلى جدول أعمال الأمم المتحدة. لقد أدين الغزو السوفيتى لأفغانستان إدانة مريرة مراراً وتكراراً بيد أن الأمم المتحدة لم تكن مستعدة أبداً لبحث حرب الولايات المتحدة ضد الهند الصينية. ولتوضيح هذا بإمكاننا استخدام دورة الأمم المتحدة التى تسبق «التغير المذهل فى اتجاه الريح» مباشرة شتاء «٨٩ - ٩٠»، تم الاعتراض على ثلاثة قرارات لمجلس الأمن:

- «إدانة لهجوم الولايات المتحدة على سفارة نيكاراجوا فى بنما «فيتو أمريكى واقتناع بريطانى»، وإدانة لغزو الولايات المتحدة لبنما «فيتو أمريكى بريطانى فرنسى»، وإدانة للممارسات القمعية الإسرائيلية فى الأراضى المحتلة «فيتو أمريكى». وكان هناك قراران للجمعية العامة يدعوان كل الدول لاحترام القانون الدولى؛ أحدهما يدين دعم الولايات المتحدة لقوات الكونترا والآخر يدين المقاطعة غير الشرعية لنيكاراجوا. ومرر القراران مع اعتراض دولتين فقط هما الولايات المتحدة وإسرائيل. وصدر قرار يعارض الاستيلاء على الأراضى بالقوة بأغلبية ١٥١ ضد ٣ هى «الولايات المتحدة وإسرائيل والدمنيكان». وقد دعا هذا القرار مرة أخرى إلى إيجاد تسوية سلمية عن طريق الدبلوماسية للنزاع العربى الإسرائيلى فى إطار الحدود المعترف بها وضمانات الأمن متضمناً كلمات قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ وحق تقرير المصير للفلسطينيين داعيا ضمنيا إلى تسوية على أساس دولتين. والولايات المتحدة تعارض هذه التسوية بمفردها تقريباً. كما تظهر مرات التصويت الأخيرة منذ اعتراضها على هذا الاقتراح فى يناير ١٩٧٦ والذى قدمته سوريا ومصر والأردن بتأييد من منظمة التحرير الفلسطينية. ولقد اعترضت الولايات المتحدة مراراً على قرارات مجلس الأمن والجمعية العامة وغيرها من مبادرات الأمم المتحدة فى موضوعات عديدة ومتنوعة وتشمل العدوان والضم وانتهاك حقوق الإنسان ونزع السلاح والالتزام بالقانون الدولى والإرهاب

وغيرها. وقد اتجهت النيويورك تايمز في غمرة تحمسها المفاجئ للقانون الدولي والأمم المتحدة مرات عديدة إلى شخصية بطولية واحدة: **دانييل باتريك موينيهان**، ووصفته بأنه شاهد عيان على «روح الإجماع الجديدة في الأمم المتحدة» شارحة أنه كان ثمة خرق بشع للقانون الدولي في الماضي» ولكن الآن «ومع تداخل مصالح القوى العظمى فقد صارت آلية الأمم المتحدة تحت الطلب» وقرظت «التزامه الشديد بالقانون الدولي» في مقالة نقدية لدراسته «قانون الأمم». ويلاحظ كاتب المقال «غضبه الحقاني التهكمي» الذي «يذكرنا بالأستاذ المتحمس الذي يشك في أنه لا يوجد من يسمعه» بينما هو «يحرق الإرم غيظاً لأن أحد المبادئ الأخلاقية التي لا تنازل فيها مثل القانون الدولي يخرق بانتظام على أساس أنه مبدأ ساذج ويمكن التخلص منه» ونعرف أيضاً من قصة في مجلة التايمز أن **موينيهان** «قد فرح فرحاً شديداً» لثبوت صحة آرائه بعد نضاله الطويل من أجل إقرار القانون الدولي ونظام الأمم المتحدة «تلك الأفكار المجردة» والتي «تعني الكثير» بالنسبة له. وأخيراً امتطى الجميع «حصان **موينيهان** المفضل» بدلا من تجاهل المبادئ التي حملها باقتناع شديد طوال هذه الأعوام. ولا حاجة الآن في أن يظل «**موينيهان** شهيداً» فإن «ركب التاريخ قد لحق به».

حذف من هذا المديح مراجعة سجل **موينيهان** عندما كان مندوب الولايات المتحدة في الأمم المتحدة عندما واتته الفرصة لتطبيق مبادئه. ففي برقية **لهنري كيسنجر** في ٢٣ يناير ١٩٧٦ ذكر **موينيهان** «التقدم الملموس» الذي حققه باستخدام «تكتيك ليّ الذراع في الأمم المتحدة» من أجل «الهدف الأساسي للسياسة الخارجية» ألا وهو «تفتيت التجمعات الدولية الكبيرة ومعظمها من دول حديثة» والتي تجمعت ضدنا في المحافل الدبلوماسية واللقاءات الدولية عامة ولفترة طويلة» وقدم **موينيهان** حالتين مهمتين كمثال: الأولى نجاحه في إفشال رد فعل الأمم المتحدة ضد الغزو الأندونيسي لتيمور الشرقية. والثانية العدوان المغربي في الصحراء وكلاهما دعمته الولايات المتحدة والأول بحماسة خاصة. وقد أفاض في الحديث عن هذه الأمور في مذكراته عن أعوام خدمته في الأمم المتحدة حيث يصف صراحة دوره عندما غزت أندونيسيا تيمور الشرقية «لقد تمنت الولايات المتحدة أن تصل الأمور إلى ما هي عليه الآن وعملت على تحقيق هذا ورغبت وزارة الخارجية في إثبات فشل الأمم المتحدة التام في أي إجراءات قد تتخذها» وأنيطت تلك المهمة بي وقد حققتها بنجاح غير قليل.

وأضاف أنه في غضون أسابيع قليلة قُتل ٦٠ ألف شخص «أو ١٠٪ من تعداد السكان أو تقريبا نفس نسبة الضحايا التي تكبدها الاتحاد السوفيتي أثناء الحرب العالمية الثانية».

وتعطينا حلقة الأمم المتحدة التي ضربنا بها المثل هنا، بعضاً من الحدس حول المناخ الثقافي السائد، فالأمم المتحدة ذات وظيفة اليوم لأنها تؤدي بشكل أو بآخر ما تريده واشنطن، وهي واقعة لا علاقة لها إطلاقًا بنهاية الحرب الباردة أو الروس أو أمراض العالم الثالث، فالضجة الباردة ضد الغرب التي يثيرها العالم الثالث كانت عادة دعوة للالتزام بالقانون الدولي، ولأول مرة حدث أن الولايات المتحدة وحلفاءها قد عارضوا أعمال العدوان والضم وانتهاك حقوق الإنسان. من ثم تحررت الأمم المتحدة من الفيتو المعتاد للولايات المتحدة - المملكة المتحدة. ولأن هذه الحقائق لا يمكن قبولها فهي غير موجودة.. إنها تدخل في نطاق «تشويه الواقع» [أي التاريخ الحقيقي] وليس «الواقع ذاته» [أي ما نرغب في تصديقه] تلك عناصر أساسية في قيمنا الثقافية التقليدية.. ومن خلال هذا تتضح كذلك قيمنا الأخلاقية التقليدية خاصة مع تبلور معارضه النخبة لخطط الولايات المتحدة الأمريكية الحربية. وكانت إحدى العلامات المبكرة مقابلة مع قائد القوات الأمريكية الجنرال **نورمان شوارتسكوف** وقد احتلت الصفحة الأولى في النيويورك تايمز وافتتحت كما يلي: قال قائد القوات الأمريكية المواجهة للعراق اليوم إن قواته بإمكانها تدمير العراق بيد أنه حذر من أن التدمير الشامل لهذا البلد قد لا يكون في مصلحة توازن القوى في المنطقة على المدى البعيد. وقد أوضح آخرون معنى تحذيراته. وكمثال نمطي كتبت أخصائية الشرق الأوسط في التايمز **جوديث ميلر** تحت عنوان «مسألة التكلفة السياسية للنصر»:- «قلة هي التي تشك في أنه لو حدثت حرب في الخليج الفارسي يمكن أن تحوّل الولايات المتحدة وحلفاؤها بغداد إلى ساحة للانتظار حسبما صرح مؤخراً دبلوماسي أمريكي في الشرق الأوسط.. بيد أن هناك محللين عديدين ينتابهم قلق متزايد بشأن التأثير المحتمل لهذا النصر على المصالح الأمريكية بعيدة المدى في المنطقة. فقد حذر **وليام كرو** الرئيس السابق لهيئة الأركان المشتركة في الأسبوع الماضي «من أن عرباً كثيرين سيرفضون بشدة الحملة التي ستؤدي بالضرورة إلى مصرع عدد ضخم من أشقائهم المسلمين».. باختصار بإمكاننا ذبح ١٧ مليون نسمة ومسح دولة عن وجه الأرض بيد أن الإبادة الجماعية قد تكون خطوة غير حكيمة تكتيكيا وضارة بمصالحنا. وقد نوقشت الأطروحات مناقشة متأنية في عدة مقالات والملاحظ عدم وجود أي علامات على «الدقة»التي أظهرها مكتب الهند عام ١٩١٩ حول استخدام الغازات السامة ضد«القبائل غير المتحضرة»، وبإمكان أولئك الذين عبروا عن قلقهم حول تراجع قيمنا التقليدية أن يطمئنوا.

٦ - المعتدلون والقوميون:

والشيء المفتقد بشدة في القصة هو رد الفعل المعتاد أو التهديد السوفيتي الذي انتهى الآن بلا رجعة. وقد انتقدت بشدة عدم قدرة الرئيس على تحقيق الأهداف الطموحة ولكن أسباب تردده لم تفحص، والأكيد أن تلك الانتقادات ظالمة. من الصعب على المرء توقع الحقيقة مثلما هي الحال في الماضي وخاصة في غياب الأعذار المعهودة القياسية. وقد اتخذت أحد التجارب طريقًا آخر وهو تقصي استفتاءات الرأي العام باستخدام معلومة قدموها حول ما يمكن أن يشتري، وأحياناً اعترفت بعض الأصوات بالواقع المتجاهل عادة: أن التدخل في دول العالم الثالث تحركه دائما اهتمامات الولايات المتحدة الإستراتيجية والاقتصادية وفي هذه الحالة «تدعيم دولة الأويك التي تذعن لمطالب واشنطن». ولقد نظر إلى الهيمنة العراقية على أرخص وأوفر مصادر الطاقة في العالم بوصفه تهديداً خطيراً وهي وجهة نظر صحيحة. بينما في المقابل تعتبر هيمنة الولايات المتحدة على موارد العالم العربي هيمنة حميدة، وهي بالتأكيد ليست كذلك



العـــدوان المشـين

لمعظم السكان الذين يسكنون الكويت أو المنطقة عامة أو آخرين غيرهم فى أماكن أخرى ولكنها كذلك بالنسبة للناس المهمين، فلحن نرى دائما المبدأ الأساسى نفسه: - يجب أن تكون موارد العالم وحكومته فى أيدى «الأغنياء الذين يعيشون فى سلام داخل منازلهم، يجب حفظ الجوعى والمقهورين فى مراكزهم. وبنفس الفرضيات التشرشلية فإن الأغنياء الذين يأتمرون بأمرنا فى العالم العربى هم معتدلون مثلهم فى ذلك مثل **موسولينى وسوهارتو** وجنرالات جواتيمالا وآخرين غيرهم. وتذكر النيويورك تايمز فى تقريرها عن عواقب الغزو العراقى «أن الشرق الأوسط قد انقسم الآن انقساماً واضحاً إلى معكسر معتدل يؤيد الغرب» و «تجمع قومى شرس ضد الغرب» وهو يشمل رجل الشارع العربى، كما لاحظت جريدة يومية تونسية فى معرض تعليقها على ازدياد تأييد العراق بين شعوب الدول العربية الأكثر فقراً ويضيف **برنار ترينور** أنه «لو نفذ **صدام حسين** تهديده ووعيده بتدمير إسرائيل» فإن هذا «سيؤدى إلى ازدياد شعبيته وسط ملايين العرب الفقراء الذين سيحولونه إلى بطل والذين بإمكانهم خلق متاعب أهلية فى الدول العربية المعتدلة والمحافظة تلك التى يحكمها ويديرها الأمراء وخريجو كليات إدارة الأعمال الذين يعتبرهم ملايين العرب الفقراء مغتربين يسجدون لله بينما قلوبهم مع بلى أمية. وتجدر بنا ملاحظة أن **ترينور** قد اتبع النهج السائد فى إدانة **صدام حسين** كمجنون هتلرى لتهديده بتدمير إسرائيل انتقاماً من العدوان الإسرائيلى وهو الأمر الذى يتم تجاهله تماماً كما فى هذه الحالة أو يرفض على أنه غير ذى بال. وبالمقارنة فلو حدث رد فعل إسرائيلى مدمر تجاه العدوان العراقى فسيتم النظر إليه على أنه عمل مشروع للدفاع عن النفس ولاحظ أيضاً أن عبارات معتدل مؤيد للغرب وقومى شرس معاد للغرب هى عبارات فضفاضة. تتضمن عبارة مؤيد للغرب معنى الاعتدال وعبارة معاد للغرب معنى الشراسة القومية أى الشر والتعصب.

٧- النهج الدبلوماسى:

بحلول منتصف أغسطس كان من الواضح أن الولايات المتحدة لا تقود حقًا جماعة تأييد متزايدة فى الأمم المتحدة وهى تحاول تعبئة الأمم لدعمها عند استخدام القوة فى الخليج؛ فبرغم التهديد والالتماس والتملق لم يستطع دبلوماسيو الولايات المتحدة المتحركون تجميع أكثر من تواجد رمزى فى أى شىء أبعد من المقاطعات والحظر الذى حاولت الأمم المتحدة فرضه فى حالات العدوان الأخرى وعادة ما كانت الولايات المتحدة تمنع هذا. وكان من الصعب عدم ملاحظة عزلة الولايات المتحدة فى الصحراء السعودية [بغض النظر عن بريطانيا] ولكن لم تثر التساؤلات حول الخط الرسمى الذى يدعى أنه عندما يقع العالم فى أزمة فإنه يستدعى المأمور ونحن الوحيدون الشرفاء والأقوياء بدرجة كافية لتحمل العبء الملقى على أكتافنا.

أعلنت ألمانيا أنها لن تساعد فى تمويل العمليات العسكرية الأمريكية لأن الاتفاق بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية اتفاق ثنائى ولم تصرح به الأمم المتحدة والتزمت الجماعة الأوروبية بنفس الموقف. وقد صرح وزير الخارجية الإيطالى معلقا على قرار الجماعة الأوروبية بعدم دعم العمليات العسكرية للولايات المتحدة فى الخليج مع تقديم ٢ بليون دولار فى عام ١٩٩٠ - ١٩٩١ (حوالى ١٥٪ من التكلفة المتوقعة) للدول التى تعانى من الحظر بأن «العمل العسكرى الذى قامت به الولايات المتحدة كان عملا منفرداً.. ولا تنسوا مبدأ أنه (لا ضرائب بدون تمثيل)، وقد وافقت اليابان بأدب على تقديم أقل القليل بينما ادعت كوريا الجنوبية الفقر.

وفى العالم الثالث أخرس رد الفعل ولم يكن هناك تحمس لجهود الولايات المتحدة وعادة كان ثمة معارضة جماهيرية. وبصفة عامة احتفظت الدول العربية بمسافة، وقد أظهر استطلاع للرأى فى تونس الموالية للغرب أن ٩٠٪ يؤيدون العراق وأدان كثيرون «الكيل بمكيالين» الذى اتضح من سلوك الولايات المتحدة تجاه العدوان الإسرائيلى والضم وانتهاكات حقوق الإنسان. ولاحظ المعلقون ملاحظة عابرة أن تأييد مبادرة الولايات المتحدة العسكرية كان أقل ما يمكن فى الحكومات «ذات الحركات الديمقراطية الوليدة» وهى الأردن والجزائر وتونس [**جوديث ميلر**]. وعبر المحللون الحكوميون عن قلقهم من أنه مع استمرار القوات الأمريكية فى مواقعها فترة طويلة «فإن المناسبات الإسلامية كالحج ورمضان ستتيح للشعوب مزيداً من حرية التعبير عن مشاعرها» وقد تؤدى إلى «إطلاق مظاهرات احتجاج وربما انقلابات» تطيح بالحكومات المؤيدة للغرب فى المنطقة وتسحب بساط الشرعية الدبلوماسية من تحت أقدام القوات التى تقودها الولايات المتحدة فى مواجهة (**بيتر جوسليين**) والذى ذكر أيضًا وبكل دقة أنه لم يوجه أى من نقاد الحكومة فى الكونجرس أية أسئلة حول مبادئ **بوش** الأولى التى ترى أن الخليج العربى له أهمية قصوى بالنسبة للولايات المتحدة ومن ثم فيجب عليها أن تدافع عن مصالحها فيه باستخدام القوة العسكرية، وهومبدأ أساسى يرحب به **صدام حسين** بكل تأكيد. وقالت أخصائية الشرق الأوسط فى معهد بركسلجز **جوديث كيبر** «بالنسبة لى فإن الأطروحة المركزية هى الأنظمة فى مواجهة الشعوب لأنه لا يوجد نظام عربى يمثل شعبه ولذا نجد الفرحة فى الشوارع تأييداً لصدام حيث ينظر إليه على أنه المدافع عن مصالح الجماهير العربية ضد الطغمة الحاكمة التى استخدمت الثروة النفطية العربية لتثرى نفسها والعالم الغربى. وكان ثمة تعليقات قليلة جداً حول حقيقة أنه طالما وجدت عناصر التعددية فى العالم العربى لم تستطع الحكومات أن تنخرط فى صف قضية الولايات المتحدة.

وقد حاولت الصحافة أن تصعر خدها لكل هذا فأكدت على الإجماع المذهل للرأى العام العالمى دعمًا للموقف الأمريكى وهى

تلوى عنق التفاصيل على قدر الإمكان. وقد التقطت المشكلات التى تواجه الصحافة فى ملخص للأسوشيتدبرس حول أهم التقارير فى هذا اليوم «أعلن وزير الخزانة نيكولاس برادى نجاح جولته حول العالم لجمع المال رغم أنه لم يتلق أى تعهدات محددة حول أية مساعدات جديدة للإسهام فى التمويل «بيد أن المحررين والكتاب أدانوا اليابان وألمانيا لأنهما حليفتا الزمن الطيب اللتان رفضتا «المساعدة بتقديم نصيبهما الكامل والعادل فى المجهود المشترك لاحتواء العراق» .. لكن المجهود المبذول لاستكشاف سبب الرفض الغريب من قبل الذين يعتبرون نظرياً المستفيدين الأساسيين من أعمال الولايات المتحدة لإنقاذ السفينة، كان مجهوداً ضئيلا للغاية.

وأدت هذه المشاكل إلى حساب تجدر ملاحظته [والتأييد] لموقف الولايات المتحدة المناضل فى النيويورك تايمز فى مقالة بقلم توماس فريدمان على الصفحة الأولى. وقد عزى رفض الحكومة حتى مجرد النظر فى الطريق الدبلوماسى» إلى قلقها من أن المفاوضات قد تؤدى إلى تمييع الأزمة واستعادة الوضع القائم السابق على حساب بعض المكاسب فى الكويت لمصلحة ديكتاتور العراق أو ربما جزيرة كويتية أو تعديلات حدودية ضئيلة وكلها مسائل محل نزاع طويل. من ثم فلا أقل من انتصار حاسم وكامل لقوة الولايات المتحدة حتى لو كان هذا يعنى حرباً كارثية ذات نتائج لا يمكن التنبؤ بها، وبالنسبة لإمكانية أن تؤدى الدبلوماسية إلى تمييع الأزمة تاركة المشاكل المتضخمة والمهملة طويلا مثل تزايد أسلحة الدمار فى المنطقة وليس فى العراق فقط ليتم حلها بهدوء وخلال الوسائل الدبلوماسية - فتلك كارثة يجب تجنبها وليس خياراً يجب استكشافه. واستمر كبير مراسلى التايمز الدبلوماسيين فأرجع الضغوط من أجل المفاوضات إلى الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية المخادعة دائما وجهودهما للوساطة «هى طريقهما الوحيد لتبرير دعمهما للغزو الذى قام به الرئيس صدام حسين» .. لم تدعم الأردن الغزو، رغم أنها لم تدعم رد الفعل الأمريكى عليه كما يذكر من عمان وبشكل أكثر دقة من عمان المراسل البريطانى مارتين ويلكوت حيث قال إن جهود الملك «منذ أن بدأت الأزمة تهدف إلى إعادة الجن إلى الزجاجة والوصول إلى انسحاب عن الكويت وبشكل عام إرجاع الوضع إلى ما كان عليه». ورغم أن التايم قد قدرت أن تلك الواقعة لا تستحق النشر فمن الصعب أن تصدق أن أخصائى الشرق الأوسط الرئيسى فيها لم يكن يدرى أنه منذ بضعة أيام مضت قبل كتابته هذا الكلام أصدرت منظمة التحرير الفلسطينية أول بيان رسمى لها حول الأزمة يدعو إلى حل الأزمة عن طريق ضمان أمن وتماسك العراق والكويت والسعودية والخليج وكل دول المنطقة العربية، [وقد تناقلت البيان خطوط البرق] .. إن لوم «التفسير الفلسطينى للأحداث، وإدانة السلوك السيئ للأردن ما هو إلا إضافة أخرى ملحوظة لتدعيم خط الدعاية الأمريكية - الإسرائيلية.

قلة هى المعلومات الحقة المتاحة حول مواقف الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية. لقد ذكرت الصحافة الإسرائيلية خطة لمنظمة التحرير الفلسطينية قرأها المناضل الفلسطينى فيصل الحسينى فى القدس وتدعو تلك الخطة إلى انسحاب فورى للقوات العراقية من الكويت وبدء مباحثات السلام فوراً بين الكويت والعراق حول سياسة النفط والحدود وحق الشعب الكويتى فى «اختيار حكومته المركزية فى بلاده بدون تأثير أجنبى سواء عربى أو غيره» ووفقا لمصادر منظمة التحرير الفلسطينية قدمت الأردن والمنظمة خطة بمقتضاها تبعث الأمم المتحدة بقوات حفظ سلام دولية ويتم تنشيط المباحثات حول الحكومة المقبلة فى الكويت وربما تدعو إلى استفتاء عام فى الكويت. ومثلها مثل المقترحات الأخرى للوصول إلى حل سلمى، فقد تم تجاهل تلك المقترحات أو رفضها بسرعة سواء من قبل البيت الأبيض أو الكونجرس أو وسائل الإعلام. وبينما حذرت التايمز من إغراء الحل السلمى فقد دعت أيضًا إلى الدبلوماسية كبديل عن اللجوء الفورى للقوة، ولكن كما لاحظنا من قبل فإن الدبلوماسية تعنى إرسال إنذار أخير: استسلموا أو موتوا. وفى الواقع فقد خربت الإمكانيات الدبلوماسية وكذلك خيار المقاطعة من البداية.

يجب على المرء أن يتذكر دائمًا أن حكومة الولايات المتحدة مثل أى ممثل على مسرح العالم ستعلن على الناس أنها تفضل الدبلوماسية وليس القوة.. كان هذا هو موقف الولايات المتحدة بينما هى تحاول عرقلة المفاوضات والحل السلمى فى فيتنام وأمريكا الوسطى وكان هذا أيضًا الموقف المعلن دائما بصدد الصراع العربى الإسرائيلى رغم أن الولايات المتحدة هى التى تقود معسكر الرفض. ومهما كان موقف الولايات المتحدة فإن وسائل الإعلام تظهره على أنه شغف بالدبلوماسية والوسائل السلمية. من ثم نقرأ «عن الجهد الأمريكى لتركيز الانتباه على الدبلوماسية والحظر وليس طبول الحرب» بينما فى الواقع فإن الجهد تركز على إغلاق طريق الدبلوماسية ورفض المفاوضات والالتزام بالقوة والقهر تحت غطاء دولى لو أمكن ولا فبمفردها، ومثل كل الحالات الأخرى فإن النقطة البديهية المحصنة ضد الوقائع هى أن واشنطن تسعى لحل المشكلة حلا سلميا بدون استخدام القوة.

ولقد ذكرنا من قبل عدة محاولات مبكرة لفتح طريق دبلوماسى: الاقتراح العراقى فى ١٢ أغسطس الخاص بالانسحاب من كل الأراضى العربية المحتلة واقتراح ١٩ أغسطس الذى ينص على أن تقرر الدول العربية وحدها وضع الكويت وعرض ٢٣ أغسطس الذى نشرته النيوزداى. والعرض المماثل «أو ربما كان هو ذاته، الذى حفظته التايمز فى الأرشيف فى نفس الفترة والمقترحات الفلسطينية الأردنية المذكورة، واستمرت العروض لتلاقى نفس المصير.. فقد ذكرت صفحات المال والأعمال فى النيويورك تايمز والوول ستريت جورنال، وجود رغبة محمومة فى شراء الأسهم فى وقت متأخر من اليوم، فى الرابع من ديسمبر بعد تقرير التليفزيون البريطانى حول عرض عراقى للانسحاب من الكويت عدا حقول الرميلة وبدون أى شروط أخرى فيما عدا موافقة الكويت على مناقشة تأجير جزيرتين فى الخليج بعد الانسحاب وقد تناقلت أسلاك البرق هذا النبأ ولكن نشرات الأخبار لم تعرضه بيدان التقارير الإخبارية قد عبرت عن عدم ارتياحها لأن المباحثات المقترحة على العراق (التى هى فى الواقع مجرد إرسال الإنذار النهائى وفقا للبيت الأبيض) (قد تشجع بعض الشركاء الأوروبيون على إطلاق مجسات سلام لن تفيد). وفى أواخر



العدوان المشين

ديسمبر ١٩٩٠ عرض العراق اقتراحًا آخر كشفه المسئولون الأمريكيون فى ٢ يناير ١٩٩١ . وهو عرض «للانسحاب من الكويت إن تعهدت الولايات المتحدة بعدم مهاجمة الجنود المنسحبين وبانسحاب القوات الاجنبية من المنطقة وإن كان ثمة اتفاق حول المشكلة الفلسطينية وحول حظر كل أسلحة الدمار الشامل فى المنطقة»، ووصف المسئولون العرض بأنه مثير لأنه أسقط موضوعات الحدود وأشار لاهتمام العراق بالتسوية عن طريق المفاوضات. وقد وصف خبير فى الشرق الاوسط بوزارة الخارجية العرض بأنه «موقف قبل تفاوضى جاد». ويذكر التقرير أن الولايات المتحدة قد رفضت العرض فى الحال. ومر هذا مرور الكرام بدون ذكر فى الصحافة القومية ونادراً ما ذكرت فى أى مكان آخر. بيد أن النيويورك تايمز قد ذكرت فى نفس اليوم أن ياسرعرفات بعد مباحثاته مع صدام حسين قد أعلن أنه ليس بينهما من يصر على «حل المشكلة الفلسطينية قبل خروج القوات العراقية من الكويت»، ويستمر التقرير ذاكراً أنه وفقا لعرفات فإن تصريح صدام حسين فى ١٢ أغسطس ١٩٩٠ الذى يربط بين الانسحاب العراقى والانسحاب الإسرائيلى من الضفة الغربية وقطاع غزة لم يعد مطلباً أساسيًا للموقف التفاوضى «وكل ما هو مطلوب» ضمان ربط قوى من قبل الدول الخمس دائمة العضوية فى مجلس الأمن وبين حل كل المشاكل فى الخليج وبين حل المشاكل فى الشرق الأوسط وخاصة «القضية الفلسطينية»، ومن ثم فإنه قبل الموعد المحدد النهائى للانسحاب العراقى بدا من الجائز تجنب الحرب على أساس هذه الشروط:

تنسحب العراق تمامًا من الكويت مع تعهد الولايات المتحدة بعدم الهجوم على قواتها المنسحبة وتترك القوات الأجنبية المنطقة ويعلن مجلس الأمن التزاما جادا بحل كل مشاكل المنطقة الأخرى وترك المسائل الحدودية موضع النزاع ليتم النظر فيها فى وقت لاحق، وقد رفضت واشنطن هذه الإمكانية رفضًا قاطعًا ولم تعرف طريقها لوسائل الاعلام أو للوعى الجماهيرى. وأصرت الولايات المتحدة وبريطانيا على الالتزام بالقوة وحدها.

وظهرت مرة أخرى قوة هذا الالتزام عندما حاولت فرنسا محاولة أخيرة لتجنب الحرب فى آخر لحظة فى ١٤ يناير مقترحة أن يدعو مجلس الأمن إلى الانسحاب التام والسريع من الكويت مع تصريح بأن أعضاء المجلس سيحاولون قصارى جهدهم الوصول إلى حل لمختلف مشاكل المنطقة الأخرى وخاصة الصراع العربى الإسرائيلى والمشكلة الفلسطينية بإقامة مؤتمر دولى فى اللحظة المناسبة، لضمان أمن واستقرار وتنمية هذه المنطقة من العالم». ودعمت كل من بلجيكا (وهى عضو فى مجلس الأمن) وألمانيا وأسبانيا وإيطاليا والجزائر وتونس والمغرب وعدة من دول عدم الانحياز. بينما رفضته كل من الولايات المتحدة وبريطانيا (بالإضافة للاتحاد السوفيتى ولو أنه لا أهمية له) . وصرح توماس بكرنج المندوب الأمريكى لدى الأمم المتحدة بأن الاقتراح غير مقبول لأنه يتخطى قرارات الأمم المتحدة السابقة بصدد العراق.

ومن وجهة النظر الفنية فإن تصريح المندوب صحيح. فإن عبارات الاقتراح قد أخذت من مصادر مختلفة وتحريراً قرار مجلس الأمن فى ٢٠ ديسمبر ١٩٩٠ الملحق بالقرار ٦٨١ الذى يدعو إسرائيل لاحترام اتفاقيات جنيف فى الأراضى المحتلة، ويدعو القرار إلى عقد مؤتمر دولى فى وقت مناسب وبتركيبة «ملائمة» المساعدة على تحقيق تسوية سلمية عن طريق التفاوض وإقامة سلام دائم فى موضوع النزاع العربى الإسرائيلى» وقد انتزعت تلك العبارة من القرار ذاته لتجنب الفيتو الأمريكى وتركت الملحق. ولاحظ أنه ليس ثمة ربط بالغزو العراقى الذى لم يذكر. ولا يمكننا معرفة ما إذا كانت المحاولة الفرنسية ستنجح فى تجنب الحرب. ولخشيتها من هذا عارضتها الولايات المتحدة وفقا لمعارضتها المتحمسة لأى شكل من أشكال الدبلوماسية. وفى هذه الحالة معارضتها القوية كذلك للمؤتمر الدولى. وقد ارتبط صدام حسين بجورج بوش فى هذا الرفض حيث لم يظهر أى اهتمام على للمقترحات الفرنسية رغم أنه لو فعل هذا، ربما كان يمكن تجنب الحرب. وقد عبر الرئيس بوش عن الموقف الأمريكى غير المتزعزع بمنتهى الوضوح فى خطاب أرسله إلى صدام حسين فى يناير ١٩٩١ ورفضه طارق عزيز وزير الخارجية العراقى عندما قدمه وزير الخارجية الأمريكى جيمس بيكر، وكان أساس الرفض أن لغته لا تلائم أسلوب التخاطب بين رؤساء الدول وقد صرح بوش فى هذا الخطاب بأنه «لن تكون هناك مكافأة على العدوان ولن تكون هناك مفاوضات فلا يمكن التنازل فى المبادئ» وقد «أعلم صدام حسين مجرد إعلام بأن الخيار أمامه هو أن يرضخ دون مفاوضات أو سيتم تدميره بالقوة، والدبلوماسية ليست من ضمن الخيارات. ويحق للمرء أن يتساءل عن جدية وإمكانية هذه الخيارات. إن تجاهلها أو رفضها لأنها كاذبة هو إجبار الكل خلال التهديد بالقوة أو استخدام القوة العسكرية مهما كانت العواقب وخيمة. ولا يجنّب التغاضى عن مغزى ونتائج هذه الوقائع على المدى البعيد.

وبالنظر لاهتمام الولايات المتحدة البالغ حاليا بضمان تدمير قدرات العراق العسكرية من الأسلحة غير التقليدية فمن المفيد أن نتذكر عرضا عراقيا مرفوضا آخر فى ١٢ إبريل ١٩٩٠ . حيث عرض صدام حسين وكان لايزال صديقا وحليفا أن يدمر ترسانة من الاسلحة الكيميائية وغيرها من الأسلحة غير التقليدية لو وافقت إسرائيل على التخلص من أسلحتها الكيميائية والنووية. وصرح السفير العراقى فى فرنسا مرة أخرى فى ديسمبر ١٩٩٠ «بأن العراق على استعداد لتدمير الأسلحة الكيميائية وأسلحة الدمار الشامل لو كانت اسرائيل مستعدة لهذا كذلك» وجاء هذا فى تقرير لوكالة رويتر. وقد قالت وزارة الخارجية فى ردها على عرض أبريل الذى نقله مجموعة من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى أنها ترحب باستعداد العراق لتدمير ترسانتها ولكنها تعارض الربط بين

هذا وبين «أى موضوعات أخرى أو أنساق تسليح أخرى» [على لسان المتحدث باسم وزارة الخارجية ريتشارد بوشر] ولاحظ أن أنساق التسليح الأخرى قد تركت دون تحديد فلا يمكن أن ينطق أى مسئول أمريكى بعبارة «أسلحة إسرائيل النووية» لأن الاعتراف بوجودها سيثير التساؤلات حول شرعية المساعدة الأمريكية لإسرائيل وفقًا للنصوص الملحقة بقانون المساعدة الخارجية منذ ١٩٧٠ والتى تمنع أى مساعدة عن أى دولة تتورط فى تطوير الأسلحة النووية بصورة سرية إن ما يزعجنا ليس تهديد الدمار الشامل ولا القدرة على القهر ولكن بالأحرى أن يكون هذا فى الأيدى الأسيئة السلمية: أيدينا أو أيدى عملائنا. اتضحت منذ أغسطس ١٩٩٠ الخطوط العامة للتسوية السلمية الممكنة وتشمل ترتيبات بخصوص وصول العراق للخليج ربما عن طريق تأجير جزيرتين مقفرتين وتسوية النزاع حول حقول الرميلة وبداية خطوات نحوتسوية أمنية فى المنطقة وربما شكل من أشكال حق تقرير الرأى فى الكويت. وقد عارضت الولايات المتحدة كل هذه الخطوات معارضة صلبة منذ اللحظة الأولى معلنة أنه «لا يمكن مكافأة العدوان». وأن «الربط» يتعارض مع موقفنا المبدئى الأخلاقى السامى وأنه لا يمكننا أن ندخل فى مفاوضات مطولة وبالأحرى على العراق أن تخضع فى الحال لاستعراض القوة الذى أظهرته الولايات المتحدة وبعدئذ ربما - نعم ربما - تسمح واشنطن بمناقشة موضوعات أخرى وينبع رفض «الربط» من الحقيقة التى لا يصرح بها وهى أن الولايات المتحدة تعارض أى تسوية سلمية لكل موضوعات الربط بينها وخاصة فهى تعارض منذ أمد بعيد المؤتمر الدولى بخصوص النزاع العربى الإسرائيلى لأن هذه الجهود ستؤدى فقط إلى ضغوط لتحقيق تسوية سلمية عن طريق دبلوماسى والتى تعرقلها الولايات المتحدة بنجاح شديد عن طريق ما يدعى «عملية السلام» فى الأيديولوجية الشائعة. فى حالات كثيرة مماثلة كانت الولايات المتحدة سعيدة جدًا وهى تكافئ العدوان وتجرى مفاوضات مطولة وتعمل على الربط [هذا بغض النظر عن تلك الحالات التى مدحت فيها الأعمال الإجرامية]. على سبيل المثال فى حالة نامية قد أدانت الأمم المتحدة احتلال جنوب أفريقيا لتلك البلاد فى ١٩٦٠ ثم تلا هذا حكم لمحكمة العدل الدولية يدعو لطرد جنوب أفريقيا منها. وبينما اتبعت الولايات المتحدة الدبلوماسية الهادئة والحوار البناء نهبت جنوب أفريقيا ناميبيا وأرهبتها واستخدمتها القاعدة لهجماتها المدمرة ضد جيرانها. وقد كافأت خطة وزير الخارجية جورج شولتز للسلام فى لبنان عام ١٩٨٣ العدوان مكافأة ضخمة. وتقيم الخطة فى الواقع «إسرائيل الكبرى» كما اعترفت الجريدة المحابية لإسرائيل بشدة «النيويورك تايمز» هذا بينما تؤمر سوريا بالانصياع ببساطة إلى ما يتليه الولايات المتحدة وإسرائيل (وقد رفضت أن تفعل هذا كما هو متوقع) وهذا مثال متطرف على الربط.

وكذلك كوفئت إسرائيل على غزوها مصر عام ١٩٥٦. فمن غير المتوقع ابتعاد عملاء الولايات المتحدة أو سيدهم نفسه عن العدوان والإرهاب بدون إشباع «حاجاتهم ورغباتهم». وهذا النمط عام كما يلاحظ المعلقون فى دول العالم الثالث بالاجماع وتأثيره ضئيل للغاية على الثقافة السياسية الغربية المستأنسة بشدة.

من المنطقى تمامًا اتخاذ موقف أن العراق يجب أن تنسحب فورًا وبدون شروط ولا يربط بأى شىء وأن عليها دفع تعويضات وحتى يجب أن تخضع لمحاكمات على جرائم الحرب التى اقترفتها وهذا موقف مفهوم بالنسبة لأولئك الذين يحترمون المبادئ التى تؤدى لهذه النتائج، ولكن منطقيا أيضًا لا يمكن احترام المبادئ احترامًا انتقائيًا. وكواقع قلة هى التى يمكنها أن تدعى أنها تلتزم بالموقف العام ضد العراق علينا وعلى أساس مبدئى كما يظهر بسرعة من الفحص الأولى.

وتجدر بالملاحظة فى هذا الصدد عملية رفض الربط التى تقبلها النخبة بإجماع مذهل لأنها مرتبطة بطلب حل المشاكل الأمنية فى المنطقة كجزء من الانسحاب العراقى، والآن بعد أن ظهرت العراق نفسها كعدو وليس عميل يعتديه كما كان مفترضا من المستحيل ترك قدراتها العسكرية الضخمة سلمية. بيد أن «توازن القوى على المدى البعيد فى المنطقة» يتطلب بقاءها كحاجز ضد إيران كما أعلن الجنرال شوارتسكوف ومن العسير توقع أن يظل العالم العربى مراقبا سلبيا بينما يقوم العميل الأساسى للولايات المتحدة فى المنطقة ليس فقط باحتلال الأراضى العربية وقمع أهلها بشدة ولكن أيضًا يزيد فى ترسانته النووية وغيرها من المكاسب العسكرية، من الواضح أن مسائل «الأمن» و «الاستقرار» تتطلب اعتبار موضوعات إقليمية أى هذا الربط الملعون. لكن فى هذه الحالة ولأن الولايات المتحدة [والرأى العام المثقف] تعارض الحلول السلمية بالطريق الدبلوماسى عامة نظرًا لضعفها السياسى، فيجب عليها أن تعارض الربط على أساس مبدأ «لا يمكن مكافأة المعتدين».

وبعد ٣ أيام من ذكر وتبرير مخاوف الولايات المتحدة من أن يتم إغراء الآخرين باتخاذ الطريق الدبلوماسى أدان محررو التايمز صدام حسين غاضبين من محاصرته للسفارات الأجنبية بالقوات العراقية وصرحوا بأنه يضرب الدبلوماسية ذاتها. وكما لاحظنا من قبل فقد أدى ذلك الخرق الواضح للقانون الدولى إلى أن يطلب محررو التايمز معاملة صدام حسين كمجرم حرب حسب مبادئ نورمبرج.

واتهم المحررون صدام حسين بارتكاب هذه الجرائم «بداية حرب عدوانية خرقًا للمعاهدات الدولية» وهم يذكرون فى هذا الصدد غزو إيران و «سوء معاملة السكان المدنيين فى المناطق المحتلة، وتجريد المواطنين من جنسيتهم وإساءة معاملة السكان المدنيين فى المناطق المحتلة وتجريد المواطنين من جنسيتهم وإساءة معاملة المدنيين وهذه الجريمة الجديدة ضد الدبلوماسيين التى تحمى اتفاقيات فينا مكانتهم الخاصة» وكلها اتهامات صارمة وتنطبق عليها مبادئ نورمبرج حقًا. وأسوء الجرائم تعود للفترة التى تغاضى فيها المحررون عن رؤية دعم الولايات المتحدة لأصدقائها العراقيين، ويمكن للمرء أن يفكر فى بلاد أخرى تورطت فى جرائم مماثلة منذ فترة قريبة كما فى ذلك دولة تمدحها التايمز دائما لأنها الحارس النبيل للنظام العالمى وحقوق الإنسان وأخرى تصفها بأنها المثال العظيم للكرامة الإنسانية وأنها مجتمع تعتبر فيه الحساسية الأخلاقية مبدأ من مبادئ

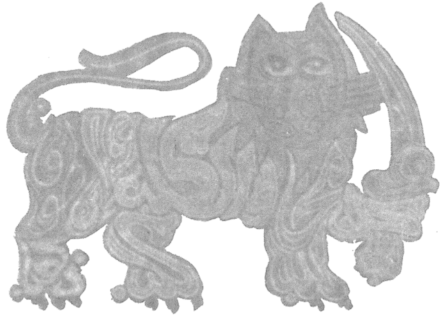
الحياة السياسية ولكن المحررين لا يرون من الواجب قيادة القراء خلال ممرات عدم الأهمية التاريخية المتعرجة.

٨ - حماية حاجاتنا:

وفقًا لأية معايير فإن **صدام حسين** شخصية متوحشة وبالتأكيد يمكن مقارنتها مع الشخصية الإجرامية الأصغر **مانويل نورييجا**. لكن إجرامه لم يكن سبب تسنمه لدور الشيطان الأعظم فى أغسطس ١٩٩٠. فقد كان هذا واضحاً منذ زمن بعيد ولم يعوق الجهود الأمريكية لإعطائه دعما ومعونه. ونحتاج فقط لتضييع كلمات قليلة على التزامنا التقليدى بمقارنة العدوان واحترام حكم القانون، لقد صار حسين شيطاناً حسب الطريقة المعتادة عندما فهمنا أخيراً ودون أدنى شك أن اتجاهه القومى التحررى يهدد مصالح الولايات المتحدة. عندئذ صارت سجلات فظائعه المقتية متاحة للأغراض الدعائية ولكن بعيداً عن هذا لا علاقة لذلك أساسًا بانتقاله المفاجئ فى اغسطس ١٩٩٠ من صورة الصديق المحبوب ليكون التجسيد الجديد **لجنكيز خان وهتلر** فإن استمر الاحتلال العراقى للكويت بنجاح سيصبح دكتاتور العراق لاعبا أساسيا فى الساحة العالمية ولكنه لا يمثل تهديداً بمواجهة بين القوى العظمى ولا بالحرب النووية كما حدث فى النزاعات السابقة فى المنطقة. وهذه الواقعة ذات الأهمية تعكس بالطبع انهيار النظام السوفيتى مما ترك الولايات المتحدة دون تحد عسكرى ووضعها كإغراء شديد لإظهار فاعلية الآلة التى تملكها بمفردها. وهذا المفهوم الإستراتيجى لم يتعرض لأى تحد حتى وسط دوائر النخبة حيث بدأ يظهر صراع منذ عدة أشهر على نفس الخطوط الشائعة. إن إستراتيجية الحكومة للسيطرة على الظلم خلال استخدام القوة أو التهديد بها تتعارض مع أهداف الحفاظ على الحيوية الاقتصادية ومصالح التعامل الدولى وهى الآن مشاكل خطيرة جداً. ومن الصعب مواجهتها بدون تغيرات ملحوظة فى السياسة الاجتماعية فى البلاد. وسيعتمد شكل النظام العالمى الجديد بدرجة كبيرة على سيادة أى من هذين المفهومين!! ■

ت: أسامة القفاش





فى نهاية التاريخ وصراع الحضارات

عبد الوهاب المسيرى

ق لا يمكن أن نفهم واقعنا المحلى والعالمى المعاصر، إلا من خلال أعلى درجات التنظير والتجريد، فمن يظل متصلا بواقعه المباشر غير متجاوز له، لا يدركه فى كليته وتركيبيته وخصوصيته، ومن لا ينظّر لنفسه حسب تجربته وحسب تفاعله مع واقعه، سيُنظّر الآخرون له حسب مقولاتهم وتجربتهم وتحيزاتهم وأهوائهم. ولكن لابد أن يكون التنظير على علاقة وثيقة بتفاصيل الواقع وحقائقه، ولابد من اختبار النماذج النظرية التى ننحتها بالعودة إلى الواقع لنرى مقدرتها التفسيرية وإلا أصبح التنظير تمريناً أكاديميًا خاليا من الروح والمعنى. وسنحاول، بإذن الله، أن نقترب من هذا المثل الأعلى المنهجى فى بحثنا هذا.

وبدلا من أن نبدأ من النظرية والمفاهيم (نهاية التاريخ - صراع الحضارات - ما بعد الحداثة - النظام العالمى الجديد) فلنبدأ من بعض وقائع الحاضر والتاريخ المباشر التى قد تبدو متناثرة ولا يربطها رابط ولنسأل: ما هى العلاقة بين الحل النهائى النازى للمسألة اليهودية وعاصمة إسرائيل الأبدية؟ وبين الاستنساخ والاستعمار Cloning and Co-lonialism بين الماكدونالد والشركات عابرة القارات والصهيونية؟ العنصر المشترك هو محاولة إلغاء الزمان والتاريخ وتصفية التركيب وإنكار مقدرة الإنسان على تجاوز

واقعه.. فالحل النهائي النازي يعني رفض الواقع التاريخي المركب للمجتمع الألماني، الذي كان يضم الألمان واليهود (والعجائز والأطفال المعوقين والغجر). ولكن النازيين قرروا «تبسيط» الأمور واختزالها ليبدءوا بداية جديدة، من صفحة بيضاء tabula rasa، عالم بلا يهود Judenrein، عالم عضوي مصمت تتحكم فيه البيروقراطية النازية وتطبق عليه معايير الرشد الاقتصادي والمنفعة المادية ويخضع له الجميع، فيباد من لا فائدة له ليصبح الرايخ الثالث كياناً شامخاً معقماً، تماماً مثل الهيكل الثالث (أحد أسماء الدولة الصهيونية) الذي سيبقى حتى نهاية التاريخ، عاصمته الأبدية هي القدس. والاستنساخ هو أيضًا نفي للتاريخ والذاكرة، بحيث نتتج في المعامل (خارج حدود الزمان والمكان، وخارج التاريخ) نسخاً كربونية بسيطة معقمة من أي شخص يعجبنا. الوجه يشبه الوجه والسطح يشبه السطح، ولكن دون أعماق أو أبعاد، فالعمق تركيب، ولا حاجة لنا به، ولا حاجة لنا بالذاكرة أو التاريخ. والاستعمار هو الآخر نفي للتاريخ، فهو يحول العالم بأسره إلى مادة استعمالية بسيطة لا قيمة لها ولا هوية ولا تاريخ، مادة يمكن أن توظف في صالح الإنسان الغربي أو لصالح القوة الأعظم. والماكدونالد طعام بسيط، لا لون له ولا طعم ولا رائحة له، لا ينتمي إلى أية حضارة ولا يتحرك في أي فضاء زماني محدد ولا يعرف الخصوصية أو الحدود، شأنه في هذا شأن الشركات متعددة الجنسيات وعابرة القارات، التي لا تهتم إلا بالسلع البسيطة، أحادية البعد، وبالأسعار الأكثر بساطة وأحادية، ولا تكترث بالخير أو الشر أو بالمكان أو الزمان، والتي لا تختلف كثيراً - من هذه الزاوية - عن الصهيونية التي تنكر تاريخ العرب في فلسطين أو تاريخ اليهود خارجها وتحاول تأسيس صهيون الجديدة البسيطة الخالية من العرب Ara-brein، صهيون التي لا تعرف الحدود، التي لا تكف عن التمدد والتوسع، القادرة على ابتلاع الأراضي التي احتلت قبل وبعد عام ١٩٤٨، وقبل وبعد عام ١٩٦٧.

وحتى نفهم المدلولات الحقيقية لفكرة نهاية التاريخ، وصراع الحضارات، قد يكون من المفيد أن نطرح جانباً محاولة التمييز بين الحضارة والثقافة، وأن نحاول بدلا من ذلك أن نميز بين الطبيعة والحضارة.. فمفهوم الطبيعة هو المفهوم المحوري في الخطاب الفلسفي الغربي. وسأقبل بتعريف بسيط للغاية وهو أن الحضارة والثقافة هما كل ما صنعته يد الإنسان وما عدا ذلك فطبيعة. ويمكن تقسيم الرؤى السائدة في عصرنا الحديث إلى قسمين اثنين: رؤى متمركزة حول الإنسان باعتباره كائناً مركباً متعدد الأبعاد، صاحب وعي تاريخي وعقل ومنظومات معرفية وقيمية، لا يمكنه العيش دون هدف أو غاية، يعيش داخل العالم الطبيعي متميزاً عنه، متجاوزاً له، لا يرد إليه، يعيش داخل حدوده المتعينة، ويشغل مركز الكون، بسبب وعيه التاريخي وتركيبيته. أما الرؤية الثانية فهي رؤية متمركزة حول الطبيعة، والطبيعة بسيطة، حتمية، لا غائية، أحادية البعد، لا تاريخ لها ولا حدود خالية من القيمة، لا يشغل الإنسان فيها أية مكانة خاصة، فالطبيعة لا تعرف الفارق بين الإنسان والقرد، ولا تميز بينهما، فثمة قانون طبيعي واحد صارم يسري على كل الكائنات لا يمكن لأي منها تجاوزه.

ونحن عادة ما نستخدم الرؤية الثانية (أو النموذج التفسيري الثاني) في التعامل مع الأشياء ومع الجوانب المادية الطبيعية لوجودنا، ولذا فهذا النموذج التفسيري هامشي بالنسبة لما هو إنساني. ولكن الأمور تغيرت تدريجياً منذ عصر النهضة في الغرب حين طرح مفهوم القانون الطبيعي والإنسان الطبيعي، أي تم تطبيق النموذج المتمركز حول الطبيعة والمادة على الإنسان، وكأن الإنسان ظاهرة طبيعية وليس ظاهرة تاريخية متميزة، وكأن فضاءه هو الفضاء الطبيعي وحدوده هي حدود الطبيعة لا يمكن أن يتجاوزها.

وقد تفرع عن هذا الإنسان الطبيعي أنماط «إنسانية» أخرى قد تختلف في مضمونها عن الإنسان الطبيعي أو عن بعضها بعضاً، ولكنها، في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير، واحدة في بنيتها وفي أحاديتها وفي تجردها من الإنساني والتاريخي. وأهم هذه الأنماط هو الإنسان الاقتصادي، وهو إنسان متحرر تماماً من القيمة (شأنه شأن الطبيعة) أحادي البعد دوافعه الأساسية اقتصادية بسيطة وما يحركه هو القوانين الاقتصادية، إنسان لا ينتمي إلى حضارة بعينها وإنما ينتمي إلى عالم الاقتصاد العام.. وهو لا يعرف الخصوصية ولا الكرامة ولا الأهداف السامية التي تتجاوز الحركة الاقتصادية، ويجيد نشاطاً واحداً هو البيع والشراء. ويدور هذا الإنسان الاقتصادي في إطار الحتميات الاقتصادية المادية (تماماً مثل الإنسان الطبيعي الذي يخضع لقوانين الطبيعة وحتميات القانون الطبيعي لا يملك تجاوزاً لها).

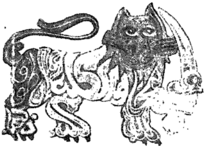
وثمة نمط آخر هو الإنسان الجنسي أو الجسماني الذي يشبه الإنسان الاقتصادي تماماً في بنيته، فهو أيضًا أحادي البعد، خاضع للحتميات الغريزية، متجرد من القيمة لا يتجاوز قوانين الحركة. إن الإنسان الطبيعي هو ذاته الإنسان الاقتصادي، وهو ذاته الإنسان الجسماني، قد تختلف المضامين لكن البنية واحدة. ولو أننا وضعنا كلمة «اقتصاد» أو كلمة «جنس» محل كلمة «طبيعة» لظل كل شيء على ما هو عليه ولما غيرنا شيئاً في خطابنا.

وجوهر الرؤية المتمركزة حول الطبيعة هي إنكار الإنسان، فالإنسان يستمد إنسانيته من كونه كائناً منفصلا عن الطبيعة، بقوانينها الصارمة وحتمياتها النهائية.. فرغم أنه يعيش داخلها، خاضعًا في بعض أوجه حياته لقوانينها، إلا أنه قادر على تجاوزها وتجاوز قوانينها، ليتحرك داخل البنى الإنسانية، الحضارية والتاريخية التي شيدتها يداه والتي تشكل حيزاً إنسانيًا له قوانينه الخاصة.. هذا الحيز هو رقعة الحرية الذي يمكن للإنسان أن يمارس فيها حرية الاختيار والسقوط والارتفاع، حرية أن يخطئ ويصيب، وأن يتحول إلى بطل أو مهرج، ولذا يصبح التنبؤ بسلوكه في حكم المستحيل. إن الإنسان إنسان بسبب حضاريته وتاريخيته، وهذا ما تنكره الرؤية المتمركزة حول الطبيعة، التي ترد الإنسان، في جميع أبعاده، إلى عالم الطبيعة / المادة وإلى قوانينها البسيطة التي يمكن التنبؤ بها والتحكم فيها وتوظيفها.

وقد شاعت في الآونة الأخيرة عبارة نهاية التاريخ وهي تعني أن التاريخ، بكل ما

يحويه من تركيب وبساطة ، وصيرورة وثبات ، وشوق وإحباط، ونبل وخساسة ، سيصل إلى نهايته فى لحظة ما ، فيصبح سكونيا تماما ، خاليا من التدافع والصراعات والثنائيات والخصوصيات ، إذ إن كل شىء سيُردُّ إلى مبدأ عام واحد، طبيعى مادى، يفسر كل شىء (لا فرق فى هذا بين الطبيعى والإنسان). وسيسيطر الإنسان سيطرة كاملة على بيئته وعلى نفسه ، وسيجد حلولا علمية نهائية حاسمة لكل مشاكله وآلامه؛ فالمعرفة العلمية - حسب هذا التصور- هى المعرفة التى ستمكننا من السيطرة على قانون الضرورة وتأسيس صهيون العلمية ، أى اليوتوبيا التكنولوجية التكنوقراطية.. ومن الملاحظ أن دعاة نهاية التاريخ يصدرون عن رؤية علمية (أو علموية) ضيقة تدور فى إطار السببية الصلبة ، ويتصورون أن العلم سيؤدى إلى معرفة يقينية شاملة كاملة . (ومن المفارقات أن كل هذه التصورات فقدت مصداقيتها فى الأوساط العلمية التى أصبحت تدرك لاتحدُّد واحتمالية العلوم الطبيعية . ومع هذا ، لا تزال مثل هذه التصورات سائدة بين بعض الأوساط فى العلوم الإنسانية التى لا تزال تتبنى منظورا علميا سببيا صلبا عفا عليه الزمان).

وإشكالية نهاية التاريخ إشكالية كامنة فى كثير من النظم الفلسفية، ولكنها تحولت إلى موضوع أساسى فى الحضارة الغربية الحديثة منذ عصر النهضة مع هيمنة النموذج المتمركز حول الطبيعة. ويمكن القول إن يوتوبيات عصر النهضة فى الغرب هى تعبير عن هذا الموضوع، فهى فى معظمها يوتوبيات تكنولوجية تكنوقراطية ، تنسلخ عن التاريخ الإنسانى لأنها تزعم أنها تدار بطريقة عقلانية تماما ، انطلاقا من إدراك للقانون الطبيعى الذى لا علاقة له بالقوانين الاجتماعية والتاريخية والإنسانية (لأن قوانين العقل تماثل قوانين الطبيعة) فاليوتوبيات التكنولوجية التكنوقراطية مثل يوتوبيا توما كمبانيلا (١٥٦٨ - ١٦٣٩) مدينة الشمس ويوتوبيا سير فرانسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) أطلانطس الجديدة هى تعبير عن الرغبة فى وضع الحلول العلمية الطبيعية النهائية لكل المشاكل وتأسيس الفردوس الأرضى وإنهاء التاريخ . ولكن التاريخ الذى



نهاية التاريخ وصراع الحضارات

سينتهى هو التاريخ الإنسانى ، بكل ما فيه من تعارف وتدافع ، كى يبدأ التاريخ الطبيعى بكل ما فيه من نمطية وتكرار.

ويظهر رفض التاريخ بطريقة أكثر تركيبا فى فكر الاستنارة . وينطلق هذا الفكر من تأكيد أن التاريخ هو نشاط إنسانى ، فهو ثمرة جهد عقل الإنسان وهو مستودع حكمته. ولذا فهناك نزعة فى فكر الاستنارة لتمجيد التاريخ وتقديسه/ ولكن العكس صحيح أيضا فقوانين العقل هى نفسها قوانين الطبيعة والمادة والحركة، والعقل المستنير لا يستمد معياريته من التاريخ أو الحضارة أو المجتمع وإنما من خلال الدراسات العلمية الصارمة لقوانين الطبيعة والمادة والحركة. ولذا بدلا من الرؤية التقليدية التى ترى أن التاريخ يسير بتوجيه إلهى ، طرحت فكرة جديدة تماما على الفكر البشرى وهى أن التاريخ يتحرك من تلقاء نفسه تدفعه قوى مادية كامنة فيه. ولكن بعد نقطة الانطلاق المبدئية هذه تنقسم رؤية التاريخ فى عصر الاستنارة إلى قسمين.. ومصدر الاختلاف بينهما هو الهدف والغاية من حركة التاريخ، إذ يذهب فريق إلى أن حركة التاريخ لا غاية لها ولا هدف (تماما مثل الطبيعة/المادة)، أما الفريق الثانى فيرى أن حركة التاريخ هى حركة تطورية غائية تتبع قوانين صارمة، هى فى واقع الأمر قوانين الطبيعة . وغنى عن القول أن الرؤية الأولى تنسف فكرة التاريخ الإنسانى تماما . أما الرؤية الثانية فقد ترجمت نفسها إلى رؤية للتاريخ باعتباره عملية تقدُّم دائمة، ولكنه تقدم مرجعيته النهائية هى الطبيعة/ المادة، وهدفه النهائى هو تحقُّق قوانين الطبيعة فى التاريخ ، ومن ثم يصبح التقدم هو تزايد تطبيق القوانين الطبيعية إلى أن تسود هذه القوانين تماما ، ويصبح المجتمع الإنسانى فى بساطة عالم الطبيعة ويحل التاريخ الطبيعى محل التاريخ الإنسانى.

وقد عبَّرت هذه الرؤية الاستنارية عن نفسها فى كل من الهيجلية وفى الفلسفات التى ثارت على الهيجلية. ولنبدأ بالفلسفات المعادية للهيجلية فرفضها للتاريخ أمر واضح، فهى فلسفات تنكر فكرة الجوهر والكل والمركز والسببية وأى شكل من أشكال اليقينية أو الثبات ، بل وتنكر الغائية ذاتها ، فيصبح العالم فى حالة حركة دائمة خالية من المعنى والهدف والغاية، ومن ثم لا يمكن أن تقوم للتاريخ قائمة.

وإذا كان عداء الفلسفات المعادية للهيجيلية أمر واضح ، فالأمر مختلف بعض الشىء بالنسبة للهيجيلية التى تتحدث كثيرا عن التاريخ وحتمياته وقوانينه ومراحله وأنماطه . ولكنها مع هذا ، فى تصورنا، لا تقل فى عدائها للتاريخ عن المدارس المعادية للهيجيلية . فالفلسفة الهيجلية تفترض أن ثمة فكرة ليس لها وجود مادى أو نسبى ، هى التى تحرك التاريخ والمجتمع والإنسان والطبيعة . ويطلق على هذه الفكرة عدة أسماء: الفكرة المطلقة - العقل المطلق - الروح بشكل عام (جايست) - الروح اللامتناهى . ولكن المطلق ليس سكونيا، فهو لن يدرك نفسه إدراكا كاملا ولن يتحقق تحققا كاملا إلا فى الطبيعة والزمان والتاريخ، وذلك عبر عملية جدلية تتداخل فيها المتناقضات وتتحدد من خلالها الأضداد، إلى أن يصبح الفكر طبيعة ، وتصبح الطبيعة فكرا، وهذه الوحدة الكونية النهائية ممكنة لأن قوانين الفكر هى فى واقع الأمر قوانين المادة ، وقوانين المنطق (العقل) هى فى واقع الأمر قوانين الطبيعة . كل هذا يعنى أن الفلسفة الهيجلية ، رغم كل حديثها عن التاريخ والجدل والتناقض ، فلسفة واحدية تسد الثغرة التى تفصل بين الإنسانى والطبيعى وتلغى ثنائية الفكر والمادة والحضارة والطبيعة، ومن ثم تمحو الإنسان كظاهرة متفردة مستقلة عن الطبيعة . ولهذا قيل عن حق إن الهيجلية فلسفة لا تعرف الثنائيات ولا تفصل بين المادى والمثالى ، أو بين الطبيعى والإنسانى،

أو بين المقدّس والزمنى، إذ سيُرد كل شىء إلى عنصر واحد الطبيعية، مادى فعلا روحى اسما، والفكرالهيجلى لا ينظر إلى الواقع إلا من منظور نهاية التاريخ حين يتجسد العقل الكلى ويتحقق القانون العام فى التاريخ، فى لحظة ينتهى فيها الجدل والماعداة الإنسانية، إذ يصل الإنسان إلى الحل النهائى لكل مشاكله، ويحكم السيطرة على كل شىء. ولكن من المفارقات أن لحظة السيطرة الكاملة هذه هى أيضا لحظة انتصار البسيط على المركب والطبيعى على الإنسانى.

ويمكن القول بأن النموذج الكامن وراء جميع الأيديولوجيات العلمانية ـ الصهيونية الشاملة (النازية ـ الماركسية ـ الليبرالية ـ الصهيونية) هو ما يسمّى «التطور أحادى الخط» (بالانجليزية: unilinear)، أى الإيمان بأن ثمة قانونا علميا وطبيعيا واحدا للتطور تخضع له المجتمعات والظواهر والبشرية كافة، وأن التقدم هو فى الواقع عملية متصاعدة من الترشيد المادى،أى إعادة صياغة الواقع الإنسانى فى إطار الطبيعة/المادة فتستبعد كل العناصر الكيفية والمركبة والغامضة والمحفوفة بالأسرار، بحيث يتحول الواقع إلى مادة استعمالية بسيطة ويتحول الإنسان إلى كائن وظيفى أحادى البعد. ومن ثم يمكن توظيف كل من الواقع المادى والإنسانى بكفاءة عالية.. ثم تتصاعد عمليات الترشيد (والتنميط والتسوية) إلى أن يتحقق حلم اليوتوبيا التكنولوجية، حين يتم برمجة كل شىء، والتحكم فى كل شىء، بما فى ذلك الإنسان، ظاهره وباطنه (ومن ثم يمكن استنساخه ببساطة). وعمليات الترشيد تأخذ شكل مراحل تمر بها كل المجتمعات البشرية (ومن هنا ولع الفكر الغربى بتقسيم التاريخ إلى مراحل محددة).

وتصاعد عمليات الترشيد على مستوى العالم هو العولمة بحيث يصبح العالم كله مادة استعمالية ويصبح كل البشر كائنات وظيفية أحادية البعد يمكن التنبؤ بسلوكها. وتتصاعد معدلات الترشيد إلى أن تصل سائر المجتمعات البشرية إلى نقطة تتلاقى عندها ويسود التجانس الكامل بينها، وهذا ما يسمى أيضا «نظرية التلاقى» (بالإنجليزية: كونفيرجانس ثيرى -convergence theory). والتلاقى هو توَحُّد النماذج كلها بحيث تتبع نمطا واحدا وقانونا عاما واحدا هو قانون التطور والتقدم بحيث يصبح العالم مكونا من وحدات متجانسة؛ ما يحدث فى الواحدة يحدث فى الأخرى. وقد أشار أحد المعلقين إلى أن ما يحدث الآن فى العالم هو سقوط الماركسية وبدلا من الماركسية ماركسيزم Marxism ظهرت السوقية (نسبة إلى السوق) ماركتزم Marketism وهذه السوقية وهيمنتها على العالم بأسره، بشماله وجنوبه وشرقه وغربه، هى فى واقع الأمر نقطة التلاقى التى تحدث عنها علم الاجتماع الغربى.

وقد تنبأ **ماكس فيبر** بأن عمليات الترشيد ستؤدى إلى تحويل المجتمع إلى حالة المصنع وإلى إدخاله القفص الحديدى. ونحن نتفق معه تماماً فى صورة القفص الحديدى، ولكننا نذهب إلى أن العالم سيحكمه إيقاع ثلاثىّ: المصنع (حيث ينتج الإنسان) ـ والسوق (حيث يستبضع) ـ وأماكن الترفيه (حيث يفرغ ما فيه من طاقة وتوترات وعقد وأبعاد)، أى أنه إيقاع يستوعب كلا من الإنسان الاقتصادى والإنسان الجسمانى ويشبع جميع رغباتهم البسيطة الطبيعية أحادية البعد، التى لا علاقة لها بأى تركيب إنسانى.

وحينما يسيطر هذا الإيقاع الثلاثى على العالم بأسره يظهر النظام العالمى الجديد وأيديولوجيات التاريخ وما بعد الحداثة؛ وهى أيديولوجيات نابعة من الموقف المزدوج لعصر الاستنارة من التاريخ: موقف هيجلى يُقدّس التاريخ ويؤكد أنه له غاية محددة وأنه يصل إلى نهايته حين تتحقق هذه الغاية، وقسم معاد لهيجل يرى أن التاريخ لا غاية له ولا هدف.. والتياران، كما سنبين، فى تقديسهما وفى عدائهما للتاريخ، ينكرانه.

١ ـ التاريخ يصل إلى نهايته عند تحقق غايته: فوكوياما وهنتنجتون:

(أ) فوكوياما ونهاية التاريخ:

يرى **فرانسيس فوكوياما** أن كلا من **هيجل** و**ماركس** كانا يريان أن التاريخ سيصل إلى نهايته حينما تصل البشرية إلى شكل من أشكال المجتمع الذى يشبع الاحتياجات الأساسية والرئيسية للبشر، فهو عند **هيجل** الدولة الليبرالية وعند **ماركس** المجتمع الشيوعى. ولكن العالم بأسره قد وصل إلى ما يشبه الإجماع بشأن الديمقراطية الليبرالية كنظام صالح للحكم بعد أن ألحقت الهزيمة بالأيديولوجيات المنافسة، وهذا يعود إلى أن الديموقراطية الليبرالية خالية من تلك التناقضات الأساسية الداخلية التى شابت الأشكال السابقة للحكم.

ويستخدم **فوكوياما** نموذج العلوم الطبيعية (المادية) لتفسير التاريخ؛ فالعلوم الطبيعية الحديثة تمثل النشاط الاجتماعى المهم الوحيد الذى يجمع الناس على أنه يتسم بالنمو والتراكم والغائية، ومن ثم يقرر **فوكوياما** أن منطق العلوم الطبيعية الحديثة يبدو وكأنما يفرض على العالم (الطبيعة والإنسان) تطوراً شاملا يتجه صوب الرأسمالية والسوق الحرة، أى أن ما يمكن تسميته «الرأسمالية العلمية»، الممثل الوحيد والحقيقى للمبدأ الطبيعى/ المادى الواحد، قد حل محل ما كان يسمّى «الاشتراكية العلمية»، التى كانت تدّعى لنفسها شرف تمثيل المبدأ الطبيعى.. وبذا، تحوّل الإنسان فى الشرق والغرب إلى الإنسان الاقتصادى (المادى) الذى يمكنه إدارة حياته على أسس علمية رشيدة.

ولكن يبدو أن **فوكوياما**، بعد أن استخدم نموذج العلوم الطبيعية/ المادية بهذه السوقية والفجاجة، وبعد أن أكد الأسبقية المطلقة للمادة على الإنسان، يحاول أن نفسه ويقرر أن يُدخل عنصراً إنسانيّاً غير مادى (وهذا نمط متكرر فى الأيديولوجيات المادية العلمانية كافة، فهى لا تستطيع أن تواجه وحشية ماديتها، ومن هنا فإنها تدخل محسّنات روحية معرفية). والعنصر الإنسانى غير المادى الذى يدخله **فوكوياما** هو سعى البشر إلى نيل الاعتراف بقدرهم أو الاعتراف بقدر الأشخاص أو الأشياء أو المبادئ التى يعتقدون أن لها قدراً كبيراً (وهو ما يسمى «عزة النفس»). والديمقراطية الليبرالية ستحقق كل ما يريده الإنسان على المستويين الاقتصادى (المادى) والإنسانى (غير المادى). ولكن رغم كل هذه المحسنات، نجد أن **فوكوياما**، مع هذا، يثير الشكوك حول إمكان أن يؤدى التطور التاريخى العلمى إلى

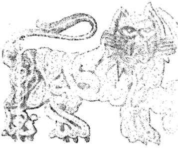
سعادة الإنسان، فالتأثير النهائى لهذا التطور على سعادة البشر أمر غامض.. بل إن **فوكوياما** يورد، بقدر من الاستحسان، عبارة من كتابات **كوجيف** (مفسر **هيجل** الذى يعتمد عليه **فوكوياما**) يقول فيها: «إن اختفاء الإنسان بانتهاء التاريخ ليس بكارثة كونية [طبيعية/ مادية]؛ فالعالم الطبيعى [المادى] سيبقى كما كان عليه منذ البداية، ولا هو بكارثة بيولوجية، فالإنسان سيبقى حياً كالحيوانات منسجماً مع الطبيعة/ المادة»، أما ما سيختفى، فهو الإنسان بمعناه الشائع؛ والإنسان بمعناه الشائع أمر حضارى تاريخى مركب لا يهتم به الماديون الطبيعيون كثيراً.

إن إعلان **فوكوياما** نهاية التاريخ هو إعلان نهاية الإنسان وانتصار الطبيعة/ المادة، أى الموضوع (اللاإنسانى) على الذات (الإنسانية)، ومعناه تحوُّل العالم بأسره إلى كيان خاضع للقوانين الواحدية المادية (التى تجسدها الحضارة الغربية) والتى لا تفرق بين الإنسان والأشياء والحيوان والتى تحول العالم بأسره إلى مادة استعمالية، فنهاية التاريخ هى فى واقع الأمر نهاية التاريخ الإنسانى وبداية التاريخ الطبيعى.

(ب) صموئيل هنتنجتون والصدام بين الحضارات:

أشار بعض المحللين السياسيين إلى أن أطروحة **هنتنجتون** هى عكس أطروحة **فوكوياما**، فبينما يعلن الأول تصاعد الصراع بين الحضارات يعلن الثانى انتهاء الجدل والتدافع والتاريخ.. والأمر هو بالفعل كذلك لو قنعنا بالمستوى التحليلى السياسى ونقل الأفكار، أما لو تعمقنا وحاولنا الوصول إلى المستوى المعرفى فإننا سنجد أن الأمر مختلف تماماً.

يبدأ **هنتنجتون** بتأكيد أن دور الدولة القومية كفاعل أساسى فى الصراعات الدولية قد تراجع (ولم يختف كلية)، وظهر بدلا من ذلك الصراع بين الحضارات والثوابت الحضارية.. وقد نشب هذا الصراع نتيجة دخول الحضارات غير الغربية كعناصر فاعلة فى صياغة التاريخ، فالغرب لم يعد هو القوة الوحيدة فى هذه العملية؛ فالصراع ليس حتمياً وإنما هو نتيجة دخول لاعبين جدد!



نهاية التاريخ وصراع الحضارات

واستخدام **هنتنجتون** لكلمة «حضارة» يعادل تقريباً استخدام كلمة «معرفى» عندنا؛ فلكل حضارة - حسب رؤية **هنتنجتون** - رؤية للكون تدور حول العلاقة بين الإنسان والإله (الفرد والمجتمع - الجزء والكل)، وتؤسس على هذه الرؤية للكون منظومات معرفية وأخلاقية تحدد تراتب المسئوليات والحقوق (المساواة والسلطة - الفرد والأسرة - المواطن والدولة - الصراع والاتساق). هذه الرؤية للكون أمر متجذر فى البشر عبر قرون طويلة ولا يمكن أن يمحى أثرها فى سنوات قليلة، وما يراه أهل حضارة معينة أمراً أساسياً قد يراه آخرون هامشياً. ويؤكد **هنتنجتون** أن أساس اختلاف الحضارات هو التاريخ واللغة والحضارة والتقاليد،ولكن أهم العناصر طراً هو الدين (نلاحظ بشكل جانبى أن طريقة **هنتنجتون** فى التصنيف ليست جيدة، فهو يورد عناصر متداخلة مثل التقاليد والتاريخ باعتبارها عناصر مستقلة تمام الاستقلال، كما أنه يذكر العناصر بشكل رأسى وكأنها جميعاً متساوية، ولكن يجب أن نذكر أنه يعطى مركزية سببية للدين).. فكأن هناك صراعاًحضارياً فى العالم هو فى واقع الأمر صراع دينى.. وبعد أن يبلور **هنتنجتون** أطروحته بهذا الشكل (الحضارة الغربية فى مقابل الحضارات غير الغربية) يعطى انطباعاً بأن ثمة تنوعاً حضارياً هائلا فى العالم (ومن هنا حديثه عن الحضارة الغربية الأرثوذكسية مقابل البروتستانتية والكاثوليكية، والحضارة الكونفوشيوسية والحضارة الإسلامية اللتين يرى أنهما يمارسان نوعاً من التعاون فى اكتساب القوة والثروة).

ولكننا لو دققنا النظر لوجدنا أن التعددية التى يطرحها **هنتنجتون** واهية زائفة إذ تظل الثنائية الصلبة بوجهها، فالعالم ينقسم إلى قسمين اثنين: الغرب من ناحية وبقية العالم من ناحية أخرى (أو كما يقولون بالإنجليزية: the West and the rest)، ولوجدنا أن العالم بأسره يتحرك فى واقع الأمر نحو الغرب (تماماً مثلما بشر **فوكوياما**). وسنكتشف أن كلمة «الغرب» تعنى فى واقع الأمر «الحداثة»، فثمة ترادف بين هاتين الكلمتين عند **هنتنجتون** (وهناك كلمات أخرى مثل «السوق الحرة»، و«الديمقراطية»، و «الفردية»، تؤكد هذا الترادف)، أو كما يقول **هنتنجتون**: «إن الحضارة الغربية حديثة وغربية»، أى أن التحديث هو التغريب، ومن ثم فإن «من يود أن يحدث فليغرب». وهو يقتبس باستحسان بالغ كلمات **نايبول** (الكاتب الجامايكى الذى تخصص فى تأليه الغرب وتجريح العالم الثالث، ومنه وطنه الأم، الهند، كما تخصص فى الهجوم على الإسلام): «إن الحضارة الغربية هى الحضارة العالمية التى تناسب كل الناس»، ومعنى ذلك أن الحضارة الغربية حالة طبيعية؛ صفة لصيقة بطبيعة الإنسان، ومن ينحرف عنها فهو إنسان غير طبيعى وشاذ! وهذا يعنى أن التاريخ يتبع مساراً واحداً، وأن **هنتنجتون** يؤمن بالنموذج أحادى الخط، رغم كل حديثه عن التعددية والصراع.

ويتضح هذا الإيمان بالنموذج أحادى الخط فى الأمثلة التى يسوقها فى مقاله؛ فهو يذكر أنه اكتشف، أثناء مقابلة له مع رئيس جمهورية المكسيك، أن هذا الأخير يود أن يحول بلده من بلد أمريكى لاتينى إلى بلد أمريكى شمالى (أى يحاول أن يجعلها تلحق بركب الحضارةالغربية والطبيعية!)، ولا يملك **هنتنجتون** إلا أن يعبر عن إعجابه العميق بعملية التطبيع هذه، التى ستجعل المكسيك متسقة مع قوانين الطبيعة وأمريكا الشمالية، وتقوم انحرافها عن الصراط المستقيم.. هذا هو الإيمان المستقر.. ولكن رئيس جمهورية المكسيك؛ هذا الذى يعرف أمور السياسة، يحذره من الإفصاح عن هذا الإيمان ويقول: «لا يمكن أن نقول ذلك علناً»، إذ إن السيد الرئيس يعرف أن جماهير الشعب تتمسك بالخصوصية والأصالة ولا تدرك،

كما يدرك هو وكما يدرك **هنتنجتون** بطبيعة الحال، أن الخصوصية زخرفة يمكن الاستغناء عنها، وأن الهوية إضافة لا مبرر لها. ولحل هذه الإشكاليـــة لابد من الحـــديث عن الخصوصية والأصالة ذراً للرماد فى العيون مع الاستمرار فى عمليات التحديث والتغريب والتطبيـع، وهذا مـا فـعله **أوزال** رئيس جمهورية تركيا، هذا الذى يؤمن بالتحديث كتغريب وتطبيع، ومع هذا أدى فريضة الحج إلى مكة.

هؤلاء هم أبطال **هنتنجتون**؛ رجال يؤمنون بأن الحضارة الغربية حضارة عالمية تناسب كل الناس فى كل زمان ومكان، ولذا فبطله الأساسى هو **أتاتورك** الذى قام بأشمل وأسرع عملية تحديث وتغريب (انطلاقًا من إيمانه بضـرورة التـخلص من الهـوية والخصوصية والماضى) حتى يصل بمجتمعه إلى الحالة الغربية الطبيعية/ المادية الحديثة، وهى حالة - على كلٍّ - سيصل إليها المجتمع فى نهاية الأمر، شاء أم أبى، من خلال قوانين التقدم التاريخية الطبيعية العلمية الحتمية.

ولكن كل حضارة كما يؤكد **هنتنجتون** تستند إلى رؤية دينية، فما هو البعد الدينى للحضارة الغربية؟

يعلن **هنتنجتون** أن قيم الحضارة الغربية هى الديموقراطية والاقتصاد الحر وفصل الدين عن الدولة والليبرالية والدستورية وحقوق الإنسان. وفى الواقع، فإن ما يود أن يقوله **هنتنجتون** هو أن الأساس الدينى الثابت للحضارة الغربية هو فصل الدين عن الدولة (وهو يظهر هنا مرة أخرى عدم مقدرته على التصنيف الذكى والترتيب الدال، ولكن ما يهمنا هنا هو أن النموذج الفكرى كامن وواضح). ولابد أن إعجابه **بأتاتورك** ينبع من هذا الإيمان الحـار بالعلمانية، وليس من قبيل الصدفة أن يقتبس كلمات المستشرق الأمريكى اليهودى العنصرى **برنارد لويس** حين يتحدث عن نشوب ثورة من جانب الحضارة غير الغربية «ضد التراث اليهودى/ المسيحى وضد حاضرنا العلمانى وضد الانتشار العالمى لكليهما»، فالعنصر اليهودى/ المسيحى ينتمى للماضى (مجرد تراث)، أما الحاضر فهو العلمانية، أما الوعد فهو الانتشار، أى أن ثمة ترادفًا بين الغربى والعلمانى والإمبريالى التوسعى (يفترض **فؤاد عجمى** هذا الترادف فى مقاله الذى رد به فى مجلة الشئون الخارجية على **هنتنجتون**، فهو يتحدث عن عمليات العلمنة فى الهند وتركيا باعتبارها عمليات تغريب وتحديث). والواقع أن مفهوم الدولة الممزقة أو المتمزقة (بالإنجليزية: torn state) الذى يستخدمه **هنتنجتون** يفترض هذا الترادف، فهى دولة ممزقة بين الحديث والغربى والعلمانى من جهة، وبين تراثها وهويتها وقيمها من جهة أخرى.

ثمة ثنائية حادة واستقطاب متطرف فى عالم **هنتنجتون** بين الأنا الغربى (الحديث العلمانى) من جهة، والآخر (غير الغربى وغير الحديث وغير العلمانى) من جهة أخرى، وهى ثنائية لابد أن تمحى، وهذا هو فى واقع الأمر صراع الحضارات، أى صراع الحضارة الغربية الحديثة العلمانية ضد الحضارات الأخرى، وهى نفس الثنائية الكامنة فى عالم **فوكوياما** و**فؤاد عجمى**.

ولكن نقطة الاختلاف الأساسية بين الثلاثة هو اختلاف حول سرعة الوصول، **ففوكوياما** زادت حرارته المشيحانية فتعجل وأعلن أننا قد «وصلنا» و«عدنا»، ولذا فهو يعلن نهاية الآخر وانتصار الذات ونهاية التاريخ وبداية الفردوس الأرضى، أما **فؤاد عجمى** فيرى أننا قد بدأنا كلنا نستحث الخطى ولكننا لم نصل بعد. أما **هنتنجتون** فهو أقل تفاؤلا من كليهما، فهو يرى أن الطريق إلى النهاية الفردوسية الطبيعية فى لحظة الوصول ليست بهذه البساطة. وحتى يوضح وجهة نظره، يشير إلى تلك الأيام الجميلة حينما كان الغرب يهيمن على المؤسسات السياسية والأمنية الدولية والاقتصادية ثم تغير الأمر بعد ذلك إذ ظهر لأول مرة بعد إعلان حقوق الإنسان (وهو إعلان علمانى تمامًا يستند إلى فكرة القانون الطبيعى)، دول لا تؤمن لا بالتراث المسيحى/ اليهودى (أى تراث الحضارة الغربية) ولا بالقانون الطبيعى (التحديث على الطريقة الغربية والعلمانية). وقد زادت هذه الدول عدداً وأصبحت الآن فى المقدمة..

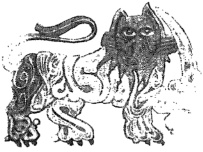
وهذه الدول التى لا تنضوى تحت المنظومة الغربية لا تحث الخطى نحو النهاية الموعودة (والاستسلام للآخر لمحو الثنائية) إذ إن بعضها بدأ (على حد قول **جورج ويجيل** الذى يقتبس **هنتنجتون** كلماته) يتراجع عن عمليات العلمنة والتغريب فى العالم وبدأت تقاوم، بل وقد تتحالف مع بعضها ضد الفردوس الأرضى ونهاية التاريخ وحالة الطبيعة. ويعدُّ هذا التراجع هو الحقيقة الاجتماعية الأساسية فى الحياة فى نهاية القرن العشرين. والدين (كما قال **هنتنجتون**) هو أساس الهوية والخصوصية الحضارية التى تتجاوز الحدود القومية وتوحد الحضارات، فالصراع ليس صراعًا بين حضارات (لكلٍّ قيمتها وقيمها) وإنما هو صراع بين منظومة قيمية غربية علمانية تدور فى إطار المرجعية المادية وتستند إلى فكرة القانون الطبيعى (المادى) بكل ما يتضمنه ذلك من إنهاء للتاريخ والإنسان والهوية من جهة، ومن جهة أخرى كل من يقاوم ذلك ولا يوافق عليه ويرى أن الإنسان ليس مجرد مادة (وهذه هى الصلة الحقيقية بين الإسلام والكنفوشيوسية). ولكن **هنتنجتون** موقن تمامًا أن ذلك صراع مؤقت، فثمة نقطة أساسية واحدة يتجه نحوها العالم فيتحقق فيها القانون الطبيعى (والعقل الكلى الغربى، الطبيعى/ المادى الحديث)؛ نقطة انتصار الحضارة الغربية الحديثة الطبيعية/ المادية العلمانية، نقطة وصلت إليها بعض البلاد بالفعل.

ويقين **هنتنجتون** بشأن الحضارة الغربية باعتبارها حالة الطبيعة أمر يثير الخوف. فمن يقاوم حالة الطبيعة لابد من تقويمه بطبيعة الحال ووضعه على المسار الطبيعى، فهو المسار الوحيد والصحيح، الأمر الذى يتطلب - طبعًا - اتخاذ بعض الإجراءات الطبيعية غير السارة وطرح بعض الحلول الطبيعية الجذرية النهائية مثل إسقاط الحكومات القومية (التى تتمسك بأهداف خصوصية زائفة) ودك العواصم المقاومة (التى تدافع عن قيم لا جدوى لها مثل الكرامة والعزة الوطنية) واستباحة المدن والقرى العاصية التى تقاوم قانون الطبيعة والتطور الغربى!

٢ - التاريخ لا هدف له ولا غاية- ما بعد الحداثة:

ما بعد الحداثة هى الرؤية الفلسفية التى أحرزت مؤخراً شيوعاً لا نظير له فى العالم الغربى، وهى رؤية تنطلق من عدة أطروحات فلسفية متداخلة ومصطلحات صاخبة رنانة (تتغيّر بمعدل مرة كل أسبوع تقريبًا) كلها تؤكد غياب المرجعيات وتآكل الذات وفقدانها لحدودها، وتآكل الموضوع وفقدانه لحدوده، وهيمنة النسبة المعرفية الأخلاقية، ومن ثم استحالة الوصول إلى فكرة الكل، سواء كانت هى فكرة الإله أو الأخلاق المطلقة أو الطبيعة البشرية (أساس الأنطولوجيا الغربية) (تعتبر فلسفة ما بعد الحداثة هى قمة الثورة ضد الهيجلية، وهى تبلُور للاتجاه الفلسفى الغربى المعادى للفلسفة) .. ولكن هذا يعنى فى واقع الأمر اختفاء العقل، أى الملكة التى يقوم الإنسان من خلالها بمراكمة المعنى والإنجازات، ويظهر ما سماه أحدهم «ذاكرة الكلمات المتقاطعة»، أى معلومات متناثرة لا يربطها رابط وينشأ الإحساس بأننا فى الحاضر الأزلى؛ تَغيُّر مستمر بلا ماضٍ ولا مستقبل، تجارب دائمة بلا عمق ولا معنى.. ويتحول التاريخ إلى مجرد لحظات جامدة، وزمن مسطح لا عمق له، ملتف حول نفسه لا قسمات له ولا معنى.. ويتزامن الحاضر والماضى والمستقبل وتتساوى تماماً مثل تساوى الذات والموضوع والإنسان والأشياء،ولكنه تزامن دون استمرارية، فثمة انقطاع كامل. ومن هنا، يتحدث أنصار ما بعد الحداثة عن إحلال القصص الصغيرة (أو الجزئية أو الذاتية) محل القصة الكبيرة (أو الشاملة أو الكلية)، أى أن الإنسان غير قادر على الوصول إلى رؤية تاريخية شاملة تضم البشر كافة ولكنه قادر على خوض تجارب جزئية يمكنه أن يقصها بدرجات متفاوتة من النجاح والفشل، ولكنها لا ترقى قط إلى مستوى تاريخ عام للبشر، فليست لها أية شرعية خارج نطاق تجربته.

إن ما بعد الحداثة قد لا تطرح نماذج خطية تطورية أو حلولا نهائية وقد لا تبشر بالفردوس الأرضى أو باليوتوبيا التكنولوجية التكنوقراطية ولكنها هى أيضاً إعلان لنهاية التاريخ ونهاية الإنسان ككائن مركب



نهاية التاريخ وصراع الحضارات

اجتماعى قادر على الإختيار الأخلاقى الحر ليحل محله إنسان ذو بعد واحد يدور فى إطار المرجعية الكامنة أو دون أية مرجعيات يعيش منكفئاً إما على ذاته الطبيعية التى لا علاقة لها بما هو خارجها، فهى مرجعية نفسها، أوعلى كليات لا إنسانية مجردة لا علاقة لها بالإنسان كما نعرفه.. وهذا الإنسان لا ذاكرة له فهو يعيش فى اللحظة دائماً، فى قصته الصغرى، ولذا لخص أحدهم ما بعد الحداثة بأنها نسيان نشط للذاكرة التاريخية، وهى طريقة متضخمة متورمة للقول بنهاية التاريخ. ويمكننا القول إنه إذا كان **فوكوياما** اكتشف نهاية التاريخ فإن ما بعد الحداثة تقوم بقتله.

ما علاقة نهاية التاريخ وصراع الحضارات وما بعد الحداثة بواقعنا وبالنظام العالمى الجديد؟

ومرة أخرى، كى نجيب عن هذا السؤال لابد من تعريف هذا النظام العالمى الذى يوصف بأنه «جديد». ويمكن القول بأن النظام العالمى الجديد إن هو إلا امتداد للنظام العالمى القديم، وإعادة إنتاج للرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية فى عصر ما بعد الحداثة. وتذهب الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية إلى أن العالم مادة، وأن هذه المادة مادة استعمالية بالدرجة الأولى، والإنسان، باعتباره جزءاً لا يتجزأ من هذا العالم، هو أيضاً مادة استعمالية، ولذا فهو كائن ذو بعد واحد، تحركه الدوافع المادية وأهمها الدافع الاقتصادى والدافع الجنسى. ولذا فالمصالح الاقتصادية والبحث عن اللذة (التى لا تتجاوز عالم المادة والحواس الخمس ولا تصل إلى عالم التطلعات والأسرار والأشواق والتاريخ المركب)، هى المحرك الأول والأخير لسلوكه، وهى المرجعية النهائية لوجوده.

والمنظومة القيمية الغربية منظومة كلية شاملة تسرى على الإنسان والطبيعة، وعلى كل البشر فى الشرق والغرب؛ فالجميع مادة استعمالية.. ومع هذا، يوجد داخل هذا الإطار الكلى الشامل ثنائية الأنا والآخر. ولذا، ففى داخل هذه المنظومة التى تدور فى إطار المرجعية الواحدية المادية، نجد أن الإنسان الغربى مادة مستعملة (بكسر الميم) أكثر منها مادة استعمالية، أما سكان آسيا وأفريقيا فهم على العكس؛ مادة استعمالية أولا وأخيراً. ولذا، عبرت هذه الرؤية عن نفسها فى النظام الدولى القديم على هيئة خطاب عنصرى يؤكد على التفاوت بين الأجناس كما يؤكد على عبء الرجل الأبيض ورسالته الحضارية.

وانطلاقاً من ثنائية الأنا والآخر العنصرية الصلبة، كان النظام الإمبريالى القديم يحاول استعباد الشعوب الأخرى فيحاول أن يوقف عمليات التحديث فى أى مكان فى العالم، ويقمع كل الثورات ليضمن تدفُّق العمالة والمواد الخام الرخيصة وليضمن وجود مجال حيوى يشكل امتداداً إستراتيجياً واقتصادياً له، حتى يظل العالم الغربى، منتجاً ومستهلكاً أما العالم الثالث فيظل متخلفاً بدائياً، ومستهلكاً عاجزاً لبعض بضائع أوروبا وأفكارها. وفى إطار هذا ولدت عنصرية التفاوت وأفكار الشعب العضوى وعبء الرجل الأبيض والمجال الحيوى، وهى أفكار تسبغ القداسة على الإنسان الغربى وعلى تاريخه وحضارته وتنزع القداسة عن الإنسان غير الأبيض وعن تاريخه بل وتغيبهما، إذ يختفى هذا الإنسان كإنسان وينتهى تاريخه، فهو مجرد تاريخ متخلف وانحراف عن النقطة التى يتجه نحوها التاريخ العالمى. وكانت هذه الحلول النهائية يدعمها مدفع غربى واضح يدك كل من يقف فى طريقه دكاً، كما فعل فى فلسطين والجزائر وفيتنام.

هذه رؤية ثنائية حادة تنكر تاريخ الآخر وإنسانيته ولا تقبله إلا كمادة استعمالية. وقد تكررت ممارسات النظام الإمبريالى الدولى القديم بأشكال تتراوح بين درجات مختلفة

من الحدة والتبلور فى أنحاء آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. وكان يمكن للاستعمار أن يستمر على شكله القديم، ولكن حدثت تطورات تاريخية عميقة لا تشكل لحظة إفاقة أخلاقية تاريخية وإنما تشكل لحظة إدراك ذكية من جانب الغرب لموازين القوى. ونحن نلخص أسباب ظهور النظام العالمى الجديد فيما يلى:

١ - أدرك الغرب عمق أزمته العسكرية والثقافية، وأحسَّ بالتفكك الداخلى وبعجزه عن فرض سياساته بالقوة.

٢ - أدرك الغرب تراجع المركزية الغربية وظهور مراكز عديدة (غير غربية) تتفاوت قوة وضعفاً.

٣ - أدرك الغرب استحالة المواجهة العسكرية والثقافية والاقتصادية مع دول العالم الثالث التى أصبحت جماهيرها أكثر صحواً ونُخَبها أكثر حركية وصقلا وفهمًا لقواعد اللعبة الدولية، وبذا أصبحت المواجهة العسكرية مكلفة للغاية إن لم تكن مستحيلة.

٤ - أدرك الغرب أن تَخلُف شعوب آسيا وأفريقيا يجعلها غير قادرة على الاستهلاك ومن ثم لا يمكن استيعابها فى حلقة الترشيد المادية إذ لابد أن تتقدم هذه الشعوب لتصبح شبه منتجة شبه مستهلكة.

٥ - أدرك الغرب أنه رغم هذه الصحوة، فثمة عوامل تفكك بدأت تظهر فى دول العالم الثالث، فقد ظهرت نخب محلية مستوعبة تمامًا فى المنظومة القيمية والمعرفية والاستهلاكية الغربية يمكنه أن يتعاون معها ويجندها، وهى نخب يمكن أن تحقق له من خلال السلام والاستسلام ما فشل فى تحقيقه هو من خلال المواجهة والغزو العسكرى.

لكل هذا كان لابد أن تظهر رؤية جديدة هى استمرار للرؤية القديمة وتكريس للوضع القديم ولكن من خلال خطاب جديد يستوعب الإدراك الغربى للتكلفة العالية للمواجهة بل واستحالتها. ومن هنا ظهر ما يمكن تسميته «الاستهلاكية العالمية». والرؤية الجديدة مثل القديمة تمامًا ترى أن العالم والإنسان مادة استعمالية وترى ضرورة أن يتحول العالم بأسره إلى ساحة كبيرة لا تسودها إلا قوانين العرض والطلب وتعظيم المنفعة المادية واللذة الجنسية، ولذا فهى تحاول ترشيد العالم بأسره لتحويله إلى مصنع وسوق وملهى ليلى (أو شركة سياحية). ولكن فى الوضع القديم كان هذا يتم لصالح الشعوب الغربية، والمطلوب أن يستمر ذلك دون حاجة للمواجهة، مع استيعاب الجميع فى حلقة الترشيد المادية الشاملة.

لتحقيق هذا قرر الغرب اللجوء للإغراء والإغواء بدلا من القمع والقسر، والاستفادة من التفكك لضرب التماسك، أى أن التفكيك والالتفاف أجدى وأرخص من التدمير والمواجهة، وبذا يمكن للغرب حل إشكالية عجزه عن المواجهة وبأن يتخلى عن مركزيته الواضحة وهيمنته المعلنة ليحل محلها هيمنة بنيوية كامنة.

وآليات الإغواء عديدة من بينها إيهام الآخر، أى أعضاء النخب المحلية الحاكمة التى تم تغريبها، بأنها شريكة مع الاستعمار الغربى فى عمليات الاستثمار، بل وشريك (صغير) فى عمليات نهب الشعوب ويستفيد منها. ويواكب هذا عملية إفساد ورشوة لأعضاء هذه النخب. بل إنه يتم إغواء الشعب نفسه إما عن طريق وسائل الإعلام «العالمية»، وبيع أحلام الاستهلاك الوردية الفِردوسية»، أو عن طريق النخب المحلية. وتصعد فى الوقت نفسه عمليات فتح الحدود وتفكيك الدولة القومية وباعتباره إطارا لتجميع القوى الشعبية المختلفة ضد الإمبريالية أو ضد الهيمنة الغربية وذلك عن طريق المنظمات الدولية والـ NGO (المنظمات غير الحكومية) وإثارة الأقليات وإثارة مشاكل الحدود... إلخ، وتفكيك الأسرة باعتبارها الملجأ الأساسى والأخير للإنسان والحيز الذى يحقق المجتمع داخله استمرارية الهوية والمنظومة القيمية (وتتكفل به جماعات التمركز حول الأنثى فيمينيزم Feminism وجماعات الدفاع عن الإباحية باعتبارها شكلا من أشكال الإبداع لهذا الجانب من عملية التفكيك).

وأخيراً يُطلق هذا النظام سحابة كثيفة من الديباجات والأكاذيب عن اختفاء الأهداف الاستغلالية القديمة والإيمان بالديموقراطية والعدالة.. ويسقط الحديث عن التفاوت وعبء الرجل الأبيض ليكون هناك حديث عن المساواة (التى هى فى واقع الأمر تسوية). ويؤكد هذا النظام أن التحالفات السياسية فى الوقت الحاضر لا تستند إلى الأيديولوجيا والإيمان بالخصوصيات القومية أو الدينية وإنما إلى التكنولوجيا والمصالح الاقتصادية العامة، والصراع لا يتم بسبب المبادئ وإنما يتم بسبب المصالح والبحث عن اللذة. وثمة تلاق بين الأمن القومى والمصلحة الاقتصادية، وبالتالى يمكن حصر الخلافات بين الدول وتحديدها والتعامل معها بشكل رشيد، فالمصالح (على عكس المبادئ) يمكن حسابها، ويمكن إخضاعها لعمليات حسابية رياضية دقيقة. والشىء نفسه يقال عن الخلافات داخل المجتمع الواحد، فبالإمكان حسمها من خلال العملية الديمقراطية، أو ما يسمَّى «أخلاقيات الإجراءات»، أى الاتفاق على قوانين اللعبة وإجراءاتها دون الانشغال بالماهية أو بالأهداف.

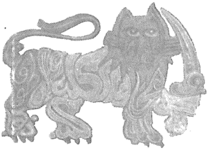
والخطر الذى يتهدد الأمن القومى - حسب ديباجات النظام العالمى الجديد - لا يأتى من الخارج وإنما من الداخل؛ من قوى تقف ضد الديموقراطية وضد تأسيس المجتمع على أسس اقتصادية وعلى أسس التكيف مع النظام الدولى.. هذه القوى هى التى تجر الداخل القومى إلى صراع مع الخارج الدولى بدعوى الدفاع عن الكرامة أو الاستقلالية أو الشخصية القومية أو الرغبة فى التنمية المستقلة أو الخصوصية والأصالةمتجاهلةً القوانين الطبيعية العامة. وثمة افتراض كامن بأن المجتمع الأمريكى (الذى يفترض أن الدافع الأساسى فى سلوك البشر هو الدافع الاقتصادى والذى حقق أعلى مستويات الإنتاجية والاستهلاكية والمتعة لأعضائه) لابد أن يصبح القدوة والمثل الأعلى.

ولكن كل هذه الآليات والأهداف تصب فى هدف واحد أو حل نهائى واحد هو ضرورة ضرب الخصوصيات القومية والمرجعيات الأخلاقية حتى يفقد الجميع أية خصوصية وأية منظومة قيمية ليصبحوا آلة إنتاجية استهلاكية، لا تكف عن الإنتاج والاستهلاك دون أية تساؤلات، ومن هنا تظهر نهاية التاريخ كمفهوم أساسى، فالنظام العالمى الجديد لا يشير إلا للحظة الراهنة

وحسب، ويتحدث عن المستقبل ولا يتحدث قط عن الماضى فهو نظام يدّعى أنه هو نفسه لا ماضى له، وأن كل البشر لا ماضى لهم، وإن كان لهم ماض فهو ليس مهماً فكل شىء جديد طازج. داخل هذا الإطار، يصبح الإنسان إنساناً طبيعياً أحادى البعد لا عمق له ولا ذاكرة ولا قيم.. يبدأ الإنسان دائمًا فى نقطة الصفر وينتهى فيها، يعيش فى عالم بلا دنس ولا خطيئة ولا حياة، عالم مغسول فى الرشد المادى والإجرائى، كل ما فيه يتحرك بشكل هندسى متناسق، معقم من التدافع والجدل.

ولنلاحظ أن ما تساقط هنا ليست خصوصية قومية بعينها وإنما مفهوم الخصوصية نفسه، وليس تاريخًا بعينه وإنما فكرة التاريخ نفسها، وليس هوية بعينها وإنما كل الهويات، وليس منظومة قيمية بعينها وإنما فكرة القيمة نفسها، وليس نوعًا بشرياً بعينه وإنما فكرة الإنسان المطلق نفسها، الإنسان ككيان مركب لا يمكن رده إلى ما هو أدنى منه. لقد اختفت المرجعية، أية مرجعية، وظهر عالم لا خصوصيات فيه ولا مركز له.. هذا العالم الذى لا مركز له.. يسير فيه بشر لا مركز لهم ولا هدف، لا يمكنهم التواصل أو الانتماء لوطن أو أسرة، كل فرد جزيرة منعزلة أو قصة صغيرة، فيظهر إنسان استهلاكى أحدى البعد يحدد أهدافه كل يوم، ويغير قيمه بعد إشعار قصير يأتيه من الإعلانات والإعلام؛ إنسان عالم الاستهلاكية العالمية الذى ينتج بكفاءة ويستهلك بكفاءة ويعظّم لذته بكفاءة حسب ما يأتيه من إشارات وأنماط! هذا هو الحل النهائى فى عصر التسوية الذى حل محل الحل النهائى لعصر التفاوت، فبدلا من الإبادة من الخارج، يظهر التفكيك من الداخل.

ومن هنا نرى أن ما بعد الحداثة هى فى واقع الأمر الإطار المعرفى الكامن للنظام العالمى الجديد، فهى رؤية تنكر المركز والمرجعية، وترفض أن تعطى التاريخ أى معنى والإنسان أية قيمة أو مركزية أو إطلاق، وتسقط كل الأيديولوجيات (عصر ما بعد الأيديولوجيات)، وتنكر التاريخ (عصر نهاية التاريخ)، وتنكر الإنسان (عصر ما بعد الإنسان).. فالعالم حسب هذه الرؤية يفتقر



نهاية التاريخ
وصراع الحضارات

إلى المركز، فكل الأمور مادية، وكل الأمور متساوية، وكل الأمور نسبية، فهو عالم فى حالة سيولة كاملة (تماماً مثل التناص textuality حين يحيلك نص إلى نص قبله ونص بعده، فيختفى المعنى وتختفى الحدود والهوية والمسئولية). وكما يقول **فريدريك جيمسون**؛ الناقد الأمريكى الماركسى، إن روح ما بعد الحداثة تعبرعن روح رأسمالية عصر الشركات متعددة القوميات حيث قام رأس المال (هذا الشىء المجرد المتحرك الذى لا يكترث بالحدود أو الزمان أو المكان) بإلغاء كل الخصوصيات، كما ألغى الذات المتماسكة التى يتحد فيها التاريخ والعمق والذاتية، وحلت القيمة التبادلية العامة محل القيمة الأصيلة للأشياء.

ونحن نقبل بتحليل **جيمسون** لفكر ما بعد الحداثة وإن كنا نستبدل بكلمة «رأسمالية» عبارة «علمانية شاملة». والحديث عن القيمة التبادلية العامة التى تلغى الخصوصيات هو- فى واقع الأمر- ليس حديثًا عن رأس المال باعتباره شأناً اقتصادياً وإنما عن رأس المال باعتباره آلية ذات بعد معرفى تؤدى إلى تفكيك وهدم كل ما هو فريد وخاص وعميق ومقدس ومحمل بالأسرار، ومن ثم فهى آلية معادية للإنسان لأنها معادية لكلٍ من التاريخ والحضارة، إذ إن التاريخ والحضارة- كما أسلفنا- هما مصدر التفرد الإنسانى. ورأس المال هنا هو آلية دفع الإنسان من عالم الحضارة والتاريخ المركب إلى عالم الطبيعة الأحادى البسيط؛ هو آلية سيادة القانون الطبيعى المادى الواحدى، فهو أهم آليات نزع القداسة عن الإنسان؛ وهو ليس الآلية الوحيدة، إذ توجد آليات أخرى أعتقد أن من أهمها (فى عصر ما بعد الحداثة) الإباحية وصناعة اللذة المتمثلة فى هوليوود وأفلامها.

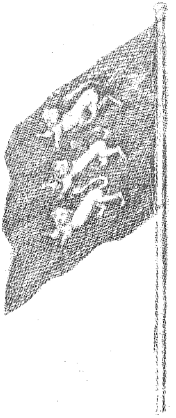
ويمكننا الآن أن نعود مرة أخرى إلى موضوع إلغاء التاريخ وإلغاء الإنسان: الموضوعان الأساسيان فى كتابات **فوكوياما** **وهنتنجتون** وكتّاب ما بعد الحداثة.. فمع وصول التاريخ إلى نهايته، ينتهى الصراع وتختفى كل المنحنيات وتنبسط كل النتوءات، ويظهر بشر ذوو بعد واحد وتختفى الذاتية والعمق والحضارة والإنسان، عالم موت الإنسان بعد أن مات الإله. وهكذا، ورغم اختلاف المنطلقات، تتفق النتائج. والنظام العالمى الجديد، بهذا المعنى، نظام معاد للإنسان ومعاد للتاريخ، وهو عداء نابع من العداء الذى يحس به ذوو الاتجاه الطبيعى المادى نحو كل الظواهر المركبة بكل ما تحوى من قداسة أو أسرار، وهو أيضًا نابع من رغبتهم العارمة فى تسوية الإنسان بما حوله، حتى يذوب فى الطبيعة/ المادة ويختفى ككيان مركب مستقل. ولابد من التصدى لهذه النزعات المعادية للإنسان وللتاريخ ولا يمكن أن يتم هذا إلا عن طريق الجهاد ضد عمليات الترشيد المادى والمكدلة والكوكلة Macdonaldization and Co-cacolization. والجهاد هنا هو الجهاد الأعظم؛ مجاهدة النفس، أى أن يكتشف الإنسان ما بداخله من أسرار فيدرك أنه ليس بمادة ميتة صماء، وأنه ليس مجرد مجموعة من المصالح الاقتصادية والدوافع الغريزية، وأنه بوسعه- لو شاء- أن يعرف مصالحه بطريقة لا تتعارض بالضرورة مع خصوصيته القومية ومنظوماته القيمية. ويمكننا داخل هذا الإطار أن نعقد تحالفاً يضم العلمانيين والإيمانيين لتتصدى لهذه الآلة المهلكة التى تمسك بتلابيب العالم وتصعد من أحلام البشر الاستهلاكية وتبشر بمستوى معيشى يتنافى مع حدود الطبيعة ذاتها وتوازنها، بل ومع حدود الإنسان وتوازنه مع نفسه. إن مستوى المعيشة الذى تحققه الحضارة الغربية للإنسان الغربى لم يتم إلا من خلال التجربة الإمبريالية ومن خلال المواد الطبيعية والعمالة البشرية الرخيصة وذلك فى لحظة تاريخية نادرة تسيد فيها الغرب على العالم ولا يمكن لها أن تتكرر، ولا نرجو لها أن تتكرر للحضارة الغربية أو

لغيرها من الحضارات، فالأزمة البيئية الكونية تحدق بالجميع. إن هذه الحضارة الغربية تشيع صورة للإنسان باعتباره كائناً طبيعياً جسمانياً وتشيع نمطاً استهلاكياً لا أساس له فى الواقع المادى أو التاريخى. ولذا فالصور التى تشيعها هى أكبر دعوة للإرهاب، فمن يبيع صورة مستحيلة يدعو بشكل صريح إلى الصراع والتقاتل والإرهاب.

والإسلام كرؤية للكون يرفض هذه الرؤية المادية البروميثية الفاوستية، فهو يدعو للتوازن بين الإنسان والكون وينمى فى الإنسان إحساسه بذاته الإنسانية وبمنظوماته الأخلاقية التى تخلق مسافة بينه وبين الطبيعة والمادة وتزوده برؤية تمكنه من رفض هذه الاستهلاكية التافهة الشرسة، ولاتزال الشعوب الفقيرة فى عالم الإسلام تجاهد ضد هذا النظام العالمى الجديد والقديم.

وهذا هو سر عداء هذا النظام للإسلام، فلو أن الإسلام يدور حول بعض الشعائر ويركز جل اهتمامه على ختان الإناث (كما يدعى البعض) لقام النظام العالمى الجديد بتشجيعه وتمويله. والعالم الغربى على أتم استعداد للتصالح والتعاون مع حكومات شمولية قاتلة ترفع لواء الشريعة الإسلامية علانية ولكنها تتبنى، بشكل واع أو غير واع، رؤية للإنسان باعتباره كائناً اقتصادياً جسمانياً وللعالم باعتباره غابة داروينية مادية. ولكن النظام العالمى الجديد يعلم تمام العلم أن ثمة رؤية إسلامية إنسانية شاملة، أساسها الإيمان بالعدل، وأن هناك خطاباً إسلامياً جديداً مركباً إلى أقصى حد يؤكد ضرورة المساواة بين الرجل والمرأة وبين أعضاء الأغلبية والأقلية ويطرح رؤية مركبة للعدل الاجتماعى وللعلاقات الدولية، ويجند جماهيره ضد الاستهلاكية اللعينة.

يقول سيرج لاتوش فى كتابه «تغريب العالم»، إن الغرب لم يعد بقعة جغرافية ولا حتى لحظة تاريخية وإنما أصبح كالآلة التى تدور وتدوس الجميع بما فى ذلك صاحبها والقائمين عليها. والجهاد الأعظم هو محاولة الخروج من القفص الحديدى ومن هيمنة الآلة البسيطة (التى تشبه فى دورانها ورتابتها حالة الطبيعة) إلى عالم مركب مدهش، يقف فيه الإنسان كائناً نبيلاً كريماً، متعدد الأبعاد، يحمل عبء وعيه التاريخى ومنظوماته الأخلاقية والمعرفية.. وأقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم. ■



الأصولية فى الغرب والإقطاع الكونى القادم

مهدى بندق

إشارات افتتاحية

إن وقوف العقل البشرى على نمو العالم يهيئ لمرحلة جديدة يحول فيها الإنسان الكون إلى خدمته، وفيها يتأنسن العالم ويتعقلن. **رينيه مونبلان من كتاب المذهب الفكرى الألمانى**

الحضارة هى التجمع الأكبر للناس الذين ينتمون إلى ثقافة واحدة.

صمويل هنتنجتون.

من كتاب **صدام الحضارات**

التاريخ لا يعمل شيئا. الإنسان وحده.. الإنسان الحى هو وحده الذى يعمل ويتملك ويصارع. التاريخ لا يستخدم الإنسان لأجل غاياته كما لو كان التاريخ شخصاً مستقلا، ليس التاريخ سوى نشاط الإنسان الساعى إلى أهدافه. **كارل ماركس**

من كتاب **العائلة المقدسة**

كفاكم قعوداً فى هذا الجبل. تحركوا وارتحلوا.

سفر التثنية ـ **العهد القديم**

وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى. قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك». سورة القصص ـ **قرآن كريم**

فلم تكن العقيدة الدينية قط عائقًا أمام البشر، فهى ضرورة حياتية وعقلية بدونها يسقط المرء العادى فى متاهة الاغتراب فتغم عليه الرؤية الشاملة ويستبد به اليأس والحزن وقد يلجأ إلى الانتحار أو

يمارس الجريمة؛ بيد أن العقيدة الدينية الحقة ليست مجرد إرث مجانى أو حروفا فى بطاقات إلهية، بل العقيدة الحقة ابنة شرعية للمعاناة الذاتية وللإبداع الفكرى والوجدانى، وأما قوانين الخلق الجمالى فهى «القابلة» التى تشرف على ولادتها، ويكون المناخ الثقافى الصحى مربيها الحريص على ألا تشب نسخة مكرورة من غيرها فتذبل وتموت أو تهمل وتنزوى.

لعل هذا الوعى بكنه العقيدة الحقيقية هو ما دفع بالأنبياء والمرسلين إلى مناهضة حجة أقوامهم المتعصبة للقديم والمعادية لكل جديد .. تلك الحجة التى يلخصها القرآن الكريم قائلا بلسانهم: «إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون» (١)

لقد أدرك الأنبياء أن ثمة فارقًا جوهرياً يفصل ما بين **القطيعة الثقافية** وبين **القطيعة المعرفية**. الأولى مستحيلة إذ لايمكن لجديد أن يأتى من فراغ فيما يختص بالكليات؛ ومن حيث إن الثقافة هى الكل المركب المتضمن: المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقانون والأعراف والتقاليد والعادات المكتسبة من المجتمع، فإن القطيعة الثقافية من هذا الكل المركب مستحيلة. ليس الأمر كذلك بالنسبة للمعرفة؛ فالمعرفة ليست كلا مركبًا وإنما هى فرع من فروع الثقافة يمكن أن يجتث اجتثاثاً ليتمو غيره دون أن تتحطم الشجرة. إن المعرفة الخاصة بالذرة عند الإغريق لم تكن لتتجاوز مفهوم **ديمقريطس** القائل بأن الذرة هى أصغر جزء فى المادة وأنه لا يمكن تحطيمها هذه المعرفة كان ضرورياً أن تهمل وأن تنقطع صلتنا بها تمامًا منذ أن اكتشف **ج. ج. طومسون** الإلكترون وهو ما يعنى أن للذرة مكونات وأنها قابلة بالتالى للانقسام.

كذلك فإن رؤية العالم World out looK جغرافيًا من منظور المؤرخ **الطبرسى** كانت تضع السور الذى أقامه **ذو القرنين** بيننا وبين يأجوج ومأجوج، فى موضع بين جبلين هما آذربيجان وآرمينيا! وهى معرفة جغرافية لا يقبلها حتى تلامذة المدارس الإعدادية فى أيامنا هذه، ولكن لأن الأصوليين لا يرغبون فى استخدام آلية القطيعة المعرفية فإنهم يوردون رؤية **الطبرسى** الجغرافية هذه باعتبارها حقيقة واقعة! (٢)

القطيعة المعرفية إذن مطلوبة لتطور البشر. فهى بوصفها آلية عقلية لتوقف الاستمرارية Dis-continuity بالنسبة للمعارف السابقة إنما تؤسس لمعرفة أدق من نوع مختلف يواكب حركة العالم المادى التى لاتنى تكشف للناس عن أسرارها غير المحدودة بقدر ما يسعى الناس إلى استكشافها وسبر أغوارها.. وفى هذا يقول السيد المسيح «مملكتى ليست من هذا العالم» فيؤكد عليه الحديث النبوى «**أنتم أدرى بشئون دنياكم**».

الأنبياء والمرسلون إذن يعلمون أن دنيانا هذه خاضعة لقوانين جد مختلفة عن سنن العقيدة، ولهذا فهم يؤكدون أننا نحن المسئولون عن التعامل مع عالمنا هذا المادى بشروطه، وأن جل ما يرجوه لنا أن نؤمن بعالم آخر يكون فيه حساب عما قدمت أيدينا من خير أو شر.

هم إذن يكرسون التواصل الثقافى وفى الوقت نفسه يحرضوننا على تغيير معارفنا الدنيوية بقدر ما تكشفه لنا قوانين العالم الأرضى الذى نعيش فيه دون أن يجدوا فى ذلك تناقضا. وليس ثمة تناقض بالفعل.

بيد أن الأتباع - وبسبب الكسل العقلى الملازم لكل تابع - لا يلتفتون إلى هذا الفارق الخطير، ولهذا فهم حين يتقبلون عقيدة النبى الجديد يفعلون ذلك بالعقلية القديمة ذاتها، فتراهم يتعصبون له بعد أن كانوا يتعصبون ضده وبالحدة نفسها.. ومع الوقت تتحول هذه الحدة إلى **نوستالجيا جماعية** خصوصاً فى أوقات الأزمات.

تلك النوستالجيا الجماعية - التى هى توق غير سوى للعودة إلى الماضى فى محاولة استعادة وضع يستحيل استرداده بالكامل - إن هى إلا **جوهر الأصولية**.

يكتب **وليم إليوت جريفس** فى مقدمته لكتاب **البوشيدو** قائلا:

« إن الدارس الخبير بطرائق الروح والمتمرس بتاريخ الجنس البشرى كما يحركه الراعى الأبدى، يتحتم عليه أن يضع خطا فاصلا بين تعاليم مؤسس الدين (**السيد المسيح**) والوثائق الأصلية من جهة، وبين الإضافات والتعديلات العقلية والمعرفية والكنسية من جهة أخرى» (٣) وبغض النظر عن اختلافنا مع فكرة **جريفس** الدينية القائلة إن **السيد المسيح هو محرك التاريخ**؛ إلا أننا نوافقه على التمييز بين الوثائق الأصلية التى هى الكتب المنزّلة وبين الإضافات والتعديلات العقلية والمعرفية للأتباع تلك التى تشكل جوهر الأصولية Fundamentalism.

ظهرت هذه الأصولية فى الغرب المسيحى فى القرن الثالث عشر بظهور كتاب «خلاصة اللاهوت» Civitas Dei لحجة الكاثوليكية **القديس توما الإكوينى**، وما كان لهذا الكتاب أن يظهر فى هذا الوقت بالذات إلا تعبيراً عن تغيرات عميقة فى البناء التحتى للمجتمع الأوروبى (الذى كان متحداً متماسكاً منذ **شارلمان**) ذلك أنه حين يبلغ النظام المتحد أعلى درجات المركزية، فإن قوة الطرد المركزى لابد وأن تتغلب على قوة الترابط فتحيل الوحدة المتماسكة إلى وحدات متعددة ينطبق هذا على العوالم الفيزيائية : السدم، النجوم، الكواكب فالتوابع ... إلخ كما ينطبق على الظواهر الاجتماعية (الإمبراطوريات والممالك الكبرى - العشيرة - الفرايترية - العائلة - الأسرة) فهو قانون فيزيائى وسوسيولوجى فى آن.

هكذا آل المآل حين تمزقت الإمبراطورية الرومانية المقدسة فظهرت بدايات النظام الإقطاعى فى فرنسا أولا، ثم فى إنجلترا فى عصر الفتح النورماندى فى أواخر القرن الحادى عشر. يقول **دتيـاليس** فى كتابه «الإقطاع والملكية فى فرنسا وإنجلترا فى القرن العاشر والحادى عشر»:

«ولقد ساعد على انتشار هذا النظام فى إنجلترا أن **وليم الفاتح** لاحظ تشابها بين سمات المجتمع الأنجلوسكسونى وبين المجتمع النورماندى فى فرنسا من حيث إمكانية

الأصولية فى الغرب والإقطاع الكونى القادم

توظيف الإقطاع الحربى وإقامة نظام الدائرة Manor فقد وجد طبقة من النبلاء عليها التزامات عسكرية نحو الملكية مثل الدفاع وحفظ الأمن فضلا عن الالتزامات الإدارية مثل جمع الضرائب، وكذلك لاحظ أن لهم سلطات قضائية فى محاكم المقاطعات ... إلخ» (٤).

ومن فرنسا وإنجلترا انتشر النظام الإقطاعى فى سائر أوروبا ، وبالمقابل تقلص نفوذ الملوك والكنيسة الأم على السواء، فكان أن اشتعلت الحروب بين الملوك من ناحية وبين أمرائهم ونبلائهم الإقطاعيين من ناحية أخرى وذلك فى ظل نظام للإنتاج يجعل من الإقطاعى رباً فى مقاطعته (واللورد لغةً هو الرب) ويجعل من الفلاحين أقناناً أى عبيداً للأرض ليس لهم حق مغادرتها وإنما هم عاملون فيها بغير أجر لصالح الإقطاعى.

وكان من نتيجة هذا التمزق الذى ساد العالم الأوروبى المسيحى، ولفظاعة العيش فى مثل هذه الأوضاع أن تقدم القديس توما بمشروعه الأصولى لبناء مدينة ربانية على الأرض، الحاكمية فيها لله (ولكن رجال الدين سوف يمارسون سلطاته نواباً عنه بالطبع) وكان منطقياً فى ظل الأزمة الخانقة تلك أن يجتذب هذا المشروع السياسى قلوب الناس، حتى إذا تمكنت الكنيسة من تبوء السلطة - فى عصر البابوات - رأينا معارضيها يساقون إلى الحرق أحياء، ورأينا صكوك الغفران تباع بالمال للسذج يشترون بها قصوراً فى الجنة ماداموا قد فقدوا كل أمل فى شراء قطعة أرض فى المقاطعة.

غير أن وصول الكنيسة للسلطة لم يتم بمعارضة منها للإقطاع، بل تم نتيجة كون أساقفها جزءاً أصيلا من نظام الإقطاع ذاته.

«كان مالك الضيعة فى بعض الأحيان أسقفًا أو رئيس دير، وكثير من الأديرة والكنائس تنال حظها من أموال العشور التى تجبى من الأبرشية، ولكن المؤسسات الكهنوتية الكبيرة كانت بالإضافة إلى هذا العمل اليدوى وتلك الأموال فى حاجة إلى المعونة المالية. وكانت تنال الجزء الأكبر من هذه المعونة من الملوك والأشراف على صورة هبات من الأرض أو أنصبة من الإيرادات الإقطاعية ... وتراكمت هذه الهدايا حتى أصبحت الكنيسة أكبر ملاك الأراضى» (٥).

وهكذا أصبحت الكنيسة دعامة رئيسية لهذا النظام الإقطاعى وجزءاً لا يتجزأ منه، فصارت - كما يقول وول ديورانت - بأملاكها الزمنية المادية سخرية الملحدين وعاراً لكل مسيحى صادق !

* * *

نجحت الأصولية الدينية إذن فى الوصول إلى السلطة لكن المجتمع لم ينجح فى عبور الأزمة . ولم تقم بالطبع مدينة الله على الأرض، بل انتشرت الأوبئة الجماعية واشتعلت ثورات الفلاحين فى ألمانيا وفرنسا وإنجلترا، وسقطت القسطنطينية عام ١٤٥٣ على أيدى أصولية مناوئة هى الخلافة العثمانية.

وعلى النقيض من الإقطاع المتأزم بأيديولوجيته الدينية (الأصولية)، كانت طبقة البورجوازية (أحرار المدن) تصعد بقوة وعنفوان، تبنى مصانعها وتتوسع فى تجارتها عبر البحار، وتباشر مهام الإدارة فى المستعمرات متعطشة للثروة وللبحث العلمى وللاكتشافات الجغرافية؛ فتم لها اكتشاف قارة أمريكا عام ١٤٩٢ . وباختراع المطبعة راحت تترجم وتنشر المؤلفات وتنشئ المدارس والجامعات تحتضن المواهب من العلماء والكتاب والفنانين. بالاختصار راحت تفعل كل ما عجز عنه الإقطاع بجموده ورجعية فكره وقلق أيديولوجيته. ولأن الإقطاع - بوصفه صاحب السلطة السياسية - صار يمثل حاجزاً فى وجه تقدم البورجوازية لتحقيق أهدافها؛ فلقد وضع البورجوازيون على رأس جدول أعمالهم بند إسقاط هذا الإقطاع ومعه حليفه «الأصولية الدينية» تلك التى خاصمها وعارضها حتى رجال الدين المستنيرون: أعلن مارتن لوثر معارضته للبابا، ونادى كالفن بإقامة «مدينة الإنسان» باعتبارها هدف المسيح، ومنذ هذا النداء «الدينى» الثورى غدا هدف الفرد «البورجوازى» هو المجد الدنيوى والثروة والنجاح. وطوال عصر النهضة مثلث الكالفينية ما نسميه اليوم بالتحديث Modernization الذى صار به الواقع البشرى إنسانيا خالصاً Pure Humany بعد أن ظل لاهوتياً Theologic طوال القرون الوسطى معارضا للتقدم ومعاديا للعلم الحديث. هنا فحسب تراجعت الأصولية الدينية إلى الكنائس والأديرة خصوصا بعد أن قضت الثورة الفرنسية البورجوازية على الملك (رأس الإقطاع) وراحت تصفى الإقطاع ذاته دون هوادة. وبهذا تم فصل الدين عن الدولة وصار الشعب - وليس زيوس - هو المصدر الوحيد للسلطات السياسية.

* * *

فإذا كان ممكنا تفسير صعود وسقوط الأصولية فى الغرب بصعود وسقوط الإقطاع؛ فكيف يمكن فهم محاولة بعث هذه الأصولية فى أيامنا هذه فهماً لا يقنع بالبحث عن الأسباب فى سيرة الفكر المجرد، بل فهما يربط الفكر جدليا بحركة الواقع على المستويين الكوزموبوليتانى والمحلى؟

إن شواهد الحال لتشى بأن نظامًا إقطاعيا كونيًا يتشكل فى رحم السيولة العالمية الحالية، وينهض على أشلاء النظم الرأسمالية المحتضرة (برغم سقوط منظومة ما كان يسمى بالدول الاشتراكية) من حيث إن هذه النظم الرأسمالية إنما تتناثر الآن على المستوى السوسيوثقافى تمهيداً لاختفاء الرأسمالية على المستويين الاقتصادى والسياسى فى آخر المطاف، وهو ما يذهب إليه فلاسفة ما بعد الحداثة Past Mod-

ernity من إعلان فشل مشروع الحداثة الغربى الذى اعتمد على عناصر سوسيوثقافية هى الفردية والعقلانية والوثوق بالعلم والارتكاز على الليبرالية واعتبار التاريخ مسيرة صاعدة على الدوام، فلقد تأكد لهؤلاء الفلاسفة أن الفردية تتآكل بالمراد أمام سطوة المؤسسات، وأن العقلانية تكشفت عن عبثية Absord وأن العلماء فقدوا استقلالهم أمام سيطرة الساسة ورجال المال، وأن الليبرالية لم تكن إلا شكلا ليس له مضمون اجتماعى.

وأخيراً تبين أن التاريخ الذى قيل إنه يتبع فى مسيرته خطاً صاعداً باستمرار (كما لو كان يملك عقلا وإرادة حرة) ما هو إلا فعل البشر يصعد إن أرادوا له الصعود ويسقط أو يتراجع إن هم تراجعوا أو تكاسلوا أو سلموا قيادهم لأعدائهم من بنى جنسهم تجار الحروب، أصحاب النزعات الفاشية، عبدة العجل الذهبى، النارجسيون وذوو العقد النفسية حينما تقودهم الظروف إلى مواقع السلطة .. إلخ).

ذلك ما قيل عن المشروع الحداثى للبورجوازية والذى وصل بالنظام الرأسمالى إلى الطريق المسدود، أما الإقطاع الكونى القادم فيعتمد - فيما نرى - على ذات الثيمة الأصولية التى لازمته فى القرون الوسطى، تلك الثيمة التى ترتب الكون ترتيباً **شاقولياً**، فبينما وضع الإقطاع القديم «اللورد» الفرد بأعلى ووضع الأقنان بأسفل؛ فإن الإقطاع الكونى القادم سوف تصعد فيه المجتمعات المتقدمة إلى رتب **الدول / اللوردات** بملكيتها لإقطاع المعلومات ووسائل إنتاج المعرفة واحتكارها لعلوم التكنولوجيا المتقدمة، ولسوف تهبط فيه المجتمعات التى تخلفت إلى وضعية **الدول/ الأقنان** فتحاصر داخل حدودها دون أن يكون لسكانها حق الهجرة [والمؤشرات الحالية حول اضطهاد الأجانب فى دول الغرب تؤكد ذلك خصوصاً ألمانيا وفرنسا] ولسوف يكون على سكان الدول المتخلفة أن يعملوا كادحين فى الحقول والمصانع (التى سيصدرها لهم الغرب باعتبارها محدودة الربح وملوثة للبيئة) ولسوف يكون عليهم أن يستهلكوا السلاح الكونى (الذى سينتجه لهم الإقطاع الكونى الجديد) دفاعاً عن سادتهم الدول/ اللوردات إذا صارع لورد لورداً، أو لهم أن يستهلكوه فى حروبهم الخاصة بهم تلك الحروب التى سيستمتع بإشعالها اللوردات (البروفة كانت حرب الخليج الأولى ثم الثانية) وهى ليست إلا حروباً عبثية طائفية ودينية وعرقية تغذيها «الأصوليات» التى يعتمد عليها اللوردات الجدد بطريقة «فرق تسد».

إن الشواهد كثيرة على مشابهة الوضع القادم بوضع الإقطاع فى القرون الوسطى - وإن لم يكن الحافر على الحافر بالطبع - وذلك من حيث تآكل الطبقات الوسطى والاكتفاء بطبقتى اللوردات والأقنان ولئن كانت الأرض الزراعية هى الوسيلة، الإنتاجية الرئيسية فى الحالة الأولى؛ فإن **المعلومات والمعرفة** ستكون هى وسيلة الإنتاج المحتكرة فى الحالة الثانية.

لنقرأ معًا هذه الفقرة المفزعة من كتاب **العرب وعصر المعلومات** :

«ستصدر لنا المعرفة والتكنولوجيا فى أغلفة لا نملك أن نفضها، وحزم «يصعب» علينا تفكيكها وفك شفرتها. إنهم يحجبون عنا التفاصيل الدقيقة تحت دعاوى جعل التكنولوجيا أكثر يسراً لشعوب العالم المتخلف (...) وسيعفوننا من مهمة دراسة الجدوى وتقييم الأداء، وما دورنا إلا مهمة تسلم المفاتيح » (٦)

أليس هذا بالضبط ما كان يفعله الإقطاعى القديم؟! يقدم للأقنان أدوات الإنتاج ليأخذ منهم الإنتاج ذاته؟! دون أن يكونوا قادرين على الاستغناء عنه؟!

«أما خبراؤهم فسيعزفون عن زياراتهم القصيرة لديارنا وسوف يرسلون «الدوبلير» فى هيئة نظم الخبرة Expert Systems خبراء آليين لتشخيص الأمراض والتنقيب عن الموارد الجيولوجية وفرز تصميم النظم، وتحليل التربة ومراقبة الإنتاج». (٧)

مرة أخرى الإقطاعى /اللورد يرسل وكيل الدائرة ليقابل الأقنان ويتفقد معهم سير العمل بالمنطقة (فى أيامنا هذه يأتى وكلاء وزارات المالية والاقتصاد والتجارة لمقابلة ملوكنا ورؤسائنا وفيما بعد سيحضر إلينا الروبوت!) وأما اللوردات فيضعون استراتيجيات الإنتاج (الإنتاج الذى يحصلونه منا) ويرسمون خطط الأمن (أمنهم بالطبع) ويرتبون تدابير الدفاع عن مصالحهم الحيوية (مقاطعاتهم) ويحددون العقوبات للأقنان إذا تذمروا (واتفاقيات الجات هى أول بند فى لائحة العقوبات القادمة) أو تململوا فى المؤتمرات العالمية للبيئة والسكان والمرأة و.. إلخ.

تقول **سوزان جورج** مديرة المعهد الوطنى الفرنسى فى مقالها عن الوعى الكوكبى وجماهير الفقراء : «من دون ضغوط عسكرية يستحيل كبح جماح المطالب الشرعية لهذه المليارات الجائعة»، وكذلك يقول مواطنها **موريس برتران**: «إن الاتفاقيات التى أبرمت مع الاتحاد السوفييتى (سابقا) وأمريكا ودول أوروبا الشرقية، لا سيما فى المجال العسكرى، تحول هذه الدول الغربية إلى تحالف عسكرى حقيقى يضم دول الشمال، هدفه الوحيد هو السيطرة على دول الجنوب ومواجهة الاضطرابات والتمردات والثورات(٨).

مع ذلك فليس ثمة شك فى أن الدول المتقدمة سوف تتصارع فيما بينها تنافساً على خيرات الإقطاعيات الدولية، ولكنها تعلم منذ الآن أن لا سبيل إلى حل تناقضاتها وحل منازعاتها - فى إطار النظام الإقطاعى الدولى القادم - إلا بتوفيق أوضاعها على حساب الدول المتخلفة (الأحرى أن نقول الضعيفة) بما تصطنعه الدول المتقدمة هذه من أحلاف عسكرية فيما بينها فضلا عن الاتفاقيات السياسية علاوة على التوزيع الاقتصادى والثقافى للأدوار.

وهل ثمة شك فى أن ابتعاث **الأصوليات الدينية** إنما يتم الآن بوعى كامل من واضعى الإستراتيجيات الكونية بعد أن وعوا درس التجربة التاريخية والذى يتلخص فى أن الأصولية الدينية ماهى إلا السند الأول لأى نظام إقطاعى؟! لاريب أن الاصولية هى كذلك فى نظرهم - وهم الذين

لا يتركون شاردة ولا واردة من ظواهر التاريخ إلا واستخلصوا منها جوهرها وتفهموا إمكانياتها إيجاباً أو سلباً متحولين بها من الدراسة النظرية إلى ميدان التوظيف العملى. وبالنسبة للأصولية فلقد بدأ دور توظيفها منذ الآن .. فإذا اقتصر دورها على تعزية الشعوب المقهورة وتعزية نفسها والمؤمنين بها حلمًا بعالم آخر سعيد بعد الموت؛ فبها ونعمت. وإن طالبت بنصيب من الكعكة فلتأخذ منها بقدر ما تخدم الأهداف وتؤدى المهام وبمقدار مالها - فى الوقت نفسه - من قدرة على المناجزة وإثبات الذات.

لقد رأينا مفكرين من أمثال **صمويل هنتنجتون وفوكوياما وفرنسوا ليوتار وچون بوردیارد و بول فيرابند** (من منطلقات وبواعث مختلفة) يسفهون العقلانية ويشككون فى إمكانية أن تسود الديمقراطية العلاقات بين الدول وبين الدول الأخرى، بل بين الدولة وأفرادها، وكأن هؤلاء المفكرين إنما يفسحون المجال لأبنية فكرية رجعية قوامها القبول بالديكتاتورية الأمريكية وتوقع صعود قوى بربرية كالنازية الجديدة والفاشية المستنسخة والدينية المتعصبة، فضلا عن إمكانية تدويل الإرهاب فى إطار من نظام عشوائى كونى قادم يكون تمهيداً لإعادة تقسيم العالم إلى دول سادة ودول أرقاء تكون بدايته انفجار المركز الحالى (أمريكا) يتبعها ظهور وحدات كبرى ذات طابع إقطاعى معلوماتى ومعرفى وإلا فبماذا نفسر سكوت هؤلاء المفكرين الغربيين عن محاولات بعث الأصوليات الدينية بدرجة معينة ومنضبطة بين طبقاتهم الدنيا، وبدرجات غير محدودة بين المجتمعات المرشحة للقنانة؟!

صحيح أن مفكرى الغرب ليسوا جميعًا على هذا الدرب الوقح، فثمة مفكرون من طراز مختلف يرعون حق المثل العليا ويرفعون من قيم الحق والعدل، من هؤلاء **نعوم تشومسكى** صاحب كتاب «(الإرهاب الدولى» الذى يكشف فيه عن وجه أمريكا القبيح وتابعتها إسرائيل (جريمة القرن)، ومن هؤلاء المفكرين أيضا **يوچين هابرماس** صاحب كتابى «إعادة بناء المادية التاريخية»

الأصولية فى الغرب والإقطاع الكونى القادم

و «الخطاب الفلسفى للحداثة» الذى يعلى فيهما من شأن العقل ويرفض اعتبار الماضى معيارا للأحكام.. صحيح أيضا أن عشرات من العلماء فى فرع علم اجتماع المعرفة يكرسون جهودهم للوقوف فى وجه تيار «مابعد الحداثة» باعتباره تياراً عدمياً لايقود إلا إلى الثورات العرقية وإحياء النزعات الأصولية والحزازات الطائفية؛ كل هذا صحيح ومفيد ولكن يبقى دور مثقفى العالم الثالث .. فهم المطالبون أولا وقبل غيرهم بمناقشة هذا الفرض العلمى الذى سقناه عبر هذه الصفحات - بمنهج **كارل بوبر** - رفعا له إلى مستوى النظرية، واستلهاما لحلول مبدعة، وتأسيساً لمشاريع مضادة تقوم على **القطيعة المعرفية** لفهمنا الكلاسيكى لعالم قديم حسبنا أننا ألفناه بخيره وشره إلى أن تبين أن السيولة العالمية الحالية تدحرجه إلى سفوح النسيان أو تحنطه فى متاحف التاريخ ليبنى على أنقاضه اللوردات الجدد (ومن بعض أحجاره القديمة) إقطاعياتهم الكونية على حساب الشعوب وبدماء الكادحين المضللين من قبل الأصولية.

وأول ما ينبغى علينا مقاطعته هو موقفنا التقليدى من الفلسفة؛ تلك التى اعتبرناها دائما «مطلق الوعى» أو السلك الذى ينتظم المعارف والأفكار فى جديلة واحدة؛ ذلك أن الفلسفة فى عصرنا قد تخلت عن هذا «المطلق» أو بالأحرى راحت تطامن من غرورها معلنة الحيرة النبيلة التراجيدية.

أولا : نتيجة إخفاق جهابذة الفكر الاشتراكى - بجناحيه الثورى والإصلاحى - فى إقامة بناء فلسفى شامل ينفى عن الوجود اغترابه بحل مشكلة المادة/ الطاقة، وينفى عن المجتمع استلابه بنقله إلى علاقات إنتاج ما بعد الرأسمالية، وينفى عن الفرد غربته وانقهاره بإزالة الدولة عن عاتقه كما بشّره بذلك **ماركس وإنجلز**. **وثانيا** : نتيجة فشل **الوجودية** فى دعم الموقف اليسارى من العالم حيث ركزت على الفرد وحرياته المطلقة ومواقفة الذاتية مضحية بالصرامة العلمية بتوهم منها أن التاريخ من صنع وانبثاق المبادرات الفردية الحرة فحسب، وحين حاولت الوجودية دمج نفسها مع الماركسية كان الأوان قد فات . **وثالثا** بحسبان ما كشفت عنه **البنيوية** من كونها مجرد منهاج للتحليل سواء فى نطاق اللغة أو فى مجال الخطاب المؤسساتى، وهذا المنهج فى التحليل قد يكون قادراً على أن يطلعنا على ما وصل إليه المجتمع البشرى من مستويات التقدم؛ ولكنه يعجز عن تقديم تحليل واف وشاف للواقع الإنسانى، لأن هذا التحليل - بمنهاج البنيوية - سيؤدى بالضرورة إلى إنكار الذاتية وإمكانيات الخلق والإبداع عند البشر.

الحاصل إذن أن الفلسفة - فى عصرنا - لم تتخلف عن ركب التواضع الذى بدأ **بكوبرنيكوس** حين أنزل الأرض من منصبها الأسمى كمركز للكون إلى مجرد كوكب تافه فى كون مهول، وثنّى هذا الموكب **بداروين** يعصف بغرور الإنسان كاشفًا له عن أصله الدنىء كسلالة لأنواع حيوانية وليس كسيد للملائكة كما كان يصوره العهد القديم، ثم ثلّث موكب التواضع هذا بـ .. **فرويد** يقدم للفرد صورة عن نفسه لا تخرج عن كونها مجموعة من القوى المعروفة والمجهولة تتفاعل معا فى غير استقرار ودون ضمانات.

فإذا كان لنا أن نقاطع الفلسفة بمفهومنا القديم عنها (مطلق الوعى)، فإنه لا يجوز أن نهجرها لمجرد أن إمكانياتها التى تكشفت لاتمنحنا المطلق واليقين ولا تهدينا لغير النسبىّ والمرجح والمحتمل. فلنقنع إذن بهذا ولكن لنستغله أفضل استغلال ساعين إلى

تغيير مناهجها التقليدية مستبدلين بها مناهج جديدة أساسها «الخيال المبدع»، و «الافتراض الخلاق»، مزودين لهذا الأساس بنتائج العلوم الطبيعية والإنسانية وفى مقدمتها علم اجتماع المعرفة الذى «يسعى إلى إيجاد العلاقات بين أنماط من الأفكار والمعتقدات والمفاهيم والتصورات وبين الظروف الاجتماعية التى تظهر فيها تلك الأنماط»، وكذلك علينا أن نتعلم كيف نستعين بمناهج الإبستمولوجيا (فلسفة العلوم) وعلم الاجتماع الدينى الذى «يقوم على دراسة السلوك الدينى للإنسان والنظم الدينية المختلفة، كما يدرس نشوء وتطور الأديان المتنوعة التى تنتشر فى ثقافات المجتمعات المختلفة ويربط بين الآلهة التى تعتنقها هذه الثقافات وبين حياة أفرادها اليومية والاجتماعية وأحوالها البيئية» (٩)

لقد حاولت الفلسفة طوال الوقت أن تفسر الكون والحياة والإنسان فأخفقت فى الوصول إلى إجابات نهائية، ولكنها قد تنجح فى تغيير الراصد (الإنسان) إذا هى وضعت مشروعها الخاص منفتحاً على كل التجارب والإنجازات المعرفية. قد تنجح الفلسفة بهذا المعنى فى تجديد شبابها واستعادة براءتها الأولى شريطة أن تلتحم بآمال الجماهير الكادحة (كما حاولت الماركسية أن تفعل) وأن تتبنى حلم الفرد الصغير فى حياة إنسانية حرة كريمة (كما أرادت الوجودية أن تكون) وأن تتواصل ثقافياً مع النبع الأنطولوجى - وليس الأبستيمى فحسب - للدين مع الحرص على التفريق بين هذا النبع الأصيل للأديان وبين ما تفرع منه من تعاليم وإضافات وتعديلات هى بعينها «الأصولية» التى يعتمد عليها الغرب الإمبريالى الآن بهدف قهر البشر وإعادتهم إلى حظائر الأقنان.

ولا نستطيع أن ننهى هذه الصفحات المخدرة «المتشائلة» دون أن نستعير سطوراً كتبها ماركس فى رأس المال حيث يقول: «تستطيع أمة من الأمم - بل يجب عليها - أن تستمد إرشاداً من أمة أخرى، وحتى حين يكون مجتمع معين قد اكتشف خطى سير القانون الطبيعى الذى يدير حركته. والغاية النهائية لكتابى هذا إنما هى الكشف عن القانون الاقتصادى لحركة المجتمع الحديث؛ فهذا المجتمع لا يستطيع أن يتخطى بقفزة ولا أن يلغى بقرارات مراحل تطوره الطبيعى ولكنه يستطيع اختصار مدة حمله وتخفيف آلام وضعه» (١٠).

إن موت المشروع السياسى للماركسية (لأسباب لا علاقة لها بماركس) لا يعنى أبداً خطأ النقد الماركسى الموجه إلى الرأسمالية خصوصاً بعد أن تحولت هذه الأخيرة عن وضعية الليبرالية إلى وضعية الأيديولوجية المنغلقة والمفروضة فرضاً على الناس (١١).

كتب هارولد لاسويل فى موسوعة العلوم الاجتماعية يقول:

«يجب ألا نستسلم للأفكار الديمقراطية الجامدة التى تفيد أن الناس هم أفضل من يقدرون مصالحهم» (١٢) وهو قول لا يصدر إلا عن مفكر إقطاعى أصيل، إنما نشره فى موسوعة العلوم الاجتماعية هو الدلالة الساطعة على ما سيؤول إليه حالنا ما لم نستمد إرشاداً من تاريخ الأمم الأخرى.. والتاريخ هنا لا يعنى مجرد الأحداث وإنما مجمل النظم والأفكار والفلسفات والبنى الاجتماعية وأيضا ما خفى فى أغوار النفس البشرية من غرائز وتطلعات وأطماع و.. نكسات. ■

هوامش ومرتكزات

١ - القرآن الكريم - سورة الزخرف آية ٢٢ .

٢ - انظر المنتخب من تفسير القرآن الكريم - لجنة القرآن والسنة - مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - الطبعة الخامسة - ١٩٧٤ ص٤٤٠ .

٣ - إينازيو نيتوبى - البوشيدو، المكونات التقليدية للثقافة اليابانية - ترجمة - د. نصر حامد أبوزيد - القاهرة/ الكويت - دار سعاد الصباح - الطبعة الأولى ١٩٩٣ ص ٦٧ .

4 - Dutailis, C.P., the Feudal Monarchy in France and England in the 10 th and 11th centuries, London, 1935, pp36 - 51 .

٥ - ول ديورانت - قصة الحضارة - ترجمة محمد بدران - الجزء الثالث من المجلد الرابع ص ٤٢٥ .

٦ - د. نبيل على - العرب وعصر المعلومات - الكويت - سلسلة عالم المعرفة العدد ١٨٤ - ١٩٩٤ ص٢٩ .

٧ - المرجع السابق - ص ٣٠ .

٨ - المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

٩ - د. أحمد زكى بدوى - معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية - بيروت - مكتبة لبنان - ص٤٠٣ .

١٠ - كارل ماركس «رأس المال» ترجمة محمد عديانى - بيروت - منشورات مكتبة المعارف - الجزء الأول ص ٩ .

١١ - مهدى بندق - دراسة بعنوان «تأسيس الإبستمية العربية» مجلة دراسات عربية - بيروت - العدد ٩ / ١٠ تموز - آب، يوليو / أغسطس ١٩٩٥ .

١٢ - نعوم تشومسكى «الإرهاب الدولى، الأسطورة والواقع» ترجمة لبنى صبرى - دار سينا - القاهرة - ص٢٥ .

الفلسفة وإشكالية العلاقة بين الشرق والغرب



علاء حمروش

قا من المسائل ذات الأهمية الكبرى، فى تحليل قضايا الصراع الفكرى الموقع الصحيح للفلسفة بين النزعة المركزية الأوروبية والنزعة المركزية الآسيوية أو الفلسفة وإشكالية العلاقة بين الشرق والغرب.

وتعبير «المركزية الأوروبية» - يعنى بصورة عامة طريقة محدودة لبناء الصورة العامة للتاريخ العالمى، والتى ترتكز فى أساسها على التعظيم الزائد حول الدور التاريخى لأوروبا الغربية، بفضل نجاحات وإنجازات التطور الرأسمالى الحضارى التاريخى لبلدان أوروبا الغربية ونتيجة للعكس المشوه لهذه النجاحات، ظل نظام أفكار المركزية الأوروبية سائدا ولفترة طويلة فى علم التاريخ الغربى كما أنه من الأهمية بمكان التأكيد على أن تعظيم الدور التاريخى للشعوب الأخرى وعلى وجه الخصوص شعوب الشرق، يعطى بدوره تصورا مشوها للتاريخ العالمى. وهذا ما يعبر عنه أنصار «المركزية الآسيوية» هذا التيار الفكرى الذى نشأ كرد فعل على اتجاه «المركزية الأوروبية».

وتاريخ الحضارة والفلسفة يقف شاهدا ضد الآراء الخاطئة لأولئك المفكرين الذين يقولون بأن هناك شعوبا أسهمت فى إغناء الحضارة والفلسفة وتطويرها وأخرى لم تسهم فى هذا العطاء.

فنجد «هيجل» يزعم (أن الفلسفة بالمعنى الدقيق تبدأ فقط فى الغرب - ففى الغرب وحده أشرقت حرية وعى الذات) ويصف **هيجل** الشعوب الشرقية بأنها المرحلة الدنيا من الفلسفة (الفكر فى مرحلة التأمل) وينكر عليها أى دور حقيقى فى تطوير الفكر الفلسفى العالمى.

ونجد «هاملتون جيب» يزعم (أن النظرة العقلانية والمنطقية تبقى غريبة تماما عن تلك الشعوب). ونرى «ماسنيون» يطرح فكرة (أن العرب والساميين لا يستطيعون تصور العالم إلا على نحو رمزى، متفكك، تحليلى) ويؤكد بعض المفكرين الأوربيين على أن نهضة المسلمين الثقافية المعاصرة ليست سوى مجرد تقليد لأوروبا

وأن الازدهار والنزعة القومية اللذين يتطوران بوتائر سريعة حتى البلدان الإسلامية هما أيضا اختراع أوروبا، ويرى المستعرب الأمريكى «س. جوتثين» ضرورة تقسيم الحضارة إلى أدوار انطلاقا من درجة اقترابها أو ابتعادها عن التراث الهلليني أو فيما بعد النهضة الأوروبية.

وإذا كان الشرق لم يقدم طوال هذه الحقبة الأخيرة - إلا بمقدار ما أخذ عن الغرب - فإن عليه الآن أن يهتدى بالنماذج السياسية الغربية - ناهيك عن الاقتصاد - وأن يرفعوا إلى كراسى الحكم رجالات الثقافة الغربية.

ولقد اكتسبت النزعة المركزية ألوانا جديدة ومتنوعة للتأكيد على وجهة النظر التى تعتبر تاريخ أوروبا الغربية مركزا لا يتزعزع للصيرورة التاريخية العالمية - فنجد البعض من المفكرين الغربيين يدعو إلى تحرير الإنسان من طغيان الوعى بالتاريخ واستئصال الماضى نهائيا - أى الأخذ بالقيم المعاصرة، أى مرة أخرى - القيم المأخوذة من الغرب إذن فالغرب هو الذى ينفى التاريخ لمصلحته.

ونرى البعض الآخر من المستشرقين الغربيين يحاول البرهنة على أهمية وحدة الغرب الاستعمارى والشرق المتخلف اقتصاديا، استنادا إلى وجود قيم دينية مشتركة - الروحانية - الصوفية اللاعقلانية .. إلخ.

ويُلاحظ هنا أن كل المشاريع الفكرية المقدمة من الغرب لبناء أيديولوجية علمية تقدم دورا متواضعا ومحدودا لأفكار ومساهمات الشعوب الشرقية.

ويُلاحظ أيضا، أن بعض المفكرين الغربيين - يطرحون فكرة التكافؤ بين الحضارات الإقليمية - وللوهلة الأولى تبدو هذه الفكرة صحيحة نظريا وتعليلاتها مقنعة للغاية - وتصبح هذه الفكرة أكثر جاذبية فى عصرنا، عصر انبعاث وتحرر الشعوب التى كانت رازحة سابقا تحت نير الاستعمار والاضطهاد - نظرا لكونها وكأنها «تساوى» بين الحضارات التقليدية والنشاطات الحضارية التاريخية للدول الغربية - غير أنه يتبين عند تشريح فكرة تكافؤ الحضارات الإقليمية عن كثب أنها ترتكز على مزج غير مشروع للمسائل المختلفة للمعرفة التاريخية الأمر الذى يؤدى إلى تناقضات يستحيل تجاوزها.

وبالرغم مما يبدو على هذه المقولة من دفاع عن تعدد سبل التطور وبالتالى تعدد النماذج الثقافية الحضارية - غالبا ما تمثل شكلا جديدا للمركزية الغربية.

إن التأكيد على تكافؤ الحضارات - على تكافؤ روحانية الشرق ومادية الغرب، صوفية الشرق وعقلانية الغرب، تشاؤمية الشرق وتفاؤلية الغرب - يعنى التأكيد على بعض القيم والتقاليد الثقافية التى تعرقل التطور والتقدم لبلدان الشرق وترسيخها، وبرغم التلفظ بـ (التكافؤ) فالغرب هو القبلة التى يجب أن يتوجه إليها الشرق فى سعيه نحو التطور والتقدم.

يحاول ممثلو نظرية الحضارات المتكافئة تعليل وتبرير فكرة التكافؤ، التساوى، التوازى للحضارات الإقليمية بضرورة التخلى الحازم عن وجهة النظر الداعية إلى مركزية الغرب وأولويه دوره الحضارى والفلسفى. وعلى النقيض من ذلك - نجد دعاة النزعة المركزية الآسيوية - يحاولون الاستناد - إلى أن التعرف الواسع على حيثيات الحقائق التاريخية التى تدل على غنى وتشعب البنى الثقافية التراثية لشعوب آسيا وأفريقيا لإظهار الخطأ الفادح لأنصار ما يسمى بـ «المركزية الأوروبية». ويحاولون بدورهم التأكيد على مركزية الشرق وأولوية دوره الحضارى والفلسفى ونجد على سبيل المثال «جارودى» يرى أن الشرق مركزا مدعوا لإشاعة الوحدة الفكرية والعاطفية فى العالم المعاصر شرقه وغربه.

كما نجد بعض المحاولات لإحياء دور الكونفوشيوسية كمركز للفكر الإنسانى، وغيرها من الأطروحات، التى تهدف فى نهاية الأمر إلى إضفاء الطابع الشرقى على مسيرة التاريخ الإنسانى، والتركيز الشديد والمبالغة فى دور الحضارات القديمة التى نشأت فى بلدان الشرق القديم فى الهند والصين ومصر وبابل. وإغفال إسهامات الشعوب والبلدان الأخرى فى مسيرة التطور الحضارى والفلسفى. وتحديدا فى مجال تاريخ الفلسفة - مما لا شك فيه أن أوروبا كانت مركزا مرموقا للفكر الفلسفى والعلمى - فقد بلغت فلسفة اليونان القديمة شأنا عاليا، وانطوت على بدايات لعدد كبير من الاتجاهات الفلسفية اللاحقة، وطرحت عددا من المسائل الأساسية التى أصبحت الشغل الشاغل للفكر الفلسفى اللاحق، وعرفت ظهور المعسكرات المتعارضة - كما شهدت نشوء أول شكل تاريخى للديالكتيك - كما اكتسبت الفلسفة الكلاسيكية الألمانية فى نهاية القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين، والفلسفات المعاصرة التى ظهرت فى أوروبا أهمية كبرى - لكن هذا لا يعنى أبدا أن أوروبا كانت الموطن الوحيد للفكر الفلسفى - كما يزعم أنصار المركزية الأوروبية - الذين ينكرون وجود أى فكر فلسفى فى بلدان الشرق أو يعتبرونه فكرا دينيا - غيبيا - تأمليا - حسيا غريبا عن الفكر العقلانى، عن العلم .. إلخ.

أما أن «إيبرفرج» مثلا يزعم أنه (لا يمكن حتى الحديث عن وجود فلسفة بالمعنى الدقيق، عند الشعوب الشرقية). ونجد «ماكدونالد» يشير إلى أن الشعوب الناطقة بالعربية والتركية لا تعرف التوق إلى المعرفة لأنه ليس فى لغتها ما يقابل الكلمة الأوروبية «interest».

ونجد بعض فلاسفة التاريخ السوسيولوجيين مثل «ياكوجابور هاردت» يرون أن الشرق لم يعرف سوى شكل واحد للحكم، الملكية الفردية، وماتجده من أفكار وليد غليان العاطفة الدينية.

ويشير «ماكس ويبر» إلى التمايز بين المجتمعات الغربية (العقلانية والمنظمة) والحضارات الشرقية (الاستبدادية وغير المستقرة).

ويقدم تاريخ الفلسفة نفسه الدليل على خطأ القول بأن الفلسفة الشرقية لم تلعب أى دور فى تطور الفكر الفلسفى العالمى.

الفلسفة وإشكالية العلاقة بين الشرق والغرب

لقد بدأ تطور الفكر الفلسفى فى بلدان الشرق القديمة (مصر، بابل، الصين، الهند) قبل مدة طويلة من ظهور الفلسفة اليونانية القديمة كما أن تفاعل الفلسفة العربية الإسلامية مثلا مع المدارس والتيارات الفلسفية القديمة (وخاصة فلسفة المجتمع العبودى اليونانى) التى اتصلت بها بدرجات وأشكال متفاوته من الاتصال لم يقتصر أمره على تطوير الفلسفة العربية الإسلامية بل شمل تطوير تلك المدارس والتيارات الفلسفية وعلى سبيل المثال ـ فالفلسفة اليونانية أفادت من هذا الاتصال أو التفاعل ـ فقد عادت إلى الصلة بالعالم من جديد بعد عزله وانقطاعه عن حركة الفكر الإنسانى لبضعة قرون ـ إغلاق الإمبراطور جوستنيان مدارس أثينا الفلسفية عام ٥٢٩ م ـ إذ لجأت الفلسفة اليونانية إلى العزلة حتى بداية حركة النقل والترجمة منذ خلافة الخليفة العباسى المنصور، كما أن الفلسفة اليونانية اكتسبت على يد العرب حياة جديدة ـ لأنها حضرت هذه المرة فى عالم تغيرت فيه العلاقات الاجتماعية تغيرا نوعيا ـ عن المجتمع اليونانى العبودى. فالفلسفة اليونانية على يد الفلاسفة العرب ـ المسلمين ـ اكتسبت حياة جديدة وأسهمت الفلسفة العربية الإسلامية ـ وإنجازات الحضارة العربية الإسلامية فى دفع التطور الاجتماعى العلمى ـ الفلسفى فى أوروبا، كل هذه الحقائق تدحض مزاعم أنصار المركزية الأوروبية عن ركود الفلسفة فى الشرق.

ومن ناحية أخرى نرى أن نظريات «المركزية الآسيوية» التى ترى أن الشرق وحده موطن الفلسفة الحقيقية ـ فى حين غاص الغرب فى أوحال العقلانية ـ بعيدا عن التعاليم الدينية ـ الأخلاقية التى هى جوهر الفلسفة فى عرف أنصار هذه النظريات، خاطئة، وكذلك لا أساس لمزاعم أنصار المركزية الآسيوية ـ فى أن الاتجاهات الرئيسية فى الفلسفة الغربية بما فيها المادية الفرنسية، والفلسفة الكلاسيكية الألمانية حتى الماركسية تنحدر أيضا من الشرق من الكونفوشيوسية والمذاهب المثالية الأخرى فى الشرق القديم.

وكذلك فليس صحيحا أن هناك تناقضا وعداءً أبديا بين النمط الغربى والنمط الشرقى فى التفكير، فلقد تطورت الفلسفة فى الشرق بالاتجاه نفسه الذى تطورت عليه فى الغرب وتأثرت كل واحدة منها بالأخرى فالفكر الفلسفى تطور فى الشرق والغرب على السواء، والمذاهب الفلسفية التى ظهرت فى بلدان مختلفة قد عالجت المسائل الفلسفية الأساسية ذاتها، وأسهم كل منها بنصيبه فى إغناء تراث الفكر الفلسفى العالمى.

والفلسفة بوصفها شكلا معينا من أشكال معرفة العالم ومنظومة الآراء المتعلقة بالمسائل الأكثر شمولية للوجود والفكر ـ تطورت من البسيط إلى المعقد ومن الأدنى إلى الأعلى ـ بيد أن عملية توسيع المعارف الفلسفية هذه ـ والتى أسهم فيها الشرق والغرب على السواء ـ لا تتم وفق خط مستقيم ـ بل تتداخلها التعرجات.

إن دراسة تاريخ الفلسفة يوفر لنا إمكانية فهم مسيرة الحضارة والفكر الإنسانى ـ واستيعاب التجربة التاريخية العظيمة ـ تجربة معرفة الانسان للعالم، كما يساعد على أن استيعاب وتطوير أحسن تقاليد الفكر الإنسانى الذى شارك فى صنعه مختلف الشعوب التى اندمجت فى مسيرة الحضارة الإنسانية. ■

«المراجع»

(١) س.ن أرتانوفسكى، الوحدانية التاريخية للإنسانية والتأثير المتبادل للحضارات ـ لينتجراد، ١٩٦٧.
(٢) منتجمرى. واط، تأثير الحضارة العربية الإسلامية على أوروبا ، دمشق، ١٩٨١.
(٣) روجيه جارودى حوار الحضارات، بيروت، ١٩٧٨.
(٤) إدوارد ماركريان، إشكالية نشوء النشاط الإنسانى والحضارة، يرفان، ١٩٧٣.
(٥) إدوارد ماكريان، فى أصول الفكر المنفى والرد عليه، مجلة الفكر العربى المعاصر، عدد ٢٧-٢٨ بيروت، ١٩٨٣.
(٦) بندلى جوزى، دراسات فى اللغة والتاريخ الاقتصادى والاجتماعى عند العرب، بيروت ١٩٧٧.
(٧) ف. إسموس وآخرون، الموجز فى تاريخ الفلسفة، ترجمة توفيق سلوم ـ دمشق ١٩٧٦.
(٨) سهيل فرح، بارتولد والحضارة العربية الإسلامية، مجلة الفكر العربى المعاصر، عدد ٣١، بيروت، ١٩٨٣.

المراجعات

العشوائية وتفكك المجتمع فى «ليل ونهار»

عبد الرحمن أبو عوف

ق [ليل ونهار] عنوان روائى دال واضح الدلالة .. يتجاوز الرمز... هو كطلقة الرصاص المصوبة نحو الهدف .. تؤكد وتثبت عمق البصيرة السياسية والاجتماعية الواعية بلغة الفن .. الصورة .. الفكرة للروائية - سلوى بكر- فى مواجهة الانهيارات والتصدع والتدنى والسقوط الفاجع لجدل العملية الاجتماعية والمأساوية لمجتمعنا المصرى والذى يلوث مناخ حياتنا الآن .. ويفرض على الكاتب والفنان الاشتباك والصراع معه حتى يمنع الاستلاب والقهر والمعاناة الذى يحاصر المغمورين والمهمشين من أبناء شعبنا الطيب المستسلم المنكسر والذى أخشى ما أخشاه أن أقول إنه فقد الرغبة فى السعى والمقاومة والتمرد .. وآثر الغرق فى حل مشكلاته الحياتية المعقدة بطريقة فردية أنانية جزئية لا تدرك كلية المأساة الاجتماعية التى تظلل بكائنها الجميع والتى لن تختفى وتزول إلا بالإرادة المنظمة الفعالة.

وقبل أن نحاول تحليل واستنطاق الرؤى المكثفة المعقدة والمتعددة المستويات، وتقصى الدلالات السياسية والاجتماعية الجريئة والجارحة التى يتضمنها الموضوع الروائى هذا، نتوقف عند أسلوبيتها التعبيرية وبنائها الشكلى والتى تقدم نوعية من السرد الروائى بسيط له عذوبته ويسره وعمقه بلغة رشيقة سلسة مقتصدة محددة ... وعبارات تشكل إشعاعات ذات علائق اجتماعية ونفسية تمزج بين سخونة وحيوية العامية الفصحى وجزالة ومجاز الفصحى العامية لغة ليست متصنعة أو مفتعلة تحمل شحنات التعبير بصدق ومباشرة ووضوح ساطع دال وموح ومثير للتساؤل.

وعبر هذا التناول اللغوى المتراكم والمقتدر والمحكم البناء والإنشاء، نتابع بيقظة الأحداث والوقائع وتشابكها المعقد، ونتعرف على الشخصيات والنماذج الرئيسية والثانوية المنحوتة من واقع حياتنا الاجتماعية الملوث وفى مجال الصحافة الاستهلاكية التى تغيب عقل القارئ وتزيّف وتشيئ وعيه، ونقترب شيئا فشيئا من صورة بانورامية موسعة بالرمز والمحسوس والمجاز على إيقاع ونبض الحياة المصرية وهمومها وإشكالياتها وتدنى وانهيار وندوب التآكل لكلية الحياة البشرية المصرية المعاشة الآن بجانب التعرف على السؤال الرئيسى والهم الأساسى للكاتبة وهو ما هى حياتنا وما يجب أن تكون عليه؟

والواقع الروائى المعقد الملغز بأحداثه وشخصياته ونماذجه الدالة، مقدم هنا من منظور- ووجهة نظر- الراوية الأول- (سوسن عبد الفتاح) فتاة بسيطة محبطة مهمشة مجردة متواضعة فى مجلة استهلاكية تجارية هى (ليل ونهار) ونموذج دال وشائع لجيل السبعينيات) الذى كتب عليه أن يعيش أدران وقائع انتصارات الثورة المضادة التى قادها السادات ضد المشروع الناصرى للنهضة منذ منتصف السبعينيات الكئيبة، وما أحدثته من تراجع أصاب بنية المجتمع من انفتاح استهلاكى وشركات توظيف الأموال وخصخصة وصلح ومهادنة مع العدو الإسرائيلى وتبعية للسيد الأمريكى والنظام العالمى الجديد وجاهلية جماعات الإسلام السياسى وما تفرضه من إرهاب وظلام على بنية المجتمع المدنى وحقوق المرأة المكتسبة.

هى تتمتع بوعى محدود غير أنها ليست نمطا ونموذجا لاتجاه سياسى محدد الأهم السخط وفقدان الانتماء وعدم الإيمان بالمؤسسة فتاة تعيش وحيدة مع أمها ولا مورد رزق لهم سوى معاش أبيها الضئيل وحصلت عليه أمها بعد وفاته إضافة إلى مرتبها المحدود المتناقص دوما بسبب ارتفاع الأسعار ولأن الامتيازات الصحفية لا يحصل عليها أمثالها كثيرا وهى لا تكلّف إلا بالمهام التى تتطلب جهدا كبيرا ولا تقابل إلا بأقل ما يمكن من المكافآت.

ومجلة «ليل ونهار» مطبوعة تصدر يوم الخميس من كل أسبوع، وهى تتشابه وعشرات المطبوعات الأخرى المعروضة فى سوق الصحافة؛ طباعة فاخرة على ورق لامع مصقول، إخراج جذاب مبهر، ومادة رخيصة تافهة تعتمد على أخبار نجوم السينما والمجتمع فى الأساس وتلهث وراء تفاصيل الحياة الشخصية واليومية لهم بكل ما فيها من خفايا وأسرار، وتروج المجلة لكل ما هو بذىء

ورخيص فى حدود ما يسمح به القانون، إنها نوع من المخدرات المغيبة لكل عقل، لذلك فعلى غلافها دائما صورة حسناء تبتسم فى ميوعة، أو تكشف عن بعض مفاتن جسدها، كإعلان أولى عن طبيعة مادتها بين الغلافين، ورغم هذه الدعارة الإعلامية المقنعة، فإن المجلة لا توزّع كثيرا ـ أظن ـ بسبب خيبة القائمين عليها صحفيا، فرئيس التحرير الذى هو من فصيلة (شايل ومشيّل) تبدو علاقته بالصحافة، كعلاقة أى موظف فى الحكومة بوظيفته المتواضعة، وسيلة لأكل العيش، ناهيك عن أنه شخص باهت، غير موهوب، لا فى الصحافة ولا فى أى شىء آخر فى الحياة اللهم إلا الرياء والنفاق والمداهنة والمسكنة لكل من له منفعة أو مصلحة معه لذلك فهو نموذج جيد لشعار «الرجل المناسب فى المكان المناسب».

لقد تعمدنا اقتباس هذا المقطع لنؤكد ملاحظة اللغة والتعبير المباشر الذى تلجأ إليه الكاتبة فى بنائها السردى ورغم أنه يوضح بسطوع عملية هتك الأقنعة عن سرطان أوضاعنا الاجتماعية خاصة فى مجال الإعلام إلا أن النبرة الزاعقة قد تفقد عملية التأثير والدلالة النقدية .. كما أنها تلجأ إلى أسلوب الكاريكاتير فى رسم أنماط المرحلة المتدنية فيكتب فى الهوامش تعريفات ساخرة عن رئيس التحرير (شايل ومشيل) «فصيلة تبشيرية تطورت من نوع قديم معروف بقدرته العالية على التلاؤم والتكيف بسبب إمكانياته الخاصة الهائلة فى ألا يصطدم أو يرتطم أو يصارع أو يناطح حتى فى أصعب الظروف، وشعاره الدائم هو: دع الأخلاق تحت حذائك وتجاهل كل ما يؤدى إلى خصومة بينك وبين الآخرين، فإن قالوا عن الحق باطل قل: هو الباطل، وإن قالوا عن القتيل قاتل فقل! بل هو أكثر من قاتل، وشايل ومشيل يرى الحياة خذ وهات، ومن لا يعطينى لا يعنينى أما من يملأ كرشى فأبوس رجليه وأمشى»».

بالأسلوب الكاريكاتيرى نفسه ترسم شخصية رئيسها المباشر الصحفى حسن عبدالفتاح ـ وهو شخص غليس ومتعب، من فصيلة أسميها (انفتاحى معشوأ) هو فى نظرها ومنذ أن تعرفت عليه وعملت معه وهو التجسيد الحى لمرحلة الانحطاط التى نعيشها.

وتعريف انفتاحى معشوأ: (دابة إنسانية ظهرت وانتشرت انتشارا مريعا منذ بداية الزمن الساداتى واتباع سياسة الانفتاح الاقتصادى على الغرب .. وتتميز هذه الدابة الإنسانية بفجاجة الشكل والسلوك وقدرتها العالية على توظيف القيم والعادات والدين والأخلاق السائدة لصالحها، كما تتميز بقدرتها العجيبة على القفز والتسلق الاجتماعى، وهى قادرة على التحول والتحور.. لتبقى المهيمنة والمتسيدة فتبدو تارة فى عباءات دينية وتارة فى ملابس عصرية، وهى مع كل المذاهب السياسية والاقتصادية، أما من حيث الشكل فلها فم مريع قادر على التهام أى شىء ولها خرطوم ضخم لمص الدماء وعقلها أدنى ما فيها مصاب باختلاطات معرفية، وانحطاطات ثقافية، يجعلها لا تعرف إلا السطحى والمباشر، ولا تهضم إلا الغث والهش، وتنفثه حولها نفث الحية للسم) .



ورغم التحديد والتصوير الجارح الساخر للشخصية والنمط الروائى إلا أن هذا الأسلوب والبناء السردى يقع ويعانى من السقوط فى مستنقع اليقينية المزعجة والتقريرية السائجة المباشرة التى تتحول إلى فن الريبورتاج الصحفى وليس التناول الجمالى الروائى الحاذق؛ فالتعبير الفنى عن بناء الشخصية والنمط الروائى يجب أن يقدم بلغة الفن خلال حدث درامى ومواقف محددة وحوارات ووصف وتشبيهات مجازية تصور وتشخص سمات النمط وتجعله ملتحما فى سياق النص الروائى فى لحمة عضوية ديناميكية وليس نتوءا شاذا واضحا ويقينيا فجا، يخاطب عقل القارئ دون وجدانه وأحاسيسه.

وتثير هذه الرواية من البداية إشكالية طرح الموضوع الروائى الرئيسى ما بين التلقائية والعفوية وبين القصد العمدى العقلانى النبرة بمعنى اختيار أو فبركة موضوع متخيل ليسقط بظله الرمزى على الحاضر لينقده ويعريه، وهذا قد يمس إشكالية أخرى تتعلق بدرجة الصدق الفنى ومدى تحقيق الاقتناع وإحداث التأثير الوجدانى.

إن الموضوع المقدم بقصدية وتعمد هنا هو مسابقة غريبة ومريبة .. اختار أحد المليونيرات مجلة (ليل ونهار) للإعلان عنها، ومقدار المبلغ المرصود للمسابقة مليون جنيه لأفضل اقتراح يصل من قراء المجلة بخصوص فكرة مفيدة مبتكرة لصالح المجتمع أو بعض الناس فيه .. مليون الجنيه ستكون جائزة لصاحب أفضل فكرة بالطبع والمليونير سيتكفل بتنفيذ هذه الفكرة بعد ذلك فى حدود مليون جنيه أخرى.

ويقع اختيار رئيس التحرير ـ حسن عبدالفتاح بتزكية من رئيس القسم السوقى

العشوائية وتفكك المجتمع .. فى ليـــل ونهـــار

الدفعى على الراوية المحررة سوسن أبوالفضل بتولى إجراءات المسابقة ويطلب إليها مقابلة المليونير ممول المسابقة، ويتفجر غضبها لهذا التكليف وتعلن عن استيائها ولامبالاتها ،لكن على أية حال وبالنسبة إلى كله محصل بعضه، محروقة مجلة (ليل ونهار)، محروقة بتفاهتها وسخافتها ومحرريها الأغبياء وحسن عبد الفتاح فلو ثبت أن الرجل ممول المسابقة نصاب أو تاجر مخدرات، أو سلاح أو آثار قديمة، فلا شأن لى بالمسألة فأنا محررة متواضعة، لا ناقة لى ولا جمل فى هذه المجلة، ولو تهدمت الدنيا، فلسوف تقع على دماغ حسن عبدالفتاح وأمثاله قبل أن تقع على دماغى، ومطرح ما تدق يكون مرساها.

غير أن ما تتكشف عنه سياقات الأحداث وتحولاتها المتناقضة هو تعقد وغموض وإنسانية العلاقة التى ستنشأ بين المحررة (سوسن أبو الفضل) والمليونير الغريب الهوية الغامض والمثير للتساؤل فهو يشترط عدم ذكر اسمه بأى شكل كممول للمسابقة، كما أنه سيكون صاحب القرار النهائى فى تحديد أفضل فكرة مرسلة إلى المجلة ومنحها الجائزة وسيكون اختياره للفكرة الأكثر تميزاً فى حدود المشروع والمنطقى وسوف يطلع على الخطابات الأفضل الناتجة عن الفرز لفحصها والمفاضلة بينها. وفى أول لقاء له معها شعرت بالريبة من هذا الرجل اللذيذ الجالس أمامها فى منتهى الأدب والهدوء، ظنت فى البداية أنه جاسوس؛ واحد من الجواسيس العصريين المشتغلين لحساب واحدة من الجهات الكثيرة المشتغلة على البلد الآن، لسببين: أولا ما الذى يدفعه لبعزقة وهدر فلوسه على هذا النحو فى مسابقة عبيطة كهذه خصوصا أن معظم رجال الأعمال من أمثاله بخلاء، جلده، ويموتون فى سبيل القرش الأحمر الذى لا قيمة له الآن؟! وثانيا لأن حكاية التصنيف والتبويب للخطابات والتى اقترحها غريبة بعض الشىء، ثم ما سبب إصراره على أن يكون القرار النهائى فى المسابقة له؟!

غير أنها بدأت ترتبك بينما الأفكار تتدافع فى رأسها، فالرجل غامض بلاشك، خصوصا وأن شكله بدا لها أقرب إلى أشكال الممثلين منه إلى أشكال رجال الأعمال، ببدلته القطن ذات اللون البنى الفاتح وقميصه الخفيف قرميدى اللون، قالت لنفسها وهى تتأمل سرواله المجعد، لا .. لا يمكن أن يكون رجلا للأعمال بأى حال من الأحوال وفكرت فى الهروب من هذه المهمة وأن تأخذ إجازة مرضية فحسن عبدالفتاح ما كان يترك لها هذه المهمة إلا إذا كانت وراءها مشكلة أو مصيبة .. غير أنها شعرت برغبة غامضة فى أن تبادله الحديث معتذرة عن أن وقتها لن يتسع لهذه المسابقة لأنها تعد ماجستير عن اتجاهات المشكلات الاجتماعية المعاصرة من خلال بريد القراء فى الصحف والمجلات خلال السنوات العشر الأخيرة .. ولكنه أدهشها بأنه قرر مكافأة عشرة آلاف جنيه للصحفى الذى سيقوم بهذا العمل.

وبدأ مسلسل الإثارة وغموض الرجل وعدم فهمها له، غير أنها فضولية وحشرية تريد أن تعرف أصل وفصل الموضوع، ورغم إغراء المبلغ وترددها إلا أنها حسمت أمرها وقررت الاعتذار الذى رفضه المليونير وصدمها بقوله (الحقيقة عندى إحساس بأن انشغالك بالماجستير والتعفف عن الفلوس ليس السبب الحقيقى لهروبك وانسحابك) .. فواجهته على الفور بشكوكها قائلة (إما أنك رجل يبحث عن ستار ليخفى وراءه شيئا آخر، والبلد مفتوحة على البحرى لكل من هب ودب أو أن تكون لديك أموال قذرة، ترغب فى غسيلها لتخفى نشاطا غير مشروع وأنا لا ناقة لى ولا جمل فى كلا الأمرين) .. فقابل ذلك بضحكة عالية واصفا إياها أنها خيالية ولذيذة خالص ومست كلمة لذيذة أنوثتها وبدأ الندم بداخلها لأنها لم تذهب إلى مصفف الشعر قبل حضورها إليه فما كان يجب أن تقابله بشعر مشوش.

المهم لقد حدث تقارب ورغبة متبادلة بين الاثنين فى التعارف وثمة إعجاب متبادل؛ لقد باتت مترددة حائرة (فثمة شىء فى شخصيته مثير، جذاب، يشدنى إليه، ولكن أليس كل النصابين واللصوص والقتلة، الذين تعودوا قتل وسلب الناس بهدوء، وبطرق مشروعة تماما هم أيضا مثيرون وجذابون؟! أليس الظرف والجاذبية من أهم أصول اللعبة فى الأصل؟! لكن الحقيقة أيضا يجب أن تقال فهذا الرجل لديه شىء يجعل الإنسان يميل إلى تصديقه، عنده درجة من الكاريزما، ربما الوسامة، ربما أسلوبه اليقينى فى الكلام ثم إن قدرته على الإقناع عالية، لذلك فقد امتثلت لأمره بسرعة وجلست لأرتشف الليمون ولم أغادر، رغم ظنى بإمكانيات عنادى العالية، وصلابة رأيى دائما).

ولعل كل هذه المقدمات التمهيدية الطبيعية بتلقائيتها وتصميمها القصدى فى الوقت نفسه، تدخلنا فى جوهر وخصوصية وتوتر هذه العلاقة المعقدة المثيرة للتساؤل ببعدها الإنسانى، فرغم الهواجس والظنون والاسترابة التى تحملها (سوسن أبو الفضل) المحررة بمجلة (ليل ونهار) نحو (زاهر كريم) رجل الأعمال الغريب وممول المسابقة الأكثر غرابة إلا أنها بدأت تنجذب إليه وتشعر رويدا رويدا بنمو نوع من العلاقة يتجاوز مجرد علاقة العمل الباردة، ولعل هذا يقربنا من عمق دلالة الرؤية الروائية هنا فى بعدها السياسى والاجتماعى فسلوى بكر ترفض عملية الاستقطاب والأحكام الجاهزة والأبيض والأسود فى فهم علاقات البشر .. وعبر تحليلنا للنص الروائى سنتعرف ونتفهم خلال تتابع المواقف دراميا ورسم الشخصيات والحوارات والتأملات وتاريخ وأبعاد ومكونات شخصية (زاهر كريم)، نمطا لرجل الأعمال

المصرى الوطنى له قناعاته وتبريراته التى تمنعنا من رفضه ووضعه فى خانة طبقة الرأسماليين الطفيليين والكومبرادور والسماسرة الانفتاحيين الذين ظهروا بعد تحولات السبعينيات والثورة المضادة بقيادة السادات، بل هو سيكشف لنا عن معنى أكثر شمولا لتراكم الثراء غير المشروع لطبقة جديدة تعيش على دماء وعرق الشعب المصرى الفقير وتستغله وتستلبه وتقمعه فى النهاية.

إن الروائية تنجح فى أن تقدم بطلا إشكاليا تشير من خلاله وضعية التطور الرأسمالى فى مصر فى هذه الحقبة المعقدة من التحولات حيث تراكم رأس المال والخصخصة وفوضى قوانين السوق.

إن (زاهر كريم) عاش معظم عمره فى الخارج ومنذ طفولته المبكرة، فأبوه كان رجلا ثريا وهو ابنه الوحيد تقريبا، لقد تعلم فى الخارج وتزوج أجنبية، غير أنه يوما بعد يوم اكتشف ضَياعه، فهو لا يعرف من يكون على وجه التحديد فهو لم يكن سويسريا كزوجته التى طلقها ولم يكن إنجليزيا رغم تعلمه الطويل فى إنجلترا كما لا يعرف كيف يكون مصريا، وفى لحظة شجاعة كانت بالنسبة له نوعا من الانتحار قرر العودة إلى مصر .. وتوفى والده فأدار أعماله؛ لم يكن يعرف شيئا عن مصر فألقى بنفسه فى تجارب عديدة وخالط أنواعًا ونماذج متعددة غير أنه لم يتمكن من معرفة الناس هنا أبدا ولم يعرف كيف يديرون حياتهم وعلاقاتهم وما هى أحلامهم وآمالهم، وكأنهم كانوا جميعا أطرافا فى مؤامرة سرية تستهدف ألا يعرف الحقيقة أبدا؛ حقيقتهم التى يمكن أن تقود إلى حقيقته فهو يشعر أنه لا يفهم الناس وهم لا يفهمونه والشىء الوحيد الذى يدفعهم إلى قبوله بينهم هو أنه ثرى .. الثراء هو جواز مروره الوحيد هنا، وهو يعتقد أن المسابقة سوف تتيح له فرصة واسعة للتعرف على الناس، وربما حلت له مفاتيح شفرات التعامل معهم ورغم عدم اقتناعها بكل هذه المبررات إلا أن شيئا سريا وشعورا غير محدد دفعها لمواصلة العمل معه.

وبدأ العمل لقراءة نماذج من الرسائل التى استجابت إلى المسابقة وهنا تتيح لنا الكاتبة قراءة والتعرف على عينات من تفكير الناس ونماذج من اقتراحاتهم ومشروعاتهم تقدم أوسع بانوراما لنبض الشارع المصرى فى الظروف العشوائية التى يمر بها المجتمع المصرى فى جوانبه الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

وهذه عينة من تفكير الناس ومشروعاتهم:

١- اقتراح بإقامة تمثال ضخم للشهيد أنور السادات حفيد بناة الأهرام الذى صنع السياحة حقا فى مصر لأنه أدرك بنفاذ بصيرته أن لا سياحة دون سلام فلولاه لما عشنا حتى نرى بيريز يدخن النرجيلة فى مقهى فى عمان.

٢- خطاب من أصولى إسلامى متطرف بعد ديباجة من تجهيل المجتمع وتكفيره ودعارة المجلات والجرائد، يقترح إنشاء جمعية خيرية تخصص لختان البنات مجانا على أيدى أطباء مهرة ويقترح بعد الختان أن تمنح كل فتاة صغيرة غطاء جميلا للرأس.

٣- خطاب من أبناء طريقة سيدى العارف بالله البسطويسى، يقترح إقامة مولد له بمليون الجنيه لعدم وجود نقود بصندوق النذور .. وهكذا تتوالى الخطابات كاشفة عن تدنى وعشوائية تفكير الناس وأحلامهم المهووسة والمهوشة لحل مشكلات الواقع المصرى مما يكشف عن أدنى مراحل سقوط العقل الجمعى..

وتدور المناقشة والتعليقات حول فوضى الخطابات.

يقول (زاهر كريم): إن هذه الخطابات لا تعكس بأى حال من الأحوال فكرة وجود هدف كبير مشترك على مستوى المجتمع ككل؛ لم تكن هنالك فكرة تتعلق بمستقبل البلد، الوطن، المجتمع، بعبارة أخرى ليس هناك مشروع.

وردا على اعتراضها على أن المسابقة لا تمثل كل الناس لأن هناك عقولا مفكرة لديها بالتأكيد مشروع ما، لكنها من المستحيل أن تشارك فى مسابقة تجريها مجلة من نوع «ليل ونهار».

يقول (زاهر كريم): المسابقة ما هى إلا عينة صغيرة تكشف عن مساحة أكبر من النسيج، ولكنى سأسألك بدورى، أين هؤلاء الملايين من الناس الذين ظلوا موجودين تحت دائرة الضوء يصنعون التاريخ؟! أين الذين كانوا فى الماضى يخرجون فى المظاهرات يتحدون البنادق والرصاص؟! أين أولئك الذين كانوا يؤثرون فى صنع القرار؟! يغيرون حكومات ووزارات ودولا؟! هل ابتلعهم الطوفان ؟! هل اختفوا فجأة من خريطة الأحداث وكأنهم لم يكونوا أبدا؟!

أما المشروع، أجل لدى مشروع، كنت دائما أحلم بأن استكمل ما بدأه جدى وأبى؛ أن تكون لنا صناعة مستقلة قادرة على المنافسة، وصنع اقتصاد مستقل متين، لكنى كلما توغلت فى دنيا الأعمال أكثر أشعر أن حلمى يبتعد، وأن قدمىّ تغوصان فى عالم تحكمه قوانين السمسرة والعمالة والارتباط بالغرب.. لا ..لا أعرف بصراحة إلى أين يسير مشروعى فى النهاية.

ولم تحدثه عن الملايين التى باتت الآن الأغلبية الصامتة؟! الأغلبية التى جرحت وهزمت إلى حد الانسحاق، بسبب فنون وشطارة السياسة الحديثة، وأساليب التهديد والوعيد بكل الأشكال والطرق؟ هل تقول له إن هذه الملايين يئست من كل إصلاح بعد

العشوائية وتفكك المجتمع .. فى ليـــل ونهـــار

أن ظللت تدفع الثمن طوال سنوات وسنوات من دمها ولم يتبق لها إلا لعق الجراح؟

وتحدث قمة لحظة التواصل بين (سوسن) المحررة و(زاهر كريم) المليونير عندما ترفض ما أعطاه إياها من مكافأة سخية هى أحوج ما يكون إليها وتمزق الشيك فتنهار ويبكى وتعترف قائلة (آه لو يعرف زاهر كريم كم أحبه الآن آه لو يعلم كم أنا راغبة فى أن أستمر فى رؤيته وتنمية علاقتى به بعيدا عن الفلوس والعمل والمجلة .. آه لو يدرك أنه واحتى الظليلة فى صحراء حياتى المقفرة؟ وانتهى الأمر بالأحضان الدافئة والاعتراف بالحب والرغبة، والاتفاق على أن يرسم لها صورة فهو رسام يتقن فن الرسم، وعندما تعلق فرحة ومنبهرة على رسمه لها تقول (هذه أنا بالفعل رغم خطوطك الرفيعة، الدقيقة الغامضة والباهتة كثيرا، لماذا لا تستمر فى سكة الرسم؟)

ويقترب منها معترفا «هذه حكاية طويلة، وهل سرت فى طريق واحد أبداً؟! أنا فى الحقيقة مسخ؛ كائن لم يكتمل أبداً، لأنه ولد فى سياق خاطئ فى الأساس، هل تعرفين كيف جئت إلى الحياة؟ أبى كان أبوه إقطاعيا كبيرا، وكان مدللا جدا وفاشلا فى التعليم، قضى معظم شبابه فى أحضان نسوان الكاباريهات المشهورة فى مصر والراقصات، وعندما مات أبوه فجأة فى بداية الحرب العالمية الأولى وجد نفسه وريثا غنيا، فلم يدر ماذا يفعل بالفلوس، فاقترحت جدتى تزويجه من قريبة لها على أن يفعل بحياته ما يشاء، وهكذا جئت أنا دون أى تخطيط، مثلما دخل أبى إلى دنيا الأعمال دون أى تخطيط، حيث دفعته أمه دفعا إلى إنشاء مصنع نسيج بارك الله فيه وكان خميرة ثروة ضخمة اتسعت عبر مجالات كثيرة منها سفن الشحن التى أعمل بها الآن، لكن معظم هذه الثروة راحت وقت التأميم .. إذن .. أنا مسخ جاء إلى الحياة بالصدفة، وأصبحت رجل أعمال بالصدفة، ولم يكن لى طريق واضح أبدا فى أى شىء فى الحياة .

ويتكشف دفء التواصل بينهما فيعترف لها اعترافا هو مفتاح تصرفاته الغريبة ودوافعه إلى هذا النوع من المسابقة المريبة تقول : اسمعى،سأبوح لك بسر؛ موضوع المسابقة كله، كان الهدف منه مسألة محددة جدا، فقد حاولت أن أستخدمها كمرشد فى حل مشكلة شخصية تخصنى جدا.

فما هى المشكلة الخاصة؟ : يعترف أنه اكتشف منذ فترة وبالصدفة البحتة أن والده ظل متهربا من الضرائب طوال فترة نشاطه التجارى بمقدار مائة مليون جنيه.. إنه لص على مستوى رفيع جدا وكان يعتبره قبل ذلك مثله الأعلى فى الحياة لذلك فخطته أن يقدم مائة مليون لأى مشروع يعبر فعلا عن مصلحة المجتمع ويعود عليه بالفائدة لكن الكارثة الحقيقية هى ما ظنه مجتمعا ليس بمجتمع .. هذه هى المسألة لذلك فهو يائس جدا ويشعر أن لا فائدة .

ونصل إلى اليوم الأخير من شهر سبتمبر سنة ٢٠٠٥؛ اليوم المتفق عليه للإعلان عن نتيجة المسابقة وكان الاتفاق قد تم بين المليونير والمحررة سوسن على اختيار رسالة سارة وفرحه التى أثارت المهيمنين على المجلة والتى وجدوا فيها نوعا من التهريج: وفعلا تم ما فاجأ الجميع بإعلان اسم الفائز وكان اسمه إبراهيم حفنى عبد السلام عن رسالته التى تطالب بإنشاء جمعية تهتم بضحايا الزلازل والسيول، وهكذا تم تزوير المسابقة والشيك قيمة المسابقة؛ فثمة تشابه بين اسم صاحبى الرسالة، كذلك تم تغيير أسماء رجال أعمال ممولين للمسابقة بدلا من الممول الأصلى (زاهر كريم)، ولم تجد سوسن أمام هذا التزيف والتحايل إلا أن تتصل بزاهر كريم وتخبره بما حدث.. فهى فضيحة استندوا فيها بالأساس إلى أنه لا يرغب فى الإفصاح عن نفسه كممول لهذه المسابقة.

وأكثر من ذلك أن الفائز كان يمت بصلة قرابة لحسن عبدالفتاح رئيس القسم، وتهرع ملهوفة المحررة سوسن لبيت زاهر كريم لتشهد النهاية الدامية والفاجعة والمفاجئة للقارئ؛ حيث انتحار زاهر كريم الذى يقدم أكبر أسئلة الرواية ولنقرأ جيدا عبارات الرواية الأولى سوسن لعلنا نقارب الدلالة البعيدة الرمز لهذه النهاية النابعة من جدلية ما حللناه من عشوائية وتفكك المجتمع المصرى وأسرار عالم رجال الأعمال وما يتم من تراكم رأسمال طفيلى على النشاط الاقتصادى المتسيب فى مجتمع الخصوصية والانفتاح والتبعية لصندوق النقد الدولى،تقول سوسن فى ضياع مثقل بالدلالة والمعنى [بعد فترة توقفت عن الصراخ والبكاء، أصبت بنوع من البرود الغريب بينما كنت أتأمل عينيه المفتوحتين وهما تحدقان فى اللاشىء، بسؤال ما، كان وجهه محتفظا بتعبير ألم غريب، هذا الوجه لن تفارق صورته عينى ما حييت!

«إذن .. فعلتها يا زاهر، قررت أن تنسحب وتهرب، تركتنى فى المأزق وحدى وذهبت، تخليت عنى فى أشد لحظات احتياجى إليك، هل انتميت الآن، هل عرفت نفسك، وعرفت المجتمع والناس؟! أظن أنك كنت راغبا فى الانتماء، إلى الموت إلى العدم ولا شىء غير ذلك، يكتب بحرقة وأنا أتأمل العم حسين ووجهه يقطر حسرة، كان منظر العم حسين فى حزنه مؤلما جداً، رحت أتسحب ومرارة قاتله تخنقنى، كنت أشعر أن حلما كان قد بدأ يتشكل قد ضاع منى، كان ما بيننا نواة مشروع؛ مشروع كان من الممكن أن يكبر ويتسع ونصنع منه شيئا، ولكن أى مشروع كان من الممكن أن ينجح معك يا زاهر كريم، ألم تقل لى يوما إنك ولدت كالمسخ؛ تاريخك مشوه، ومضطرب فلا أنت

تنتـمى إلى هنا ولا أنت تنتـمى إلى هناك، رحت أفكر فى ذلك وأنا أغـادر بيتـه، كـان صـوت منبه سيارة الإسعاف يخترق أذنى ويحتد فى داخلى السؤال]

«هذا السؤال - القضيـة - الذى يحتد فى داخل عـقل ووجدان الراوية الأول (سـوسن) المحررة فى مجلة (ليل ونهار)، يفجر سؤالنا النقـدى عـمـا تقدمـه هذه الرواية الأدبيـة الإجرائية، أقول إجرائية لأنها تقدم سياقا رؤائيا مباشرا يتعامل مع وضعية المجتمع المصرى وجدل تفاعلاته الاجتماعية فى آنية اللحظة التى نعيشها ونعانى أزماتها المعقدة المتداخلة.. والكاتبة تفيض بوعى جدلى ورؤية سيـاسيـة نافذة على الوضـعـيـة الاقتصادية والإعلامية للمجتمع المصرى الآن فمجلة [ليل ونهار] هى المجلة النموذج للانهيارات والسقوط الإعلامى الذى يعكس طفح أدران طبقات طفيلية ونجوم للمجتمع الجديد يمارسون العربدة واللهو والسهر وعقد حـفـلات الزفـاف فى فنادق خـمس النجـوم والسفه والإسراف هذه المجلات التى تغسل مخ القارئ العادى وتستلب كل قدراته على النقـد والوعى المفـارق وتغـرقـه فى كم من التـفـاهات والابتـذال .. وهى تقـدم نماذج فاضحة لنوعيات الصحفيين الاستهلاكيين المرتزقة وعملية صعودهم واستيلائهم على المنابر الإعلامية.

يقترن هذا النقد البصير للإعلام بإثارة ونقد الوضعية الاقتصادية المصرية وما يتم فى قلبـهـا من عـمليـات ابتـزاز واستنزاف واستغلال وقهر وتسلط من مافيا حلف طبقات الكومـبـرادور والسـمـاسـرة والانفـتـاحـيين والمستثمرين الأجانب والخصخصة وإعادة الهـيكلة والذين يتـهـربون من الضـرائب ويمارسون استغلالا عشوائيا لمصالح الشعب .

تناقش كل هذه الأدران الاقتصادية من منظور بطل إشكالى من رجـال الأعـمـال رفض ممارسات ومعايير هذه الطبقة وتمرد على سلوكياتها وأراد أن يكتشف طريقا مخالفا يتميز بالنبل والفاعلية بأن تصبح الرأسمالية المصرية منتجة وليست طفيلية، فكان مصيره الانتحار كدلالة على المصير الفاجع للمستقبل الاقتصادى فى مجتمعنا.

وأخـيـرا قد تكون هناك عدة ملاحظات عن قصدية التصـمـيم فى هذه الرواية على حساب مـا يتطلبه النص الأدبى من تلقائيـة ولغة غـير مـباشرة تهمس دون أن تخبـر.. تجـسـد بالصـورة دون أن توضح بالخـبـر اليقينى.. فضلا قد يثار عن آنية المشكلات الاجـتـمـاعـية المطروحة وعدم تحـويلهـا إلى صـيـرورة الاسـتـمـرارية التى تمس البـعـد الإنسانى.. ورغم ذلك يبقى لهذه الرواية أنها تؤكـد حـيـوية إبداعنا الروائى الآن فى جـعـل الرواية مرآة وقانون إنقاذ ودليل عمل للمشكلة الإنسـانيـة بخـلاف كم من الروايات غـارق وضارب فى جذور الماضى وادعاء التصـوف وطرح مـشكلات الأنا الأنطولوجى المتـعـالى المحبط والمغترب. ■

تأويلات على متن

«فهارس البياض»

شعر السؤال الفلسفي

إدوار الخراط

«فهارس البياض» عنوان كتاب ماجد يوسف.

للعناوين منطقها، أو ينبغي أن يكون لها منطق، وهو ما لا يحدث كثيراً هذه الأيام، إذ نرى العناوين الطويلة الغريبة التي لا تهدف إلا إلى إبهار أو إغراب أو حذلقة.

ولكن «فهارس البياض» في تقديري إشارة دالة ومثقلة بالمعنى وهو جزء عضوي من شعر الكتاب.

فهل ذلك لأن الشعر هنا يطمح إلى شمولية أو إحاطة بكل معاني الوجود - يا له من طموح! - أو على الأقل يطرح هذا السؤال الشامل المحيط؟

ذلك أن البياض يشتمل في نهاية التحليل على كل الألوان، والقاعدة العلمية أن النور فيه كل ألوان قوس قزح، «الضوء أضلاع بياض» (ص ١٠٧)، وفي طوايا البياض تلافيف وتعاريج ولفلفة وتعاويج، أي أن فيه - فيما يبدو أنه فراغ أو عدم - كل فهارس الوجود، كل محتويات المعنى، كل الفهارس.

«بس التلافيف - في الأتون - كانت بياض» (ص ١١).

فهل البياض عند هذا الشاعر هو العدم أو الخلاء الذي هو في الآن نفسه كل الوجود، وكل الملأ معاً؟ وهل أن الشاعر عندما يبتعث ما يسميه «حد البياض» يومئ، على نحو ما، بحدٍ نهائي للوجود هو أيضاً حد نهائي للعدم؟

«ومن إيقاع ساحر رجيم
للابتداع الفلسفي
أبيض بياض
أسود قوي»
(ص ص ٨٠ - ٨١)

على أن هذا الشعر يثير جانباً آخر هو جانب العلاقة بين البياض والكابوس والانفجار النووي - الذي لعله كان قد أرهص به حينما أشار إلى التلافيف التي تستحيل بياضاً في اضطرام الأتون وتلظى النار فيه، فهل ذلك مما توحي به قصيدة «بياض عين الكابوس»؟ إن صورة الثورة، أو المفترق، أو عين العاصفة، أو قلب الدوامة، بما تحمل من دلالة العدم المتفجر، من الإيحاءات التي ما تني تراود هذا الشعر، البياض هو عين الوجود كله، لكنه أيضاً عين الكابوس، كأنه نذير العدم بل هو ذات العدم

«وكاااان كل شيء أبيض»
(ص ١١٦)

«واللوحة من ألوان قزح
فيها النجوم متوزعة مليون شعاع
فوق الجسد
(ص ٦٧)

ليس في اقتران الوجود بالعدم غرابة، تلك قضية طالما تناولها الفكر الفلسفي، والشعر الفلسفي معاً، منذ البداية، ولعلها ستظل مطروحة بلا نهاية.

إن اقتران الأضداد من أبرز سمات شعر ماجد يوسف، وهو على الأخص أوضح ما يكون من خصائص «فهارس البياض» بل هو انصهار العضوي الحي بالجامد اللاعضوي.

«طعم الرخام طازه وطري وناصع لازال» (ص٩)

وهو في الجانب العضوي امتزاج اللون والحس والصوت، تضافر أو اقتران العين واللمس والأذن، «بين البياض والبرد فـ «اللحن النشاز» (ص ٢٧).

وفي الجانب المادي - أو التجريدي، بعد ذلك مباشرة، نجد الامتزاج بين موجودات ملموسة متجسدة وبين تجريد abstraction هو أدخل في سياق البلاغة أو السيمائيات.

«والريح بتكبر كل يوم
تمسح من الرمل المجاز»

فكأنما هو يبتعث الموجود الصلب القائم بذاته لكي يجرده على الفور من دلالات المجاز، ويعود به إلى جوهره العاري من كل معنى، كأنه يمزج - دأبه طول الوقت - بين الوجود والعدم.

الشواهد على هذه الحاسة الضدية يغص بها الكتاب، بين الشباب والشيخوخة، بين النور والليل، بين الموت والحياة، ودائما دائما بين الحقيقة والاحتمال.

«وانا فـ الشباب .. طاعن .. عجوز

وانت العجوز مليان شباب

النور منين طالع؟

منين الليل دا .. جىّ؟

وانت اللى مسجون فى الأتون

عشت فى زمانك

واللا أنا اللى مُتّ حى؟

(ص ٣٨)

الدود بيـرعى فى الكمـال/ النقص»

(ص ٤٠)

«والبدء هو المنتهى»

(ص ١٩)

هو يمزج بين الماضى والمستقبل ويقلب التراتب الزمنى، كما يمزج بين الأول والآخر، بين الواقعى والفانتازى، كما يمزج بين الأبيض والأحمر، وبين الضحك وعين البكاء، (ص ١٨)، وبين الداخل والخارج، ذلك كله متسق مع محور السؤال الأولى الماثل دائما: هل الشىء هو ضده معا؟ هل الملاك هو المسخ؟ (ص ١٨)

الآتى بيسبق أمسى

وانا بين جوّه وبين برّه

قد الأهرام والذرة

والذرة مجرة مهوله

فيها البدايات والغولة»

(ص ٤٨)

* * *

وانا ملمح الموت والحياة على فرسها

(ص ٢٢).

وفى تلك القصيدة الجميلة «هدهدة» التى تومئ إلى صلة وثيقة بأشعار فولكلورية مأثورة وقد سرى فيها الآن روح السؤال، وهى تمتح من عبقرية شعبية أبدعت بروح الدعابة والمرح والفانتازيا آيات من مثل «ياطالع الشجرة» أو المقطوعة المشهورة: «النجار عايز مسمار..» إلى آخره، نجد هنا عند ماجد يوسف صورة باهرة:

«وبزاز القمره رخامى

بتزوِّد ليلى الطامى»

والطمى بعين مفتوحة

بيحط القمح فى لوحه.. إلى آخر الهدهدة التى تنتهى، بلا نهاية طبعا:

واللوحة خطوطها عجيبة

راسمه لى نعجة وديبه

والديبه إلى آخره إلى آخره

والآخر أوله آخره

(ص ٥١)

* * *

وفى هذا السياق تقف قصيدة «بياض عين الكابوس» على حدة.

هنا صور وصياغات تمزج بين الفرح والدمار، بين النشوة الشبقية والنعيب/ النذير، بين الغيوم والعاصفة من جانب وبين إيحاءات ملائكية وسواد هالة كأنها شيطانية من ناحية أخرى، رموز متراكبة وملغزة وعصيّة على التأويل، عن عمد أو عن إلهام الشعر؟ (وهل ثم فارق حقيقى بين القصد الفنى، والإلهام؟) هنا صورة لعرس قبطى - فيما يبدو - ولانفجار كابوسىّ، هنا ألف فقاعة من حنان وقدم بالضبط على قوس الهلال؟ هل المزج السيريالى بين الصور والإيحاءات هو لب الشعر فى مواجهة قضية لعلها تستعصى على الشعر؟ أعنى بها قضية يتضافر فيها الخاص الواقعى الآنى والعام المفارق الفلسفى؟ وهل الشعر هنا هو الملاذ الأخير للوطن؟ أم أنه، كما يقول الشاعر: «لا مفر...».

سوف نرى أن الحس الوطنى يقتحم الشعر هنا - كما ينبغى له أن يفعل فيما أتصور، وأن ترانيم الانحياز أو الانتماء للوطن تعدل ما سوف نراه بعد قليل من حس يوشك أن يكون عبدويًا، أو عدميا نهيلستيًا، أو ما أسميته حسًا مقبريًا هو أوضح وأصرح ما يتجلى عليه فى إهداء الكتاب.

«إلى أمى

اللى جابت من حشاها قتيل

وانا اللى شايل جثتى وماشى

«ماجد»

وفى التزاوج بين خصوبة الميلاد وبين الحياة التى هى موت حى، مصداق آخر للحس الضدى المهيمن عند هذا الشاعر الكبير.

وابعد وانا أقرب ما يمكن للسؤال

على شفا جرف المثول»

(ص ٢٠)

وانظر أيضًا إلى دلالة العنوان المفصحة فى قصيدة «مقلوب الآية» التى تستوحى الفولكلور كذلك ولكنها تصعد إلى مستوى «أحرّ وقعا» - مع أنها مازالت مرقصة الإيقاع -

بتعكس فى الآية

وتقرا بالمقلوب

عِدِّية أيوب

واضحك ويّايا

لشكلك فى مرايه

باين فيها اتنين

بنى آدم بروحين

(ص١٣٢)

ومع أن الصورة فى المرآة لاثنين، إلا أنهما واحد ولكنه بروحين، إن الحاسة الضدية هنا تبلغ حدها الأقصى الذى لابد أن يكون بدوره هو مجرد ملامسة الحد الأدنى، أى الوقوف على شط المعنى، على حده الأول، فى الوقت الذى فيه يضرب الشاعر فى عباب غِمار خضم السؤال.

تلك بعد انصهار الأضداد هى الخاصية الثانية بل المحور الأساسى فى شعر ماجد يوسف أى ذلك السؤال الفلسفى؛ سؤال الحيرة، الوقوف فى المفترق، فى عين

الفلسفة، فى الحد بين التشظى والتفتت من ناحية وبين الاتساق والاتحاد من ناحية.

يا هلا بك

يا هلا بك

يا للى بابك ع البحور

(ص ١٣)

أو فى سياق آخر، مختلف ومتماثل

«وف برزخ الغياب

ودهشة الانسحاب

بتفتح بيبان

سؤال من غير جواب»

(ص ص ١٠٨ و ١٠٩)

أتصور أن البيبان هنا مفتوحة على البحور بأكثر من معنى، الشاعر يطل هنا على أمواج الأسئلة المتلاطمة وعلى تزاحم الصور والأفكار، بل هو يرمى بنفسه فى اليم

«أنا اللى مشبوح ع السطوح بين النذالة والشرف

بين الجمال السرمدى ف نُتَف المرايا والانكسار

(ص ٢١)

أو «وانا فى المهب

» وف الخضمّ

(ص ٣٦)

أو «على القمة انفجار بعتر شظايا الحرف

جمّعنى فى هيئة ربّ

بينغّم إيقاع الكون»

ص ١١٣

ولعلنى سوف أعود إلى تفصيل نظر الشاعر إلى شعره، أو تأمل النص لذاته، كما هو الحال هنا، وإن كان الأمر فى تصورى يتجاوز مجرد النظر فى نص الشعر إلى النظر فى نص الكون، أو فى سؤال الوجود.

«أنا اللى حىّ بكل كلى

لو انى أجزاء ميتة» (ص ١٤٧)

* * *

لم أستطع أن أغفل الحس السوداوى، أو المقبرى، أو العدمى، فى هذا الكتاب، على الرغم من كل جهودى لغض النظر عنه.

بعد الإهداء الفاجع نجد على الفور تقريبا قصيدة - أو مقطوعة - اللعنة، إذ إننى أعتبر الكتاب كله قصيدة واحدة - «اللعنة» ليست مجرد صرخة غضب أو ألم، هى تذهب إلى أبعد بكثير، فى تقديرى:

«النار لهب مشبوح على جنون السرير

فى عز وهْم الانتصار

بتنهشه طيوف المصير

والنور طوفان الجوع»

(ص ١٨)

وعلى الرغم من الشبقية المتخللة تضاعيف الشعر هنا - سوف أعود إليها - فإن السوداوية تقف بالمرصاد عند كل حنْية شبق وكل انعطافة نشوة، والقصيدة قوية بل عارمة القوة، أتمنى لو أقرؤها هنا كلها ولكنى سأكتفى ببعض «شظايا الحرف» لعلها تكون تنغيما أو إيقاعا متسقا نقديا على حد صياغات الشاعر:

«وانا اللى مصهور ع الوتد

رغم البشاعة

والشناعة

وياقاوح البطن الفظيعة

ويانولد

ملاك ومسخ»

(ص ١٨)

«والروح جروح شيطان رجيم

والقبر شاهد بالشواهد ع المشاهد كلها»

(ص ٢١)

والقى انتصارى فى الاتحاد قمة فشل

يكبر شعورِى بالافتقاد لحظة توحدنا القُبل» (ص ٢٢)

اللعنة صاحية فى ليل كثيف

واللعنة كامنة ف النهار

اللعنة لعنة فى الصعود والانحدار» ص٢٣

ليست قصيدة أو مقطوعة اللعنة وحدها هى التى تسرى فيها لعنة السوداوية، بل العدمية، بل إن هذا الحس العدمى العبثى يخامر الكتاب كله، دون أن نغفل مع ذلك أنه، وفاءً للحاسة الضدية التى عرفناها عند الشاعر، يظل مقترنا بحس من الانتصار والترنمّ بحب الحياة حتى إن كان ذلك كله مشكوكا فيه.

بين الدفا ف دم الحجر

والأقنعة السود للقمر

والضحك مكياج الضجر

وخيال مآته بينهمر منه العرق

ف المفترق

وانا على الشَفا

لازلت باحلم بالشِفا

من حرق بصرى اللى اتسرق

فى المفترق

(ص صْ ٢٨ و ٢٩)

... بين اللى صادق لو صدق

ح يكون كِدب

واللاّ اللى كدّاب لو كدب ح يكون صدق؟

ف المفترق

(ص ٣١)

أو فلنتأمل معًا ما يكاد يُشفى على شوّه القنوط من الشفا.

«هل من عبث فى اللحظة دى؟ (وفى كل لحظة ما حقيقة!)

هل من عدم؟

هل فيه مرارة ف السؤال؟

هل فيه أمرّ؟

الشط من قدامكو بان

(أى شط.. ليس هناك من مرسى ولا بر!)

والبحر خان

والباب فتح على ألف بر

.. مفيش مفر» (ص ٥٦)

أما الحس المقبرى الذى أعرف أنه سوف يزدهر بشراسة فى إحدى قصائد الشاعر الأخيرة «حاشية شرح الحشرية»، المنشورة فى عدد مارس من «الثقافة الجديدة»، فإننا نجده - مع ذلك - بقوة فى لمحات مثل «طارح النوار ديدان

ف الجهات الأربعة»

(ص ٩٤)

أو «نشخ العفن بطن السؤال»

(ص ٨٨)

أو «ياناافخ البوق فى العفن لمّ الفيران من شق لشق

وانسج خيوط هذا الكفن لو تندفن انطقها: لأ»

(ص ١٤٧)

أو «حس الهزيمة والانتصار

بترسّخه طقوس العفن

والضحكة خوف

أخرس على قبر الحروف»

(ص ١٠٢)

ولعل هذا الحس العدمى أو العبثى يبلغ مداه فى قول الشاعر:

عين الوجود فيها موت وبلاهة»

(ص ١٢٢)

فهو هنا لا يكتفى بأن يقرن الوجود - أو صلبه وعينه وجوهره - بالموت، كما كان لنا أن نتوقع، بل يذهب إلى أبعد من هذا فى تقديرى، إذ يقرن عين الوجود - أو ذاته - باللامعنى، بالبلاهة، أى بما هو - فى ظنى - أفدح ثقلا من الموت.

السمة الرابعة عندى فى هذا الكتاب هى ما يمكن أن أطلق عليه الحاسة الشبقية.. ولعلها على العكس مما كانت فى أعمال سابقة لماجد يوسف، شبقية منكودة، أو منكورة، أو مكتومة ترزح تحت وطأة ما يشبه اليأس والحبوط.

«حد الأفق على قوس ونهد

وشم الجراد على كل فخذ»

(ص٧٧)

جسمى الوحيد

بيلف بدراعه العنيد

على خطوطى الأنثوية اللينة

والأنثى فى حالة فزع من نفسها

تبعد نهودها عن ايديا الأخطبوط

تهرب فى جسمى الملتحم

الشبقية هنا تلتحم بالموت، أو الانكسار، ذلك فى تصور قائم ومعروف يكاد يكون اقترانا ضروريا، ضدية الحب - أو الشبق - والموت؛ تكاد تكون من مقومات الحب أو الشبق، نرى ذلك فى كل الأساطير وفى كل ملاحم أو فواجع الحب التراجيدى، حتى ليكاد يكون صفاء البهجة الخالصة من كل شائبة فى الحب - وفى الشبق - صفاءً مخاتلا وزائفًا، ويكاد يكون كل وجود فنى شعرى أو غيره يقتصر على هذا الصفاء المخايل، وجودا يعطيه الزيف أو السطحية.

فى قصيدة - أو مقطوعة - عين الوجود:

يلين الحرف يتأوه على النهدين

ويتأور على دلتا الفخاد السمر

....

وصوتِك دا اللى كان غنا ح يلم الأرض فى السُرة

يكورها ثمار فجة المذاق.. مرّة (ص ١١٥)

وصحيح أن فى هذه القصيدة شيئا من الشبق بالوطن - الأرض، وإحلالا لجغرافيا الوادى الخصيب محل جغرافيا الجسد الوثير، وصحيح أن فيها أيضا ومضًا لصوفية مضمرة فى مثل قوله:

«وفجر الطين

بيتوضح عن البذرة

ويتفضح عن الكلمة

وعن حكمة بدن عاشق لروح معشوق

(ص ١١٤)

ولكن الشبق - مع ذلك كله - يحيق به الفن، فيموت..

تأويلات على متن «فهارس البياض»

وليل جنى.. وجنيات

ملاذى فحيح حيات

وخد منى الثقة بالذات

دخل خنى وليد فيه وبات

وفى التنى اتقلب إلهات

بنار فنى صهرته فمات

(ص ١٢٠)

سوف أشير إلى إيقاعية الشعر الخاصة؛ إلى هذه النغمة المرقصة، فيما بعد، ولكن السؤال هنا ـ سؤال النقد أو سؤال التلقى، الذى لا أعرف له إجابة يقينية: هل تتسق هذه النغمة بكل هزجها وتوقيعها المرنّم المتواتر، مع حرارة السؤال الفلسفى، أم أنها ـ بالضبط ـ ترقّق من وقعه القاسى وتتسرب بموسيقاه بعيدا عن لدد الحيرة أو لجج الحسرة والحبوط؟

ومع ذلك كله، فإن القصيدة الأخيرة فى الكتاب ـ كأنما هى فانفار الختام فى الموسيقى الأوبرالية أو السيمفونية ـ ليست صاخبة وإنما ممتلئة الصدر وحافلة بالفرح، تُطلق الجماح للشبق لكى يتحرر ويعلو ويصدح، هى ترنيمة للوطن تهزم السوداوية ـ أخيرا ـ وتنحّى عنها العدمية التى كانت قد أوشكت أن تثقل هذا الشعر بوطأتها الرازحة، الشبق بأرض الوطن هنا غير مكبّل بل طليق.

بجدايل قمح بتتغندر

وخصايل نخل بتتباهى

خضرا الأهداب

بخدود عنّاب

وسيقان عبله

الوش شباب

والصدّر رباب

والبطن يا ليل مشدودة يا عين زىّ الطبلة

حلمات نافرة مسلات فى البر

قلوع نيلى نوافير فايره

أنفين عليها حارس بحورس وايزيس

من السيل والكوارث ومن شر الخبيث

لحد النيل ما يوصل ويفيض ع الجناب

والأرض السودا تحبل بالخصب وبالشباب (ص ص ١٧٤ و١٧٥)

الأهرامات هى درّة عقد هذا الكتاب، فهى قصيدة محورية تجمع خصائص شعر ماجد يوسف فى نوع من السفسطائية So-phistication بالمعنى الإغريقى الأصيل أى بنوع من الحذق والبراعة والتقصى الدقيق المرهف، فهى قصيدة تشتمل على دراما تاريخ الوطن كما تومئ إلى واقعه الراهن (ص ص ٨٣ و٨٤)، وهى تفيد من المرجع الموسيقى الكلاسيكى والشرقى على السواء، كما تفيد من المرجع الأسطورى (ص ٩٣، ٩٤)، تتجسد فيها سمات شعر هذا الكتاب، كما أسلفت فى محاولة لاستبسارها، وهى على وجه التحديد: (١) انصهار الأضداد؛ أى الحاسة الضدية (ص ٦٤)، (ص٩٦)، (٢) السؤال فى قلب الحيرة أو فى تقاطع المفترق (ص ٩٦)، (٣) الحس السوداوى (ص ٩٢)، (٤) الشبقية المتفجرة الموءودة معاً (ص ٧٧)، (٥) وأضيف إليها الآن: نظر الشعر إلى ذاته، أو تأمل النص فى مرآته.

والشعر لو ملك السما

مهما ان علا

ومهما انْ سما

لازم له فى الأرض المقر

(ص ٥٩)

ومع ذلك:

الشعر جوهر مختلف

عكس البحور

عكس السماء

لام اللغة

من شين لشين الشعر شَعّ، (ص ٧٥)

(الإصاتة أو الحروفية ليست لعبة، بل هى موسيقى المستحيل)

سن القلم

قال ـ لما قال ـ من بحرهم

أوزن خطايا السحر من رقص الفزع

كتب الخلود السرمدى لمعنى الوجع

ومسك وجوده المبتدع،

(ص ٦٨)

وفجأة بالشعر صار شعبى

وصار ملك البشر جدا

(ص ١٢٣)

إن شعر ماجد يوسف شعر ـ بصياغته هو ـ شعر حق، بالبلدى، ولكنه إذ هو شعر حر فإنه كله أوزان وميلودى (ص ١٢٤)

«هل حلم صعب لو أطعن التنين بخنجر كلمتى؟»

(ص ١٤٨)

نعم يا شاعرنا، حلم صعب ولكنه ليس عصيّاً على التحقيق، بل هو، لأنه صعب، من الضرورة القصوى بمكان أن يسعى الفنان ما وسعه الجهد والإلهام إلى أن يحققه، أن يقتل التنين، أو على الأقل يطعنه:

وأمرمغه فى بركة من دم الحروف... (ص ١٤٩)

فلنصغ إلى سؤال الفن - بصياغة الفن العادلة - فى ختام القصيدة الرائعة «سكة اللى يروح ما يرجعش» «ياما انتهكت الشجرة وقطفت الحروف والا البراءة وهم مات بالمعرفة؟

(سؤال أساسى فى صياغة مجحفة»

مما يفضى بنا إلى محاولة تلمّس الصياغة الشعرية، وهل ثم إمكان للنظر فى الصياغة دون النظر فى فحواها؟ (مسألة لانكاد ننتهى أبدا من أمرها) مستحيل طبعا، ولكن صنعة النظر فى العمل الفنى، صنعة النقد، تحكم...

ماجد يوسف - كما أشرت - مولعٌ، مثل كثير منا، بموسيقى المستحيل، أى بتلك التقنية الحروفية أو الإصاتية التى ما أخطرها وما أعظم إغواءها فى آن، الجناس الكامل أو الناقص والتقفية والإيقاعية المرقّصة كلها مما يفيض به الكتاب - من أمثلتها:

فى المفترق

....

بين التحدى للأفق

وألا التردى فى النغم.

(ص ٣٠)

أو يا عِزوة الحرف البليد

دا صوت نشيج والا نشيد؟

(ص ٣٧)

فى قصيدة «الزار» (يا لدلالة العنوان!) لعب - بمعنى عزف - على مقامات حروف الجيم والحاء والنون والخاء والسين والعين والفاء والباء والكاف والهاء والطاء والزاى، على التوالى.. أكتفى بأن أقصر المتعة على حرفين أو أربعة منها:

يا جنة من جوهر جنان الجن

الحور حوامل فى حياض حرّفين

والنهر نور نوّر نيران الدّنّ

والخمر متخمر فـ خور خدين..

(ص ٤٣)

وبطبيعة الحال فإن لزوم ما لا يلزم - هنا - أو محاولة الإيجاد الفنى بمجرد الجرس الموسيقى، من شأنه أيضا أن يشقق دلالات خصيبة وشطحات للفحوى قد لا يحتملها النص السائر مستقيما على سننه (إذا صح أصلا أن ثَمّ شيئا من هذا القبيل!).

هذا إلى أن التوزيع الطباعى لنص الشاعر، فى هذا الكتاب وفى غيره من كتبه، لا ينبغى أن يغفل، فهو أقرب إلى تشكيل كونكريتىّ، الكلمات والنقرات والأبيات لها إيقاعية بصرية، ليس فقط إيقاعية سمعية ونغمية، ثم اقتراح من الشاعر على قارئه - لأنه هنا قارئ باصر وليس سامعا - بأن تتوقف عينه هنا، أو أن تستطرد هناك، وفى هذه الأحوال فإن البصر والسمع يقترنان، (أليس هذا من سمات هذا الشاعر؟) كما تقترن العامية دون تورّع أو تهيّب بالمفردات الفصحى - بل العريقة فى الفصحى، ومرة أخرى يفيض الكتاب بهذا التزاوج لا أقول بين الأضداد، بل لعله تزاوج بين الأنداد، أو بين الأصهار، فليست لغة أهل مصر وبين لغة العرب العاربة ضدين، بل هما قرينان، وإن كان لهذا مبحث طويل.

«مليون دراع اتمددوا فى خصب اللغة» ص ٦٦

وبين النظر إلى ذات النص بشىء من السخرية أو المداعبة:

أمسك قلمى الهمام

يرتب فى الكلام

ويسنّ فى الحروف»

(ص ١١٠)

وبين أن يجد الشاعر ملاذه فى النص:

(فى) الحرف الواحة»

(ص ١٣٠)

ثم عشق للغة فى تجلياتها المتنوعة - أى فى مستوياتها ونغماتها المتراوحة:

انظر إلى مفردات مثل اجتياح، ضرام، قحة، فى الخضم وغيرها كثير، فى مثل:

«والوردة نحلت من ضرام الوجد»

(ص ٣٩)

أو «وانا فى اجتياح شفق المغيب»

(ص ٣٦)

«بين الإيمان والزيغ»

(ص ٣٥)

«واللام لغة.. ولدد الخصام»

(ص ٧٠)

«حورية حوراء الطرف»

(ص ٧١)

«بيشد من حيل الوجل»

(ص ٧٠)

«والرقة فى قلب القحة!»

(ص ٢٩)

وهكذا مما يكاد يعيى الإحصاء، فى الوقت نفسه الذى يقول فيه مفردات مبتدعة أو عريقة المحتد فى لغة أهل مصر مثل:

حتى الغيوم الجوانية كسكست»

(ص ٨٢)

أو من مثل «رق الدفوف بيشكّله.. وينكّله من حال لحال»

(ص ٩١).

تأويلات على متن «فهارس البياض»

«هل كان تراب

إيقاع لغة»

(ص ٦٤)

لا، بل هو تبرٌ صراح».

آخر ما أشير إليه من تقنيات الصياغة غير المجحفة عند ماجد يوسف، تقنية تفضى بنا مباشرة إلى الهم الفلسفى العميق الموغل فى روح هذا الشاعر، أعنى بها تقنية القطع والاستدراك والعودة إلى الأول، فى قصيدة الأقنوم فى مثل:

لأ والغريب..

إن العلامات كلها..

... ...

أبدا...

من الأول هناك

من أول الأقنوم فى ليله من بياض التجربة»

(ص ١٠)

هذه تقنية تتردد باستمرار فى هذه القصيدة بالذات - ومثل كل التقنيات لا فصل ممكنا بينها وبين فحواها أو مضمونها، بل أكثر من ذلك، إنها هى فحواها الفلسفى.

ذلك أن قطع الصورة - أو الفكرة - والعودة إلى الأول.. إلى «أول الأقنوم» فى بياض الوجود، لا يمكن إلا أن يذكّرنا بما يجىء ذكره بعد ذلك أكثر من مرة، أى إلى تصور الكهف الأفلاطونى الذى نرى فيه ظلالا هى موجودات هذا العالم منعكسة عن المُثُل الأفلاطونية العليا القائمة - فى الأول - فى الأصل - وليس العالم الأرضى إلا انعكاسا لها، هى ظلال ظواهر عرضية، أما الحقائق التى على الفنان - وعلى الفيلسوف أساسا - أن يسعى إليها فهى ماثلة فى الأول.. هناك..» تتفتح عليها البيبان أمام لجج الأسئلة فى بحور طامية

وانا اللى مشدود ع الحبال

وهم اليقين اللى اتحرق

فى كهف من صنع الخيال

لعبة خيال الفيل على حيط من ظلال

كل البُنا العالى المهيب - على هيلتى.. (ص ١٤٤)

«أنا والظلال والحلم والكهف المخيف»

(ص ١٤٦)

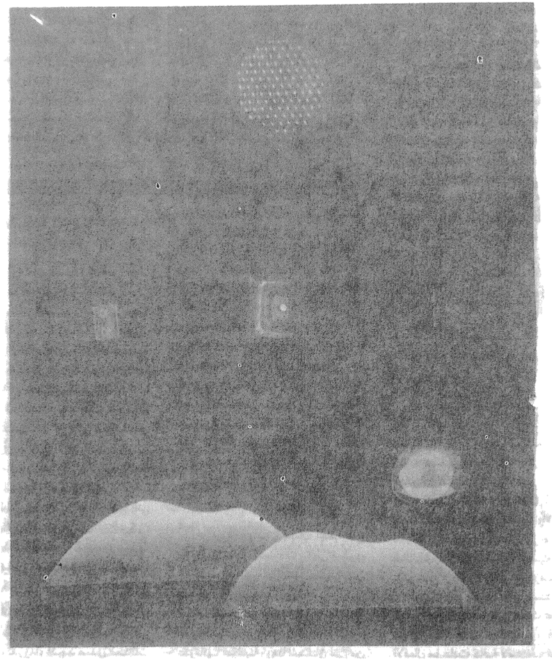
ليس هذا الكهف - فى تقديرى - إلا الكهف الأفلاطونى الذى هو عالمنا هنا، وليس هناك، فى حاضرنا الراهن وليس فى الأول...

ولكن الشاعر ليس هو، بالضبط، الفيلسوف، إنه لا يضع وليس من شأنه أن يضع نسقاً فلسفياً محكمًا متساوق التركيب، ولكنه باعتباره فناناً إنما يسأل، وتتراوح أسئلة بين الأنساق والقضايا والتأملات الفلسفية.

ولذلك فإن هذا الشعر يتراوح بين التصور الأفلاطونى المثالى، وبين اتحاد الأضداد الذى يذكّرنا على نحو من الأنحاء بالحلولية، واتحاد المادى بالروحى، واندماج المفارق بالإنسانى، وبين هذا وذاك من ناحية وبين تلك السوداوية أو العدمية أو روح التشاؤم ورفض الحياة، كما نجده فى معظم شعر المعرى من ناحية أخرى، ولكن الشعر فى «فهارس البياض» يفتقد الاستماتة والسرف فى البهجة بالحياة والعبِّ من نشواتها - كما نجده فى معظم شعر الخيام، وإن كانت ميزة «فهارس البياض» وفضلها أنها تغامر حتى التورط فى الرمى بالنفس إلى عباب السؤال الفلسفى - مهما كان إيقاعها مرقصًا أو مركبًا - وذلك أيضا على خلاف مع رباعيات صلاح جاهين السلف العظيم الذى وقف فى آخر التحليل على شط السؤال دون أن يغوص حقًا فى لجج المتلاطمة، ولعل صيغة الرباعيات نفسها عن صلاح جاهين كانت قيدا وشرطاً يحد انغماره فى اليمّ الطامى.

ليس المناط هنا تأكيد المنحى الفلسفى فى «فهارس البياض» فهذا مما لا يحتاج إلى تأكيد، وإنما المناط فى تقديرى هو استكناه ملامح هذا المنحى، وتقصى تياراته التى قد تكون متضاربة، تلك ميزة الشعر خلافًا للفلسفة، والبحث عن جذور كامنة فيها ترهف وتضىء مقدرتنا على تلقّيه.

الشعر فى «فهارس البياض»، وفى أعمال ماجد يوسف بعامة، قد بلغ - بلغة أهل مصر - ذروةً فكرية وموسيقية معًا غير مسبوقة ترسخ لهذا الشعر مكانة لا نكران لها، بل نحن ندين لها بالعرفان وبالامتنان، فى أندر النشوة الحقة بالشعر الحق. ■



فى الرؤية الجبلية

ياسين النصير

- ١ -

قا أين تضع قصيدة الشاعر سيف الرحبى في خارطة الشعر العربى الحديث؟ هل هى قصيدة تنتمى إلى حداثة الستينيات حيث المزاوجة بين الموروث والمعاصرة إحدى أهم سماتها التحديثية المرتبطة بمشكلات اللغة الشعرية واللغة الاجتماعية - السياسية.. أم هى، قصيدة لما بعد تلك المرحلة، حيث بدأت الأصابع الشعرية تبحث عن أفق آخر للحداثة ينأى بالشعرى خارج الأيديولوجى، ويوطن الصورة أفعال قول تركيبى تنفرط من بنيته تأثيرات الحكاية والحدث المعلوم، أو هى قصيدة «البلدان المحيط» تلك القصيدة التى أشيعت بألوان الشعر في البلدان «المركز»، فتميزت بطاقتها التعبيرية الجديدة، محاذية لها، ومتجاورة معها، مع نهوض لقضايا وبلى محلية ..

وفى قناعتنا، أن قصيدة سيف الرحبى، هذا كله، دون أن تكون متميزة فى بقعة منه، تقرؤها، فتجد صدى الحداثات الثلاث، وتقرؤها وتجد ثمة انفرادات، وتقرؤها، وتقول إن البلدان المحيط شعراؤها المتميزون. ومنذ قيام الدولة العربية - الإسلامية، كانت حواضر الشام والعراق ومصر، هى المركز، وبقيت الدول المحيطة، دولا محيطة، تمد بنسغها المركز، وتستشرف منه تطلعاته الجديدة، وإلى اليوم لايزال هذا العمق موجوداً، وقراءة أولى، نجد أن الشعر العربي الحديث يتغذى بما يفرزه المحيط، ويغتنى، تجارب، وكشوفات، وابتكارات: نذكر ما أعطته قصيدة: الفيتورى، وقاسم حداد، ومحمد بنيس، وسيف الرحبي، لشعرية دول المركز وحداثاتها.

- ٢ -

فى ديوانه الجديد «جبال» نجد المناخ الشعرى المتداخل الفضاءات.. فعلى مستوى الفضاء الداخلى، توزّعت قصائده بين القصار، والمقطّعات، والطوال، وهذه البنية المكانية تفصح عن تركيبة شعرية متداخلة الأساليب، لكن ما يجمع معظم القصائد، هو عنواناتها المكانية، وهذا اشتقاق فلى من المكان البؤرة - جبال - لعل اقتران «جبال» بالنكرة، يفصح عن توسيع دلالة الاسم، فيشمل أيضاً، عنوانات ليس أماكن.

والمكان، أحد أهم سمات الحداثة الثالثة، بعدما كان الزمان - بكل اشتقاقاته - هو السمة الغالبة على قصيدة الحداثة الثانية - الستينيات - ولأن الأماكن تحمل التواريخ، شواهد وأفعالا، فإنها مكّنت نفسها من التوالد المستمر، حينما حاول الشاعر أن يعيد تركيبها الذهنى من خلال أفعالها..

كانت الأرض الضيقة

وكان نحيبُ الراحلين

فهشمت أعضائى بين مدنٍ شتّى.

ولم تقف عنوانات قصائده المكانية عند ظاهرة التوليد الحدثى لها، أى يصبح المكان هو الفاعل من خلال محمولاته التاريخية والحدثية، وإنما حاول الشاعر أن يتمثل بالمكان، واستعان بالتشبيه كى يوسع الدلالة، ولأنه - أى الشاعر - حمّال ضمائر، لم تسعه المدن ولا الأسماء، ولم يقف عند دلالتها المعلنة الهوية، بل تجاوز ذلك إلى إلغاء الأزمنة المتراكمة على هذه الأمكنة، كى يصل بقصيدته إلى وحدة قارّة، مفادها أن كل ما مر من تواريخ لم يغيّر من قسوة الأفعال المكانية ومن هويتها.

.... لم نعد نشبه هذا البحر

ولا هذه الأرض

يبدو أن قروناً مرت بزواحفها

ونحن نيام.

تبدو قصيدة الحداثة الحديثة - قصيدة المكان - أنها قادرة على احتواء كل الأزمنة: الذاتية والجماعية، فهى مركّبة حتى ولو كانت مقطعية، ودرامية حتى لو كانت غنائية، وهذه الميزة البنائية لها، أعطتها طاقة الاحتواء الاستعارى للأشياء وللناس معًا؛ فهو إذْ يستعير الطير، أو الغيم، أو الغياب، يشد هذه الاستعارة إلى ميادينها المكانية، فلا غربة إلا للروح حينما يحلق طائر على لا مكان، ولا جرح ينزف حينما لا يكون له راءٍ، ولا غضب يجسد عندما لايكون من لا يشعر به.. ليست عدمية مكانية هذا الذى ينشده الشاعر، دائمًا لأن الأفعال ما عادت كافية لاستيعاب المأساة..

كنا فى قصيدة الستينيات، عندما يقول الشاعر.. أغضب وأثور، وأتمرد، .. ويشدها إلى أفعال وأسماء مثل: الثورة، التحرر، النضال.. الأيديولوجية... نمتلئ زهواً بالأفعال، ونحاول اقتناص التجربة وتمثلها كما لو كانت نهاية .. لكننا اليوم، وبعد الذى مرّ على بلداننا المأساوية، لم تعد قصيدة الأفعال ثورية، وهذا ما مهّد لقصيدة المكان، بما يختزنه من إرث وميثولوجية، أفعال متراكمة؛ لأن يستوطنها الشاعر حداثته الجديدة. لعل قصيدة «هذيان الجبال والسحرة»، واحدة من القصائد المركبة - الغنائية، التى تعين نقدياً قيمة أن يكون المكان لغة لفنية حديثة.

- ٣ -

يفصح عنوان القصيدة عن دلالتها: هذيان الجبال والسحرة؛ فلكل مفردة منه دلالة: الهذيان: تعنى اللغة المبهمة، المتداخلة الأزمنة، والمعبّرة عن كل الأبجديات، والحاملة لكل الذى مضى والذى سيأتى، لذلك لا تبدو لغتها مفهومة، إلا متى ما حددت بزمن.. وقد أسبغ المعنى الدلالى للهذيان على الشكل الفنى صياغة مقطعية، بلغت مقاطع القصيدة ثلاثة عشر مقطعاً. اتخذ كل مقطع حالا معينة؛ فكان التوزيع بمثابة لا نهائية الهذيان حيث الرقم (١٣) الفردى يوحى بالوحدة وبالتكرار للواحد معاً.

أما الجبال: فهى المكان - الحرية، المواجه للثقب، فإذا كانت الجبال مكاناً، فالبحر زمناً. وقدلا تكون الجبال مقصورة إلا للثقل الحضورى فى المكان، حيث علّم الإنسان عليها أولى لغاته وضمّتها زمنه النفس، فكانت موطناً، وعلامة.. وهذا يعنى إبهامها هى الأخرى وعدم وضوحها.

أما السَّحَرة: فهم أولئك الشعراء الذين يتنبئون بما سوف يحدث، ويموتون بما تنبئوا. هؤلاء البشر المبهمون أيضاً، جاءوا بلغاتهم لفك طلاسم الجبال - المكان - من خلال هذيانات لا حدود لها، فإذا بها استنطاق للتاريخ وللأحداث، لما مر ولما سوف يمر، ومن هذه الإعادة المركبة يفرش الشاعر لنا خلق وتكوين التاريخ.. وهذا ما يدخلنا رأساً إلى استهلال القصيدة، الذى حمل الإبهام وسار به إلى كل مفاصل ومقاطع القصيدة.

لقد ذهبوا بعيداً صوب أنفسهم.

وذهبوا فى الوحشة.

يقرن الشاعر بين النفس والجبال من خلال «الوحشة»، فى حين يتحول فعل «ذهبوا» إلى الزمن - التاريخ، والزمن المعيش. وقد يكون فعل «ذهبوا» بكل الاتجاهات، بحثاً عن يقين ما، إنها الوحشة التى يفرضها الباحث عن .... وهذا إبهام آخر، يستهل الشاعر به قصيدته، ثم يولده ليستهل به كل مقطع من مقاطعها.. وهذه إحدى ميزات القصيدة المركّبة عندما تصنع من التراكم بنيتها، وكأنها فى إعادة دلالة الاستهلال فى كل مقطع من مقاطعها تبنى ذاتها.. وهذه أيضاً إحدى يثمم المبهمات فى الحداثة، حينما يلجأ الشاعر إلى تكرار الاستهلال، وكأنما المبتدأ واحد، فى حين أن الخبر متعدد. ولم نلمح فى بناء القصيدة خيطاً حكائيًا، حكائيًا، وإنما وجدنا فيها مبنى حكائيًا ينظم كل مقطّعاتها المختلفة. هنا لامجال لاستمرارية نفس شعرى واحد، فالتباعد بين الأزمنة، على لسان السحرة - الشعراء - لا يولد خيطاً حكائيًا، وإنما التباين سمة من سمات التركيب. نحن - القراء - والقصيدة - الشاعر - فى بوتقة البحث عن الاستعادة لما مضى. من خلال وحشة النفس فى صحراء الجبال، برغم أضواء الزمن، واللافتات: لافتات المدن والطرق، والهويات، والجنس، والدين والأيديولوچيا .. فلم يعد ما نملكه بعد هذه المحن: إلاّ البحث عن... وكما عدد مقطّعات القصيدة مفرداً «١٣»، فإن المقطّعات الطويلة مفردة أيضًا: ١، ٣، ٩، ١١. والطول فى المقطع، له معنى دلالى آخر، لا يعنى اكتفاء الشاعرية أو عدم اكتفائها، بقدر ما يعنى الصراع بين الأداة الفنية والمعنى.

فى المقطع الأول، كانت اللغة إحالية وكلية، إنه المقطع المفتتح حيث الأرض أرض الأنبياء والأزمنة الغابرة، وثمة ديمومة زمنية [أيام تتلوها أيام]. وثمة ليل تبرق فيه نصال السيوف وهى تقطع بحروبها الفيافى، وكأن قدراً ما، قد حل بهذه الأرض البكر. وثمة قيامة للروح وللبشر، العودة إلى الأرحام أو الخروج من الكهوف. هكذا يغدق الغيم على بنيه.

فى المقطع الثانى، يفرز الشاعر من بين هذه الفيافى صخرة، ومدينة، وثمة من يستمع إلى لغاتها البكر، هنا يبتدئ الشاعر بتلمس الطريق إلى الذات، وكأنه قد خلق من العدم، ذلك التوق إلى الوجود بعد غيم وضباب وعواصف وأرض.. هنا يعيد الشاعر أسطورة الخلق البابلية القديمة، وكأن نهوضه على صخرة فى بقاع المدينة، نجاة له من العدم أو خلق أسطورى.

فى المقطع الثالث، ثمة نداء من مجاهل الأحباش يوقظ الموتى، ويدعوهم إلى الرحيل عن هذه الأرض، وثمة من يحدق فى التعويذة، تلك التى منحت للأرض من الخراب، مازال الشاعر يتلمس خيوط حكايته، إنه يبنى قصيدة بطريقة «برشتية»، تراصف وتجاور، وثمة من يخلق أو يشاهد المحاورة. ومن داخل الطفولة الجبلية ينبض إحساس الشاعر بالجبل.. فينهض الجبل، نتوءاً فى الأرض، وشاهداً بصرياً، ولغة مكانية دالة على الصلابة والخضرة، جبل بلغة النار، وثمة من لا يرى قد حط كطائر فوق الرؤية..

فى المقطع الرابع، تفرش البيداء عباءتها، وثمة بطاقة سفر دائمة للرحيل، وثمة طرق متقاطعة، الكل يبحث عن المدينة المفقودة، تلك التى تؤدى إليها الرحلة أو لاتؤدى. أما المسافر، صوب اليمن، فلا يمتلك متاعاً إلاّ الكلمات، إنها المفتاح الذى يدخل به تكوينات الروح. ومرة أخرى ينهض الجبل معادلا موضوعيًا للسهل.. وثمة حوار بين الارتفاع والمدى.

فى المقطع الخامس تبدأ المدينة بممارسة حضورها، ثمة حانة، وسكارى، ولغة مبهمة أخرى، وثمة من يضحك أو يتذكر، إنهم فِى حانة الزمن الفعل، وفى لعبة يومية تمارس فيها كل الألوان، وثمة أقوام تتداخل سحناتهم كما لو كانوا لغة مبهمة .. لكنهم فى مسار حقيقى لفاعلية التجاور.

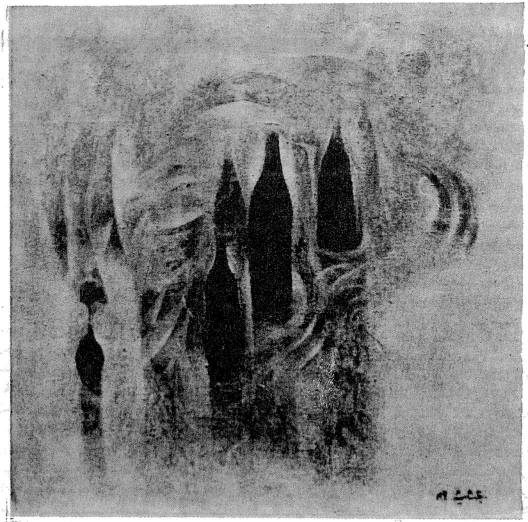
فى المقطع السادس، تستحضر الأزمنة: أهل الكهف والناس العاديين.. والسوق هو الساحة، وثمة معرفة مجهولة تقود الجميع إلى الاكتشاف. وفى ضجيج الحاضر، بآلاته وأسمنته، وبناياته وكونكريته وتلفزته يتجول أهل الكهف فى مدينة القرن العشرين، وثمة غرابة ومفارقة، وبأسلوب الشعر المدوّر، يقودنا الشاعر إلى فاعلية التداخل بين التواريخ.

فى المقطع السابع، يعاود الكرّة فى الشكل المدوّر أيضاً، بعد أن اتسعت الحكاية، وأصبح لها مدى متداخل، فالأرض كون، تتدرج فيه الأشياء وتتحد، كل شيء قابل لأن يولد، أو يموت، وليس من طرق تؤدى إلى نهاية، وفى لعبة فنية، يحاول الشاعر أن يمزج الصور المفترقة: الأرض مع السماء، البشر مع الحيوان، الجبال مع السهول.. الأحلام مع اليقظة، الأرض مع أطباق الفضاء، إنه فى عصر الآلة، والوجوه الذابلة، والأيام الخوالى ـ كما يقول.

فى المقطع الثامن، يخلق الشاعر محاوراته مع المجاورين، إنه هنا بدأ يؤسس حلمه على الأرض، ويشيد كيانه و «لن نحاور ملوك السفح، ولن نقتفى أثر الرعاة الذين لاتزال ظلالهم ماثلة فى السقف. كأنما نزلوا اللحظة غاسلين أيديهم فى مياه الفجر، ميممين شطر القرى المجاورة .....».

فى أبعاد المشهد يلوح كهف أفلاطون، ومثاله الأزلى، وظلالنا التى بقيت مرسومة منذ قرون فوق تراب الجزيرة، وأعمدة الكرنك، وآثار بابل وبعلبك .. وفى العمق من هذه الميثولوجية يتداخل زمنا: الأطباق الطائرة، والجمال فى صحراء الروح والجسد والذاكرة، ولن تكون مقاطع القصيدة الأخرى، إلا نمواً لسلسلة الوعى بالأشياء وبالزمن؛ فالشاعر يعمق فينا الإحساس بالمواطنة من خلال تجذير الصورة، وتفجير نواها المعرفية والتاريخية..

ديوان: «جبال» «لسيف الرحبى» خطوة فى ترسيخ معالم شعرية الحداثة الثالثة، التى بدأت تغادر المركز لتستقر فى البلدان الحواف، بعدما أصبحت هذه البلدان فى موقع الاحتواء الثقافى، وبعدما تخلفت بلدان المركز «العراق ـ لبنان ـ سوريا ـ مصر» بسبب الأحداث الداخلية والدولية، وضغط إسرائيل.. نحن الآن فى مطلع جديد لحداثة، بدأت ترسل علاماتها بوضوح، وبأسلوب يمزج بين موروث الحداثتين والمستقبل.. لا تنمو الحداثة إلا فى المنطقة التى جرى عليها التدمير سابقاً. ■



تحولات الفيتورى

كمال نشأت

قا مازلت أذكر ذلك اليوم البعيد فى أواخر الأربعينيات حينما كنت طالبا بكلية آداب الإسكندرية، وكان لى زميل يمتلك أبوه مكتبة.. كنا جالسين حينما رأينا صبيا لايتجاوز عمره الخامسة عشرة، يلبس جلبابا أبيض نظيفا، وطاقية مثله، كان أسمر الوجه أقرب إلى النحافة.. قال فى تؤدة تحمل روح كبرياء طفولى: عندكم ديوان **أبو القاسم الشابى**؟

نظرت متعجبا لهذا الصبى الذى يسأل عن ديوان شعر وقلت له: ليس **للشابى** ديوان؛ فشعره مفرّق فى المجلات خاصة مجلة أبولو.. وما إن سمع كلامى حتى استدار ومشى دون أن ينبس بكلمة.. ويتاح لى بعد تخرجى أن أعمل بالتدريس وأن أكون بالإسكندرية فى عطلة صيف عام ١٩٥٠ أو عام ١٩٥١ فلست أذكر بالضبط وأذهب لأزور جيراننا وكان ابنهم **عماد** الذى كانت له ميول فنية - جالسا معنا.. أخبرنى أن زميلا له شاعراً بمعهد إسكندرية الدينى يود أن يرانى، وكان هذا الزميل **محمد الفيتورى** الصبى الصغير الذى سأل عن ديوان **الشابى** منذ سنوات. وجاء **الفيتورى** إلى القاهرة بعد ذلك واتصل بى فعرفته **بفوزى العنتيل**، فكنا ثالوثا لايفترق، نسهر معا، ونشارك فى الندوات الشعرية خاصةً ندوة الشاعر **خالد الجرنوسى**، وكانت هذه الندوة أول المنابر التى أتيح لنا أن نقرأ فيها أشعارنا، وابتدأنا منذ ذلك الحين ننشر فى مجلات بيروت وكانت هناك (الأديب) ثم صدرت (الآداب)، وكانت مصر قد خلت من مجلة أدبية حتى أصدر **يوسف السباعى** (الرسالة الجديدة)، وكنا إذا نشرنا شيئا نضع تحت اسم كل واحد منا جملة (من رابطة النهر الخالد). كان بعض أصدقائنا من الشعراء العرب يظنون أن الرابطة لها مكان وأعضاء خاصة شعراء العراق، وكانت الدواوين الهدايا تتعاقب وصولا إلى عنوانى فكنا نقرؤها كما نقرأ غيرها ونتناقش، نتفق ونختلف، ونكتب إلى أصدقائنا أن الرابطة ليس لها مكان إلا مقهى (إيزافتش) وأحيانا مقهى (على بابا) والاثنان يقعان فى ميدان الإسماعيلية، التحرير الآن. وكان **الفيتورى** يحب أن يكمل تعليمه، فاختار دار العلوم، وانتظم فى الدراسة ولكنه لم يكملها بعد سنتين، فقد آثر أن يعمل بالصحافة حين اختاره الشاعر **كامل الشناوى** للعمل معه بجريدة الجمهورية، وكان اسمه قد ابتدأ فى اللمعان، ثم يضرب الزمن بيده فنفترق، يذهب **الفيتورى** إلى السودان بعد أن أُخرج من الجمهورية فى عهد **عبد الناصر** هو وعشرات من المحررين منهم **طه حسين** و**عبد الرحمن الشرقاوى** و**عبد الرحمن الخميسى** وغيرهم، وأسافر أنا بعد ذلك بسنوات إلى العراق لأعمل بقسم اللغة العربية بكلية آداب الجامعة المستنصرية ببغداد، ويسافر **فوزى العنتيل** إلى أيرلندا يدرس الأدب الشعبى، ويرجع بعد سنتين ليعمل فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، ويظل فيه حتى يتوفاه الله، أما أنا و**الفيتورى** فنظل خارج مصر لمدة طويلة.

كان **الفيتورى** شاعراً أصيلا، متمكنا، ساعدته طاقته الشعرية التى تؤرثها حساسية شديدة التأثر، أخذته فى أوائل الخمسينيات إلى ندوة **نجيب محفوظ** فى ميدان الأوبرا (الكازينو)، فجلس صامتا لايتكلم، والجميع يتحادثون أو يتناقشون أو يضحكون، و**الفيتورى** صامت فى مكانه لا يبدو عليه أنه مستريح إلى هذه الجلسة. وبمرور الوقت، وتوالى النشر ابتدأ اسمه يلمع شاعراً احتضن قضية الأفارقة الزنوج؛ فكان ديوانه الأول (أغانى أفريقيا) الذى صب فيه مشاعره المتوفرة بقسوة الإحساس بعقدة اللون، و**الفيتورى** خفيف السمرة، عربى الملامح، فأبوه سودانى من أصل ليبى، ولكنه كان يبالغ فى الحديث عن قبح شكله إلى حد أنه كتب قصيدة نشرها فى مجلة (الأديب) البيروتية فى هذا المعنى، ولما كان اللون يربطه بالأفارقة وإن لم يكن زنجيًا مثلهم، فقد نصّب من نفسه شاعرا مدافعا عن قضيتهم، وكان شعره صادقا، ملتهب النبرة، محبوك الصياغة، والشعر الذى يتناول هذه القضايا العامة الملتهبة يجد صداه السريع فى نفوس الناس خاصة أن الحديث عن الزنوج كان حديثا عن الظلم ووجوب مقاومته، والحرية المفتقدة، والكرامة المسلوبة وهى قضايا مهمة مسّت وتراً فى مصر وكل الأقطار العربية، فقد كانت هى نفس قضايا هذه البلاد فى ظل استعمار باطش، من هنا

كان اختيار بعض هذا الشعر الرافض، والمحتج، والثائر، ليدرّس فى المدارس المصرية، ولعلنا نحس بكل عناصر الشاعرية الفيتورية متأججة فى الأبيات الآتية:

أفريقيا.. أفريقيا استيقظى
استيقظى من حلمك الأسود
قد طالما نمت.. ألم تسأمى
ألم تملى قدم السيد
عريانة الماضى، بلا عزة
تتوج الآتى... ولاسؤدد
جوعانة تمضغ أيامها
كحارس المقبرة المقعد

* * *

أفريقيا.. أفريقيا استيقظى
استيقظى من ذاتك القابعه
أكل ما عندك أن تصدرى
قوافل الرقيق يا ضائعه
أكل ما عندك أن ترقدى
خاملة.. خائرة... خاضعه
أكل ما عندك أن تلعقى
أحذية المستعمر اللامعه

ولعل الفارق بين الشاعر الأفريقى (سنجور) وبين الفيتورى فى التعبير عن قضية الزنوج، يرجع إلى ثورية الفيتورى، وهدوء طبع سنجور الذى يعترف بقوة الرجل الأبيض، ويرثى له لأنه يعيش فى غابات الأسمنت، أنانيا، قاسيا، لايعترف بحق الغير، فهو بعد زيارة لنيويورك دامت أسبوعين يقول فى شاعرية عذبة:

(أسبوعان بلا أنهار، ولاحقول، وكل الطيور التى تحلق فى الهواء تسقط بالرعب متناثرة على الأسطح المستوية. لا ابتسامة الطفل ناضرة، ويده تتحرك فترسم نقوشا فى يدى، لا صدر أم حنون، بل سيقان من النايلون... سيقان وصدور.. عرق ولا رائحة، ولا كلمة عطف، لأنه ليس ثمة شفاه، بل قلوب صناعية اشتريت بالعملة الصعبة..).

ولكن نيويورك الفيتورى لاتثير فيه إلا نزعة الهجاء نظراً لسياساتها فتراه يقول:

نيويورك يا غابة الموت
ملعونة حيث كنتِ
فهذا الذى لطخته يداكِ
جبينك أنتِ

وللفيتورى قدرة على التجسيد، إنه يحول المجرد إلى محسوس يلمس بالعين، ومن خلال المجاز يشكل صورا فنية جديدة، وفى لحظات الغضب تتوتر لغته، وهنا تراه كالساحر الأفريقى الذى يتمتم بلغة سحرية تسرى فى عظامك بإيقاعها المتوتر السريع الغاضب، فإذا هدأ تسمع منه مثل هذه المعزوفة:

يا لو مومبا
فى قلبى أنت
البطل الأسود ذو القدمين العاريتين
الراكضتين على نهر الكونغو
كانت تركض خلفهما أشجار الغابات
كانت تتهدج لهما أنفاس الظلمات
كانت أمواج الكونغو
توغل فى الركض
كان الفارس ذو الرهبة
ذو الصوت الفضى
عيناه عالقتان على نجمه
كانت أصوات المضطهدين
تجلجل فى روح الأرض

وإذا كان الشعراء الأفارقة الزنوج الذين نشئوا فى حضن الغابات يفتقدون رائحة خضرة الأشجار، ويستعيرون صورهم منها، لأنها رمز الوطن أو هى الوطن، وإذا كان (سنجور) يستكثر أسبوعين قضاهما فى نيويورك غابة الأسمنت والشوارع المسفلتة بعيداً عن الغابة الأفريقية التى تمثل البكارة، والبراءة، والفطرة الصافية، وإذا كان سيزار يقول معتمدا على عناصر الطبيعة الأفريقية (أود أن أتكلم كالعاصفة، وأتحدث كالنهر، وأنطلق كالإعصار، كما أود أن أصبح لسان الشجرة)، فإن محمداً الفيتورى يتحسس مشاعر الأفارقة الزنوج، وإن لم يعش الغابة، فقد ولد فى الإسكندرية، ولم يتركها ليقيم بالقاهرة إلا فى سن العشرين ولكنه عاش نوعية إحساسهم، وشاركهم همهم الإنسانى ومجالى عيشهم:

يازمنى تآكلت حوافر الخيول
والزراف يستريح فى السهول
رائع هذا الدجى الأخضر
رائع صفاء الظلمة الجميل
رائعة رائحة الضباب والشجر
رائحة الجبال والمطر
رائحة السماء والنجوم

يتفرد الفيتورى بثلاث خصائص توزعت شعره هى:

١ ـ الثورة على الظلم والدعوة إلى الحرية وكرامة الإنسان.

٢ ـ روح التصوف التى تشربها من والده وهو من كبار متصوفى الإسكندرية.

٣ ـ مرحلة الاقتراب من العالم بكل ما فيه وبالأشياء المحيطة به، على أنه فى أية مرحلة من هذه المراحل لم يكن إلا نفسه، ففى الخمسينيات وأوائل الستينيات كان الشعراء واقعين تحت تأثير إليوت، والغريب أننى والفيتورى والمرحوم فوزى العنتيل لم نأبه بتعاليم إليوت التى نفذها حرفيا عدد كبير من الشعراء أولها (المعادل الموضوعى) الذى يؤدى إلى مصيبة الافتعال المقيت، فكان على الشاعر أن يبحث ـ مثل إليوت ـ عن معادله فى الأساطير وأغلبها أساطير اليونان القديمة، فإذا بقراء ذلك الزمن لا يتجهون بأنظارهم إلى ديوان أو مجلة أدبية إلا ويصطدمون بأسماء أبطال هذه الأساطير (سيزيف ـ أورفيوس ـ بنلوبى ـ بروميثوس ـ عوليس ..إلخ) وكان سيزيف القاسم المشترك الأعظم بين كل الشعراء الذين اضطهدوه أكثر من اضطهاد آلهته!

هنا نسأل وإن كنا قد أشرنا إلى الإجابة فى سطور سابقة: هل ساير الفيتورى هذه (الهوجة)؟

لا ... لقد ظل فى قلعته الحصينه لا تبهره هذه الحيل الفنية ذات الافتعال والصنعة، والتى حددت ملامح واحدة لكل الشعراء، وكان أغلب هؤلاء يستخدمون اسم البطل الأسطورى بطاقة ملصقة بجسم القصيدة دون أن تنمو دلالة الاسم كجزء نابع من ديناميكية نمو القصيدة الفنى عبر معمارها كاملا، لقد كان همه أكبر من استخدام الحيل الفنية المستوردة (انتقل الشعراء بعد ذلك إلى مرحلة جديدة، فاستخدموا أسماء الأبطال العرب وأسماء الشعراء التراثيين وأسماء بعض أبطال القصص الشعبية والخرافية فأصبحوا أقرب إلى نفوس القراء الذين كان أغلبهم لا يعرفون الأسطورة اليونانية وأبطالها، فظل الشعر فترة - كشعر إليوت - لاتفهمه إلا الصفوة المثقفة..).

كان هم الفيتورى أكبر من اهتمامات المتأثرين بإليوت والمسرعين وراء خطوه، كان همه محاربة الاستعمار، والعبودية، والدعوة إلى التحرر والحرية وكرامة وحقوق الإنسان، ابتدأت ثورة الفيتورى على استعباد الزنوج، ووضعهم المجحف، ولعله أول شاعر عربى حديث بعد الأربعينيات يكرس ديوانا يكاد يكون مقتصراً على مشاكل الأفريقيين، وامتدت ثورته بالتبعية إلى وضع العرب المذرى، وسلوكياتهم حين يقبّلون بعضهم فى المؤتمرات والمطارات، وهم فى أعماق قلوبهم يتوجسون خيفة من أشقائهم!

فكان سخطه، وعتابه وتقريعه، وكان صوته صارخاً صادرا من شاعر تكربه هموم قومه، يتحسس مشاعرهم، ويعرف همومهم فى الوقت الذى كان فيه شعراء سيزيف يصدعون رءوسنا بصخرته وخيبته الأزلية!

إنه الشاعر الذى لا يرضى بهوان أمته، يجرحه تشرذمها، وتثقل روحه غيبوبتها فى عصر التقدم واليقظة، ولذلك كان يصرخ من وجدانه:

وتسأل العرب الأقحاح عن وطن

فتضمحل معانيهم وإن كثروا

وتلمس الموت فى أرواحهم فإذا

مسست أجسادهم مستنكرا نفروا

وتسأل العصر هل كانوا؟ وهل غرقت

وجوههم فى بحار الرمل واحتضروا

ويصرخ ثانية:

لم نكن أمة مثلما زعموا

فلماذا إذن صعقتنا النجوم

وأظلم فى روحنا العصر

وها هو ذا يعلن التزامه، لأنه صوت أمته، وصوت عصره من خلال معايشته هموم شعبه وأفراحه شأن الشعراء الأصلاء، وها هو ذا يدين شعراء (التناص وتفجير اللغة) فى قولة صريحة تحسم كثيراً من المجادلات العقيمة (لأن طواحين الشعر العربى الحديث، المثلثة الأضلاع، والمكعبة الزوايا، والملتوية الأحجام، والفارغة سوف لاتكف عن الجعجعة والدوران، وسوف يحدث أن تتكرر ذات النماذج العبثية والانهزامية، وذات التجارب الشكلية، وذات الصور والألفاظ والتراكيب، ما لم تضئ بالمعرفة، وتتعزز بالتفاؤل العميق، رؤيا وقدرات الشاعر العربى المعاصر، ذلك الذى أصبح لشدة هزاله شاهد إثبات على أن ثمة جريمة ما، وما لم يدرك هذا (النبى المجهول) أن لا خلاص بمعزل عن خلاص أمته من التخلف، وأن لا قضية له خارج قضايا واقعه ومجتمعه، وأن كليهما مدعوان لحضور الاحتفال التاريخى، بانتصار حرية الفكر، وهزيمة القهر، ورد اعتبار كرامة الإنسان...).

لقد انتشرت لعبة لفظية جديدة يريد أصحابها أن تحدث إيقاعا جديدا وهى أن يبحث الشاعر عن ألفاظ تشترك كلها فى احتوائها على حرف واحد يتكرر فى كل لفظة، ويحاول الشاعر بعد ذلك أن يصنع منها جملا، فيلفق ما استطاع التلفيق، وهى عملية قلما نجح فيها واحد من شعراء الحداثة، لأنها لا تقوم إلا على الصنعة والافتعال والإيقاع النشاز من حيث يريدون الإيقاع الناجح، ولعلنا نرى مثالا لذلك فى الأبيات المدورة التالية للشاعر **محمد أبو دومه...** يقول:

(يا .. يا ليل الليل الموحى المغرورق لمعانا، والمغزول المجدول المتجدول من مطلع جيد الفرعا، منديل أماسينا، والمتهدب تهدابا حتى وهن القلب الطواف من التطواف فخاف وكل .. تملل.. علل.. ما مل...)

وهكذا نرى الشاعر قد شغل نفسه بركام من ألفاظ تشترك فى حرف واحد، وهو يحاول عبرها تنغيم إيقاع لا يقدم إلا صنعة لفظية مقيتة، ولكن مهما كانت قدرة الشاعر - أى شاعر يلعب هذه اللعبة الصبيانية - فإنها فى آخر أمرها ليست إلا زخرفة إيقاعية فاشلة، وهى فى الوقت نفسه تشغله عن استبطان التجربة الإنسانية الحية التى هى جوهر الشعر الحق.

وللفيتورى مشاركة فى هذا الاتجاه، جاءت فى شطر بيت فحسب ، أملتها اللقانة والحدس الصادقان، وهى تفضح هذه اللعبة الصبيانية لأنها انسربت من روحه المبدعة فجاءت فى موقعها دون مشقة أو افتعال، فضلا عن أنها موجودة فى ديوانه الأول (أغانى أفريقيا) الصادر فى مصر عام (١٩٥٥)، وهو وقت لم تكن هذه اللعبة قد عرفت فيه، إذ إن شعراء الحداثة الذين تبنوها كان أكبرهم سناً لم يولد بعد، أو ولد ويلبس البنطلون القصير، وهذا هو بيت الفيتورى الذى يخاطب فيه أفريقيا، من قصيدته الشهيرة (البعث الأفريقى):

أفريقيا.. أفريقيا استيقظى
استيقظى من ذاتك القابعه
أكل مـا عندك أن ترقـدى
خاملة .. خائرة.. خاضعه

وهكذا اشتركت ثلاثة ألفاظ متتالية فى حرف واحد هو حرف (الخاء)، ولكن البون بعيد بعد الشمس عن الأرض بينها وبين قول أبو دومه: (ياليل.. الليل الموحى المغرورق لمعانا والمغزول المجدول المتجدول إلخ..) ولسنا بالطبع نعقد مقارنة بين أبودومه والفيتورى، ولكننا نتخذ من أبيات أبو دومه مثلا لظاهرة تفشت مستعلنةً بالافتعال المقيت، والنغم البهرج.

إن الفيتورى لم يتعمد الإتيان بها، ولكنها فى غمرة إبداعه توالت على سن قلمه دون تعمد (خاملة - خائرة - خاضعه) عن طريق الحدس الصادق الذى كان وراء قول امرئ القيس فى بيت معلقته المشهور وصفا لسرعة الجواد:

مكر، مفر، مقبل، مدبر، معًا
كجلمود صخر حطه السيل من عل

فتكررت (الميم) كما تكررت (الخاء)، وكان التكرار فى الحالتين غير متعمد كما يفعل شاعر الحداثة، إنها اللقانة الفطرية الصادقة التى هذبها تشرب النماذج الشعرية الراقية لدى الشاعرين، ومعرفة كيمائية الإيقاع الأصيل فى اللغة القومية، وهى وحدها موهبة خاصة لا تتوافر إلا فى القليل من الشعراء حتى من لا يتعمدون اللعبة الصبيانية، والمعروف أن الإيقاع الأصيل فى القصيدة ليس حلية، وإنما هو أداة من أدوات التعبير.

فمثلما كانت (الميم) عند امرئ القيس، كانت (الخاء) عند الفيتورى، وابن جنى يقول إن الألفاظ التى تشترك فى حروف، تشترك كذلك فى أداء معنى عام تدور حوله، وقد ضرب مثلا لأصوات حروف (الجيم والباء والراء) فهى مهما وقعت وأخذت مكانا فى اللفظة من ناحية الترتيب، فهى معبرة عن الشدة والقوة، إنه يقول تدليلا على رأيه:

(جبرت العظم والفقير إذا قويتهما، والجبروت القوة والجبر الأخذ بالقوة والشدة، ورجل مجرب إذا مارس الأمور فاشتدت شكيمته، ومنه الجراب لأنه يحفظ ما فيه والشىء إذا حفظ قوى واشتد، ثم منه الأبجر من البجرة وهو القوى ومنه البرج لقوته ومناعته، والبرج هو نقاء بياض العين وصفاء سوادها مما يكسبها قوة، ومنه رجبت الرجل إذا عظمته وقويت أمره، ومنه شهر رجب لتعظيمهم إياه عن القتال فيه، ومنه الرجبة وهو ما تستند إليه النخلة لتدعيمها وتقويتها...)

واختيار الفيتورى لهذه الألفاظ المشتركة فى حرف (الخاء)، تم بقوة الحدس الصادق كما سبقت الإشارة.. لا بصنعة التعمد فى جلبها كما يفعل شاعر الحداثة، وقد أكد الفيتورى معناه باستعماله هذه الألفاظ الثلاثة، ومصداقا لذلك نقول إننا لو رحنا نجمع ألفاظا بدئت بحرف الخاء لوجدنا أن أغلبها يشترك فى معنى ما من معانى الضعف والخنوع والفساد والخسارة، وأنت واجد هذه المعانى فى الألفاظ الآتية:

(خلع - خضع - ختل - خرع - خبث - خدر - خرس - خسر - خرب - خمل - خجل - خذل - خرف.. إلخ..) أما التعمد فى هذه اللعبة الصبيانية، فيؤدى إلى سماجة إيقاع وافتعال ظاهرين، ولا أدرى كيف لم يدرك ذوق الروائى الكبير إدوار الخراط ذلك فى محاولاته التى قطعت سياق بعض رواياته كقوله فى إحداها حيث كرر فى كل لفظة حرف (السين):

(سدان حسك الأسلاك المستحصدة تسوط سماديره، تستجيش سلاح السطوة المسنون على سلمة ڤيدوس المستديرة بين عساليج الاستعرار السلسة.. إلخ..). وواضح بما يقطع كل شك أن ليس هناك من يستطيع أن يجرى قلمه حراً فى مثل كتابة هذه اللعبة، ولا من يحفظ دون الرجوع إلى القاموس هذه الألفاظ المشتركة فى حرف السين، إن إيقاع الحرف الواحد فى الفقرة السابقة لابد أن كاتبه قد رجع إلى القاموس، أو ظل بعد كتابة اللفظة ينبش فى ذاكرته عن اللفظة التالية مدة زمنية قد تطول وقد تقصر.. وهى عملية كما نرى قائمة على الافتعال والكذب الشعورى والتعب الناصب، ولذلك نكاد نشم فيها عرق كاتبها كبيرا - كشاعر أو ككاتب - أو صغيرا .

لقد استعلن الفيتورى بحاسة إيقاعية مواكبة لعواطفه اليقظة المشدودة كالوتر، أنه إيقاع يؤكد معرفة شاعره بكيمائية إيقاع لغته القومية، فإذا به امتداد لأجمل إيقاعات هذه اللغة عبر تراثها الشعرى الشامخ، فأنت لن تجد فى شعره ركاكة أو صناعة أو نفسا مقطوعا، وإن حدث فهو نادر لايعتد به، وهو منذ شعره الباكر يستعلن بهذه الخصيصة... انظر إلى قوله عام ١٩٥٥ فى قصيدته (البعث الأفريقى):

أفريقيا
أفريقيا... استيقظى
استيقظى من ذاتك المظلمه
كم دارت الأرض حواليك
كم دارت شموس الفلك المضرمه
وشيّد الناقم ما هدّمه
وحقّر العابد ما عظّمه
وأنت لازلت كما أنتِ
كالجمجمة الملقاة..
كالجمجمه...
واعجبًا ألم تفجر شرايينك سخريّاتهم
يا أمه...!

أما الصورة الشعرية عنده فليست صورة تقليدية تفرضها الحواس الفطرية، ولكنها تصل إلى ما هو أبعد، لأنها بنت الخيال الخالق الذى يكوّن واقعا جديدا لاتراه العين، ولكن تراه النفس الحساسة، وأنت تلمسها فى قوله:

لملائكة تتعانق خاشعة فى مراياى
ذائبة فى شموع التراتيل
مائدة من بنفسج روحى
ولى أفق من طيور اللقالق
ينصب أعراسه البربرية حولى
إذا دخل الليل فى الليل
يُلبسنى قمرًا ميتا

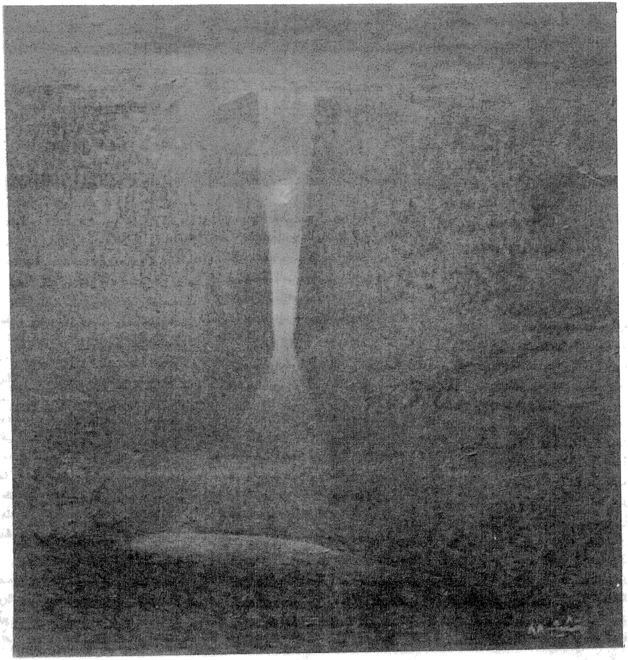
إنها براعة القدرة على تشخيص المجرد، وتجسيد المعنوى، وخلق عالم جديد صغير مأخوذ من جزئيات العالم الواقعى الذى نعيشه، وهى قدرة يشارك فيها العقل والحواس والحدس واللاشعور والخيال والتركيبة النفسية الإبداعية للشاعر، فهو لايستطيع أن يتأمل شيئا دون أن يسبغ عليه حياة داخلية من رؤاه الخاصة. من هنا كان (الوصف) ــ إذا استعملنا المصطلح القديم ـ كما كان معروفا لدى القدماء خاصة وصف الطبيعة، صورة فوتوغرافية للواقع المشاهد، وهو ما لا نجده إلا قليلا فى شعر الفيتورى، والشاعر الكبير يحاول دائما الترجيح بين المتناقضات، من هنا يكون الصراع الذى يخلق الشعر العظيم، والنتيجة هى أنه يتجاوز الموجود فى سبيل ما ينبغى أن يوجد فى منطق الخلق الشعرى، ولما كانت النفوس الشعرية الكبيرة متفردة فى تكوينها الإبداعى، كانت الطزاجة الإبداعية، وجدّة الرؤية الشعرية أول ما يلفت النظر فى شعر الشاعر الكبير.

وفى شعر الفيتورى الصوفى (وكثير من الشعر الصوفى يمتاز بغموض رموزه) تتميز صوره الشعرية الصوفية بطابع تكثيفى، ولكنه يظل شفافًا كالغمامة البيضاء الرقيقة، ولذلك كان أسرع تأثيراً فى النفس من (الشعر الصوفى) الحداثى الذى لم يبق شاعر لم يكتب فيه بعد أن رأوا أدونيس يصطنعه بينما التصوف استعداد شخصى خاص واتجاه معين يجد تجاوبا عند بعض الناس لا ثلاثة أجيال متتالية من شعراء الحداثة أصبحوا كلهم من المتصوفة!

وإنك لتسمع أو تقرأ الفيتورى فى شعره الصوفى فتجد سماء جديدة، عمقا، واتساعا، وأصالة، حتى إنك لتقف أمام قوله المذهل الفريد خاشعا:

ويحى وأنا أتلعثم
نحوك يا مولاى
أجسد أحزانى
أتجرد فيك
هل أنت أنا ؟
.....
فى حضرة من أهوى
عبثت بى الأشواق
حدقت بلا وجه
ورقصت بلا ساق
وزحمت براياتى
وطبولى الآفاق
عشقى يفنى عشقى
وفنائى استغراق
مملوكك.. لكنى
سلطان العشاق

إن الفيتورى يجسد الفكر والشعور معا، ويوحدهما للتعبير عما لا يحد شأن كبار الشعراء المتصوفين، إنه طائر يحلّق مع سربه، يطير بجناحين ككل طائر فى السرب، ولكن طيرانه يخالف كل طيرانهم مهارة ودقة. ■



القيمة والواقع والمتخيل في «مريم النور»

ميلاد زكريا يوسف

قدمت في روايتها السابقة «كانت المدن ملونة»، قـدمت الروائيـة رجـاء نعمة محاولاتها في إنتاج شخوص روائية معاصرة. وكان واضحًا أن الشخصية الرئيسية في هذه الرواية محاصرة في المكان بفعل الحرب، بل إنها جعلت الملجأ - بما يحمل من ضيق مكاني - إطارًا يبرز جو الحصار والضيق الذي تعانيه الشخصية؛ بحيث يصبح ذلك الإحساس بالحصار هو الإحساس الطبيعي بالحياة الفعلية، وتصبح الحياة خارج الملجأ - خارج الحصار - معادلة للفقد والعدمية.

وفي روايتها الجديدة «مريم النور»، تحاول رجاء نعمة أن تقدم هذا الحصار في شكل آخر لا يتعلق بطبيعة المكان وإنما يتعلق بالطبائع النفسية لشخوصها.. بل إن الحرب التي كانت السبب الرئيسي لإنتاج جو النص في الرواية السابقة؛ تغيب في هذه الرواية ليصبح النص أكثر استقلالية وانفتاحًا على الإنسان. ولذلك فإن الشخصيات تتحرك في طول الرواية بدون سمات زمانية أو مكانية محددة، مما يعطي الفرصة للحادثة أن تتخذ البطولة المطلقة، وتصبح المواجهة بين الشخوص هي مواجهة وصراع بين نفوس خالصة أو نفوس جوهرية.

وتحاول الكاتبة هنا أن تختصر أطراف الصراعات البشرية المختلفة في طرفين اثنين فقط يختصران في تكوينهما الطبائع الإنسانية كافة.

المواجهة والصراع إذن بين طرفي الثنائية القيمية الخالدة: الجمال والقبح. ويستطيع كل طرف من أطراف هذه الثنائية أن يتضمن في داخله الخصائص والمترادفات التي تندرج في إطاره.

وتبعاً لهذا، فإن شخوص الرواية بدورها تنقسم إلى موجودات تجسم هذه الثنائية نفسها، ولأن الصراع في جوهره صراع بين قيمتين - تمثلان مركب الوجود الإنساني - فإن متن الرواية لا يحتوي إلا على عدد قليل من الحوادث.

كما سبق أن قلت، فإننا أمام نوعين من الشخوص يمثل كل منها جوهرًا خاصًا؛ فنرى أن: (مريم النور - دورا - الجدة - الأب الميت) هم الممثلون لقيمة الجمال وجوهره، بصوره المختلفة ومحمولاته الخيرية والأخلاقية المتعددة.. كما نرى أن: (راما - كمال - أم راما - بيتي) هم الممثلون لقيم القبح والشر. وفي المستوى الأعلى فإن شخصية «مريم النور» هي الشخصية الجامعة للشخوص المشابهة لها دراميًا مثل «دورا»، كما تحتوي شخصية «راما» على شخصية «بيتي»، وبذلك تصبح «مريم النور» وحدها في مواجهة (راما - كمال) حيث إنهما يبدوان في رؤيتهما كما لو كانا شخصًا واحدًا. وكل شخصية من هذه الشخوص تمتلك تاريخًا ذاتيًا حافلا يشي بالصورة الأخيرة التي تتصرف على أرضيتها.. حيث يمثل التاريخ الذاتي للشخصية شكلا للحصار الذي يدفع السلوك والإحساس أيضًا في اتجاه محدد قسرًا.

وقد لجأت الكاتبة في القطاع الأكبر من السرد الروائي إلى استعادة هذه التواريخ باعتبارها البراويز القيمية المكونة لمواقف الشخصية واستراتيجية فعلها.

تقدم الكاتبة شخصية «مريم النور» التي تحمل قيمة الجمال بفطرتها وذلك من خلال سرد الكاتبة لقصة ولادة «مريم النور» في سياق رومانتيكي، كونها نتاج حالة مثالية من العشق.. وزادت من ذلك بتضخيم القيمة الجمالية لمثالها باكتشاف هذا النقاء من خلال رؤية الآخر له؛ وبالتحديد في أكثر الشخوص خلواً من هذ النقاء وهما شخصيتا (راما - كمال)؛ فتتكشف رؤية الشخصيتين لـ «مريم النور» تدريجيًا؛ حيث في البداية لا تستطيع أي من الشخصيتين اكتشاف سر الانجذاب تجاهها، ثم تتكشف الحقيقة بمرور الوقت بتجلي فكرة الكراهية لهذا النقيض القيمي الذي يؤكد القبح في داخلهما. أما «مريم النور» نفسها فهي على العكس ليست مدركة على مستوى الوعي الاجتماعي بطبيعة ما تحمله من نقاء، ولكنها على الرغم من ذلك تحمل هذا الإدراك في المستويات اللاشعورية في أعماقها، مما يؤدي إلى اتخاذ أفعالها طابعًا هامشيًا غير مشتبك بواقع المجتمع وتجاهلها لاختلافها عن الآخر.. وبهذا فإن

قيمة الجمال غير مدركة لوجود قيمة القبح، أما القبح فهو مدرك للجمال، حيث إن الجمال هو القيمة الإيجابية الطبيعية؛ أما القبح - وهو المكتسب أو المضاف إلى الطبيعة الإنسانية الخيّرة - فهو خارجي عنها، وبالتالى فإنه دائم القلق تجاه الجمال ومحاصر له.

غير أن القبح والجمال متشابهان فى كونهما إحساساً وفعلا محدّداً تجاه الآخر، والانتقال بين القيمتين يتم بمجرد وقوع حادثة تمس الداخل مباشرة.. فـ «مريم النور» لم يحدث لها انقلاب قيمى عندما قتل أبوها ولكن عندما اختطف منها الرجل الذى أحبته بطريق الخيانة.

أما «راما» فهى الشخصية المحورية المقابلة، وهى المدركة وبقوة لقيمتها السلبية التى تحملها منذ ولادتها؛ مدعمة بإحساسها برفض العالم لها متمثلا فى موقف أمها منها، وأزمتها كلها نابعة من هذا الموقف الذى اتخذته منها أمها.. وإدراكها لقبحها الخارجى أصبح طاغياً وانسحب على تكوينها الداخلى. ومن حيث إدراكها أن القبح لا مكان له فى العالم الحقيقى فى داخل ذوات الآخرين، فإنها تحاول تزييف دورٍ لها.. وهى أيضاً محاصرة بتاريخ ومواقف تمثل كلها هزائم موجهة لإحساسها بقيمة وجودها. ورغبتها فى تعذيب هذا القبح الخارجى والداخلى القابع فيها تنتقل إلى رغبة فى الانتقام من قيمة الجمال متمثلة فى «مريم النور». والكاتبة فى هذا تعتبر القبح نقصاً لا يمكن إكماله حقيقة.. لذا فإن القبح هنا لدى «راما» يغدو مبرراً نفسياً - حيلة - للموقف العدائى الذى تتخذه تجاه العالم.

أما «كمال»، وهو الذى يحمل صورة «راما» نفسها فإنه يحمل القبح باعتباره احتمالية تحققت بالفعل؛ فهو لم يكن مؤهلا بحكم تاريخه الأول - قبل حادثة حبه الفاشل - أن يكون ممتلكاً لناصية هذا القبح العنيف، ولكن القبح لديه جاء اختيارا؛ بعكس «راما» التى فرض عليها القبح فرضاً حتى قبل أن تعى ذاتها باعتبارها وجوداً قبيحاً.

وهذا يجعلنا نختصر الصراع بين «راما» و«مريم النور» فقط على اعتبار أنهما حاملتان لكلتا القيمتين جوهرياً بالطبيعة.

واستكمالا لتكريس الصراع بين طرفى الثنائية، فإن التاريخ الذاتى لكل من «مريم النور» و«راما» هو تاريخ واحد ومتطابق فى هيكله الصورى غير أنه منعكس تماماً فى محتوياته.. ويتضح هذا من مشهد ميلاد كل منهما: احتفال قدسى بقدوم «مريم النور»، وكآبة وإحباط لدى ميلاد «راما». أيضاً مرت كل منهما بقصة حب فاشلة حيث أحبت «مريم النور» ابن عمتها «فراس» الذى تركها حرصاً منه على نقائها، وفى الفترة العمرية نفسها أحبت «راما» فتى غادرها كرهاً فى قبحها. وفى حالة الحب الثانية أحبت «مريم النور» «بسام» الذى تركته لعدم إدراكه لكبرياء جمالها، وأحبت «راما» رجلا قام بضربها بسبب إدراكه لقوة قبحها. وفى السلوك العام للاثنتين: فإن «مريم النور» تتصرف بتلقائية وفطرية ووضوح مبهر، أما «راما» فإنها تتصرف بتصنع وغموض مبهر أيضاً.

وهكذا تبرز الكاتبة التقارب الشديد فى الحوادث والتاريخ التى أنتجت النماذج التى ظهرت عليها شخصياتها.

ولكى تؤكد رجاء نعمة على جوهر فكرة ثنائية الصراع، فإنها تختار حادثة واحدة، وهى ذهاب «مريم النور» و«كمال» لمشاهدة فيلم (إيروسى).. ثم تبدأ فى طرح تصورات كل شخصية منهما لهذا الفيلم، وهنا يتجلى التناقض الواضح فى رؤية شخصيتين لمشهد واحد، فى حين أن من المفترض أنهما فى حالة حب أى فى حالة توحد؛ فـ «كمال» تبعاً لقبحه التاريخى يتصور أن «مريم النور» قد انسلخت عنه وتوحدت إيروسياً بشخصية بطل الفيلم. أما «مريم النور» فإنها أسقطت صورة التوحد على «كمال» قرينها مستبدلة فتى الفيلم به؛ فرؤية «كمال» هى حيلة نفسية لتبرير رغبته الداخلية العنيفة فى التخلص من «مريم النور». أما هى فإنها اتخذت هذه الصورة لكى تزداد اقتراباً منه، والتوحد به على المستوى الجسدى أيضاً إضافة إلى المستوى الروحى.

ويدعم تلك الرؤية أيضاً موقف كل منهما وتأثرهما المتباين من مشهد الفتى والفتاة اللذين كانا يتبادلان الحب خفية فى أثناء الغارة الحربية.

أما شخصية «دورا» فإنها تختصر إلى حد بعيد البداية والنهاية حيث امتلاكها لقيمة الجمال ثم حدوث انتكاسة لهذ الجمال بسبب أن فتاة أخرى أخذت منها حبيبها ثم اكتشفت بعد ذلك القدرة على استرداد قيمتها، بل إنها فى النهاية تمثل تدعيماً نفسياً لإعادة القيمة الجمالية التى افتقدتها «مريم النور» من جراء انتقامها من «راما» وهو الدور نفسه الذى قامت به «مريم النور» فى بداية تعرفها بـ «دورا». ويبدو التشابه بينهما واضحاً فى تصورات وتخيلات كل منهما بعد حادثة فقدهما المتشابهة أيضاً.

ولكى تتضح الرؤية أكثر، فسوف أوجز الخطوط الدرامية للرواية سريعاً: تتعرف «مريم النور» بـ «دورا» المريضة النفسية فى محاولة لتدعيمها.. وفى أثناء ذلك تظهر «راما» التى تغار من اهتمام «مريم النور» بشخصية «دورا»، وتحاول أن تتقرب إليها. تعود «مريم النور» إلى لبنان لكى تشهد محاكمة قاتل أبيها، وهناك تلتقى بكمال الذى يبدو مرتدياً قناع الجمال ويعتقد فى نفسه أنه يحب «مريم النور» وهى أيضاً تحبه، لكنه لا يلبث أن يكتشف أنه يكرهها لأنها تشعره دائماً بقبحه. وفى الوقت نفسه أيضاً تكتشف «راما» أنها تكره «مريم النور» لأنها تؤكد بوجودها دائماً على القبح الذى تحمله «راما» فى الداخل والخارج، فيحاول «كمال» أن يتخلص من «مريم النور» حيث يزداد لديه إحساسه بكراهيتها أثناء مشاهدة الفيلم الإيروسى. وتتدخل «راما» بمحاولة هدم «مريم النور» نفسياً فتستولى على كمال، وهو من جانبه يستجيب لها رغبة فى الفرار. وتحدث الانتكاسة لـ «مريم لنور» فتقرر الانتحار وتفشل وتسافر إلى باريس فتلتقى هناك بـ «فراس» ابن عمتها فيقنعها بفكرة الانتقام من «راما» بمساعدته، عن طريق إيهام «راما» بأنه يحبها - بعد أن تخلى عنها «كمال» - ثم ينسحب بعد ذلك من حياتها لكى تتحطم. ويحدث ذلك كله فى حين تظهر «دورا» أخيراً لكى تزيل القبح الطارئ على شخصية «مريم النور».

من خلال هذ السرد السريع للأحداث الرئيسية فى الرواية سوف نكتشف أن الرواية رغم أنها جاءت فى ثلثمائة صفحة تقريباً إلا أنها لم تحتو إلا على عدد قليل جداً من

القيمة والواقع والمتخيل

الأحداث، حيث إن الكاتبة كانت معنية إلى حد كبير بما يأتى بعد الحدث من تأثيرات على الشخصيات. هذا بالإضافة إلى اتكائها إلى حد كبير على تقصى التاريخ السابق لظهور الشخصيات فى زمن أحداث الرواية.

اختارت الكاتبة عدداً من الأحداث المحورية لكى تشكل منها العوالم النفسية لشخصياتها. ومثالا لهذا فإن «راما» تحددت نفسيًا بثلاث حوادث هى حادثة ميلادها، وحادثة الضرب الذى تعرضت له، وحادثة التقائها بنادر - الاسم المستعار لـ «فراس» - ومريم النور أيضًا تحددت نفسيًا بحادثة ميلادها وحادثة مقتل أبيها وحادثة التقائها بكمال وفشلها معه. أما كمال فإنه قد تحدد فقط بعلاقته الفاشلة مع «دينا». وكذلك «دورا» فإن حادثة فقدان حبيبها هى الحادثة المحورية فى حضورها النفسى دراميًا داخل الرواية.

تتشابه كل هذه الأحداث فى كونها تمثل حصاراً للفشل فى استكمال العلاقات بين أبطال الرواية، وبالإضافة إلى هذا العدد القليل من الأحداث والعدد القليل جداً من الديالوجات؛ فإن المتن الرئيسى للرواية هو محاولة الكاتبة تحليل شخصياتها ومواقف كل شخصية بعد كل حادثة تقع، حيث قامت بمحاولة تقصى أصداء الحدث داخل أعماق الشخصية محاولة إثبات التغير الذى يطرأ على باطن ونفس شخصياتها كأصداء لهذا الحدث.. بل إن حدثاً واحداً مثل مقتل والد «مريم النور» تظل تتردد أصداؤه طيلة زمن الرواية.. كذلك فإن موقف «أم راما» من ابنتها عند ولادتها يظل أيضاً محدداً لمواقفها واتجاهات فعلها طيلة حضورها الدرامى.

وقد امتد هذا الاهتمام بالمعالجة النفسية للحدث الدرامى إلى الإيغال فى التحليل النفسى، حيث تقوم الرواية بالأساس على ثنائية أخرى هى ثنائية الواقع والمتخيل متجليًا فى المونولوجات الداخلية التى تقوم بها الشخصية عقب كل حادثة.

وقد استطاعت الكاتبة أن تجعل الحدث المتخيل بديلا عن الحدث الواقعى، حيث تقوم الشخصية بإعادة تصور الحدث وترتيبه نفسياً وفقًا لاحتياجاتها ووفقاً لطبيعة تكوينها، حيث تمثل الطبيعة النفسية للذات حصاراً وحاجزاً يمنع رؤية الأشياء على ما هى عليه.

فـ «مريم النور» أعادت مشاهدة الفيلم فى ذاتها عن طريق إعادة التوحد بالمشهد فتصبح هى وكمال بديلين للفتى والفتاة فى الفيلم.. أما كمال وعلى الطريقة نفسها، فإنه تخيل أن عملية التوحد قد تمت بالفعل بين مريم النور وبين فتى الفيلم.. وكذلك «دورا» التى قامت بعملية إعادة إنتاج عندما دعتها «بيتى» إلى منزلها ووضعت لها المكنسة مقلوبة أمامها لتبدأ بعدها «دورا» فى الإحساس بأن طيف «بيتى» يلاحقها ويحاصرها ثم تخيلها لـ «بيتى» فى صورة مشوهة مسلوخة الجلد، باعتبار التخيل بديلا عن عجز القيام بفعل حقيقى.. وهى نفسها التخيلات التى تراءت لـ «مريم النور» عندما كانت تتخيل رؤية (كمال وراما) فى كل مكان تذهب إليه.

وتبلغ ذروة استبدال الواقع بالتخيل فى نهاية الرواية عندما تتخيل «مريم النور» تفاصيل ما سيحدث لـ «راما» عندما يغادرها نادر - أو «فراس» - وتكتفى الكاتبة بذكر هذه التخيلات على أنها حدثت بالفعل كما تصورتها مريم النور وتستكمل نهايتها.

وبعيداً عن ذلك، وعودة إلى قصة الصراع بين طرفى الثنائية - القبح والجمال - فإن لجوء الكاتبة إلى تكرار الحوادث بصيغ مختلفة لكنها فى النهاية تتشابه هيكلياً لابد أن يفضى إلى تأطير تركيزها على فكرة الصراع الثنائى.. كذلك هى تفترض بعد ذلك إمكانية عودة الجمال إلى طبيعته رغم ما قد يشوبه من تلوث، بعكس القبح الذى لا يجب أن يتحول ويصبح متخذاً هيئة جميلة، لأن هذا دائمًا سوف يكون على أنقاض ما هو جميل بالفعل، فلكى تعود «مريم النور» وتتخلص مما علق بروحها من إثم بفعل الانتقام، كان يجب أن تبقى «راما» قبيحة.

إن هذا الطرح الغريب الذى يختلف كثيراً عن الدعاوى الأخرى التى تحاول أن تجمل ما هو قبيح بصورة تخلو من إدراك الأبعاد النفسية لهذه القيم لم يأت من فراغ؛ من حيث إن رجاء نعمة قدمت الواقع النفسى كاملا بحيث يستحيل علينا أن نصدق غير ذلك.. فهى مدركة أنها تتعامل مع شخوص وقيم أرضية أولا، وأخيراً، ولا تتعامل مع شخوص نبوية أو قيم ميتافيزيقية تنفصل عن إمكانات وطاقات الفعل الإنسانى المحدود. ■

الإيقاعات والرؤى



مختارات من الشعر الأمريكى المعاصر

ترجمة: بدر توفيق

أن سيكستون (١٩٢٨- ١٩٧٤)
ANN SEXTON

ولدت فى نيوتون NEWTON عام ١٩٢٨ بولاية ماساشوسيتس، درست فى كلية جارلاند، تزوجت وأنجبت ابنتين،

انتحرت عام ١٩٧٤.

قالت عن الشعر إنه ينبغى أن يكون صادما للمشاعر، وجارحا فى أحوال كثيرة، وقالت إن هناك بعض الأسطر السيئة فى بعض قصائدها الممتازة، وإن هذه الأسطر السيئة تجعل القصيدة فى حالة أجمل من المعتاد.

تتجذر قصائدها عن عمد فى كينونتها النسوية، وتعبر عن حبها وأطفالها ووالديها وأزماتها النفسية، بطريقة مادية جسدية مكثفة، وفى التصنيف الأدبى تعتبر آن سيكستون من «مدرسة الاعتراف» التى تتمحور قصائدها حول الذات وأحوالها ومحيطها.

بدأت نشر قصائدها منذ عام ١٩٥٧، وصدر ديوانها الأول عام ١٩٦٠.

رحيل إليزابث

أنت الآن ترقدين فى عش موتك الحقيقىّ،بعيدا عن أثر أصابعى العصبية
حيث لامست رأسك المتحرك،
والغضون القديمة فى بشرتك،
وتنفس رئتيك الذى انحسر فى نظرتك الأخيرة
إلى وجهى، وهو يتأرجح فوق المضجح الإنسانىّ،
حيثما صرختِ، دعونى أرحل دعونى أرحل.

*

أنت الآن ترقدين فى صندوق موتك النهائىّ،
لو لم تكونى أنت، لو لم تكونى أنت بالتأكيد
لقلت إنهم جمّدوا وجنتيها،
فهذه اليد التى تبدو كأنها صنعت من الصلصال

وهذا القناع الذى يشبه وجه إليزابث
ليست أشياء حقيقية،
فمن داخل الكفن الساتان
ومن نسيج هذا السرير غير الإنسانى،
سمعت صوتا يصرخ، دعونى أرحل دعونى أرحل.

- ٢ -

لقد أعطونى رمادك وعظام هيكلك،
كان يخشخش كنبات جاف فى زهرية من الورق المقوى،
يخشخش كالأحجار فى فرن مقدس،
لقد انتظرتك فى كاتدرائية الرقى والتعاويذ
وانتظرتك فى بلد الأحياء،
وكنت لا أزال أضم الوعاء وهو يئن إلى صدرى،

*

حين سمعت شيئا يصيح، دعونى أرحل دعونى أرحل.
عندئذ نثرت بقايا عظام هيكلك
وسمعت نفسى أصرخ بسبب نظرتك،
ووجهك الذى يشبه التفاحة،
وهيئة ذراعيك
التى تشبه مريم وهى تحتضن المسيح،
ورائحة شهر أغسطس
التى تفوح من بشرتك،
ثم فرزت يا إليزابث، يا إليزابث،
ملابسك وأشياءك الحبيبة
التى ظلت لديك، حتى رحلت عنا إلى الأبد.

الإجـــــهـــــاض

لقد مات،
ذلك الشخص الذى كان لابد أن يولد

*

فمثلما يتغضن فم التربة،
وكل برعم يهب خارجا من غلافه المعقود،
غيرت حذائى، واتجهت بسيارتى إلى الجنوب.

*

تجاوزت الجبال الزرقاء،
حيث تمتد روابى بنسيلفانيا بلا انتهاء
مكتسية شعرها الأخضر، كأنها قط مرسوم،

*

طرقها هابطة كالرصيف الرمادى البالى،
حيث تنشق الأرض، فى الواقع، بطريقة شيطانية،
ويتدفق الفحم من تجويف أسود،

*

لقد مات،
ذلك الشخص الذى كان لابد أن يولد.

*

الحشائش كثيفة وقوية كالنبات المعمر،
وأنا أتساءل متى ستحرث الأرض،
وأتساءل كيف يواصل الحياة شىء هش؛

*

هناك فى بنسيلفانيا، قابلت رجلا ضئيلا،
لم يكن روميلشتلتسكين(١) إطلاقا، إطلاقا. ..
لكنه امتلك الكمال الذى يحقق الحب.

*

عندما رجعت للشمال، تباعدت السماء
كأنها نافذة عالية لا تطل على شىء،
وكان الطريق مستويا كلوح من الصفيح.

*

لقد مات،
ذلك الشخص الذى كان لابد أن يولد.

*

نعم، أيتها المرأة، إن منطقا كهذا
سيؤدى إلى خسارة بلا موت. وإلاَّ فقولى يا جبانة
ماذا كنت تقصدين ... هذا الطفل الذى أنزفه.

عـــجـــوز

إنى أخاف الإبر التى أحقن بها
إنى متعبة من الملاءات المطاطية وأنابيب الدواء

متعبة من الوجوه التى لا أعرفها
وأعتقد الآن أن الموت قد ابتدأ

*

إن الموت يبدأ كما لو كان حلما
مليئا بالأهداف والمقاصد وبضحكات أختى

*

نحن الآن فى صبانا، وها نحن نمشى معا
نقطف زهرا من شجر البرارى.
ونحن فى طريقنا إلى «دامرسكوتا»
صاحت قائلة : آه يا سوزان،
لقد وسخت ثوبك الجديد.
إنها ذكريات حلوة المذاق
تفيض بها نفسى
لكنها حلاوة كئيبة يتواصل تذكارها
ونحن فى طريقنا إلى دامرسكوتا.

*

ماذا أنت فاعلة معى؟ دعينى وحدى
ألا ترين أننى أحلم؟
إن الإنسان فى الحلم لا يكون فى الثمانين أبدا.

مارك ستراند [١٩٣٤-]

MARK STRAND

تمتلئ قصائد مارك ستراند بغرابة رهيبة كالحلم؛ ففيها استرخاء كامل للإرادة كما يحدث فى الأحلام، حين تصير القوانين التى تحكم حياتنا فى اليقظة لا وجود لها، عندئذ تحدث أغرب الأشياء دون أن تثير دهشتنا.

□ المتحدث فى قصائد ستراند يعانى غالبا من الشقاق نفسى، واضطراد فى عزلة الذات واغترابها، فهو يقول فى إحدى قصائده :

«النفس لم تعد تنتمى لى، فهى نائمة»

«فى ظل شخص غريب، وهى الآن»

«تتلبس الشخص الغريب، وتقوده خارج المكان»

□ وفى قصيدة «الشىء المخيف حدث فعلا» نجد الشاعر الذى أصبح رجلا ناضجا، يتحد فى حياته مع الذات فى طفولتها،

كما يحاول أن ينتزع نفسه من ذاته فى كل من ماضيها وحاضرها:

«الآن، عندما أرد على التليفون»

«تصير شفتاه فى السماعة، وعندما أنام»

«يتجمع شعره حول وجه مألوف فوق المخدة:»

«وحيثما أبحث أجد قدميه. إنه ما تبقى من حياتى.»

□ ولد مارك ستراند من أبوين أمريكيين فى ١١ ابريل ١٩٣٤ فى برينس إدوارد آيلاند بكندا؛ حصل على ليسانس آداب، وليسانس فنون جميلة، وقضى عاما فى إيطاليا بمنحة من هيئة فولبرايت، وحصل عام ١٩٦٢ على ماجستير آداب، وعمل مدرسا فى جامعة «أيوا»؛ وفى عام ١٩٦٥ ذهب إلى ريودى جانيرو حيث عمل مدرسا فى جامعة البرازيل، ثم عاد للتدريس فى عدد من الجامعات الأمريكية، ومنذ عام ١٩٨٠ وهو يعمل أستاذ زائرا بجامعة يوتا Utah. وقد أصدر عددا من المختارات المنوعة من الآداب الأوروبية، والمكسيكية، والكتاب الأمريكيين الجنوبيين، من بينها ترجمته لكتاب «أرق البومة» لرافائيل ألبرتى، وآخر إصداراته عام ١٩٨٣ كتاب عن الفن التشكيلى يضم تسعة من الرسامين الأمريكيين. صدرت له «قصائد مختارة من دواوينه الخمسة الأولى عام ١٩٨٠»، وحصل على عدة جوائز أدبية من بينها جائزة روكفلر Rockefeller (الهيئة القومية للفنون والآداب) وجائزة جوجنهايم Guggenheim.

رسالة [إلى ريتشارد هوارد]

Letter For Richard Howard

الرجال يجرون عبر الحقل
الأقلام تسقط من جيوبهم
الناس السائرون فى الخارج سوف يلتقطونها
إنها إحدى الوسائل التى تُكتب بها الرسائل

*

كيف تسقط الأشياء للآخرين!
النفس لم تعد تنتمى لى، فهى نائمة
فى ظل شخص غريب، وهى الآن
تتلبس الشخص الغريب، وتقوده الآن بعيدا.

*

إنها الظهيرة، وأنا أكتب إليك
حياة شخص ما جاءت بين يدىّ
الشمس تضفى اللون الأبيض على البنايات
إنها كل ما لدىّ، أعطيها كلها لك. إنها لك.

الزواج The Marriage

الريح تجىء من قطبين متضادين
مسافرة ببطء.

*

هى تدور فى الهواء العميق

هو يمشى فى السحاب

*

هى تعد نفسها

تنشر شعرها،

تجمل عينيها،

تبتسم.

الشمس تدفئ أسنانها،

طرف لسانها يبللهم.

*

هو يمسح الغبار بالفرشاة عن بذلته

يضبط ربطة عنقه فى وضع مستقيم

يدخن

سوف يلتقيان قريبا

الريح تحملهما إلى التقارب

إنهما يلوحان

أقرب فأقرب

يتعانقان

*

هى تهيئ سريرا

هو يخلع سرواله

يتزوجان

ويكون لهما طفل

*

الريح تحملهما بعيدا

فى اتجاهات مختلفة

الريح قوية، يفكر

وهو يضبط رباط عنقه فى وضع مستقيم

*

هى تقول، أحب هذه الريح

وهى تلبس ثوبها

*

الريح تنفض

الريح هى كل شئ فيما بينهم.

التهام الشعر Eating Poetry

حبر يسيل من زوايا فمى

ليس هناك سعادة مثل سعادتى

لقد كنت ألتهم الشعر

*

أمينة المكتبة لا تصدق ما تراه

عيناها حزينتان

تسير واضعةً يديها فى ردائها

*

القصائد ذهبت

الضوء ضعيف

الكلاب عند سلالم الطابق السفلى تصعد الآن

*

مقل عيونها تدور،

سيقانها الشقراء تتوهج كالفرشاة.

أمينة المكتبة المسكينة بدأت تفرك الأرض بقدميها وتبكى.

إنها لا تفهم

فعندما أركع على ركبتىّ وألحس يدها،

تصرخ.

أنا رجل جديد

أزمجر فيها وأنبح

ألهو صاخباً بالفرح فى ظلام الكتب

مارج پيرسى (١٩٣٦ -)
Marge Piercy

◻ السخط والغضب الشديد، هما العنصران الأصيلان اللذان لقّنا مارج پيرسى قصائدها، وأقاما لها مكانة مميزة فى الشعر. فالحركة المناهضة للحرب الأمريكية فيتنام وغيرها كانت جوهر قصائدها الأولى، كما أنها فى الوقت نفسه تخوض الوقت حربا تدور فى أعماقها دائما من أجل النساء، فهى تكره الأسلوب الذى يسيطر به الرجل على المرأة، سواء كان بالقسوة البدنية، أو السيادة الذهنية.

فحياة النساء كما تقول فى إحدى قصائدها «صيغت كالأكفان الرخيصة، وهى لا ترى العالم كأنه «واد من الدمع»

لكنها تراه كواد من شفرات الحلاقة، فقصائد پيرسى تحلل بحرص غاضب كيف تمت صياغة وإخراج أحبولة تفوق الذكور، فهى ترفض صورة العالم التى أقامها الرجال، وهى تصور الحب بشكله الواقعى، وبالشكل الذى ينبغى أن يكون، وتقول «إن ما نستعمله لابد أن نعيد صياغته».

□ *ولدت مارج پيرسى فى أسرة من الطبقة العاملة، فى ٣١ مارس ١٩٣٦، بمدينة ديترويت Detroit، وحصلت على ليسانس آداب من جامعة ميتشيجان Michigan، وماچستير من جامعة نورث ويسترن Northwestern؛ مارست وظائف متعددة فى التعليم، أصدرت إحدى عشرة مجموعة شعرية، إلى جانب ثمانى روايات، وكتابا يضم مقالاتها ومقابلاتها الأدبية.*

دعنا نلتقى عند النهر

Let us Gather At The River

أنا المرأة التى تجلس عند النهر
نهرٌ من الدموع
نهرٌ من ماء البالوعات
نهرٌ من أقواس قزح
أجلسُ عند النهر وأُحصى الجثث
التى تعبر طافيةً من الحرب ضد التيار.
أجلسُ عند النهر وأرقبُ الماءَ
وهو يتضاءلُ، والشطآنَ وهى تبرزُ كاللثة المتقرّحة
أرقبُ الماء وهو يتحول من الأخضر إلى البنىِّ الكريه.
أجلس عند النهر وأصطادُ من أجلك
أريدُ أن ألحسهَ حتى يصير نظيفا
أرييد أن أحولّهُ إلى فراشة
تتمايل نشوانة من زهرة الأوركيد إلى الوردة.
أريد أن أحولها إلى كرمة
وأريدها أن تحوِّل نفسها إلى إنسان.

□□

أوهُ، أغلقْ عينيك بإحكامٍ وادفعْ بقوة،
وأطلق الآن كل شىء معاً.
يمكننا أن نفعل هذا إن حاولنا،
ركّزْ وضُمّ الذراعين وادفعْ.
يمكنك أن تسترد عالمك إذا أردت.
إنها بيضة أروكانيّة لونها أزرق مع أخضر
ملفوفةٌ فى غشاء رقيق من السُّحُب
لا تدعهم يطهونها ويلتهمونها.
البيضة اللازوردية الخضراء بلون الأجمة
التى وضعتها عنقاء الكون المنقرضة
إبعثْ لى فتوسك التى بليت من موضوعاتك المتعبة،
خيول تحررك التى تموت
بغال حريتك البائسة النائتة العظام
أنا المرأة الجالسة عند النهر
أرممُ الثورات القديمة وأرقعها لتصبح جديدة
الآن يتحول النهر من البنىّ الكريه إلى دمٍ يبقبق
كذراع ترتدى زياً.
تطفو كزند خشبى متلكئ،
على ارتفاع بعيد جدا تصعب فيه الرؤية،
تبدو قاذفات القنابل الضخمة،
كالمجازات الطويلة الضيقة للعبة «الباولينج»،
تخط شريطا فوقنا، والمعركة الميدانية الأوتوماتيكية
تضىء فى الأعالى مثل «نجم الحروب»
فى لعبة الكرة والدبابيس.
أنا المرأة العجوز الجالسة عند النهر أوبخ الجثث.
أريد أن أحدق فى النهر وأرى القاع
وامضاً كشعر نظيف،
أريد أن أحيا بعد اكتمال عطائى
وأغنى أغنيات الماء،
أغنيات فى مديح النهر البنىّ الأخضر
وهو يتدفق نظيفاً خلال العالم الأخضر الأزرق.

موارأة الأسى على جانيس

Burying Blues For Janis

اجتاحنى صوتُك دائمًا، على الوتر الحساس تمامًا، فى معاناة ذات القلب العظيم من نزوة الذئبة،
التى سيطرت علىَّ كقمر نحاسىّ مهولٍ بكل أطواره،
حتى تمكنتُ، جزئياً، من الإفلاتْ.
ما الذى أستطيعه سوى أن أحتفى بكِ فى أحلامى؟
صوتُك يحكُّ العظم الملىء بالنخاع حكًا شديداً مباشرا، ينضج ذلك الاحتياج الوافر من الماسوشية التى نعوم فيها.

تلك المرأة ولدتْ لتعانى، عوملتْ بظلم وخدعت،
لقد دربنا وفقا لذلك البيت المرتفع الحرارة بالألم المكتمل.
نحن لا نشعر، إلى هذا الحد، بكينونتنا، ولا بشخصيتنا،
مثلما يحدث عندما نمشى فى الحضيض بكل أحزان الليل،
عندما لا يكون هناك رجل ما، ومن الأفضل أن يكون قد رحل،
يصبح احتياجا يتضخم ليصير بالونا من الغاز،
ويسطّح فينا كل تفكيرنا ومشاعرنا وأهدافنا.
آه من الأحزان الأنثوية التى طال اجترارها،
وانسحقتْ عصارتها تحت الأقدام:
لقد ارتجفتِ هناك بوجهك المتورم قليلا،
وشعرك الملبد متطاير بقوة تجعله بارزا للأمام،
عصفةٌ من الجحيم الذى اتخذ وقوده من الحياة بأكملها.
لقد جسّدتِ كل ما أتقنتْ أداءه أمى التى تعطى وتعطى،
كأنها نبع من الحساء المسكر لسلالة فترانية من الرجال،
لقد جسدت الألم المحتضن فى الصدر كأنه طفل،
لقد جسدت شجرة الصمغ الجميلة المتوردة فى سلبيتها،
امرأة أعطت ظهرها للعالم، بلا حدود، بلا أمل، وهى مرهقة،
تقدم وجها رائعا لممارسة الحب.
تلك الرغبة فى أن تتعلق على خطاف اللحم وأن تدعوها الحب،
تلك الحاجة إلى الحب مثل الخواء الصارخ فى الروح،
ذلك هو المخدر الذى يشنقنا ويجرنا بطريقة مهلكة إلى الحضيض،
كطبقة الهيروين الرقيقة الباردة التى جمّدت دمك.

برادلى ستراهان [١٩٣٧ـ]

Bradley Strahan

ولد فى مدينة بوسطون عام ١٩٣٧.

تخرج من جامعة نيويورك ١٩٥٩.

حصل على ماجستير ١٩٦٣.

يقيم فى واشنطون منذ عام ١٩٦٤.

له مجموعتان من القصائد :

١ ـ أغنيات حب فى عصر القلق ١٩٨١، أعيد طبعها مع مزيد من القصائد ١٩٨٩.

٢ ـ الرجل التمساح ١٩٨٢، وصدرت طبعتها الثانية ١٩٨٨.

نشر كثيرا من قصائده وترجماته فى المختارات والدوريات، وألقى محاضرات عن الشعر فى جامعة جورج تاون الأمريكية، وتوبنجن فى ألمانيا، وأبسالا فى السويد، وفى منتديات أدبية بلوكسمبورج والنرويج.

حصل على الجائزة الأولى للشعر من ولاية فرجينيا.

مساحات خاوية

Empty Places

فى النهاية، نحن جميعاً علماء آثار قديمة
نتفحص حطام الحياة
لنعثر على قطع من آنية فخارية
منقوشه بلغة غريبة
خطاب من صديق متروك على منضدة للرحلات
قصيدة مكتوبة على ظهر قائمة الطعام
رسم لفتاة لا تستطيع أن تتذكر اسمها
صورة مصفّرة لعينىْ غريب
نحن نواصل الكفاح مع الأشياء المتروكة
منذ الحيرة فى أيام الطفولة، محاولين أن نملأ الفراغات
التى تركتها الشفاه المبتسمة غائبة عن الوجه،
الدموع التى تجمدت على خدود بلا عيون،
الأصابع الغائبة عن يد ممدودة إلى أقصاها.
لكننا على نحو ما، لا نستطيع أن نملأ المساحات الخاوية،
ويدخل الظلام زاحفا.

عوالم تموت

Dying Worlds

فى هذه الليلة التى تمتد بعيدا كالفضاء،
كنت نجمة لم يلتمع نورها إلا قليلا
كالتماع النجم المتعاظم على عينين مجهدتين،
أو وردة من النار، فى عدم الصحراء
الآن أصبحتِ ومضة مفقودة خلف شبكية عينى.
عيناى وقد أصبحتا زائغتين

من وهج العوالم التى لا تموت،
لا تستطيعان العثور على وجهك.
شعلة بيضاء الزرقة تتعاقب فى اهتياج
ضوء مسحور مشئوم يتدافع كالسيل فى الظلام
أجنح فى فراغات بلا شموس،
بباب بلا هواء حيث لا شيء يذير.
تشطر الشقوق الجافة الجلدَ حتى العظام
لقد اختفت النداوة بأكملها،
سيحتجب المطر لملايين السنين

قصيدة بها سطر من جيمس رايت

Poem With A line From James Wright

«ضيعتُ حياتى عبثا»
أحاول الإبحار
البحر المعادى
يقاتلنى
خمسة عشر عاماً من العواصف
كل منها أسوأ مما سبق:
«ضيعت حياتى عبثا»
أكدح ثمانى ساعات
فى غبار الورق
أخشى
أن يتبدل مقصدى فى النهاية
إلى جهة غير معلومة
ضيعت حياتى عبثا»
فى أحلام تحلق
كالطيور المفزوعة
متماسكاً
بالأوهام، أصحو
فأرى نفسى وحيدا
«ضيعت حياتى عبثا»
وضع أجوف
غرفة فارغة
لقد جئتِ
متأخرةً جدا لكى تملئى مكاناً
لم أعرف عن وجوده شيئاً أبدا.

كيت ـ Kat

يا امرأة
لماذا تتركين هذه الأشياء هنا
كأنها آثار من لحمك
جوارب فى الحمام
إيشارب باللونين الأحمر والأبيض
مطوىٌ بعناية فوق رف.
يمكننى اقتفاء خطواتك عبر الحجرات
فرشاة أسنانك على الحوض
ملابسك الجينز على أرضية غرفة النوم.
طعمك ورائحتك
عتمة ناعمة بيضاء
تنتظر لكى توقظنى
كالقطة التى تموء لقمر
خلا وجهه من التعبير.

على نهر موزل (٢)

On The Mosel

الليل، فى مدينة على النهر
يتلاحق مرور القطارات
الرابعة صباحاً، مستيقظ أنا
أفتحُ النافذة
لصوت السيارات العابرة.
نجم وحيد يمكن رؤيته
من النافذة الضيقة
أفكر فيك
..فى خطابك، كتابة تشبه عينيكِ
فى زرقتها، وفى جمالها
أستدير وأنظر مرة أخرى إلى الفضاء
الفجر الكاذب
يصبغ باللون الرمادىّ
حواف السماء الألمانية

هناك قطٌ يعبر فى اتجاه النهر

ربما يكون باحثا عن حبيبته

أسرع أيها القط .

إنى أسمع هسيس العجلات

لا تترك حبيبتك وحيدة

دايان جلانسي [١٩٤١ -]

ولدت فى كانساس عام ١٩٤١، أبوها من الهنود الحمر من قبيلة شيروكى؛ سكان أمريكا الأصليين؛ هاجر من أجل العمل إلى مدينة كانساس فى ولاية ميسورى، حيث درست دايان جلانسى فى جامعتها، وتخرجت عام ١٩٦٤، ثم تزوجت فى العام نفسه ، وأنجبت طفلين، ثم طلقت عام ١٩٨٣ .

حصلت على ماجستير من جامعة أيْوا عام ١٩٨٨، وتعمل حاليا أستاذاً للأدب الإنجليزى فى كلية ماكاليستر. حصلت على جوائز أدبية عن إبداعها فى الشعر والرواية، ومن بين إصداراتها :

عمر واحد فى حلم ١٩٨٦ (شعر)

قربان ١٩٨٨ (شعر)

امرأة حديدية ١٩٨٠ (شعر)

وقد فاز ديوان «امرأة حديدية» بجائزة «كابريكورن» عام ١٩٩٠، ويقول الناقد مارڤن بل عن دايان جلانسى فى هذا الديوان الذى يضم ٥٨ قصيدة : «إنها تتميز بالبصيرة النافذة فى مشاهداتها، وإنها كاتبة يقظة تسيطر على لغتها». أما القصيدة، التى تحمل هذا العنوان، فقد استلهمتها الشاعرة من تمثال امرأة من الحديد شاهدته فى معرض للفنون التشكيلية، كما استلهمت الاسم المؤنث «تونتا» من «تونتو» وهو اسم طفل هندى كان يقوم بدور البطل فى مسلسل للأطفال شاهدته الشاعرة فى طفولتها، وكان تونتو يؤدى دور الطفل الطيب الشجاع المحبوب.

امرأة حديدية - Iron Womam

أعرف أننى جئت من مكان مختلف

قصة مزقها مقص

قد أجد قطعة من الصدأ فى الصباح

أو شكلا فى حقل خلال شبورة

قد أسمع لغة مكسورة

كأن امرأة تحدثها

تحمل عش طائر على رأسها

قطع طويلة من الحديد ملحومة لنسيجها الصوفى الأبيض

تلبس قناع بعوضة

غصين مقوس للأنف.

أسنانها مخيطة معا بخيوط بيضاء متلاصقة

اسمع صوتها الضئيل

من عش الطائر فوق رأسها.

لقد عاشت ذات يوم فى كومة من الأطراف والأغصان المتساقطة

منقولة فى عربة إلى الحقل لتحرق عقب عاصفة ثلجية.

يرتفع صوتها فى قافلة من الدخان

ويختلط بصوتى فى الهواء.

الأمر يستغرق هنيهة كى تتحدث مع هذين الصوتين

مثلما يستغرق هنيهة لكى تمشى على قدمين اثنتين

تذهب كل واحدة منهما فى طريق آخر.

تونتا - Tonta

ها أنت الآن

تنتظرين داخل نفسك

وتشعرين بجبل

يلمس الآخر

حياتك كلها

أرض منفصلة

عن نفسها

بقايا شهور

من العزلة

لكن بعد الألم

هدية من الحنان

وصال

يجعل المرج المسطح ينحنى

وفى مكان ما بعيدا

فى خاتمة المطاف

قد تعرفين شيئا

الذاكرة

التى نَحَّيْتِها

الرغبة فى أن تكونى الأولى

في الممشى
لكنك تقبلين
باقة الورد البسيطة
عارفة أنك تمهدين
طريقا
ليس للأجيال
لكنه يبدأ الآن فقط
منبعثا من روحك

فتاة هندية أضجرتها الشعائر

Indian Girl Bored With Ceremonies

إنها تقرأ في الشمس،
ركبتاها مضمومتان إلى صدرها،
بينما الرجال يلعبون ستيكبول،
يضربون السمكة الخشبية على عامود،
بقطع صغيرة من الصخر.
تيار غير مرئي يتحرك أمام عينيها،
كأنها ترقب السمك.
مزمار السلام،
صلوات ورقص.
يطلع القمر في قطبه،
هيهات لا سبيل.
تغلق كتابها.
في النار السحرية،
صوت أجش كالنباح من زنود الشجر المشتعلة،
يحدث شررا لشخص مضطرب على الأرض المقدسة.
تأجج النار يشبه حركة الأرانب.
الكلمات التي دخلت رأسها،
مازالت تسبح أمام عينيها حينما تنام.
طوال الليل تحلم،
حتى تستيقظ،
متشبثة بقطعة صغيرة من الصخر في يدها.

هندي كفيف

Blind Indian

فمه المشتعل
ينطق بالرؤى
يلصق بالسقف الصدأ
في الشتاء ثلوج أرجوانية تنهمر
نافذة خضراء ناتئة من سقف مائل
قمة مجعدة
حيث ينبت دخان المداخن
وردةً سوداء

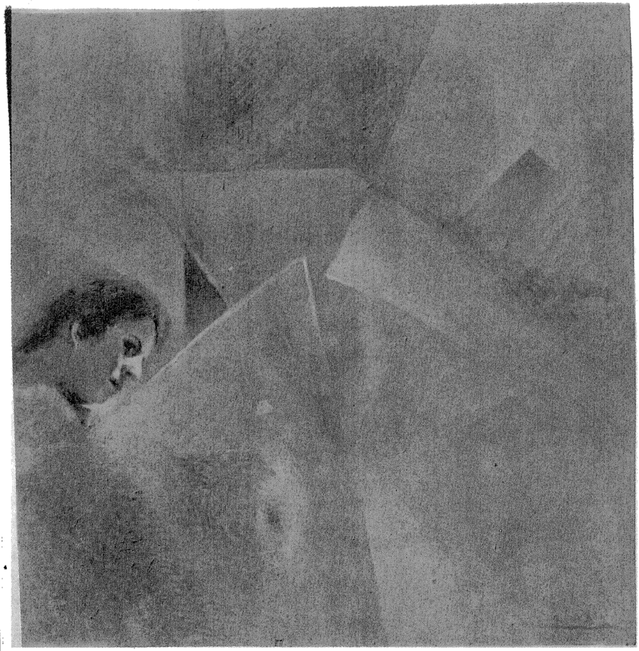
الهوامش

(١) رومپلشتلتسكين Rumpelstiltzkin

بطل إحدى القصص في الفولكلور الألماني، وهو قزم علم ابنة الخباز كيف تحول القش إلى ذهب، حتى أصبحت زوجة للملك، وقد ابتدع شخصية رومپلشتتسكين الكاتبان الألمانيان الشقيقان:

ياكوب جريم (١٧٨٥ - ١٨٦٣) وفيلهلم جريم (١٧٨٦ - ١٨٥٩) اللذان اشتهرا بأعمالهما في الفولكلور وفقه اللغة، واشتهرا في إنجلترا بقصصهم الخيالية للأطفال التي ترجمت إلى الإنجليزية عام ١٨٢٣.

(٢) Mosel نهر في ألمانيا الغربية ينبع من فرنسا ويلتحم مع نهر الراين عند مدينة كوبلنز، طوله ٣٢٠ ميلا.





يوم سعيد من أيام أغسطس

تنسي وليامز

ترجمة
شوقي فهيم

ولد تنسى وليامز (توماس لانيير وليامز) فى كولومبس بالمسيسبى عام ١٩١٢ وعاش حياته الأولى هناك وفى سانت لويس تلقى تعليمه الجامعى فى جامعة المسيسبى ولكنه كان يقطعه لأسباب مالية، ثم نال أخيراً شهادته الجامعية من جامعة أيوا.

بدأ كتابة ونشر الشعر وهو حدَثٌ صغير أثناء اشتغاله بأعمال مختلفة، ومنذ ذلك الوقت أخرجت كثير من مسرحياته فى التليفزيون والسينما والباليه. ومنها على سبيل المثال «عربة اسمها الرغبة» (التى فازت بجائزة بولتز، وجائزة نقاد الدراما) و «صيف ودخان»، و «ليلة السحلية»، و «قطة فوق رف من الصفيح الساخن» (التى فازت أيضا بجائزة بولتزر وجائزة نقاد الدراما).

قد بدأ اليوم بنوع من الكدر على الإفطار فى الحقيقة بدأ بخطأ قبل الإفطار حين دسّتْ هورنى رأسها فى الحجرة الضيقة التى تستخدمها إلفنستون كغرفة نوم لهذا الشهر والشهر التالى، وقد زعقتْ هورنى فيها «يوم سعيد» العاشر من أغسطس ! ثم سحبت رأسها وأغلقت الباب بشدة فأقلقت نوم إلفنستون الذى كان فى أحسن الأحوال نوما خفيفا وعسراً والذى لم يكن، فى بعض الأحوال يُعد نوماً بالمرة.

كانت المشكلة أن هورنى، بعد تفاهم طويل بين السيدتين، قد أخذت لنفسها حجرة النوم الرئيسية المكيفة الهواء لشهرى أغسطس وسبتمبر على أن تأخذها إلفنستون باقى شهور السنة. ظاهريا قد يبدو هذا الترتيب أكثر من عادل بالنسبة لإلفنستون. فقد تم هذا الاتفاق سلمياً بين السيدتين حين استأجرتا الشقة منذ عشر سنوات، ولكن الأمور التى اتفق عليها سلميا منذ سنوات مضت قد تصبح بمرور الزمن مثار ضيق لأحد الطرفين، وهكذا فإن إلفنستون وهى تعيد النظر فى هذا الاتفاق بدأتْ تفكر فى أن هورنى بنت نيويورك مولدا ونشأة، لابد كانت تعرف أنها سوف تستمتع بتكييف الهواء خلال أيام الصيف شديدة الحرارة. ولكن، والحق يقال، لو أن إلفنستون شحذت ذاكرتها، فإن هورنى قد صرحت بأن أغسطس هو أكثر الشهور حرارة فى منهاتن وأن سبتمبر يميل إلى البرودة وأنها، هورنى، قد ذكّرتْ إلفنستون بأن لديها (لدى إلفنستون) المقر الصيفى لأمها فى شادو وجلاد، وتستطيع أن تزورها وقتما تشاء وذكرتها هورنى أيضا أنها ليست مطالبة بأن تستيقظ مبكراً فى الصيف أو فى أى فصل، حيث إنها تعمل لحسابها، مهما قل هذا العمل أو كثر، كمستشارة فى علم الأنساب، متخصصة فى هذا المجال، بينما هى، هورنى، مضطرة للالتزام بمواعيد مكتب محددة.

خلال هذا التفكير، كانت إلفنستون قد نهضت وذهبت إلى الحمام وكانت الآن على وشك الظهور وقد اكتسى وجهها بوقار ينذر بالشر وهى تدخل إلى غرفة المعيشة فى نهاية شقتهما المبنية من الحجر الأسود بالدور الخامس فى الشارع الواحد والستين الشرقى، كانت إلفنستون تعرف أنها تبدو على ما يرام بعد أن نظرت فى المرآة. لم تكن سنوات «أواسط العمر» تقترب منها خلسة هذا الصيف ولكنها كانت تدهمها بعنف مثلما زعقت هورنى فيها فى العاشر من أغسطس.

«ماهو هذا العاشر من أغسطس ؟ «هكذا وجهت سؤالها إلى هورنى بلهجة مخادعة عن عمد وهى تدلف إلى غرفة المعيشة لتناول القهوة.

ضحكت هورنى ضحكة خافتة وقالت:

- «العاشر من أغسطس هو العاشر من أغسطس».

- «إذن فليس هناك سبب على الإطلاق يدعوك لإيقاظى فى مثل هذه الساعة ؟»

- «لقد أيقظتك مبكرا لأن دكتور شوابير قد غير موعد جلستك اليوم إلى الساعة التاسعة لكى يلاحظ حالتك الذهنية فى الصباح.

- «حسن، إنه لن يلاحظ حالتى هذا الصباح بعد ثلاث ليال متواصلة من الأرق.

- ألا تعتقدين أنه يجب أن يلاحظ اكتئاب الصباح لديك ؟

- إن اكتئاب الصباح عندى يرجع فقط إلى الأرق المستورد وليس إلى أى من المشاكل التى أبحثها مع شوابير، ولست على استعداد لأن أدفع له دولارا واحدا لكى أجلس على تلك الأريكة وأنا منهكة أشد الإنهاك وأغمغم له ببضع كلمات.

- ربما تقدرين على التقاط بعض الملاحظات وأنت على الكنبة. وأنت تعرفين يا إلفنستون أننى مقتنعة تماما بأن قلقك وتوترك الذى ازداد سوءاً هذا الصيف هو رد فعل لا شعورى للإهانات الفرويدية. إنك من مواليد برج الحمل ياعزيزتى، ومواليد برج الحمل، وخاصة عند ارتفاع برج الجدى لا يمكنهم الاستفادة إلا من يونج .

أعنى أنه بالنسبة لمواليد برج الحمل فليس أمامهم سوى يونج أولا شىء».

أحسست إلفنستون بالغضب يغلى فى صدرها ولكنها فكرت أنه من الأوفق وهى منهكة بهذا الشكل، أن تكبته، لذلك حولت الموضوع إلى الببغاء «لوريتا»، وقد لاحظت أن لوريتا ليست بداخل القفص.

يوم سعيد من أيام أغسطس

- «أين وضعت لوريتا؟»

سألت بحدة كما لو أنها خشيت أن تكون صديقتها قد قطعت رأس الطائر وألقت به فى سلة المهملات.

ردت هورنى بسرعة.

- «لوريتا تقوم بجولتها».

- «لا أظن أنه يجب على لوريتا أن تقوم بجولتها حتى تذهبى إلى مكتبك، خاصة وأنك تتحركين فى الشقة بسرعة فى الصباح ومن المحتمل أن تسحقيها تحت قدميك».

- إنى أتحرك بسرعة ولكنى لست عمياء ياعزيزتى، وعلى أى حال فإن لوريتا قد ذهبت لتجلس فى قصرها الصيفى».

كان قصر لوريتا قصرا فسيحا وأنيقا وضع لها فى الشرفة الصغيرة، وكانت جالسة فيه.

قالت إلفنستون بحزن :

- «يوما ما سيكتشف هذا الطائر أنه يستطيع الفرار حينئذ الوداع يالوريتا !».

- «إنك مفعمة بالنبوءات المفجعة هذا الصباح. أراهن أن دكتور شوابير العجوز سوف يعرف أشياء جديدة.

كانت المرأتان ترتشفان القهوة فى هذه اللحظة، جنبا إلى جنب على الكنبة المغطاة بالساتان فى مواجهة التليفزيون والشرفة.

كان مشهدا ساراً وأنت ترى من الشرفة قدرا هائلا من نباتات الزينة أكثر مما تراه عادة فى منهاتن خارج المتنزه. كان التليفزيون مضاء. وكان أحد المسئولين عن الصحة العامة يتحدث عن ازدياد الإصابات بمرض شلل الأطفال فى نيويورك هذا الصيف.

قالت هورنى :

- متى تذهبين لتأخذى حقنة شلل الأطفال ؟

فأعلنت إلفنستون أنها قررت عدم أخذ حقن شلل الأطفال هذا الصيف .

- هل أنت مجنونة ؟

- لا . ولكنى فوق الأربعين فحسب.

- وماعلاقة ذلك ؟

- إنى خارج منطقة الخطر.

- هذه نظرية خطيرة. قال الرجل إنه ليس هناك سن محددة لشلل الأطفال هذه الأيام.

- «هورنى، إذا كنت تأخذين أى حقن أو أقراص فى حياتك فلسبب غاية فى الغرابة ليس لأنك مرعوبة من المرض أو الفناء، ولكن لأن لديك رغبة لا شعورية فى الموت وتشعرين تجاهها بالذنب فتحاولين باستمرار إقناع نفسك بأنك تفعلين كل ممكن للحفاظ على صحتك وإطالة حياتك»

كانتا تتحدثان بهدوء، ولكن دون أن تتبادلا النظر أثناء الحديث، وهذا لم يكن علامة طيبة لليوم العاشر من أغسطس ولا لازدهار الصداقة.

ردت هورنى :

- «نعم هذا سبب غريب حقا .. غريب جداً لماذا تكون لدى الرغبة فى الموت ؟!

أصبح صوتهما خفيضا ومرتعشا.

- «مساء أمس ، ياهورنى، نظرت، أنت إلى المدينة من الشرفة وقلت «يا إلهى ياللعدد الهائل من شواهد القبور، يالها من مدينة للموتى تسطع بالأضواء، أكبر شواهد للقبور فى أكبر مدينة للموتى، لقد ذكرت هذه الملاحظة للدكتور شوابير وأخبرته أنها أصابتنى بالرعب . فقال لى «إنك تعيشين، إنك تقتسمين حياتك مع فتاة مريضة للغاية .. أن ترى هندسة عظيمة فى مدينة عظيمة وتسمى هذا شواهد قبور فى مدينة للموتى. فهذا عرض من أعراض اضطراب عقلى عميق، أعمق من اضطرابك، ورغم علمى بمدى تقديرك لهذه الصداقة إلا أن على أن أحذرك من تعريض نفسك باستمرار لهذه الدرجة من العدمية والرغبة فى الموت مع ماتبذلينه من مجهود للخروج من الظل. أستطيع أن أشجعك على الاستمرار فى هذه العلاقة بشرط واحد هو أن تأتى هذه المريضة لتتلقى العلاج النفسى أيضا. لكنى أشك فى أنها سوف تفعل ذلك، حيث إنها لا ترغب فى الصعود، إنها تريد التحرك فى الاتجاه المضاد. وقال: وهذا يتضح تماما مما قلته لى عن اختيارها لأصدقائها الحاليين».

خيم الصمت عليهما لحظات إلى أن قالت هورنى :

- «هل تعتقدين أنى عقبة فى تحليلك النفسى ؟ لأنك إذا كنت تعتقدين ذلك فإنى أريد أن أؤكد لك أن العقبة سوف تزيل نفسها بكل سرور».

قالت إلفنستون:

- «إن شوابير مهتم أساسا بدائرة أصدقائك الجدد لأنه يعتقد أنهم مدمرون بطبيعتهم .

- حسن. إنه لم يقابلهم وأظن أنه منتهى الوقاحة أن يحكم شخص على جماعة من الناس من شخصيات مختلفة دون اتصال شخصى مباشر. بالطبع ليس لدى فكرة عن القصص التى زودت بها دكتور شوابير عن أصدقائى

قالت إلفنستون بلهجة تنذر بالشر.

- فى التحليل النفسى العميق يجب ألا تكذبى أى شىء.

- ولكن هذا لا يعنى أن ماتكتبينه هو صادق بالضرورة، أليس كذلك؟ من الواضح أنك لم تكونى تعنين ما تقولين حين ذكرتِ لى أنك تفهمين حاجتى لدائرة أصدقاء قليلين طالما لست مقبولة لدى أصدقائك أنت.

أجابت إلفنستون بأسف :

- ليس لدى دائرة أصدقاء إلا إذا كنت تقصدين شلة الزملاء القدامى من خريجى كلية «سانت لورنس» الذين تناولت معهم العشاء منذ شهر، ونادراً ما أدعوهم هنا للعشاء والبريدج، وهى مناسبات أدعوك إليها دائما، بل وألح على دعوتك ولكنك لا تحضرين، اللهم فيما عدا مرة واحدة.

- آه نعم، لقد قلت أنت منذ أيام إنك لا ترين أى خطأ فى أن يكون لكل منا أصدقاؤها الخصوصيون. بل إنك قلت إن هذا أكثر صحة لكلينا من الناحية السيكولوجية. لقد قلت ، لو حاولت التذكر، إن هذا يخفف التوتر بيننا حين يكون لكل منا دائرتها الاجتماعية الصغيرة، ولما كانت دائرتى كريهة لديك، فليس بوسعى إلا أن أقول لك،

ـ تقولين لي ماذا ؟

ـ إنك لم تقبليهم ، لقد انتصبت أشواكك كالقنفذ وبانت مشاعر العداء في وجهك في المرة الوحيدة التي شرفتهم فيها بحضورك ، المرة الوحيدة التي قابلتهم فيها بدلا من هروبك إلى شلة خريجي سانت لورنس .

ران الصمت مرة أخرى على الحوار الدائر بينهما . وتنحنحت كلتاهما وارتشفت بعض القهوة ولم تتبادلا النظرات، وارتعش الهواء الدافئ فيما بينهما. حتى الببغاء لوريتا، بدا أنها أحست بالأزمة المنزلية فكانت تصدر أصواتا مكتومة وقليلا من الأصوات الموسيقية من قصرها الصيفي، كما لو كانت تريد أن تنشر السلام بين السيدتين التعستين.

قالت هورني مستأنفة الحديث بينهما:

ـ تقولين إن لدى رغبة في الموت. أظنك تضعين الحذاء في القدم الخطأ ياعزيزتي.

إني أتجه نحو توسيع وإثراء علاقتي بالحياة ، أما أنت فيسيطر عليك موت أمك البطيء، كما لو أنك تحسديتها عليه. إنك تكرهين ماتسميته «دائرة الهيبيز القرويين» من أصدقائي لأن لديهم حيوية ثقافية ولأنهم مقبلون على الحياة مكرسين أنفسهم لكي يحيوا، هنا وهنا، وهنا. (ولمست رأسها وصدرها أسفل بطنها مع كل كلمة هنا.)

أوه، وكل هذه الحيوية المتنوعة سوف تتفجر الليلة هنا مرة أخرى ، أليس كذلك ياهورني ؟.

ـ إن الجو الاجتماعي سيكون أكثر حياة مما سوف تجديه في «شادوجلاد»، ولكن الشيء الوحيد الذي يقل حياة عن أمك هو الجو الاجتماعي في شلة أصدقائك المصائب خريجي سانت لورنس. إلفنستون، لماذا لا تأتين الليلة معنا، بدلا من الذهاب إلى أمك، تأتين بروح مختلفة عن تلك التي جئت بها من قبل ـ أعني أن تكوني رقيقة، طبيعية، صديقة بدلا من أن تشحني الجو بالكراهية والشكوك وحينئذ سوف يفهمونك أكثر قليلا وأنت سوف تفهمين مدى الشغف والإثارة التي أحس بها في اتصالي بجماعة لديها بعض الحيوية الثقافية.

ـ هل تريدين القول بأن خريجي سانت لورنس فاقدو الحيوية وأغبياء ؟

ـ لم أكن أفكر في خريجي لورنس إنني لا أعني شيئا بالنسبة لهم كما إنهم لا يعنون شيئا بالنسبة لي.

على أي حال (واصلت هورني حديثها مستجمعة قوتها) أحس أنه أمر سخيف ومضحك أن نتباهى بشيء داعر ونجعل منه أمرا جليلا، أعني الالتحاق والتخرج في معهد الادعاء والأناقة هذا..!

ـ حسن، ياهورني، إذا كان لابد أن تعرفي الحقيقة، فإن بعض السيدات أصابهن الاضطراب بسبب اللالا كروبيا التي لديك.

ـ الـ .. ماذا ؟

ـ اللاكروبيا هي الاصطلاح السيكاتري للرغبة القبرية لاستخدام لغة تصدم المستمعين، دون مراعاة الجو المناسب.

ـ إذا كنت قد صدمت السيدات ـ وقفت هورني عند هذه الجملة التي لم تكملها لأن حركتها كانت عنيفة حتى إنها سكبت بعض القهوة على غطاء الكنبة الساتان.، صاحت هورني بوحشية حين حدث ذلك، وقد أطلقت بصيحتها تلك مخزنا من التوترات التي تراكمت خلال هذه البداية السوداء لليوم العاشر من أغسطس، وانطلقت كالرصاصة صوب المطبخ لتحضر خرقة مبللة، ثم اندفعت إلى الكنبة لتمسح بقعة القهوة.

قالت إلفنستون في لهجة أسى:

ـ الآن فهمت لماذا هلكت قطعة الأثاث هذه .. إنك تدعكين هذا الغطاء الساتان، الذي صنع من رداء جدتي، بخرقة مبللة كلما سكبت شيئا عليه، وهو ما تفعلينه بانتظام غريب بسبب كراهيتك! ...

ـ مبدئيا، نعم !

هكذا قالت هورني وقد سمعت فقط أول كلمة من اتهام إلفنستون وأكملت :

ـ ثم أمر عليه بعد ذلك «بالمنظف السحري».

ـ ما هو «المنظف السحري»

أجابت هورني بنظرات خاطفة وأنفاس متلاحقة بفعل التوتر والانفجار «المنظف السحري» هو منظف معجزة يعلن عنه جوني كارسون في برنامجه «استعراض الليلة» في التليفزيون.

قالت إلفنستون:

أرى أنك مجنونة حسن سوف أرسل هذه الكنبة لتغطى بقماش في لون القهوة طبعا ليس لدى ما أفعله لحماية حاجياتي من الصيني والأواني الزجاجية من الفوضى والدمار التي تهددها هذه الليلة ! إن تحطيم الخزف الودجود والهافيلاند الذي أمتلكه هو ثمن ضئيل يدفع لتجديدك الثقافي خلال الشهور القلائل الماضية، إذا كانت ستة شهور قليلة ! لا أستطيع أن أرى المستقبل، ولكن لم يكن هذا المكان مجزراً في .....

ـ لماذا لا تضعين خزفك اللعين وهفيلاندك اللعين في المخزن، من يريد أو يحتاج إلى أشيائك اللعينة؟ ...

قالت إلفنستون وفي صوتها نغمة تحذير :

ـ هورني.

فأجابت هورني بمقاطع لفظية داعرة اعتادت استخدامها في كلامها في الفترة الأخيرة.

ـ ياإلهي ، ياإلفنستون، ولكني أعني ذلك فإننا نقتسم شقة صغيرة حيث تحتل الآثار المقدسة لأسرتكم معظم المكان، الآثار المقدسة مثل خزفك الودجود وكريستالك وفضيتك وعليها شعار أمك، كل شيء يخص أمك أو أم أمك موجود هنا حتى إنني أحس كمن يحتل أرضا بغير بحق في خريطة أسرتكم، وآه ياإلهي من رفوف الكتب ! تصوري ارتباكي حين يقوم أساتذة الأدب والفلسفة بتفحص الكتب الموجودة فوق هذه الأرفف ولا يرون غير هذه الكومة من كتب علم الأنساب وسيظنون أنني أنا التي اخترتها للقراءة : «أبرز عائلات الجنوب. المجلد الأول» «أبرز عائلات الجنوب. المجلد الثاني» كتب من هذا النوع ترتفع حتى السقف وتنزل حتى سجادك الأوبسون رفوفا رفوفا.

ـ هورني ، أعتقد أنك تعرفين أنني مستشارة «محترفة في علم الأنساب ويجب أن يكون لدى مراجعي وأن أعمل في هذه الغرفة !

ـ ش ش ، كنت أظن أنك حفظتها في عقلك طوال هذا الوقت ! من هو «المحافظ دنويدي» اللوطي التافه ....، وأي قبيلة سلخت رأس الآنسة إلفنستون، ومن هي عائلة .....

يوم سعيد من أيام أغسطس

- هورنى ! ليس هناك مايشين فى تاريخ الأسر العريقة !

- حسن، إن تاريخ أسرتك يا إلفنستون، وشعارات أسرتك قد جعلوا هذه الشقة مكانا يتعذر الدفاع عنه ولا أستطيع العيش فيه ! إنى ذاهبة للحجز فى فندق شيلزى لعطلة نهاية الأسبوع وسوف تعرفين فيما بعد أين نلتقى لتسوية حساباتنا ودفع تعويض لى عن نصف الإيجار الذى دفعته فى هذا الحرم المقدس حرم إلفنستون !.

خبطت هورنى باب غرفة النوم الكبيرة وحين أصاخت إلفنستون السمع سمعت رفيقتها المتعبة تتحرك فى الغرفة وهى جد مشغولة . كان ثمة حركة دائبة عدة دقائق أو نحو ذلك وقبل أن تترك هورنى حجرتها، قامت إلفنستون عن الكنبة وذهبت إلى غرفة النوم الكبيرة لتستطلع الأمر، اكتشفت إلفنستون أن هورنى قد جمعت بعض الحاجيات فى حقيبة جلدية وكسرت السوستة التى تقفلها، وتركت أدوات التواليت خارج الحقيبة، حتى فرشاة الأسنان، وهكذا تأكدت إلفنستون أن هذه الحقيبة ليست إلا واحدة من حركات هورنى الطفولية.

فى ظهر يوم العاشر من أغسطس اتصلت إلفنستون تليفونيا بقسم الأبحاث فى «المجلة القومية لتسجيل الأحداث الاجتماعية حيث تعمل هورنى وجاءت هورنى على السماعة.

كان الصوتان مفعمين بالحزن وخافتين حتى إن كلا منهما كانت تطلب من الأخرى أن تكرر بعض الكلمات التى قيلت فى المحادثة التليفونية بينهما. كانت المحادثة رقيقة ومهذبة كان الموضوع الوحيد الذى أثار الخلاف بينهما فى هذه المحادثة موضوع حقن شلل الأطفال. قالت إلفنستون ياعزيزتى إذا كان هذا الموضوع يريحك فسوف أذهب لأخذ حقنة شلل الأطفال، ران صمت قصير وبدأ التأثير فى صوت هورنى وهى ترد على رفيقتها.

- تعرفين ياعزيزتى الرعب الذى أحسه تجاه شلل الأطفال منذ أن هاجم ابن عمى إلفس الذى مازال أسير الرئة الحديدية ، ولا تظهر إلا رأسه، مثل رأس ميت، ياعزيزتى، وعيناه الزرقاوان آه ياإلهى حين أنظر فيهما وهو يحاول أن يبتسم لى ، آه ياإلهى من تلك النظرة !

عند هذه النقطة بدأت كل منهما فى البكاء وجاهدت كل منهما لكى تغمغم بكلمة «وداعا» ..

ولكن فى الساعة الرابعة من ظهر ذلك اليوم الحار من أغسطس كان ثمة تغيير مفاجئ فى مزاج إلفنستون. ولما كانت على موعد مع محللها النفسى فقد روت له بدقة عجيبة تفاصيل المحادثة التى دارت مع هورنى فى الصباح .

سألها المحلل بحزن .. متى تتعلمين .. حين ينتهى الأمر ؟

نهض من كرسيه خلف الكنبة التى تمددت فوقها إلفنستون ممسكة بيديها مناديل كلنكس لتمسح أنفها، كاد ينهى الجلسة بعد خمس وعشرين دقيقة فقط، وبذلك يكون قد غش إلفنستون وسرق نصف ما دفعته للجلسة.

بحركة تثير الغيظ فتح الباب لإلفنستون لكى تخرج. خرجت إلى الشارع وهى تبكى فى هذا القيظ. قالت لنفسها «لا شئ، لا شيء» كانت تعنى أنه ليس لديها شيئ تفعله ولكنها حين ذهبت إلى البيت تملكتها روح عدوانية. دخلت حجرة النوم الكبيرة وجمعت باقى حاجيات هورنى بدقة شديدة، وبسرعة شديدة وضعت الربطات الأربع عند باب الغرفة ثم ذهبت إلى غرفتها وملأت حقيبة بالحاجيات التى تلزم عطلة نهاية الأسبوع، ثم ذهبت إلى محطة جراند سنترال لتأخذ القطار إلى اشادوجلاد حيث قررت البقاء هناك حتى تتخذ هورنى الخطوة الأساسية وتخلى الشقة بلامشاكل.

***

حين وصلت إلفنستون إلى أمها وجدتها تعانى مرة أخرى من أزمة الربو ومعها الممرضة. لم تستطع أن تحس أى شىء تجاهها فيما عدا ذلك التفكير المخجل عن وصية أمها الأخيرة. هل تذهب الأملاك كلها إلى الأخت المتزوجة وأطفالها الثلاثة أم تعدل ماما وتدرك أن إلفنستون هى التى تستحق فعلا الدعم المالى فى السنوات القادمة أم هل تذهب هذه الأملاك (أوه يا إلهى) إلى كنيسة المعرفة، ونشاطها التبشيرى فى نيوزيلاند، وهى محل اهتمام ماما فى سنواتها الأخيرة. كانت إلفنستون تعانى من هذا الهم الكبير، وحين خفت أزمة ماما وخرجت من السرير وبدأت تتحدث عن عقيدة كنيسة المعرفة مرة أخرى، استراحت إلفنستون وقالت لأمها فجأة إنه من الأحسن لها، أى لنفستون ، أن تعود إلى نيويورك حيث إنها تركت الشقة دون أن تخبر هورنى، وهو أمر لا يصح أن تفعله مع فتاة عصبية مثل هورنى.

قالت الأم شاكية :

- أنا لاأفهم هذه الأمور التى لا تنتهى مع هورنى، هورنى، بحق الشيطان ماهى هورنى ؟ لا أسمع منك شيئا سوى هورنى طيلة عشر سنوات، أليس لهورنى هذه اسم مسيحى تناديها به، أوه يا إلهى، ثمة شىء غريب فيها، طالما فكرت فى ذلك . ماذا يعنى ذلك؟ لا أدرى ماذا أتخيل !

- أوه ماما، ليس هناك ما تتخيليه . إننا امرأتان غير متزوجتين، عاملتان، ونخاطب بعضنا باسم الأسرة . هذا تقليد بين النساء العاملات فى مانهاتن، هذا كل شىء يأمى...

- أوه ... لا أعرف ...

وسددت الأم نظرة إلى إلفنستون ولكنها حولت الكلام عن موضوع هورنى وطلبت من الممرضة مساعدتها للجلوس على «القصرية».

ثم داهمت الأم أزمة ربو أخرى خطيرة وأصبحت الآن على وشك الخروج منها بعد الإسعافات وقدمت لها إلفنستون سندوتش جبنة مما كانت قد أعدته للعشاء.

ثم تحسنت الأم أكثر واطمأنت حين صرف الطبيب الممرضة.

«لابد أن الطبيب يرى أننى تحسنت».

فقالت إلفنستون : نعم يا ماما كان وجهك أزرق حين جئت إلى هنا والآن يعود إلى لونه الطبيعى.

- أزرق ؟

ـ نعم ياماما ، أرجوانى. إنها حالة يسمونها سيانوزس.

ـ أوه يا إلهى ، سيا ماذا تسميدها ؟

ولما لاحظت إلفنستين أن استخدام هذه المصطلحات الطبية يتعب الأم مرة أخرى أخذت تغير الموضوع وتتحدث عن الروب الذى ترتديه أمها ، وأن لون وجهها قد تحسن وذكرت ماما أنها أهدت إليها هذا الروب مع زوجين من الجوارب المشغولة وغطاء صوف مشغول لزجاجة الماء الساخن بمناسبة عيد ميلاد ماما الخامس والثمانين.

بعد فترة صمت قصيرة لم تستطع إلفينستين أن تكبت الكلام الذى يدور فى رأسها فقالت لأمها إن ابنتها الأخرى، المتزوجة فيوليت تجاهلت تماما عيد ميلادها (الأم)، وكذلك الأحفاد (تجاهلوا هذا العيد) ، تشارلى، وكلم ، وأيونيس ..

ولكن ماما لم تكن منتبهة فقد بدأ مفعول المسكن يظهر الآن وبدأ صدرها يرتفع ويهبط بهدوء مما ذكر إلفنستون بحركة المحيط فى أعقاب إعصار استوائى عنيف.

«غريب أن تظل تقاوم مستر بلاك»

هكذا قالت إلفنستون لنفسها (ومستربلاك ـ أى السيد الأسود ـ هو الاسم الخاص الذى تطلقه إلفنستون على حاصد الأرواح).

ـ «لاسى، هل جاء المحامى لزيارة ماما؟»

كانت مديرة البيت العجوز قد أعدت بعض الشراب من الروم الساخن لإلفنستين وأعطتها مواعيد قطارات الصباح إلى منهاتن.

أحسست إلفينستون ، وهى تحتسى الشراب بثقة فى مديرة البيت العجوز التى توافق ماما. لقد ظلت فى بعض الأوقات أن لدى لاسى نوايا خفية للبناء بعد ماما وبهذا تنال بعضًا من أملاك ماما، بيد أنه الآن، هذه الليلة، بات واضحا لإلفنستون أن المديرة العجوز تعسة الحظ ولن تعيش لترى وفاة ماما . إنها مصابة بداءالربو أيضا، وكذلك بالتهاب المفاصيل الروماتيزمى مع ترسبات الكالسيوم على العمود الفقارى حتى إنها تسير منحنية، الحق أن حالتها المرضية صدمت إلفنستون إذا إنها أسوأ من حالة ماما رغم أنها، لاسى، مازالت تعمل وتتحرك بأمراضها، متشبثة هذا التشبث الحيوانى بالوجود، وهو مالم تكن الفينستون تحترمه لافى ماما ولا فى المديرة العجوز . «لا تستطيع أن تصمد إلى الأبد» وهكذا همهمت إلفنستين بصوت نصف مسموع.

تساءلت المديرة :

ـ ماذا يا آنسة ؟

قالت إن ماما مازالت تسيطر عليها كنيسة المعرفة رغم أن هذه الكنيسة لم تخرج من نيوزلاند حيث تأسست قبل سنة من خلاص ماما حين زارت أوكلاند مع بابا بعد فشله فى النهوض إثر نزع اسمه من سجل رجال الأعمال لتوقفه عن الدفع عام ١٩١٢ .

ـ ماذا ؟

ـ تاكسي ! اطلبى ! تاكسى !

ـ أوه ..

ـ نعم ، لقد قررت ألا أنتظر قطار الصباح إلى مانهاتن بل العودة الآن فى تاكسى سيكون مكلفا ولكنه ...

لم تكمل الجملة التى لو أكملتها حول قرارها بأن تفاجئ هورنى وسط عربدتها مع أصحابها من (جامعة نيويورك) وكانت تفكر بالذات فى الملاحظة التى ستوجهها لأستاذ الفلسفة ذى اللحية.

سوف تسأله، لأسباب شخصية بحتة، هل أنت من أنصار تحرير المرأة ؟

مرت ابتسامة بطيئة على وجهها وهى تهبط السلم إلى القاعة الأرضية فى المقر الصيفى لماما.

هم م م م ..

أحست بالارتياح لهذه الخدعة البارعة حين دست دولارا ورقيا فى يد لا سى المعروقة وهى تغادر البيت.

كان التاكسى أمام البيت.

وحين قال لها «السائق» إن الأجرة إلى مانهاتن ستكون حوالى ثمانين دولارا، طردت إلفنستون السائق بغضب، ولكنها استدعته مرة أخرى بصوت كالرعد قبل أن يتجه إلى الطريق الرئيسى..

فقد فكرت إلفنستون أن ثمانين دولارا أقل من نصف تكاليف جلستين عند دكتور شوابير وكانت تشك كثيرا أن بيتها الصغير فى مانهاتن سيتطهر إلى الأبد من الأمور الشيطانية المزعجة التى يقوم بها أصدقاء هورنى كما أن ...

«نعم، ستثور هورنى فى وجهى كطفل شقى ، ولكننا سنرى »

حين دلفت إلفنستون إلى الشقة فى الشارع الحادى والستين فى مانهاتن، ووجهت بمشهد يختلف تماما عما توقعته طوال الطريق. لم يكن ثمة أى عربدة، ولا أى علامة على الفوضى فى مؤسسة هورنى ـ إلفنستون.

هورنى ؟ أين هى ؟ آه ، هنا !

كانت هورنى نائمة وهى جالسة على الكنبة. كانت تواجه الصندوق الأبله (التليفزيون) وكان لايزال مضاء حتى بعد انتهاء «استعراض الليلة» بل و«أفلام آخر السهرة» لم تكن الشاشة سوى حملقة بلهاء من الضوء بها نقط سوداء، وكانت أشبه بفيلم سالب لعاصفة ثلجية فى منطقة مهجورة مصحوبا بصوت زئير خافت. لماذا يا إلهى تشبه هذه الشاشة العمليات الشعورية واللا شعورية التى دارت فى رأس إلفنستون طوال رحلة العودة بالتاكسى ؟ .. يايسوع . تأملت إلفنستون جسد هورنى الضئيل المنهك وهى نائمة على الكنبة. كان غطيط هورنى الخافت مختلطا بهمهمتها. وأمامها، على مائدة الكوكتيل الصغيرة، نصف زجاجة من الويسكى ، «جاك دانييل ـ بلاك لابل» وكأس واحدة . من الواضح أن هورنى قد سكرت لتنام أمام هذا الصندوق الأبله وحيدة تماما، تماما ..

كانت إلفنستون أمام لغز.

راجعت جهاز تسجيل المكالمات التليفونية بحثا عن الرسائل التى وردت لها ولهورنى أيضا.

كانت الرسالة الوحيدة التى تلقتها (إلفنستون) من أحد خريجى كلية سانت لورنس يعتذر عن موعد غذاء . وكانت الرسالة الوحيدة لهورنى أكثر إثارة . كانت تقول ، فى إيجاز صدم إلفنستون كشئ مهين : «آسف ، لا يوجد عمل، ساندى كوستو . (كان الاسم لذلك الرجل أستاذا الفلسفة ذى اللحية من رفاق هورنى).

أحسست إلفنستون بالتعاطف مع هذه الفتاة الضئيلة المهمومة الملقاة على الكنبة،

يوم سعيد من أيام أغسطس

أحست بالتعاطف يتسلل إلى قلبها دافئا، هادئا، مثل تأثير النبيذ. اطفأت جهاز التليفزيون، هذا الفيلم السالب للعاصفة الثلجية الليلية فى منطقة نائية، فغمر الظلام الحجرة وران الصمت ، فيما عدا شهيق هورنى وهمهمتها وأحياناً صوت الببغاء النائم، التى لا تزال فى قصرها الصيفى فى الشرفة.

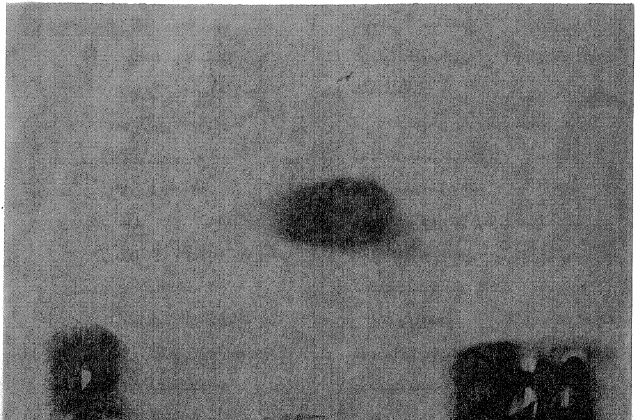
قالت إلفنستون آه، لقد مر من العاشر من أغسطس، هذا شيء ...

ثم فعلت شيئا غريبا، شيئا سوف ترتبك حين تتذكره، وسوف تخبر به شرايير يوم الاثنين أملا فى التبصر بمعناه العميق الذى لابد أن يحمله. لقد جثت على ركبتيها أمام الكنبة وضغطت برفق بخدها على ركبة هورنى البارزة وأحاطت بذراعيها ساقى هورنى النحيلتين. فى هذا الوضع رأت المشهد الجانبى للمدينة يزحف نحو الصباح بنفور غير مفهوم يا إلهى لقد أصابت هورنى بتعليقها على هذه الأبنية الحجرية الضخمة التى تنتشر على طول المدينة وعرضها ، كانت فعلا أشبه بمجموعة من شواهد القبور المظلمة فى مدينة للموتى.

كان ضوء الصباح غير مبال بالمدينة، وكان يزحف داخلها وحولها محملا بكراهية غير مفهومة. كانت المدينة، وكان الصباح، يعانق كل منهما الآخر كما لو أنهما مؤجران لأداء مشهد تمثيلى عن الحب الدافئ، ولكنه بغيض لكليهما.

همست إلفنستون إلى ركبة هورنى بصوت كله مواساة:

«يوم سعيد، الحادى عشر من أغسطس، وبعد غد، لا، غدا، يوم الاثنين، سوف تبدأ فى أخذ حقن شلل الأطفال رغم فزعها الطفولى من وخز الإبرة. ■



قبل شتاءات باردة

عبد المنعم رمضان

سأدخل الغرفة
سوف أحتمى بالسقف والجدرانِ
أفتح الشبّاك كى يظل البحر فى مكانهِ
وكى يظل الساحلُ البعيدُ
والبيوتُ
والأشجارُ
فى مكانها
تفصلُ بين جلْدِ الماء والسماءِ
قاربٌ مستوحشٌ يمر قرب فجوةٍ
والتركواز غارقٌ فى نفسهِ
فى نفسهِ
كأنه مسافرٌ للتوّ
أو كأنه عجينةٌ أعدّها اللهُ ولم تزل ساخنةً
أُجهزُ الكرسىَّ
ظهرُه للحائطِ الذى يواجهُ الشبّاك
ليس يصلحُ الكرسىُّ
أستبعدُه

أجلس فوق الأرض
فى المكانِ نفسِـهِ الذى أعددتُه من قبل
للكرسىّ
كان خشبُ الأرضية اللامع
كان الحائط الذى يسندنى
وكانت العينان
أرخيتهما
أرضيت كلَّ حاجتى إلى سواى
غير أننى سمعت صوت البابِ
قلت: إنه تدافع الهواء نحو البحر
إنه احتباسُه
سمعت بعده احتكاك نعلين خفيفين
يكاد يشبه الفحيح
قلت: ربما هما حذاؤها الأبيض
بعدها بستّ خطوات
بسبع خطوات
ظننت أن الشرفة التى أمام البحر

الشـــعـــر

أصبحت مليئة

هل كان لابد وأن أظل هكذا

سأفتح العينين

سوف أكتفى

هل كان لابد وأن أظل هكذا

رأيت فيما قد يرى النائم

دابة

تعبر فوق جسدى

فقلت: إننى أعرفها

إحدى دواب الوقت

خلفها رأيت بهجة تفر

قلت: إننى أعرفها

وخلفها رأيتنى

كأننى مستوحشٌ يجلس فوق يأسه

أمامه

عجيزة

تظنها آخر حدٍّ من حدود الجوع

تحتها ساقان تشرعان فى اقتطافِ لذتيهما

وتمرحانِ

كان خشب الأرضية اللامع

كان الحائط الذى يسندنى

وكانت العيدان

كنت أنتوى ألاَّ أضيعَ

كنت أنتوى أن أسأل الله الذى يسبقنى

وأن ألومه:

يارب ماذا

هل إذا صنعتنى من طينةٍ

وهل إذا ملأتنى بالحفرِ

انسدلتَ فوق غيمتى

تركتنى أضل فى الطريق

أحتسى دمى

حتى إذا أرضيت كل حاجتى إلى سواى

جلتنى بشرفةٍ

أمامها الساحل والبحرُ

وخلفها الفستان والساقان والعجيزة التى

سألتنى كأننى خصمان: ما علامتك؟

علامتى يارب أننى

أمشى وراء هذا الجسد المسموح أن أشمه

آخذ منه لقمة الإفطار فى الإفطارِ

لقمة العشاء فى العشاءِ

أكتفى به

سألتنى كأننا خصمان: ما علامتك؟

علامتى هى الذى تريده منى ولا أريده

سألتنى كأننا خصمان: ما؟

علامتى هى الخضوعُ،

سوف أدخل الغرفة

سوف أفتح الشباك كى يظل الساحل البعيدُ

والبيوت

الشعر

والأشجار

في مكانها

تفصل بيت الله عن بيوت شعبه

تفصل بين الله عن

أمرتني أن أنزل الغيمة

أن أقودها

وأن أدس طرفها

لكي يكون في التجويف بين الأرضِ

والحذاء الأبيض الخفيف

كي يكون قرب الشرفة التي أمام البحر

كانت الساقان تشرعان

كانت اليد التي تعدّل الشعر

تهم أن تعدّل الفضاء

كان ذلك القماش فوق جسمها

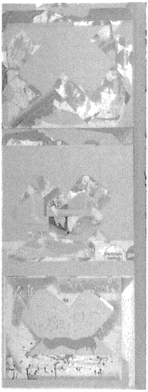
وكان لونه

لكنك احتضنتني

وقلت لي:

لابد أن تكون خارج المشهد

ثم بعدها انصرفت. ■



لوحة للفنان : منير كنعان

الإبداع الفنى استثمار قومى مستقبلى

مصطفى الرزاز

فى النشاط الإبداعى للفنانين استثمار قومى من النوع الثقيل، بمعنى أن عائده فيما وراء المنتج الفنى، فالرسام والمصور والنحات والشاعر والموسيقى والأديب ينتج أعمالا مبتكرة تأخذ وقتاً طويلا ليتقبلها الجمهور... مروراً بالتعجب والرفض حتى يتأهب الذوق العام والثقافة المتطورة لتقبل هذه الثمرات المتجددة، ومن ثم يصبح على الفنانين مواصلة إيقاعهم التجريدى المتواصل ويصبح على الجماهير متابعتهم وتكييف أنفسهم للمصالحة مع هذا الجديد.

لذلك فإن أعمال الفنانين الطليعيين تخاطب الجماهير على مستويات من التقبل مختلفة، نوعية متخصصة تتعامل على مستوى التذوق والنقد والحوار المتكافئ مع الفنان، وهناك نوعية تتعامل بمستويات مختلفة من الوعى والخبرة، ونوعية غير متأهبة لفتح آفاق الحوار.

ومن ناحية أخرى، فإن النشاط الإبداعى يمثل استثماراً قومياً له أهميته من حيث خلق مناخ للإبداع وللحوار الإبداعى بين الناس بغض النظر عن اهتماماتهم بالفن من عدمه... فالشعوب التى تعلو بقيمة الإبداع والمبدعين، وتعى جيداً قيمة ذلك فى التكوين الإنسانى لثقافة المواطن، وانعكاساته على شخصيته وإنتاجه فى أى مجال - شعوب طموحة تتقدم وتخطط لمستقبل حضارى لا يعرف التواكل والخمول.

ذلك يوضح أهمية الاستثمار القومى للنشاط الإبداعى للفنانين فى جميع المجالات فهو ليس استثماراً نوعياً - كما يظن البعض - بل هو استثمار قومى يمس كل قطاعات التنمية البشرية وما يترتب عليها من تحضر واستنارة وازدهار ومرونة وطلاقة وأصالة.

إن الاستثمار القومى فى الأنشطة الإبداعية يساعد على توليد مهنيين وساسة وأصحاب قرار وخبراء فى مختلف المجالات يتسلحون بتلك الصفات المهمة فيمارسون مسئولياتهم بصورة أفضل سواء كانوا من هواة الفن أو محبيه أو لم يكونوا كذلك.

كما أن رعاية الفنانين الطليعيين الذين يعانون من صعوبة التواصل مع الجماهير لغموض أعمالهم ذات الطابع التجريبى - لمسئولية قومية مهمة حتى لا تجرفهم مسئوليات توفير العيش من ناحية، أو يجدوا أنفسهم مدفوعين إلى التنازل عن طموحهم الإبداعى لصالح الاقتراب من آليات السوق



لوحة للفنان : إيفلين عشم الله

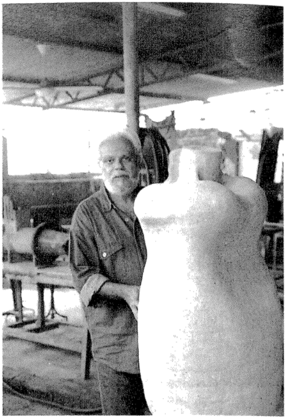
الراهنة من ناحية أخرى، ويكون فى ذلك خسارة كبيرة فى البنية المستقبلية للأمة.

جيلان من رعاة الإبداع

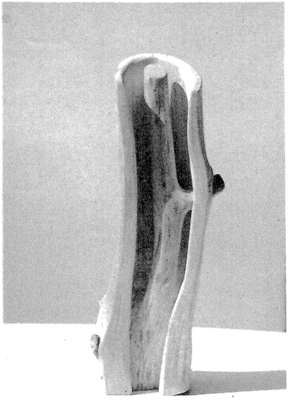
يرتبط مشروع التفرغ فى أذهان الفنانين التشكيليين بشخصيتين رئيسيتين هما الدكتور **ثروت عكاشة** الوزير التنويرى لثورة يوليو، والفيلسوف العلامة المعلم الفنان **حامد سعيد** الذى كان أول مدير للتفرغ منذ نشأته عام ١٩٦٠.

وقد ولد مشروع التفرغ مثله مثل عديد من المشاريع الثقافية الطموحة - عملاقا ثم خملت طاقته وهزلت قيمته الى أن عاود رعايته شخصان رئيسيان عكفا على بعثه وشحنه بطاقة جديدة تواكب المتغيرات الحيوية على الساحة الثقافية المصرية المعاصرة هما **فاروق حسنى** وزير الثقافة المتوقد، والدكتور **جابر عصفور** رجل الثقافة والفكر والمحرك لآليات التنوير فى الدفع الديناميكى للنشاط الثقافى للمجلس الأعلى للثقافة.

وبين ثنائى الستينيات وثنائى التسعينيات هناك ولاشك علامات مضيئة ولكنها لم تستطع أن تنسج منظومة تتفاعل فيها العوامل المحركة للمشروع، ومنهم **روحية القلينى** الشاعرة، و**يوسف الشارونى**: إذ ركد التفرغ كمشروع وصارت سمعته أنه بمثابة نشاط إيوائى خيرى لأفراد من فنانين وكتاب وباحثين لا يربطهم هدف ولا فلسفة ولا



الفنان : محيى الدين حسين أمام أحد أعماله الحديثة



نحت للفنان : وفائى رفعت

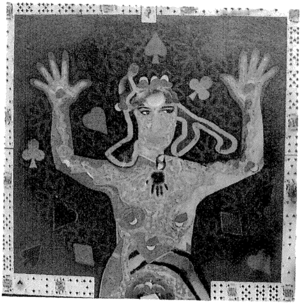
سياسة ولا طموح فصار لوقت قريب برنامجا شكليا لا تجنى الدولة منه إلا الأرقام الإحصائية التى تزين بصورة شكلية التقارير السنوية لوزارة الثقافة.

وفى سنوات الازدهار الأولى تألق الفنانون **جاذبيّة سرى وتحية حليم ورمسيس يونان وفؤاد كامل وعبدالوهاب مرسى وإنجى أفلاطون ومصطفى أحمد ويوسف رأفت وراتب صديق ومحمد هجرس وآدم حنين وأحمد عبدالوهاب وكمال خليفة ومحيى الدين حسين وناجى كامل وعبدالحميد الدواخلى وعبدالفتاح عيد ومحمود موسى ومحمد صبرى ورفعت أحمد ونبيل الحسينى ومحيى الدين طاهر وجمال محمود وعبدالبديع عبدالحى.**

فى تلك الآونة قدمت منظومة التفرغ فرصا حقيقية لرعاية مواهب، وتمكن فنانون ممتازون من الإنتاج والإبداع بعيدا عن العوائق المادية والاجتماعية التى تعترض طريقهم وتحد من إنتاجهم الإبداعى، وفق برنامج حافل أعده **حامد سعيد** شمل لقاءات دورية للمواقع والصروح التراثية المصرية القديمة - القبطية الإسلامية بصورة دورية متواصلة وكانت اللقاءات المهمة تشحن الفنانين بالوعى والثقافة والخيال وتدربهم على التأمل الفعال والمناقشة النشطة واختزان المعنى من وراء معيار القيمة، وجذور الثقافة الفنية المصرية وعلاقة الفن بالحياة - المجتمع والعقيدة والدوافع التعبيرية والتقنية والإبداعية والتحولات الأسلوبية فى السياق التاريخى للشخصية المصرية.

وكانت حلقات الدرس والتتلمذ على يد المعلم **حامد سعيد** فى المواقع التراثية، مضيافة يلتقى فيها مع المتفرغين الفنانين ومحبى الفنون فامتدت أشعتها لتؤثر فى دوائر أوسع من فنانين وأدباء مهمين أمثال **يحى حقى** ومفكرين أمثال **بدر الدين أبو غازى** وأساتذة فنون **كعبد الغنى الشال وعايدة عبد الكريم وعدالت كمال** وأطباء ومثقفين متنوعى المشارب والاهتمامات، وكانت هناك لقاءات أخرى حول أعمال المتفرغين الإبداعية فى مراسمهم أو فى قصر المانسترلى على رأس جزيرة الروضة فى الصالات ذات الطابع العثمانى وفى الشرفة المطلة على منظر فريد من التقاء فرعىْ النيل عند مدخل المعادى - عالم مشع - متنافىٍ - ومناخ إبداعى حق.

وامتد طموح الجماعة إلى رحلات فى جنوب الوادى الأقصر وأسوان والواحات للوقوف على الملامح البيئية وعلى التقاء البيئة الطبيعية بالبيئة المصنوعة وعلى الحرف والأزياء والزخارف والطرز المعمارية وكان للنوبة إبان تأهبها للغرق موقع محورى فى اهتمامات المجموعة وعبر البحار طوفت المجموعة فى رحلات ثقافية وفنية فى أوروبا لتفقد المتاحف والآثار ولعرض أعمالهم من أن لآخر ومن الأحداث المهمة فى تاريخ التفرغ ودوره فى انتشال المواهب المقموعة



لوحة للفنان :عصمت داوستاشي

ما يسوقه لويس عوض حول معاناة **رمسيس يونان** وتعرضه للتشرد إلى أن تحايل على منحة فرصة التفرغ – للترجمة – مما أتاح له أمانا استقرارا مكّنه من أن يبدع أفضل ما أبدعه من لوحات رائعة.

وقد واصل نظام التفرغ رعاية عدد من المبدعين وإعطاء فرصة لأعداد ولكن دون تلك الروح الدافقة **لحامد سعيد** والرعاية والمتابعة الشخصية **لثروت عكاشة**، فأصبح مجرد فرصة لأعداد معينة أغلبهم غير مبدعين. اعترت المشروع شيخوخة حولته إلى مشروع (عالة) أكثر من كونه مشروعا دافعا ومحركا ، كما غيمت التواكلية البيروقراطية على الإعلان عن المنح الجديدة، أو عن الحاصلين على التفرغ ليبقى الموضوع وراء غلالة غامضة حالت دون تجديد المشروع بالعناصر الوثابة، مما أدى إلى عزوف الجادين والطموحين عن الاقتراب من دائرته.

وفي عام ١٩٩٤ بدأ المجلس الأعلى للثقافة في حملته التطهيرية لفلول البيروقراطية والتواكلية إلى تسليط الضوء على المشروع القومي الذي تهالك، وتم إعداد خطة ولائحة جديدة تتسم بالواقعية والطموح والموضوعية.

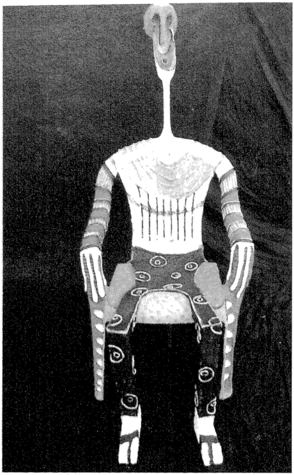
وفي صيف ١٩٩٥ أقيم المعرض الأول للمتفرغين وفقاً للنظام الجديد، وكان معرضاً متميزاً في مستواه، ولكن الوقت لم يتسع حتى يطّلع جمهور الفن ونقاده وأساتذته وتلاميذه على إبداعات المتفرغين التي عرضت لأيام محدودة في قاعة الهناجر بدار الأوبرا ... وهذا هو المعرض الثاني للمتفرغين بعد أن وصل النظام إلى كامل صحته وتجاوز رواسب مرحلة الركود فجاء يضم أعمال ٢٥ فناناً في مجالات التصوير والنحت والحفر الجرافيكي والنقد الفني من بينهم علامات بارزة في الحركة الفنية المصرية **كمنير كنعان وجورج البهجوري ومحيى الدين حسين ومحمود عبدالله وعوني هيكل ووفائي رفعت**، إلى جانب فنانين متوقدين أمثال **عصمت داوستاشي وإسماعيل عبدالله ومصطفى عبدالوهاب وجمال عبد الناصر أبو اليزيد وطارق الكومي وإيفيلين عشم الله وأحمد شيحا وسناء موسى وناجي تادرس وهشام نوار** ومجموعة أخرى من الفنانين.

ونظرا للعدد الكبير للفنانين المتفرغين - ٢٤ فنانا وفنانة، فقد رأيت أن أختار ستة من الفنانين الراسخين من بينهم وأجرى محاولة الدخول في أعماق شخصياتهم ومواقفهم وإبداعهم لأطلع القارئ على شريحة من هذا الاستثمار المدهش لمشروع التفرغ فاخترت **جورج البهجوري ومنير كنعان، ومحيى الدين حسين، ووفائي رفعت، وعوني هيكل ومحمود عبدالله.**

جورج البهجوري:

فنان تمكن من الصمود أمام تيارات الرسم التجاري والكاريكاتيري والتكليفات والدوران مع تروس المطبعة الطاغية التي لا تهدأ أو لا تتوقف.

تلك التيارات التي جرفت عشرات الفنانين الموهوبين خارج نطاق الإبداع التشكيلي المطلق والمنزه عن أية قواعد تحد من حريته. إن تمتع **جورج البهجوري** بمساحة واسعة من التلقائية وقدرته العجيبة على الحفاظ على طفولته، أدت إلى أن يكتسب بعدا إنسانيا في أعماله، فقد عبر عن أطفال الحواري وصبية الورش والناس المعتادين غير أنه قد أسقط عليهم غلالات شفافة من وجوه وأطراف الأيقونات القبطية ووجوه الفيوم وشخوص نسيج القباطي بألوانها الأرضية، المشبعه بأكسيد الحديد والكروم والأبيض الفضي، ويعطي **البهجوري** أولويات عواطفه وطاقته الإبداعية للإبداع التصويري بينما يؤدي ما تسبب في نجوميته - الكاريكاتير - في أوقات الأداء الآلي أو ما شابه، ومنذ عدة سنوات يعكف **البهجوري** بمرسمة بباريس على خوض تجربة أكاديمية مر بها معظم إن لم يكن جميع فناني النصف الثاني من القرن التاسع عشر والجزء الأول من القرن العشرين وهي اعادة رسم لوحات الأساتذه القدامى من عصر النهضة حتى التأثيرية وما بعدها، وفي



لوحة للفنان : جمال عبدالناصر أبو اليزيد

الوقت نفسه كان **البهجورى** ينحت تجربة موازية فقد ملأ الجدار الأكبر بمرسم باريس بقطع من الورق المعجن على شكل وجوه قبطية الطابع متشرذمة الخدود والحواف ملونة بطاقة عاطفية غامرة، بعيونها الشاخصه المشتاقة إلى السلام والدعة. وها هو ذا **البهجورى** يقدم فى معرض الفنانين المتفرغين خلاصة تجربة عام من التفرغ للإبداع الفنى منحته إياها وزارة الثقافة المصرية.

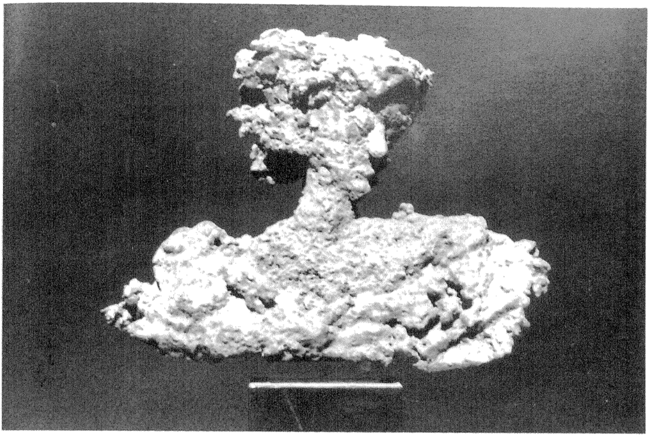
منير كنعان :

فنان له موقع مركزى فى حركة التمرد التشكيلى فلقد اخترق مرعيات الجمال ولمسة الفنان وممالئة الجمهور وتخلى عن مهاراته كرسام قدير أغرق بها صفحات آخر ساعة فى زمن عراقتها وزهوها، وانخرط فى جماعات التفجير الثقافى المصادم مع **رمسيس يونان وفؤاد كامل والتلمسانى وجورج حنين** وأبو **خليل لطفى**، ولعب بالأسلاك ونفايات الخامات والغرابيل فى عمل تركيبات جلونية فوضوية عبثية تسخر من كل جميل ومتقن وذى معلى، إلى أن بلور تكويناته الكولاجية التى يشكلها من قصاصات الورق المقطوعه والمنزوعة والممزقة تختلط ببقع سائلة من لون غليظ، كأنما هى أمطار حمضية أو من القار السام يلوث الملصقات ذات الألوان الزاهية الصافية والعلاقات المطبوعة عليها بدقة وإحكام جرافيكى.

أعمال **منير كنعان** الحديثة تنطوى على سر لايسبر غوره إلا ذو عين ثاقبة ووعى نافذ. ألا وهو أن فى الفوضى الظاهرة والتلقائية البادية تكمن قوة مغناطيسية لامة وطاردة فى آن واحد وهى تكون صورة خفية من «كاليدو سكوب»، توارى خلف تلك الملصقات، باد ومحتجب فى آن واحد، وهو بذلك يوظف طاقتين تعاند إحداها الأخرى، ويروضهما لصالح تكويناته المطلسمة؛ طاقة التنظيم الرياضية مركزية الطرد واللم، وطاقة الفطرة والحركة الانتحارية، بعمله هذا وبسلوكه الدافع لهذا العمل يصبح ساحرا يروض المتضادات ليصنع هارمونية ذات مذاق خاص تنبض بحرارة ودفء المشاعر وعمق الوعى والخبرة فى آن واحد. وقد حصل الفنان الكبير على جائزة الدولة التقديرية أثناء كتابة هذا المقال، فله منا أخلص التهانى.

محيى الدين حسين

عملاق آخر نحت لنفسه مسارا حمل مشقته ورسخ لنفسه موقعا رياديا فى فن أو قل - كما يحب هو - فى تقنية الخزف ليبث فيها عواطفه وأحاسيسه وأشعاره فى مجسماته ومسطحاته التى يعالجها بمتغيرات الخامات الغفل والصقيلة، العارية والملونة والمختزلة ويقسيها بالنار والدخن، أثار **محيى حسين** إعجاب الحركة الفنية فى مصر ببحثه فى فن الإناء فى الستينيات، والسبعينيات، ثم فجر قضايا فكرية، مبدئية تتعلق بالفوارق المفتعلة بين الفن الجميل والتطبيقى، وبين الخزف كمادة ووسيط تعبيرى مثله مثل الأحبار



نحت للفنان : ناجى فريد تادرس

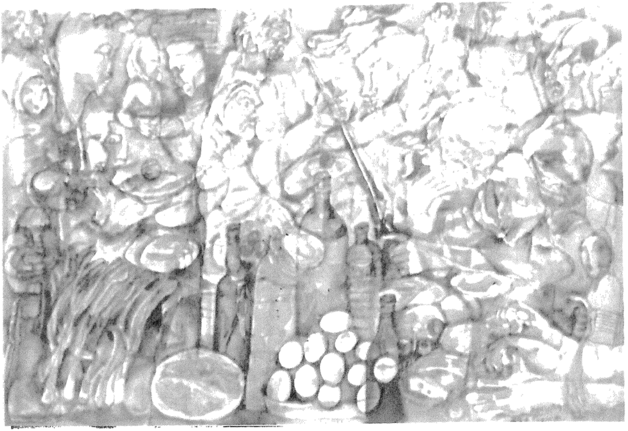
والألوان والعـجـائن واللدائن والمعـدن والأحـجـار، وبين الخـزف كـمنتج نـهـائى فى حد ذاته كما هو شائع بالخطأ. وترجمةً لهذه القضايا الفلسفية على المستوى الإبداعى، تألق **محيى الدين حسين** فى فن ـ البلاطة ـ المنحوتة البارزة الغائرة الملونة، ذات الملامس المدققة والتلقائية، البلاطة كوحدة تكرارية، والبلاطة كجزئية فى تكوين فريد، جداريات مدهشة ذات عناصر تراثية مصفاة ومتحررة زخرفية، وتعبيرية وفق مقتضيات التصميم والمكان الذى يحتويه العمل وفى معرض أقيم بصالة إخناتون بمجمع الفنون خصصه لهذه التجربة فى أوج نضجها التعبيرى والتشكيلى، وفى الندوة المصاحبة للمعرض، احتدمت المناقشات الطليعية مع المحافظة التى ناقشت أهلية ومشروعية الأولويات، مثل: هل من حق الخزاف أن يكون فنانا؟ رساما؟ ملونا؟ تعبيريا؟ نحاتا؟ إلخ... خرج المحافظون وقد وقر فى أذهانهم أن **محيى حسين** قد خان حرفته ـ الخزف ـ وانحاز إلى الفن والفنانين على حساب الخزف والخزافين، بينما أيده وبحماس نفر قليل يؤمن بأن الفن وحده لا تفصله خامة أو وسيط أو طريقة أداء وإنما كل ذلك مجرد مركبات لحمل أفكار وأحلام ورؤى الفنان.

وما إن مرت سنوات قليلة حتى توج **محيى الدين حسين** حركته التنويرية بأن أسس ترينالياً دولياً للخزف المعاصر فى مصر، ومع النجاح الساحق ـ غير المسبوق للترينالى الوليد فقد شهد إفلاس عديد من المرتبطة أسماؤهم بالخزف فى مصر وفى أكاديمياتها التعليمية أمام الضوء المبهر الذى كشف كثير من قصور الفهم والتصور وفى الندوة الدولية المصاحبة للترينالى الأول، المقولات الساذجة تطرح نفسها، ما هو الخزف؟ وهذا ليس خزف، إنه فن تشكيلى، وهل يجوز أن يخرج الخزاف عن إطار الإناء؟ والأشياء الوظيفية؟ ـ جرف الترينالى كل هذه المفاهيم المقيدة أمام قوته وصلابة مؤسسه وقوميسيره **محيى الدين حسين** ـ كان التمثيل المصرى فى هذه المناسبة متواضعا أمام المشاركات العالمية باستثناءات نادرة ولكن شرارة المواجهة فى هذا «الترينالى» الذى ما لبث أن تحول لنجاحه إلى «بينالى»، أطلقت عنان الحرية للفنانين المصريين فأصبح الجناح المصرى فى الدورة الثانية طليعيا أدهش المشاركين من الدول المختلفة برفعة مستواه، وبذلك يمكننا القول بأن بينالى الخزف قد أثمر مفهوما تقدميا لفن الخزف أخفقت كليات الفنون المختصة فى وضع أسسه، وقد أسهم هذا الجهد فى وضع إبداعات الخزافين المصريين على خريطة هذا الفن فى العالم.

وفى هذا العرض يقدم الفنان **محيى الدين حسين** خلاصة تجارب متواصلة منذ بداية التسعينيات ترمى إلى استلهام الطبيعة الصافية وكائناتها الحية متداخلة فى نتائج تجربته فى النحت وفى الإناء فى آن واحد، كما يعرض عملا فذيا هيكليا مركبا من عشرات القطع. فى هذا المعرض تطل النزعة التعبيرية والسجية من أعماله ذات الطابع العضوى الإنسانى.

عونى هيكل :

فنان كرس حياته للفن نحاتا ورساما عميق الثقافة، وعمدة أتيليه القاهرة لسنوات عديدة عايش عديدا من الأدباء والشعراء عن



نحت للفنان : چورج البهجورى «لقمة هنية .. تكفى ميه»

كتب وقصفوا الحوار الساخن الغاضب، الغامض والفوضوى فى مرسمه المزدحم بالكتب وبأعداد ثمينة من مجلات الستينيات المجلة والثقافة، الفكر المعاصر، الهلال، والجدران مغطاة برسوم محكمة بدرجات القلم الرصاص والكتل والشظايا وعينات الخامات تملأ أرضية المكان، جو غامض ولكن دافئ ومرح، أعماله تستوحى **جوته وشكسبير وديكنز** ويصادق **أمل دنقل** ويؤازره فى مرضه البائس حتى يسلمه القبر، ويصادق **مجيد طوبيا** وعشرات آخرين من المفكرين والحالمين والحانقين والبائسين واليائسين، وهو هو ذاته بوهيمى فى أحد جوانبه بروتوكوليًا فى جانبه الآخر.. آماله وكبير فرصه محبطة يعيش بالكاد ليومه غير عابئ بالغد ولذا فإن التفرغ فى قالبه الجديد يعد حبل إنقاذ له.. يعرض جانبا من حلمه مشروعات لتجميل المدن الجديدة، بذورًا يلقيها ولا يعرف من ومتى يرعاها لتثمر.

وفائى رفعت :

إنسان حالم مسالم صامت فى الأغلب تأملاته لا تحتاج إلى مخططات أو مسودات، تختمر ـ تتبلور داخل رأسه ثم تترجم نفسها في كتل وعروق وبزوز وفروع وشرائح الأخشاب.

علاقته بالأخشاب فريدة فهو يربيها بطريقته ويصبر عليها حتى تلفظ عصارتها وتتطهر من عوامل التداعى فيشتد عودها وتجف فتصبح متأهبة لترجمة أحلامه يعدها بصورة شبه طقسية ويضعها أمامه بعد تمام تأهيلها لشهور وربما لسنوات يتفرسها ويسلط عليها أشعة تفكيره قبل أن يقترب منها بأزاميله ومبارده ومقاطعه، وحينما يرى فكرته تتراكب وتتوازى مع قطعة ما ـ يشرع فى إعمال أدواته لإزاله الشوائب واستبقاء الجوهر. ومن ثم تأتى منحوتاته الخشبية بما هو غير متوقع تتلوى العروق وتتضافر وتطل من فتحات كامنة فى أصل الكتلة، توافق عضوى بين الغفل والمهذب، استيعاب إنسانى للطاقة العضوية والقانون البدائى لنمو كتلة الخشب، مع إسقاط الفكرة المستجدة التى يعايشها. إن قضاء بضع دقائق فى أتيليه الفنان **وفائى رفعت** ـ المعتمة التى يدخلها الضوء من نافذة كبيرة تطل على عمائر عريقة وجدران متهالكة ثقوبها كالذكريات موحية، الضوء يدخل فى حزم مركزة تحول الحجرة إلى ما يشبه المسرح الميتافيزيقى، يتمركز الضوء قدريا على قطعة من النحت أو بعض الأدوات التى يطرق بها أزاميله وهى مصفوفة كالأوانى التراثية، أوعلى ذراع الفنان وجزء من وجهه وجزء من كتلة النحت التى يتعامل معها موثقة بأداة الربط على منضدة العمل، أو على شظايا وبقايا الأخشاب والأوانى المبعثرة فى أرضية الحجرة.. جو موح حقا كملاجئ العرافين.

محمودعبدالله :

شخصية أخرى متميزه ذات تكوين سيكلوچى وثقافى فريد.

الفنان **محمود عبدالله** يتحدث كشخصية مسرحية حتى حين يحدث أبناء وأقرب أصدقائه، لغته مثالية محسوبة، غزير القراءة، مدقق كالعالم الطبيعى رأسه محشو بالنظريات والتصنيفات لتيارات الجرافيكا وقادتها فهو بذلك باحث ـ «حنبلى» وهو كالجهاز الدقيق ـ ملتزم محافظ بروتوكولى



نحت بوليستر للفنان : هشام نوار ١٩٩٧

ولكن هذا الجهاز به سلك عندما يهتز ينفصل **عبد الله** تماما عن العالم ويتوه عن التزاماته بصورة تدعو إلى الخوف وتهدد الثقة. تلك المكونات الشخصية تنعكس تلقائيا فى مسيرته الإبداعية، فهو أحيانا كالمحرك فى لملمة الزملاء لعمل مشترك كتأسيس جماعة التجريبيين مع **مصطفى عبد المعطى**، وأحيانا يغيب لسنوات طويلة عن الساحة حتى يكاد ينساه أقرب أصدقائه ليعيش فى «أوربينو» يعمل ويحلم ولا يعمل ولا يحلم ، ويعود كالتائه الذى وجد دياره ، شوق وحنين وذكريات وبرامج تتواصل وتنقطع - يدرس هنا ثم ينقطع ويدرس هناك ثم ينفصل، ينكفئ على حملة محمومة بين الأحماض والأحبار والقلفونية وما شابه وألواح الزنك واللباد والورق المندى والعدسات المكبرة ودوارات الهواء للتطيف وللتجفيف وصرير ماكينة الطبع وما تتطلبه من حركة دواره بكامل الذراعين، ونظرة الصقر لفحص النتيجة، تجانس التحبير والدرجات الظلية، حدة الخطوط والشبكات ومطابقة المستنسخات وحل المشكلات التى تحول دون ذلك لحظيا، وأحيانا أخرى يكرر **محمود عبدالله** وقته ليله ونهاره فى عمل طباعى ثقافى تجارى الطابع ككتالوج ومطبوعات افتتاح دار الأوبرا الجديدة أو بينالى القاهرة الدولى الأول، أو مهرجان القومى للمسرح، أو لخدمة شركات الإعلان تجارية وتسويقية بحتة، وأحيانا أخرى ينكب على عمل لوحات تصويرية ذات تصميم جرافيكى محكم به أشباح من الحروفية العربية - لا تقرأ ولا ملامح لها - محورة مطوعة إلى بنائه التكوينى الخاص بمجموعات ألوان فريدة ومفاجئة تمثل بحثاً عميقاً فى علاقات غير مؤهوله من المجموعات اللونية ذات الدرجات الجيرية إلى جانب حركة تدافع العناصر فى اتجاهات متوفرة على سطح اللوحة.

إن التجارب الإبداعية لكل من **عصمت داوستاشى و اسماعيل عبدالله ومصطفى عبد الوهاب وجمال عبدالناصر وأبو اليزيد، طارق الكومى، إيفلين عشم الله ، أحمد شيحا ، سناء موسى، ناجى تادروس، وهشام نوار** وبقية مجموعة المتفرغين بالتمايز النوعى لكل منهم فى اتخاذه وسيط وأسلوب ومنهج تفكير يعكس خبراته الفنية ومكوناته الشخصية والثقافية يمكن أن تكون مجالا لدراسات مدققة واسعة يضيق بها مقام هذا البحث، وذلك يوضح مستوى الثروة القومية، ونوعية الاستثمار الثقافى فى منح أولئك المبدعين منحة التفرغ للإبداع الفنى التشكيلى، وبالنظر إلى ثراء التنوع والأصالة والجدية والعمق فى هذا المعرض السنوى للفنانين المتفرغين وفقا للنظام الجديد الطموح الذى وضعه المجلس الأعلى للثقافة، مما يؤكد موثوقية التجربة ومنهضتها المتجددة.

إن هذا المعرض معرض مهم يقع فى نهاية موسم لاهث نابض بالنشاط، وتبشير لموسم جديد للنهضة التشكيلية المتفجرة بأجيالها المبدعين والمعارض والندوات وورش العمل والملتقيات، التى تجد فى مجمع الفنون بالزمالك صدرا رحبا لفعالياتها، هذه فرصة نادرة لرواد المعرض من محبى الفنون لمشاهدة مختارات منتقاة بواسطة الفنانين المتفرغين أنفسهم، من بين محصول إبداعى لعام كامل. ■

السحابة التى فى المرآة

جمال القصاص

بكلِّ الطُّرقِ
حاولتُ ابتكارهُ
أواستعادتَهُ

كنتُ آخرَ الطُّلابِ فى حصَّةِ الحسابِ
قال لى المدرسُ:
قلبكَ لا يقبل القسمةَ على اثنينِ.

مشيتُ..
لم يكن خوفى
ولا الخرائبُ الخرساءُ
ولا الإشاراتُ التى تشبهُ اللعنات.
خطوةٌ.. هنا
أو خطوةٌ.. هناكَ

كلُّ الحساباتِ بلا ثمنٍ
لكننى - دائماً - أعودُ
إلى نفسِ النُّقطةِ
فى نفسِ الكراس!

*

سيأتونَ..
معظمهم بأربطةِ عنقٍ جديدةٍ
وأحذيةٍ لمّاعةٍ.
وبعضهم لم تنبتْ لحيَتُهُ الشّعريةُ بعد.
ومنهم من شاخَ فى سِنِّ البلوغ.

سيطيلونَ النَّظرَ كثيراً
فى رقائقِ الإطارِ
وشفاهِ الطّحلبِ الثّلجىِّ
ويلوكونَ شيئاً
عن ستائرِ النصِّ
وأنوثةِ الحداثةِ.
وكالعادةِ..
سيصيحُونَ:

الشـــعـــر

جميل

مدهش

كلُّ شيءٍ على ما يرام.

وفى آخر الَّيلِ

وحدك..

تغرقينَ فى شَهْدِ الملكة!

*

العصافيرُ التى تنامُ

فى أطرافِ القميصِ

وهى تقبِّلنى على عجلٍ

أفْشَتْ لى بالسرِّ.

لم تكنْ تزقزقُ

لم يكنْ فى منقارها حبيباتُ النَّدى

أو أعوادُ القشّ

كانتْ تُضَمِّدُ أنفاسَهَا

من شظايا ضحكتِكِ.!

*

بلا خوفٍ

سأعتادُ وحشيتك

وظلِّىَ الذى ينْبَحُ خلفىَ كلَّ صباح.

بلا خوفٍ

سأطاردُ عطركِ المجوسىَّ

دون أن يجفَّ ريقى

أو أسقطَ فى الحفرةِ نفسها!

*

السَّمكةُ التى تحبسينها فى الإناء

لن تبتكرَ العلاقةَ

فقطْ.. أخرجيها

سوف تتسعُ كطيفٍ

أوحقلِ رؤيةٍ

أو قوسِ ماء.

أخرجيها.. إذنْ:

لأتأكدَ أنكِ بلَّعْتِ الطُعْم.

*

نفس الرغبة

ستظل تراوغنا إلى الأبد

ولا أحد يمكن أن يكون أنا

لا أحد يمكن أن يكون أنتِ.

ليس ثمة نهاية محّددةٌ

فقط.. سنظلُّ نراقبُ

وننتظرُ:

صرخةً يمكن احتمالها

*

الدَّرجةُ الصِّفْرُ فى الكتابةِ

تَصْفَرُ فى مِلْحِ الطقوسِ

الشعر

لم يمتْ المؤلفُ..
وليس من موروثاتِ الخِطَابِ
أن أقولَ: أحبُّكِ..
فعلها الكثيرون قبلى
بصيغٍ عديدةٍ..
ثم إنها عُقْدَةٌ كلاسيكيّةٌ.

حبذا لو تناولنا العشاءَ.. الآنَ
لو وخزنا بهذه الإبرِ الصِّينيةِ صبَّارَالشَّرفةِ
حبذا لو خرجنا من ألفةِ اللغةِ
إلى
ألفةِ
الفعل!

*

أخيراً..
حظِىَ السَّريرُ بجرعةٍ من النَّومِ
أخيراً..
الكاسيتُ يعملُ بهمَّةٍ شديدةٍ.

تَمَهَّلْ.
سأضعُ وسادةً أخرى
وأثبِّتُ أوتادَ الخيمةِ
تمَـ..هَّلْ.
تمارينُ الصَّباحِ أرهقتْ ركبتىَّ
والورقُ يئزُّ..

كم ملعقةً من العسل تكفى؟

* هل ثمة ملعقةٌ للعسل؟!

*

كدتَ تحرقنى فى فمكَ
خاصةً وأنتَ ترفعنى لأعلى البرجِ
هكذا
هكذا
هـ
ك
ذا

شَعْرِكِ يضوى على ركبتىَّ
وجسدكِ شَرَكٌ.

* هل ثمة شَرَكٌ فى الحبِّ؟!

*

الشُّرفةُ ترفُّ فى عُرْيِّها البحرىِّ
المسافةُ بين قلبكِ وحجرة النَّومِ
هى نفسُ المسافةِ..
بين الرأسِ وبين الجسد.
ضَحْكَتُكِ..
دائماً تذكرنى برقَّاص الساعةِ القديمةِ
سأضعُ قُفْلا على فمكِ
وأنسى المفتاحَ ـ كالعادةِ ـ
تحت لسانكِ.

الشعر

ترى..

فى أىّ صبحٍ تستحمُ البحيرةُ؟

* هل ثمة بحيرةٌ تستحم؟!

*

الكراسى جذوعُ امرأةٍ

تتلوى فى عنق الإيقاعِ

ومرائى الأبيضِ والأسود تريكنى

لا أحبُ رائحتك

وهى تنزلقُ عبرَ كلِّ هذه الأسلاكِ

لأنها ـ ببساطةٍ شديدةٍ ـ تعنى

أن الحريةَ مرضٌ..

يصعبُ الاستشفاءُ منهُ!

*

طائرُ الفخّارِ..

يبتسمُ فى لباقةٍ غيرِ مسبوقةٍ

المفتاحُ مخبأً فى كومةِ الملابسِ

ربما فى الدولابِ

تحتَ السجادةِ

فوق رفِّ البهارِ.

المفتاحُ كان ها.. هنا!

بهدوءٍ..

تحسسى صدركِ.

* هل ثمة طبيعةٌ صامتة؟!

*

أستعيرُ من أمى مكعباتِ السُكّرِ..

علَبَ الحواديتِ

ومراجلَ الدمعِ.

بينكما شىءٌ لا يرى

لكننى أكادُ أتحسَّسَهُ

كلّما انطفأ عودُ الثّقابِ!

*

الخلفيّةُ محايدةٌ

والجسدُ مثقلٌ بصفاتهِ

والمثلثُ جامدٌ فى مائه

والوردةُ مرتبكةٌ فى دسائسِ الظلِّ

لا مبررَ لتهشيرِ النهدينِ

كلُ هذهِ الأعماقِ الوهميّةِ خارجُ الحلَبةِ.

معذرةً..

أنتِ عصبيةٌ جداً

والحصى يصبحُ رقيقاً

كلّما داستهُ قدمٌ عاريةٌ!

*

قدحٌ من الجعَةِ وثلاثةُ أرغفةٍ

هل تكفى الرحلةَ

هل يَصلُحُ الشاعرُ..

الشـــعـــر

من أى نافذةٍ يتزلقُ الخيطُ، المفاتيحُ نوّاسة السرِّ، لا أستطيعُ تحملَ هذا الهواءِ فى جسدك، لا أستطيعُ تحملَ نفسى، سيرتدُّ إلينا القناعُ، كيف نخفى ملامحنا، كيف نعبرُ، شجرُ النحاسِ يورقُ على فم الأخدودِ، يقْشعرُ فوق جسدينا، هل نستمرُّ، إلى أى أكذوبةٍ تنتمى ورطتُنا، أحكمى السلاسلَ بلطفٍ، لا تنخدعى بارتعاشاتِ الطقسِ، فى أطرافِ الجنازةِ سأكون وحيداً، يمكننى تشمّمَ بشرتك، لا تبتعدى، لن يطيلَ الكهنةُ الطقوسَ، بعد دقيقةٍ ستصمتُ النّواقيسُ، ستخفى التّمائمُ، ليس فى المعبد سوى زهد الحجرِ ووشاحِ العرّافِ، كيف أجلسُ فى القبرِ وحدى، كيف أُلملمك من الجهات كلّها، لن أقول مرّ أسبوعٌ أو شهرٌ، مرّ عامٌ أو بضعُ عامٍ، أغلقى عينيكِ: هل مازلتُ قادراً على الموتِ، هل أسمع شيئاً أبعدَ من ندى صوتك، لا أصدّقُ شكاوى الفلاحِ الفصيحِ، أشكُّ فى تجاويفِ الصدرِ، فى مشاتلِ الجمالِ، فى مداخل الحديقة.

قدحٌ من الجعةِ وثلاثةُ أرغفةٍ.

هل بدأتْ الرحلةُ، هل يدى هنا، سأفترض أننى قد هبطتُ، لا تفتشى فى عظامك، لا تتقبى المجرى، الصّباحُ النائمُ فى شفتيك، ارتعاشة الفخّارِ، مساقطُ النّورِ.. من أى نافذةٍ سينزلقُ الخيطُ، تعبتُ من أغانى الرعاةِ، من ٣١ جزيرة العربِ، من ملوحةِ الحنانِ، لا عصافيرَ فى علبِ الدواءِ، متى يفرغُ الرسّامُ من حافةِ الفراغِ، من ذاكرةِ القاتلِ النشوانِ، من لهب المجزرة؟!

أشعر بالفقد.

لكن هذه المرّةَ، سأكون على أتمِّ استعدادٍ، يخيّلُ إلىّ أنكِ هنا، تعبثين بالمفاتيحِ كعادتك، لصمتك رائحةُ الخبزِ، هل ستمطرُ، أصابعك تكادُ ترتجفُ، السحابةُ التى فى المرآةِ، هل هى من آثارِ أقدامك فى الممرِ، أم من شهقتك تحتَ شجرة الحنّاءِ، سوف يهمسُ القميصُ، سوف تشتعلُ الخطوطُ، الحظُّ لن يعاكسنى، هل ضروريٌ كلُّ هذا الطّوافِ.. لم يكن لبورخيس عربةٌ حمراءُ، ولاالبرتقالةُ المجنونةُ نبتتْ تحت إبطِ الطائرة، انتظرينى هناك حيث «لا أحدَ ينام فى الإسكندرية»، انتظرينى حيث الحب فى «يقين العطش»، أو فى سرطاناتِ الشّرفةِ، أو مجردِ رغبةٍ تحت الأشجارِ، أو صرخةٍ لا حدودَ لها.

أشعرُ بالفقد

أشعرُ بالفقد.

سيكون ملائماً أن نقيسَ المسافةَ

بين الحديقةِ وبين السّريرِ

هل أفسدك التويجُ

لا أعرف معنًى محدّدًا للخوفِ

ولا كيفَ يزهرُ اللهاثُ.

الوطنُ ليس من صنعى

لكنهم كتبوهُ.. هكذا

فى شهادةِ الميلادِ

وبائع العاديات لم يدلّنى على الفخّ.

الشـــعـــر

تمهّلی.. تمهّلی، من هذا سوف تتضحُ الخريطةُ، لا سلالمَ، جسدك وحدهُ يصعدُ، أنا العاشقُ لم أرَ تفّاحةً فی الطّبقِ ولا إسبرينَ، لم تتسعْ حفائرُ الصلصالِ؛ دوائرُ النصِّ لا تصدعُ الحسَاءَ، كلُّ الرموزِ حين تجرحكِ تضىءُ، سوف لا أنتهی من ضفيرةِ اللدائنِ، خسرتُ سباقَ السلاحفِ، شهوتی تَحْجلُ تحت قدمیَّ، السعادةُ درجٌ أُخَبِّئُ فيهِ ضحكتكِ، مرّةً لم يجدْ الفأرُ حيلةً فابتكر المصيدةَ، كذلك فعلَ القوادُ، لا أُريدُ مزيداً من العنّابِ، هل أحكی حكايةَ الحطّابِ، لستُ واثقًا من لطشةِ الشيفونِ، من لدونةِ التركوازِ، فی ساحةِ الشّرفِ لم تهبّ العاصفةُ، الأعلام كانت ترفرفُ بخجلٍ مريبٍ، لم يكنْ فی الأكوابِ سوی «حليب الرمادِ».. تعثّرتْ مرثيتی للعشب، اعذرينی: ولدتُ هكذا، أجهلُ حكمةَ المثلثِ الدائریِّ، ما أقبحَ الأسماكَ وهی تَقْشَعِرُ فی أصابع الجليدِ، ما أقبحَ اللغةَ حين لا تمرُّ بشبابيك الطفولةِ، أحتكمُ لـ «براويزِ الأنثی»، لـ «الحائيةِ» لـ «الغبارِ» لـ «ذاكرة الوعلِ»، أحتكم لی، للعرق الذی يَنْشَعُ من بحّةِ الحديقةِ، للحريرِ الذی يَقْطُرُ من شررِ اللجامِ، هل مرَّ البستانیُّ، هل نضجتْ الثمرةُ، لم أُندهْ عليكِ، لم أستعجلكِ، هكذا تعلمتُ الغناءَ، هكذا أرتشفكِ..

الآنَ هل ثمة وليمةٌ أخری، لم يحضرْ أحدٌ، وحدها قابعةٌ فی الركنِ، وحدها تفترعُ الحشودَ، وحدها تزمجرُ، وحدها تعرفُ نأمَةَ الجلادِ..

بعيداً عن كلِّ هذا الركامِ، بعيداً عن معاطف الصرخاتِ.. فی جسدينا.. فی جسدينا.

لن نحفظها فوق الرفِّ، أو فی عيّاشةِ الخبزِ، فهل ستمنحنا فرصةً أخيرةً، هل ستذكرنا، هل سنبتكرُ شفاهاً أخری للقُبَلِ؟!

أشعرُ بالفقد

أشعرُ بالفقد. ■

---

* من ديوان يصدر قريبا للشاعر.

نورس

حسن فتح الباب

[كما انتفض العصفور بلّله القَطْرُ]
فجأةً ينتفض
ربما يرتدى معطف الموج ملحا أُجاجا
بعده يغتدى بحره الملح عذبا فراتا
فجأة كالفراشة محتضنا غيمةً
لم تكن شرفة فى الأُفق
إنها سِدْرة المنتَهى
هام فى بُرْدة الذِّفْرىَ
يجتلى وحده الشُّهُب
يجتلى وجْدُه آية الفجر والشفق
فجأة ينتفض
باحثا عن مصير قرير
تحته حافّة المفترَق
فوقه ذكريات غرام قصير
وحده يحترق؟
أم تراه الغرق
فى عُباب الجموع التى لا تنام؟
فجأة وقَّع النورس المستهام
بالندى والردى
القرار الأخير
وانتفض
[كما انتفض العصفور بلّله القطرُ]

ما الذى تشتهى
أيها النورس المشرئب
لعناق الأبد؟
قبضةً من زَبَد؟
حزمةً من لهب؟
يا عصىَّ الدموع
ليس غير الشموع
جمرة فى الضلوع
أغنيات العشاء الأخير
وبقايا وطن
فانطلق
فى خضمّ الجموع
واحترق
فى سديم النجوم
علّها تقتبس

جذوة من رؤاك التى
دمُها راعف لا يجفّ
فتضىء الغيوم
ويطل الصَباح الجديد
فى عيون الشجن
نورسا مفعما بأغانى الفدا
والندى والردى
آن أن تنطلق
من رماد الشتات

آن أن تحترق
بجراح العناه
أيها النورس المشرئب
لعناق الأبد
كى يحين الغد المستحيل
ويكون المصير الجميل
[كما انتفض العصفور بلَّله القَطْرُ] . ■

المطلع مقتبس من أبى صخر الهذلى أحد شعراء العصر الأموى فى بيته المأثور:

وإنى لتعرونى لذكراك هِزّةٌ
كما انتَفض العصفور بلّله القَطْرُ

قرب ضوء هارب

محمود نسيم

أنا وأنتِ

ضوءٌ خفيفٌ من نهارٍ عابرٍ
ينسلُّ عبر البابِ
قطةٌ ولعبةٌ تغوصان معا فى المقعدِ الجلدىِّ مرآةٌ على الرفِّ
جريدةٌ على الكرسىِّ
شرفةٌ قريبةٌ، وشارعٌ أخيرْ

لا غير خفقةِ التماوجِ الثنائىِّ
وشهقةِ الحواسِ الدافئةْ
وغبشةٍ ضوئيةٍ تُموِّهُ الأعضاءَ
بينما يدٌ نشوى تنوسُ فى الظلامِ المعدنىِّ
باحثةً عن مطفأةْ
* هل نمتِ ؟

ـ لا
* كيف وقد تفاوحت حديقتى
وجاوبتْ غمرَ الطيورْ
أُمورٌ فى التدفقِ الحىِّ لشهوةِ امرأةْ
......
......

أنا وأنتِ

نهايةٌ سريعةٌ لأشهرِ الصيفِ
ونسيانٌ مفاجئٌ
وغيمةٌ على نافذةٍ خلفيةٍ

ضوءٌ ومرآةٌ
وظلُّ امرأةٍ على السريرْ. ■

النهــر ، يا عــمــر ...

أحـــمـــد زرزور

طُليان

تتفرفط نهودُ القواربِ الشراعية

بين أصابع نهر

يُصدّق خُرافَتَهُ

ـ هل تُسأل عن ذلك ثقافةُ ملكةِ الجمَال؟

أم «صالحُ عبد الحى»

وهو يُسلس قيَادَهُ

لمزاج

«الميكروباص»؟

«الطُليان» يتبرّأون من «مُجمّع الهموم»(١) الذى

يُعلن عن سحوره الراقص

ويؤكدون أن الحقّ

«على أبى الهول» الذى لم يصُن جَنينَهُ

من رمَادية

اللُغز

ـ هل يُلام فى ذلك «بيّاعُ الخواتم»؟(٢)

أم «ريما»(٣) التى وافقت/

دون أن تتعرف على أسمرها الرُوحىّ

وهو يُقاتل «البورنو»(٤)

وابتسامات الرؤساء؟

أم أصابعُ النّهر التى تتفرفط

بين نهود قوارب

«تُشخلع» عاطفتها

على أرصفةِ

«نسورٍ

هرمة»؟

يالطا

«فاضل رسول»(٥) ـ أيضاً ـ لم يع الأسطورة

الأسطورةُ ما بين «سيد درويش»

وكتاكيت الملاهى

الملاهى التى تتسلّحُ بكاتم الصوتِ أثناء الاغتيال

الاغتصابُ الذى تُدشّنه البلطجةُ الملوّنة

للمؤسسّات

المؤسساتُ التى تترك الفراشاتِ الهادئةَ لحكومات

الظّل

حكوماتُ الظّل التى تفكّر فى الصفقاتِ الهوائية

على إيقاع

الأنين

الأنينُ الذى لاَ يَكُفُ عن حفرِ أزهار اللعنة

اللعنةُ التى لا تَطْرُفُ جفنَ ميثولوجيا

تُولّى معدتها

شطرَ

دم

فاسد

دمٌ فاسدٌ تزوّج عصافيرَ تتعلّم الطيران

الطيرانُ الذى تَكحَل بابن فرناسَ

ولم

يُبارح

أرملته..

ضوضاء

- لماذا تَتَقَصّفُ صلواتُ الاستسقاء

هل لأنّ الملائكة أبطلوا بطحالبهم

مفعولَ

الشّيوخ؟

جُذَام

هل كان مُقدّرا للعَرَقِ الصغير

أن يكبُر ذاتَ قمرٍ قاهرىّ

شذاؤه يفُك الخطّ بصعوبة؟

أين انتحرَتْ القصيدةُ الأُولى/ ولم

تقرأ - بعد -

«المثنوى»؟

وماذا فعل صاحبُها،

والملهمةُ «تَدَرْوَشَتْ» فى مقام «القباقيب»؟

هل يرتدى الآن حجاباً

ضِد الطرطشات؟

أم يواصلُ التعبئة الجماليّةَ/ نكايةً

فى

القلب؟

هل أصاخ دَمَهُ - ذاتَ ضربةِ حلْم -

إلى بياضِ السمكة الهارية؟

وهل سَاءل فضَاءَه الفيروزىَّ..

عن

امرأةِ

المجَاز؟

هل فكّر مرةً فى سعر الجاز، ولماذا تذوب كُوبوناته

بين

شجار

الشعر

الأزواج؟

أين اختفى حزبُه الطليعىُ/ ولم

يقرأ- بعد-

«طوقَ الحمامة»؟

وماذا فعل بشعبه،

وعشُ الدبابير على

حاله؟

أم لأنَّ الشيوخَ توضأوا بإسرافٍ

من

نهرِ الشّريعة؟

- لماذا تغضبُ الغاباتُ

هل لأن الحقَّ على

شاعرٍ

يستذكرُ حجارتَه

أمام الصحراء؟

أم لأن الحقَّ على

شاعرٍ

لا يخلعُ خرقته

وراء النُّقّاد؟ ■

● إشارات

١ - توصيف للواقع المصرى الراهن فى حقبة الانفتاح والتبعية. للباحث محمد أبو مندور.

٢ - إشارة إلى الشريط السينمائى الفيروزى «بياع الخواتم» إخراج يوسف شاهين.

٣ - إشارة إلى بطلة الشريط المذكور.

٤ - إشارة إلى شرائط الجنس المهربة وكذا أفلام العنف والجريمة.

٥ - كاتب كردى عربى/ هكذا كان يسمى نفسه/ اغتيل فى ١٩٨٩/٧/١٣ بالنمسا/ رئيس تحرير مجلة «الحوار».

الشـــعـــر

فى العشق .. قصائد ثلاث

السمّاح عبدالله

خدش

عامان للقلب .. اليتيم

بعدهما

يخون الوقتُ صُدْفَتَهُ ويبتدئ الهواء صفيره

قد تكبر السيدة الصغرى وتعطيها ملامحها سمات المتعبين

أكون أنا هنا

ويكون هذا الدرب مأخوذاً إلى نفق يضيقُ

وبعض حوائجى بَرْدٌ يصيد خطاى من خلل الطريق

وثم نبوءة تجتاح عُرْىَ القلب تخدش ما تبقى من غبار الأربعاء

يحدث ـ ربما ـ أن يأتىَ العشاق، يختصمون فى أحوالهم، ويقول واحدهم : أنا نَبْتُ السؤال المستريب، تقول عاشقة: هو الخدش المقيم يدلنى

فانفض إذن يا أيها القلب اليتيم،

غبار ما اعتركته أقدامُ العشيقين الحيارى،

وابتدئ شجوا يليق بحزنك العالى،

وسيِّج ما استطعت تصيده فى عنكبوت الأربعاء

*

حواف الهواء

المرأة التى أتت إلى حجرته فى الليل

بعثرت ملاءة السرير

ورسمته عاريا على زجاج النافذة

كان البخار أبيضا

وكان جسمها العارى له روائح المدائن الدخانية

شدته من دموعه

كأنه يعود مرة أخرى إلى بداية الخطى

كأنه يشبه أشجار القرى

يطلع مبلولا ومخضرا

ورفعته حتى كاد يلمس الأشياء من حوافها

كأنه يلقى ذويه فجأة، ويملأ القلب اليتيم بارتجافة اللقا

كأنه يلم وجدهم فى راحتيه وهو فى علوِّهِ

كأنه ينثره على دفء الذرى

وسيَّجته بافتضاح عريها وشعرها الطويل

وتركته ذاهلا فى قلق الذكرى

... ...

يبتدئ الشفيف قوله المرَّا

ينظر للخلائق المعادة

كإله ساخط على يديه وهما تجريان الطين مرة أخرى
يسير هادئا منكسرا
يكره أن تبصره الأشياء هكذا
فيستعيض عن دموعه بفرحة الصوفى حين يمسى أعزلا
فى وحشة الليل العريض،
لا يرد دمه لدمه ويجتاح الثرى
يشمه كأنْ به روائح المدائن الدخانية
كأنه يشبه أشجار القرى

*

زِى العاشق

ما الذى يفعله العاشق لما يبلغ العشرين عامْ؟
يتها الأرض اهدئى ثمَّ غلامْ
خائف من وردة الروح ومن عسل الغرامْ
يوقظ الذكرى برمتها، ويمنحها السلامْ
يصطفى رجلا بكامله من الحرب
ويعريه تماما من رصاص القصف
ويهش الرمل عن أكتافه
وينقى جرحه من آفة الذنب ليبتدئ الخصامْ
واحداً،
مكتمل الصهد،
خريفىَّ الخُطى،
حلَو الكلام،
ضالعا فى حزنه الأبدى لا يلوى على شىء،
وليس يرد من قدامه أحداً،
ويعرف دربه
وكأنه
جرَّب أن يمشى به فى،
هيئة العشرين عامْ. ■

الهـــــــــواء

إبراهيم اليـــوسف

لا دم، كيِ أبكي مجزرة

لا شاهدة لأرنو إلى قبر

لو كلام هنا أسند الجسد، لو جأش

لو أفتح فمي، وأقول...

ضليلون نمضي إلا قليلنا

شفيعنا الزئبق في خوفه الموجز

يغادرنا هيئة لا تنتهي

رتبوا الرائحة قربيِ، وانزلوا..!

سوف أدعُ هذا الحوذيّ

طيلة سراب

سوف أدلُّ أقساط الحلم علىَ تخوم التحية

وأعود..!

مفردٌ، وأباغت الإيوان

أعيد الممعن في الرهل السيّد

ثمّ أسكت الحواشي في ترقوة

مفرد، ولا أنفرد

لو أفتح فمي، وأقول:

لو قرية تخجل مما لنا من هواء

لو حجل خجل

لو مئذنة يرفعها هذا السفر المحايد

لو المرجأ دائماً يأتي

لو أمٌ لا تطفو في ضحكة ولد

برهة من دمي؛ ويجلو المرُّ الغريب

لأعيد الجهة إلى الأصبع مرهقة كعين

لأعيدني، وأفك الوثاق

هذا المنهك... صوتي

هذا الناهض نشيدي

هذا أنا..!

لا وشيك إلا المدخل

لا دم، وأنا خاو، جوزتي تعاتب الأنحاء

ادخلوا!

أكيدين، ادخلوا...!

للدود عندي طقوس، ولا أتعب

للدود إثم هنا

الشـــعـــر

للدود حصافة لا تليق بأسرّته

للدود وطن

للدود... هذه الفصاحة

وأنا لا ظلّ لى، أؤدب الغضار

مفرد وأعلق الأحزان

لو أريك الرصاص بالحكمة

لو أخرج

عريان من دبق

أرجئ حصرم الشهوة

أستطرد إلى الصحف العتيقة

نادباً؛ ها أنا!، ها الحواة، والكذبة

الساسة

ها امرأة، فارسُها إلى الربقة

خلفه صكوك الأثير

خلفه... . قبلاتٌ

خلفه.. هى.. امرأة مريرة

أبلت حكمته فى حقيبته الكتفية

واهناً تتلوه، وتخون الحليب

إذ الخناجر تنكب الوجل الشديد

أسماؤها فى قارعة الروح... حافية

لا أنا باعث الأزيز فىِ الشهوة

ولا الصدر حرّمُ الهواء

ها أنا، لا دم كيِ أتحدّث عن دمع

لا امرأة، كى أتحدث عنى

لو أفتح فمىِ وأقول.. !!

لو أشير ما ارتمت هامة هناك

لو الكلام نجل الدمع

لو الدمْع نجل العويل

لو العويل ابن الوطن

لنرى السيرة تعفر النهر فى.. مائه

تأخذ بنا من الطيف اللذيذ

لو آتى - آه - يا أصدقاء...!

لو آتى يا ماء..!

لو آتىِ يا جودى!

لو هذا الشمال قليلا يحضن المرور

يدارى الشكل فى بريقه البارد

ويأتى

لو عويل أعرف، لو نشيد تعرفون

أومأت لابد من إله

بيتنا نارنا فى الكلام

وانتحتِ الطواويس فى أوّار

تؤدى رمادَها فى مهب الرسالة

لو أفتح هذا الدم

لو أعذر الماء، وأكتفى

بادئاً بالذى يغيب

ربما ضحكةٌ تحمل هذا الشديد

ربما مائدة تؤثر زردشتها

ربما الذى يؤدب الحبر ويخرج..!

الشـــعـــر

لم نكن قد أكلنا تمراً
فرشنا الوجوه فيِ اطراد المئذنة
نفيءِ إلىَ نشيد يجاور بيرقنا
ربطنا أباطرةً لنا في الخوابي
يقطفون سدرة السيوف
برقابٍ من الديانة
تشغلهم إيماءةُ الحور، والخدم الفكهين
لو أفتح فمي، وأقول ..
ما أرجأتنا اللغةُ قيد غفوةٍ
والمناحة ضاربة شهداءها
سلمنا الفارهَ المطنبَ للدولة
لو أُريكم
كم صمنا عن نكهة
سرابها تليد... ونحن
عندها صرخنا لا بد من إله
لا بدّ منكم
لا بد منا
لا بد من يومٍ كيِ نبكيِ أطفالنا
ارتدّ اللفح يأكل تواريخه، ثم يغرب
في الركام
لا بد من وطن كيِ نوازيِ ظلنا
لا بد منكم كي تنفخوا في الطين
أكيدين لو فاحت حكمة
بأناملها
رويداً.. رويداً نمعنُ فيما لنا
نبلو صحبة المديد بعض ثقوب؛
تمكثُ خشباً في طاعة الدهليز
مشورتُه الشخوص
العتبة ... التعب
النقر المخبأ فيِ المقابض
كأخوة تليدين نقتسم الفتوىَ
ثمّ يحرسُ كلٌّ هوامه وهواءه
ـ هذا لنا
ـ هذا لكم
هذه امرأةٌ تعرفها ضلعيِ، يقيناً
والمدن، إياها... المدن
تمخض الكتاب عند أسمائها وسمائها
هذه الدارُ ـ لو رأيتم ـ !! لم تكن الأدوار ترطن حنطتها
أولئك نحن في موعظة للجان، نحنُ
رعافُ الليل، أخيرون، بأطوار الظلّ
تأتيِ المدن كيِ نعرف أشكالها هناء، وتبور
نأتيِ أولين، لو أفتح فمي..!
لو أفتح فمي
نأتي كيما نسرد المرأة غيمةً
غيمة
ونسدد الشاهق في غيظه الملكي
لم نكن إلا هكذا، ونأتي .. / أولون
نأتي
نأتي
ونأتي...■

امبارح

محمد الحسينى

ضيوف

طربيزة سفره، وجمعت الأحباب
المتنبى، جنب فؤاد حداد
بدأنا مداولت ماذا يكون
وجاهين بيخبط ع الباب
مرحب عمى
تليفونك مغيور
زرياب قاعد وبيلعب ع العود
وبترقص
سامية جمال
طلّيت ع الناس فى الشارع
وندهت:
وطوا الصوت، عندى ضيوف
ودخلت
ملقتش ولا واحد منهم
راحوا فين؟!

أتارينى كنت بارص فـ مكتبتى
والشارع كان عز النوم

شبه

مش قادر أنسى
فـ ميدان الأوبرا لما أخذنى البياع من إيدى
ودخلنا محل قماش
ورانى نفسى
نفس ملامح وشى، وطولى وعرضى
أنا واقف
وده قاعد ع الكرسى
مدينا إيدينا وسلمنا
منطقتش ولا كلمة
وخرجت مشيت فى الشارع
من يومها بادور على نفس اللحظة
يمكن تتبدل أرواحنا
نرجع زى ماكنا
واحد كان بيعدى بالصدفة
على واحد قاعد فى ميدان الأوبرا

رف

أوضه، من دم ولحم
أوضه، بتاريخ ومشاعر
ع الرف اللى فـ وشك
أنا شايل عمر استبن
ولدين لقصيدة
وحروف بتهابر
قاعد ع المكتب بكره
فـ تاريخه بيذاكر
بيعلى فـ صوته، بيهاتى ويشاور:
ع الحيطة
برواز فيه صوره لشخصى
ويمكن نتقابل.

لخبطة

بارجع للبيت
وأحط المفتاح فـ الباب
ما يلفش أضرب جرس الباب
مايرنش
أفتح إيدى
بصوابعى الخمسة
أخبط ع الباب
ولا باسمع صوت
إيه اللى حصل لى
أنا دايما باغلط فى الأرقام
باغلط فـ العناوين
ودة عادى
غير إنى فوجئت بصوت الواد بيقوللى:
- بابا، ده عيد ميلادى
ومتنساش الليلة ترجع بدرى
وانا كنت ساعتها جوه الباب مش بره. ■

شــــتــــويـة

مـجـــدى الجـــابرى

بعد نُصّ الليل..

على سطح بيت فـ ابو زعبل.

قاعدين ست شباب، عاملين دايرة، حاصرين فيها،

باجور وعدة شاى وسجاير وجهاز تسجيل،

بيسجل بحذر..

نكتهم وتريقتهم وقصايدهم وغناهم بأصواتهم الوحشه،

حتة من سيد درويش والشيخ إمام وفيروز ومرسيل خليفه

وفيه حدّ غريب..

مش متنبهين لوجوده،

حَدْ نحيف جداً.. فـ رجله الشمال زَكَّه خفيفه، طول القعدة عمّال يتحنجل بين الغنا والضحك وريحت العرق الشتوى وصوت شفط الشاى وطرقعة الصوابع، وبيضحك بصوت مكتوم م الشباب اللى بيتحدُّوه بالشاى والشعر والتدخين والغناء والضحك وجهاز التسجيل.

....

ولما عبدالفتاح شهاب سمع صوت نقر عصفورته على قزاز شباك المترو، اتاخد ودخل حضن حبيبته ونام.

بص له النحيف جداً وضحك. فبان بقه اللى ما فيهوش ولا سنّه.

دار التسجيل بمعدل أسرع.

نط الأعرج وسطينا ومَدّ مخالبه خطف عبدالفتاح وطار، وساب مكانه بقعة دم على أسفلت شارع فى مدينة غريبة، مدّينا عيونا هناك.. ورا العربية اللى بتاخد تار الشيخ العربى من المدرس المصرى اللى رفض ينجّح ابنه البليد فى الامتحان.. لكن سبناه ورجعنا نكمل تسجيل القعده.

ضحك خالد عبدالمنعم وهوه نايم على الطرف.. تحت اللحاف المتكعور تحتيه العيال.. وكمش رجليه وهوه بيحلم بإنه جه عليه الدور ونايم فعلا فى النص، غمزته بكوعى عشان يشاركنا الضحك على النكته اللى قالها إبراهيم عبدالفتاح، قام قاعد ضحك ويّانا وراح دافس رأسه فى حجره. وسرح فى المهره أم سبع ريجلين دهب.. والزفه اللى هتتعمل له وهوّه خارج من الكون، اشتركنا معاه فى الزفة، وزعنا علينا الأدوار.. ووصلناه .. ورجعنا جنب التسجيل نحتمى باللى فاضل فينا وجينا، ضحك الأعرج، فاتغاظنا، بصينا لبعض وبصوت عالى ومع بعض غنينا لحن السُّيَّاس.

عمر نجم اللى ما كانش بيحب شعرى كان طيب جداً لما قلت قصيدة، طبطب على ضهرى وقاللى كإنى أول مرّه باسمعك.. ضحكت وبصيتْ فى الأرض، فقام يحضنى.. وقعت منه الشنطة الخيش واتبعترت الكتب والأفلام والسندويتشات والقصايد وطيت ألم معاه، وإذا بالشخص النحيف جداً عمّال يتخن يتخن.. لحد ما بقى حيط لحم بينى وبينه، بصيت لإبراهيم وعصام العراقى اللى كان أغلب الوقت مشغول بواجبات الضيافة وسألتهم : إيه اللى بيحصل ده؟ حد فاهم حاجه؟ وإذا بحيط اللحم بيتحول شعلة نار خطفت عمر نجم من وسطينا، وسابتنا احنا الثلاثة بنبص لبعض برعب وإيدينا مكلبشة فى التسجيل الداير يسجّل أدان الفجر وأصوات الناس اللى رايحه تصلّى أو رايحه الشغل، كان واضح بين الأصوات صوت الأعرج وهوّه بيضحك..فسكّينا التسجيل، ولمينا اللى فاضل منّا، وقررنا.. بعد ما ننزل ما نجتمعش تانى فى مكان واحد. ■

١٩٩٦

لوحة كروكية لتكعيبة العنبات الثلاث

«إلى عزلة السعادة الصيفية.. التى تربَّتْ
فينا على مهل»...
إلى تكعيبة: عبد المنعم قطب حميدة»

عـمـــاد فـــؤاد

(١) «تفصيل للنصف العلوى»

بالضبطِ؛
بعد أربعةٍ وسبعين عاماً، وعشرة شهورٍ، واثنتين وعشرين ليلةٍ
من بنائها؛
تهدمتْ تكعيبةُ العنبِ القديمةْ،
تهدمتْ بهدوءٍ ، حينَ حطَّ مالكُ الحزين من فوق جميزةٍ عجوزٍ على عشِّ اليمامْ.
أو حين مر سربٌ ثقيلٌ من طيور الجنة فوقها،
ولم يرمِ على مصاطبها السلامْ.
تهدمتْ..، وأول ما سقطَ كان فرعٌ قديمٌ، لشجرةٍ مجهولةِ السلالةْ،
فرعٌ.. طرقعَ من طرفهِ القبليِّ الذى نخره السوسُ بشدةٍ، وسقطَ ـ بالضبطِ ـ
على بعدِ سنتيمترٍ واحدٍ من رأسِ طفلِ العائلة الوحيدْ.
والطفل، لم يصبه الرعب، فقط.. بكى بشدة من نخاعه..،
لما وجد مجموعةً من أسرابِ الغراميَّاتِ تخرج من طرفهِ المسوسِ،
الغراميات.. التى غطاها الطحلب حتى نهايتها،
والتى أنتجت نسلاً كبريائياً فريداً، عاش أسطورته المغايرة ـ تماماً ـ
عن باقى خلق اللّه،
أسرابُ الغراميات مرَّتْ من أمامه، دون التفاتة رحيمة لبكائه،
مرَّتْ وهى تهشُّ فوضوية الذكرياتِ التى عششتْ تحت جلدها الشفيف،
وهى تشدُّ من عودِها المرهف، كى لا تسقطَها أجيالُ العزلةِ فوق بكاءِ الطفلِ،
فينفرطُ الطحلبُ متحوِّلا لفراشاتٍ جديدةٍ من العشقِ،
تطير ـ مرةً أخرى ـ نحو قلوب..، لم تذق الهوى بعد!

(٢) «تفصيل للنصف السفلى»

بالضبط؛ كانت العنباتُ ثلاثَ شجراتٍ فقطْ،
اتخذها النملُ.. سككاً - تلقائية - للشغل،
والعاطلون.. لمسامراتِ الميتينَ الجددْ،
واللصوص.. للاختباء عن عيون اللّه،
الشجراتُ الثلاث ظللن على بعدِ سبعةٍ وعشرينَ عاماً من رغبتهنّ فى شربةِ ماءٍ أخيرةْ.
وظللنَ - طولَ العامِ - يمنحنَ القطوفَ، دون مَوْسمٍ للراحةِ،
حتى ارتبكتْ عنباتُ القريةِ..، واعتقدنَ أنّ فى الأمرِ شيئاً من السحرِ السخيفْ.
الشجراتُ اللواتى صادقنَ - على مدى عمرهنّ الكامل - خمسةَ أجيالٍ من العائلة،
دون أن يمسحَن عرقَ أصابعهمْ من طرفِ العناقيدِ،
ودون أن يتورطن - مرة - فى الشكوى للّهِ من أسئلة الفضوليّيْنَ،
بالفعل.. كنّ ينزعجن لما تنشر يدُ امرأةٍ هدومَ الغائبين،
على حبلٍ مربوط فى أعوادهن الملفوفة،
أو لمّا يستمعن - مصادفةً - لاثنينِ من فجارى القريةَ يهرسُهما نورجُ الجنسِ الثقيلْ،
الشجرات الثلاث..، كنّ يسترحن فى الليل فقطْ؛
فيفرطنَ ضفائرهنّ المخبأةَ - بعنايةٍ - عن أعينِ الآخرينْ،
ويخرجنَ المرايا العتيقةَ من عبّهنّ..، ليؤكدن لبعضهنّ - كل ليلةٍ -
أن جمالهن المسحور.. لم يُطلْهُ سوى قليل جداً من ذبول الطبيعة الخفيفْ.
وأن وحدتهنّ سوف يُحدُّ منها مادمنَ يراقبنَ العالم بعينٍ محايدةٍ،
ثم يبدأن - بعدها - فى ممارسةِ سرّهنّ القديم:

يطوّفنَ - بخفةِ الجنياتِ - بين الدورِ،
يجمعن دموع العذارىَ فوق أوراق العنبْ
ويعبّئْنَها - سراً - فى القطوفِ...
ثم يزعمنَ لعنباتِ القريةِ الأخرياتْ،...
أنهنّ: طبيعياتٌ جداً...،
و- الحمدُ لله -
ليس هناكَ ما يدعو للقلق!

(٣) «تفصيل أخير للجزء الأوسط».

ما بينَ الجهاتِ..،
هناكَ ـ دائماً ـ بوصلةٌ خائبةٌ،
وسهمٌ مراوغٌ.
فُرْشَةُ الألوان أسقطتْ بقعاً من النداوةِ
تستعيدها كفوفُ العابرينَ في الدماغِ.
والصوتُ الذى لا يبنن علىَ نهد امرأةٍ مُعْتِمَةٍ...
هو صوتٌ ميتٌ.. فى الخرابْ.

ـ هل تلاحظون: نحن الغرباءُ المجانين...
مازلنا نحبُ المجاز قليلا..؟!ـ

ثم إن هناك أسراباً من الغرامياتِ قد هدّها التعبُ،
ـ آهْ... التعبُ..ـ
فاستظلتْ بثلاثِ شجيراتٍ من العنبِ المسحور،
وكان عرش اللّهِ
يفاضل ما بين علامتين:
ـ أين أروحُ...؟
ـ اللهم..
ـ لا تحرمنا...
عذراوات جُدُدْ! ■

٢٢ سبتمبر ١٩٩٦

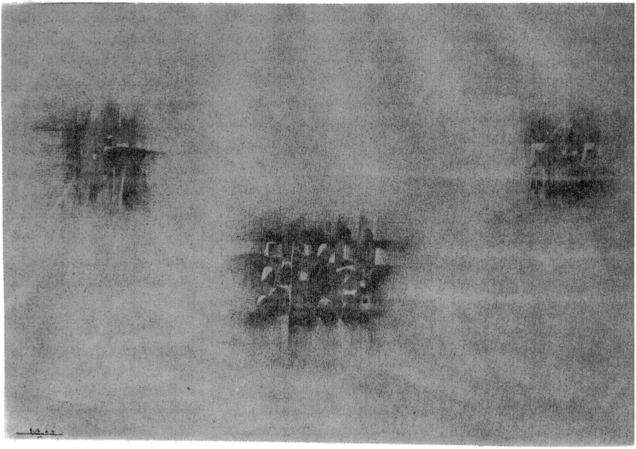
ثلاثة أشياء نسجلها - بفخر - على جدراننا الصدئة

نجاة على

نحتاج لأن نموت
مبكرا
هذا
العام
دون أن نبرر
هروبنا
إلى
الشوارع
فى وقت متأخر
لن نكون فى حاجة إذن
لأن نخاصم ...
كل هذه الأنوار التى تُطفأ
قبل العاشرة
- أصابعنا التى تحتلها الأنيميا
بشكل فاضح
- البرودة التى تسكن حوائطنا
نيابة عنا

ولا شىء يهم
لا شىء يهم الآن بالتأكيد
أو حين نستيقظ فى الصباح
بوجوه مصفرّة
فاشلين فى أن نؤّول خيبتنا
فنشبه بغباوتنا كل أصدقائنا
الطيبين
الذين نقاطعهم
....
لسنا فوضويين تماما - كما نعتقد -
حين نتلكأ
ساعة
قبل أن نطرق الأبواب
ثم نبطئ قليلا...
فى الدخول
- متوترين -
- خجلانين -

ولا شيء يهم الآن بالتأكيد
وهم لن يسامحونا
هؤلاء الذين استراحوا فى عزلتهم
دون أن تبهت ملابسهم
ولا عروقهم التى حملت دماءً
شبيهة بدمائنا
لن نتجرأ عليهم يوما
فنطالبهم
أن يداهمونا فى العيد مرة
بزيارة
فنخبرهم عن القضبان التى
نمشى عليها
باستقامة
- طفولتنا التى تفضحنا عندهم
حينما نراهم
مقاعدهم التى نرتبها لهم
بشفافية
ربما يجلسون عليها مرة
لن تخصهم.....
الميادين التى يعبرونها
بلا أشباح
تؤرقهم كل ليلة
أقدامنا التى يجهدها لنا
المجانين
فى الشوارع
- غيابنا لفترة طويلة
- الغيوم التى يسقطونها
على دوائرنا
حين يوزعون ملامحنا
على الأدراج
ثم يخطئون فى عد أشباهنا،
أولئك الذين تعبوا. ■



سأحدثكم عن هروب الملك(*)

فؤاد قنديل

قلم يلق أحد على الثمار المتدلية من شجر الفضيحة حجراً أو حصاة.. إلا ناظر المدرسة الذى وجه الدعوة للاجتماع فى بيته.. جاء بعض الرجال فى السر ليتدارسوا الأمر. بدوا صفر الوجوه.. ومن كان يثير الضجيج من قبل لم يحس أحد به عند دخوله، ومن كان يفخر ويتيه لم ينطق بحرف. ومن كان يقهقه بسبب وبلا سبب، لم يسمع أحد ضحكاته المجلجلة.. لم تنفرج الشفاه، ولم تظهر الأسنان، ولم تبرم الشوارب لأنها كانت منكسة.. لم يسمع غير صوت التنفس الذى كان أشبه بحشرجة الاحتضار.

مرت القهوة فتجرعها الجميع فى عجلة. مضى نحو نصف ساعة دون أن يمتلك أشجعهم القدرة على افتتاح الجلسة بكلمة لتتبعها كلمات تشير ولو من بعيد إلى الموضوع.

كان طبيعياً مهما طال الوقت الحائر أن يبدأ ناظر المدرسة.. كانت بداية ذكية من رجل متعلم..

وجه اللوم لمن لم يحضر وعلى رأسهم العمدة وشيخ البلد، وهذا يعنى أن الحاضرين يتميزون بالشجاعة.. بداية تفتح النفس بعض الشىء.. ثم قال:

- يخيل إلىّ يا جماعة أن هناك وباء أصاب نساءنا، فكل النساء حسب علمى حوامل.

أنكر البعض أن يكون كذلك كل النساء.. أطولهم احتج قائلا:

- إلا أمى.

وقال سائق الأجرة:

- زوجتى الحمد لله سليمة، لكن.. لكن.

وقال ذو الشعر الأحمر:

- للأسف أسرتى كلها أصابها الوباء ما عدا بنت أختى التى تقيم فى المزرعة معظم الوقت.

وهنا قال الحلاق:

- علينا إذن أن نعرف الأسباب ونبحث عن الحل.

من جديد وقع الجميع فى آبار الصمت المالحة، إلى أن اندفع السمين ذوالكرش.

لم يكن أحد ينتظر أن يتكلم أو يفيد بشىء فى جلسة من هذا النوع.. قال باضطراب تصاحب نبرة صوته رعشة، ربما سببها الرهبة:

- لازم يعرف الصغير قبل الكبير أن بناتنا و.. و.. نساءنا جميعهن ش.. شـ.. شريفات، ومهما كا.. كان السبب، و.. فهو خارج عن إرا.. إراد.. إرادتهن. وإذا واحد شكك فى واحدة، سيشا.. سيشا.. سيشكك فيهن جميعاً.

قال عدو الشمس: عندك حق.. مصيبة وحطت على البلد كلها.. لم ينج منها فرد.

كان شيخ المسجد جالساً يسبح ويستغفر ولا يعلق ومثله كان الضرير والرجل الذى ينظر كثيراً إلى ساعته، أما ذو الأنف الكبير المستدير فقد قال:

- يجب أن نتكلم بصراحة.

قال الناظر:

- ولماذا اجتمعنا إذن، إننا فى أشد الحاجة إلى الصراحة.. اجتمعنا حتى لا نخفى رءوسنا فى الرمال.

استعاد ذو الأنف الخيط وقال:

- كلام كثير يملأ البلد، ملخصه: إن ديك «رشوان» وراء هذه الحوادث قال السمين ذو الكرش:

- هذا ما سمعته.

اعترض الضرير:

- كلام غير معقول.

قال الأطول:

- وهل حجمه هو المعقول!!

عاد الضرير إلى معارضته:

(*) فصل من رواية «محبات» للكاتب تصدر قريباً.

- أنا غير مقتنع.

قال عدو الشمس:

- كان يجب أن يحضر العمدة.. المسألة تخص القرية كلها.. وهو كبيرها.

قال الناظر:

- «أحمد أبو سلامة» دخل عنده وخرج قال إنه غير موجود.

قال الحلاق بحسم:

- هو ديك «رشوان» ولازم يموت.

قال الأصلع بهدوء:

- لازم يموت.. لكن المصيبة تحيط بنا الآن.. فما العمل؟

برز الأخنف من وراء السمين ذى الكرش وقال:

- هل تتصور أن يوافق العمدة على ذلك؟ هو صاحب مصلحة فى وجوده. الأوزة التى تبيض له بيضاً من ذهب.

- والعمل؟

- لابد أن نعرض عليه المشكلة.. ممكن يكون عنده حل نادى الناظر ولده الكبير:

- بطريقتك وفى السر اعرف لنا.. العمدة فى دواره أم لا. انطلق الفتى.

سادت فترة صمت.. قطعها سائق الأجرة:

- لماذا لم يحضر شيخ البلد.. لقد رأيته فى الصباح.

الأطول: ألاتعرف السبب؟

سائق الأجرة: لا.

ابتسم الضرير ابتسامة خبث وقال:

- لأنه غير مضار.. زوجته الأولى عاقر، والثانية حامل من الأصل وستلد خلال أيام.

قال السمين: ليس له مصلحة.

استمر الحديث يتبادل أطرافه الرجال بلا نتيجة، وظل يسبح ويستغفر دون أن يعلق. ولفت ذلك انتباه الناظر فسأل الشيخ:

- ما رأيك يا شيخ؟

عبث الشيخ فى ذقنه، وتنهد ثم رفع رأسه ونظر لحظة إلى اللاشىء، عندئذ دخل الفتى وقال:

- العمدة موجود.

قال حضرة الناظر على الفور: ما رأيكم يا جماعة؟

رد الجميع فى صوت واحد: نذهب إليه الآن.

بهت العمدة عندما سمع أن الرجل بالخارج.. عرضوا عليه الموضوع بكافة جوانبه وبعضًا مما قالوه فى بيت «الدغيدى».. طلبوا رأيه، هز المنشة ذيل الحصان التى لا تغيب عن يده وقال:

- أولا.. نحن مؤمنين.

قالوا جميعاً:

- ونعم بالله.

استشعر أنه بدأ بداية موفقة ضمتهم جميعاً فى قبضته، فاستطرد:

- أو على الأقل ليس بين أيدينا ما يدينه أو يشير إلى أنه هو الجانى لا داعى للانزعاج، لا تحدثوا لنا هوجة بلا داع.. كفرنا حسن السمعة، ولا مبرر للاجتماعات والهيجان، وحتى لو فرضنا أنه الديك.. ماذا سنفعل له؟.. سنقتله.. نقتله.. وبعدها.. الحاصل الآن أن النساء حملت وكله بأمر الله فى الأول وفى الآخر.

صدر من هنا تعليق ومن هناك مثله.. لكن الجميع تقريبًا اقتنع بكلام العمدة، وخرجوا من عنده أقل غضبًا عن ذى قبل، وأكثر إيماناً بالله وبالقضاء والقدر.

بعد أسبوع فوجئ رجال القرية بدعوة عاجلة، من العمدة للحضور طرفه مساء نفس اليوم. لما حضروا طلب إليهم ضرورة مناقشة الموضوع المهم الذى سبق وحدثوه فيه.. ظل واقفًا يروح ويجىء. أبلغهم أنه اكتشف بالأمس فقط أن نساء بيته جميعًا حوامل ولابد من التصرف.. لابد أن نبلغ الحكومة ومديرية الأمن ووزارة الصحة والوزير المحافظ وسيادة السكرتير العام. تبادل الجميع النظرات، واكتفوا بالقول:

- الأمر أمرك يا عمدة.. أنت كبير البلد.

وهو لايزال واقفًا.. يروح ويجىء ويضرب كفاً بكف.. قال:

- أقصد أنكم موافقون على أى إجراء أتخذه، وتفوضونني للاتصال بكل الجهات المعنية.

وافق الجميع وتسلل إلى نفوسهم ربما للمرة الأولى إحساس بأن جزءاً من العبء سوف يرفع عن صدورهم.. لكن الضرير قال:

- وماذا نفعل فى بناتنا يا حضرة العمدة؟

ضرب العمدة قبضة يده اليمنى فى راحة يده اليسرى وقال:

- هذه هى المشكلة.

قال عدو الشمس: المشكلة إن موعد الإجهاض فات.

قال العمدة بعد لحظة صمت: ليس هناك من حل إلا أن يتولى كل أب رعاية حفيده من ابنته غير المتزوجة.. كل فرد يشيل همه، ما دام يؤمن أنه أمر الله، ويخطب الشيخ «التلاوى» والشيخ «برهام» فى مساجد القرية مؤكدين أن بناتنا شريفات وأن ما حدث يشبه

الطاعون.. شىء فى الجو.. نقله الهواء.

قال الأخنف: أنا قلت هذا يا عمدة.

قال العمدة: والله براوة عليك يا وله.. ومن رأيى أن يبدأ البلد فى وضع زيتها مع دقيقها.. يعنى عقد اتفاقيات لتزويج هؤلاء البنات من شبان البلد.. وكلنا أهل.. بالمناسبة أنا عندى ثلاث بنات.

كح الشيخ فصمت الجميع اعتقاداً أنه سيقول شيئاً.. كح ثانية فصمتوا، وبالفعل بدأ يبلع ريقه ويحرك لسانه استعداداً للكلام كما يفعل دائماً.. وكان قد ظل طوال الاجتماعين السابقين صامتاً.. قال:

ـ لا أستطيع أن أقول ذلك على المنبر ولا أظن الشيخ «برهام» سيقول شيئاً من هذا.

اندفع الرجل الذى ينظر كثيراً فى ساعته: لازم تقولوا.. إن بناتنا شريفات.. لازم وأيده ذو الشعر الأحمر صارخًا فى الشيخ.. تدخل العمدة وقال:

ـ واحدة واحدة يا جماعة.. قل لنا يا شيخ «حامد» هل أنت تشك فى أحد؟

ظل الشيخ صامتاً، فقال العمدة:

ـ انظر يا مولانا إننا سوف ندخل إلى فتنة لا تبقى ولا تذر، وأنت عندما تقول ما أطلب منك قوله.. أقصد الذى نطلبه جميعًا منك.. إنما تحقن الدماء وتحافظ على الوحدة الوطنية وتجنب البلد مشاكل كبيرة.

كان الناظر قد لاذ بالصمت طويلا، ولما رأى حالة الشيخ وصمته البركانى قال:

ـ أنا من رأيى أن يظل الموضوع بعيداً عن المساجد.

قال ذو الشعر الأحمر: على الأقل يدعو لنا الله يخرجنا من هذه المصيبة التى لا كانت على البال ولا على الخاطر.

وهنا قال الشيخ:

ـ لكى تخرجوا من المصيبة ارجعوا إلى الله.. بالإكثار من الصلاة والصدقات وفعل الخيرات والدعاء، وأن يهتم الغنى بالفقير، وتقام الموائد للجميع أيام الجمعة.. هذه هى القربات إلى الله.. لعل وعسى وفرج الله قريب..، «يا أيها الذين آمنوا لا تقنطوا من رحمة الله..».

توقف الجميع فجأة بعد أن اقتحم القاعة خفير يزعق:

ـ الحق يا حضرة العمدة.. «حسن» انطخ.

ـ «حسن» من يا خفير الشوم؟

ـ «حسن الرشيدى».

ـ من الذى قتله؟

ـ لم نلحقه.

ـ هرب؟!

ساد الهرج لما بلغت الحاضرين ولولة النساء تدافع الجميع نحو باب الخروج.

صفق العمدة بيديه. جاءته زوجته تمشى على مهل وتلقى أمامه فردتى حذائه. قالت:

ـ ابن «الرشيدى» كان على علاقة بـ «نجوى» ابنة «راغب بك».

لملم العمدة أطراف عباءته وهو يضع قدميه فى الحذاء، وقال:

ـ نقطينا بسكوتك.

لحقت به كلماتها قبل أن يختفى ذيله عن عينيها:

ـ أنت لا تعرف شيئاً مما يجرى حولك يا عمدة.

واصلت البطون التقدم للأمام، مضت تكبر وتكبر، وعندما دنت من تمام شهرها السابع شرعت النسوة يشكين من ضربات البطون والآلام فى الظهور، بدأن فى التوجع والتأوه، وزاد الألم تدريجيًا مع تضخم الثقل الرابض فى الرحم، ثم دخلن تدريجيًا مرحلة الصراخ.

انفتحت الأبواب وجرت العيال فى الشوارع تنادى «القابلة»، وأختها وتنادى أى سيدة كبيرة فى السن، لعلها تساعد ولو بالرأى.

لم يستجب مدير مديرية الصحة لطلب عمدة القرية أن يبنى مستشفى ولادة طوارئ على شكل مخيم يتسع لمائتى حامل توشك كل منهن أن تضع وليدها. تحدث إلى المحافظ واستعان عليه بأعضاء مجلسى الشعب والشورى والحزب الوطنى بلا فائدة.

أخيراً قرروا إرسال بعثة من عشرين طبيباً متخصصاً فى أمراض النساء ومثلهم من الممرضات وعدة أطقم توليد لإنجاز المهمة على أرض القرية وفى بيوت أصحابها.

خصص العمدة للأطباء داراً من دوره، واستقبل شيخ البلد الممرضات فى دار أخيه المسافر.

عرف الصحفيون الخبر، فقدموا بآلات التصوير وأجهزة التسجيل ولحقت بهم الإذاعات ومراسلو وكالات الأنباء العالمية والقنوات التليفزيونية لرصد الحدث العالمى الكبير.. مئات النساء على وشك الولادة فى وقت واحد تقريباً.

استعد الأطباء والممرضات للحاق بأى حالة يبلغ أهلها أنها توشك على الوضع، وسرعان ما تعالى الصراخ وتوالت الدعوات وأسرع الأطباء ملبين النداء.. كل طبيب معه ممرضة. يقوم بالفحص وبحث الحالة ويأمر بتجهيز ما يريد من فرش نظيف وماء ساخن وإضاءة كافية وملابس نظيفة وقطن وصابون..

القرية خلية نحل.. يحدث فيها كل شيء فى الدنيا فى وقت واحد الكل يجرى ويتحدث ويدعو الله ويحمل أشياء. يطبخ ويأكل ويشرب وينادى ويسهر وينام ويقع من طوله.. يموت.. يحيا.. يولد.. يمرض.. ينزف.. يصرخ.. يبكى.. يضحك.. يفرح.. يدهش.. يضرب كفًا بكف.. يلطم خديه. يغشى عليه. يحمد الله.. يتبادل الجميع الأشياء.. تسرع السيارات إلى البندر لتحضر الكلوبات ذكر الله لايبرح الألسنة والقلوب.. النظرات تنتقل بين الأمهات والسماء.. قرية بكاملها تلد حتى الرجال.. يخرج البعض نقوداً كان يخفيها لوقت حاجة.. ويبيع البعض شيئاً مما يملك، ليشترى على عجل وبأى سعر ما يلزم للحفاظ على حياة الوالدة والمولود.. كل النساء الحوامل ينمن على الأسرة والأفران التى غطتها البطاطين والملاءات وكل الرجال والعيال يتمددون على الأرض وفوق أكوام التبن والسباخ وفوق الأسطح، ولا يسأل أحد عن أحد، ولا يسأل عن طعام أى شخص يأكل من أى مكان.. البيوت الميسورة أعدت الصوانى وأخرجتها أمام الدور. حطتها على المصاطب ليأكل من يريد. بعض الأطباء ساعد فى توليد بقر وجاموس ومعيز تصادف وضعها مع البشر.

كل المواليد تقريبًا لم تبق فى الأرحام غير سبعة أشهر.. القرية كلها تلد خلال أسبوعين فقط.

سوّد الصحفيون مئات الصفحات بالأخبار ووصف الوقائع والطرائف والحوارات. أتعس اللحظات وأتعسها.. الحالات الخاصة. الأسماء المقترحة.. إحصائيات مختلفة..

كانت هناك سبع حالات ولادة فى بيت العمدة وحده، عنده أقام الديك أطول مدة،وكانت بناته يخفونه ولم يعرف العمدة بأمره إلا بعد أسبوع وبالصدفة.. هدد العمدة بأنه ينتظر فقط رؤية المواليد، ولو تأكد أنها تمت إلى الديك بأدنى شبهة لقتله فوراً ولن يمنعه أحد من ذلك..

لما رأت المواليد النور. فتش الأهل فيها. كان من اليسير إدراك علاقتها بالديك.. ليس إلا القليل منها يشبه أمهاتهم، والكثير منها يشبه ولد محبات، وهناك من له لوزتان تحت ذقنه، ومن بيده ثلاثة أصابع أو أربعة، ومثلها فى قدمه.. الجميع اتصلت أذرعهم ببطونهم بغشاء جلدى عريض كالأجنحة لا ينقصه إلا الريش، ومنهم من بجسده شعر أصفر وأسود وأبيض.

تجمع الرجال بعد أن أيقنوا بأن الفاعل واحد وحيد ومحدد. احتشدوا أمام دوار العمدة، كل منهم يحمل عصا غليظة.. كانت إحدى بناته قد ولدت والتمس ملامح الديك فوجده بقوة.. نزل العمدة جاهزاً.. كان يحمل بيده مثلما يحملون.. عصا غليظة، عازمًا على أن يضرب بها الضربة الأولى ليدشن عملية الضرب الكبرى.

علمت محبات بما عزم عليه الرجال. أسرعت إلى دارها. قالت للديك: إن أهل القرية يأتمرون بك وقد صمموا على قتلك، فهيا بنا نهرب ، خطفت كيس نقودها وتسلقت السور الخلفى للفناء. سبقها الملك إلى النزول فى الجانب الآخر ليحملها عندما ترقى السور. رفضت وتدلت فهبطت.. ركضا قدر طاقة محبات التى حملت وليدها الثقيل.. قطعا الحقول حتى بلغا الطريق السريع. كانت السيارات تعدو فى اندفاع مجنون لا تلتفت إلى عابر.

أشارت إلى سيارة ميكروباص، لم تأبه بها أية سيارة عدة دقائق، ثم وقفت واحدة.. قبلها قفز الديك فوق سقف الميكروباص كانت حائرة كيف يتسنى له الركوب. دخلت وطفلها السيارة. التقطت أنفاسها أخيراً بعد نجاح المحاولة المبكرة للهروب. تركت القرية ورجالها الذين أجمعوا أمرهم على إلحاق الضرر بأنيسها الوحيد. كان السائق والركاب يعبرون عن دهشتهم لمنظر الديك. لم تعرهم أى اهتمام.. هدأ قلبها.. وتمكنت أن تلقم الولد ثديها وتفكر فى المكان الذى سوف يسعها والديك.. ردت على نفسها بسرعة.. أى مكان.. المهم أنى لن أفرط فيه أبداً ولن أسمح باغتياله.. لم يعد لى غيره.. يجب ألا يعرف أحد من أهل القرية مكاننا، فهم فى الأغلب لن يتركوه.

لحظات واهتزت العربة بقوة. رفعت رأسها قليلا وكانت تتابع بين الحين والحين ظل الديك على الأرض وهو مرتبط بظل السيارة المندفعة إلى البندر. كانت الشمس قبل الغروب مازالت تسقط على كل شيء.. صرخت فى هذه اللحظة وخطفت ثديها من فم الطفل وهى ترى الديك يطير بعيداً..

صرخت فى السائق كى يقف. وضعت الطفل على مقعدها. صرخت فيه ثانية وبقوة. توقف.. أسرعت تجرى فى إثر الديك.. تصرخ وتناديه:

- ارجع يا ملك.. ارجع يا روح محبات.. عُدْ إلى يا روح محبات، ماض فى سبيله الملك. ترفرف بقوة ويتجه شرقاً فوق الحدائق والحقول نحو عالم آخر وقرى أخرى.. وظلت محبات تصرخ بينما الملك يبتعد ويبتعد.. يتضاءل ويتضاءل حتى لا تكاد تبدو منه غير حركة أجنحته حتى تلاشى فى الأفق البعيد.

ظلت تجرى وراءه وتسقط فى برك وطين وتصطدم بشجيرات صغيرة.. تنادى:

- ارجع يا روح محبات.. يا روح محبات..

تقع وتنهض وتصطدم بالناس والشجر والحجارة وتتعثر ثم تقوم وعيناها على الأفق البعيد الذى ابتلع روحها وغاب فيه الملك.

تجرحت قدماها وتمزقت ملابسها وهى تجرى ولا تعترف بأنه ابتعد أو اختفى، ولا تقر بعجزها أو بعد المسافة بينهما.. وتثق أنه لو واصلت النداء والسعى خلفه سوف تلحق به وتستعيده.

مضت تجرى وتتخبط وتنادى.. تخوض فى المياه وتجتاز الحقول وتدوس على تراب أوحلته دموع فجيعتها. ■

القصة

أغسطس الصغير

عاطف سليمان

قفا أيام. كان يُوقظ فيها مع كل فجر، ليلتقط قلم الفحم، ويخرج إلى شرفة البيت، فيدفرد بلوحة بيضاء، يشدها إلى حاملها، ويبقى منتظراً دقائق قليلة تغافل أمه فيها نعاسها، وتدق على باب الشرفة الزجاجى بالملعقة الصغيرة، لتضع له كوب الشاى بالحليب الساخن، ثم تتركه مع ورقته البيضاء الملطخة بصورٍ تملك أن تتجلى فى كتل الهواء أمامه ثم لا تتهيأ لأصابعه التى لا تمتد إلا بعد ساعات ثلاث لترفعها، وتعيدها ملفوفة ، وتركنها بتراخٍ إلى هذا أو ذاك الحائط، ثم يرجع ليجد الشاى بالحليب قد برد، وختمته قشرة رخوة غير محبوبة، فيكشطها بإصبعه، ويمتص شرابه، ساحباً إياه من بين أسنانه المفروقة ببطء واستغراق ودون أن يرفع الكوب عن فمه، منجزاً عبر الوسيلة تغاضيه عن الهباء الذى حدث، عندئذ يكون عليه أيضًا أن يتجاوز عن نصيبه فى البؤس، أى يكون عليه أن ينسل إلى سريره بعدما يعيد تعتيمه، لينام نصف ساعة يتاح له بعدها أن يصحو، وأن ينال اليوم من صباح آخر. وكان ينهض من تلقاء نفسه، مختنقاً بطعم اللبن المسكر فى فمه إلا أنه بعد عشرين دقيقة من هذه اللحظة، وعلى مدى صيف كامل، كان يشاهد فى الطريق، فى منتهى أناقته، قاصداً ورشة النجارة.

كان يعمل مع آخرين، أربعة نجّارين ورئيس، والرئيس هو الذى يوزع عليهم الأعمال يومًا بيوم، أو هو بالأحرى من يحيطهم علمًا بما يتعين عليهم تخليصه من أشغال، موفراً للجميع فرصة الاختيار، وكان دائماً ما يبدأ به مستفهماً:

- «محمد»! فيم ستضع يدك؟

ودائمًا كذلك يعمد «محمد» لاجتذاب المشغوليات التى تروقه، محبذاً رؤيتها مبددة بين أيدى الزملاء، ودون أن يلحظ الصيغة الكهنوتية التى يصدر بها رده كل مرة، يتكلم، مفاجئاً نفسه أيضاً:

- أضعها فيما سيبقى لها.

ويختار الآخرون، ورويداً رويداً يندمجون فى أعمالهم، ويحوز «محمد» المهمة التى لم يتحمس لها أحد إذ تكون فى الغالب مملة وجالبة للأخطاء، دون أن يستسيغ اعترافًا بأنه يستمرئ نيل الورطة كل مرة. ثم. ثم يكون له أن يندمج، كالآخرين، لكن ليس قبل أن يتيح لإحساس ضرورى وشامل بالحزن أن يدركه، ليبقى طوال الوقت فى حضرة هواجسه يستنقذ عمله ونفسه من أخطاء خاطئة، بلا معنى وبلا نفع. وقت يمضى، وضرورة الانتهاء من عمله قبل الآخرين تتربص به وتتهيأ لها سطوة النداء عليه، وهكذا يوفر «محمد» ساعة، يضيّعها متكئًا على كرسى عتيق أمام الورشة، فى حين يوالى تدخين سجائره، ويتلصص على حرصه فى أن يحتويه حيز رؤية الزملاء الأربعة، لاهيًا عن إدراكه بأنه إنما يضمن بذلك حراستهم له فى تلك الأصائل، حيث كان يتلقى سؤال الاختيار من جديد، يتسمع: «محمد»، فيم ستضع يدك؟، ويكاد يسمع صوتاً، هو صوته بعد كل حساب، يقرر: فى هذا، ويختار «محمد» ما كان يريده من مشغوليات اليوم، وخطوة خطوة ينجز عمله، فى ذات كتل الهواء، بالذهن المشمول بالصفاء، وبالقلب الرتيب، ورغم أنه لم يكن يهمس لنفسه مشجعًا فى لحظة الانتهاء: أنقذتها!، إلا أن الكيمياء التى توصغ هيئة المنقذ تدخله فى تلك اللحظة وتعبئ نظرته. ويتم «محمد» عمله، ويكون أن ينتهى زملاؤه أيضاً من أعماالهم، فيقدمون إلى جلسته، غير مبالين بكتل الهواء لأنهم لم يتوقعوها، ولم يتعثروا أبداً فى الخيالات المنصوبة فيها، كان «محمد» لا ينتبه إلى ذلك، ولكنه كان يشعر، أكثر من أى شىء آخر، بأنهم إنما يتعثرون فيه، ويجىء الرئيس، منتعشًا بصخبهم، ويقترب منهم بخطوات حسودٍ حتى يصيروا جميعاً محل نظرته الباسمة فيحييهم:

- أيها الفنانون!، مساء الخير.

فيهللون، ضاحكسن:

- تمام! تمام!، مساء الخير.

يتصايحون هكذا، وكأنما يهدهدون أنفسهم، لأن الرئيس سيتفحص فى الحال أعمالهم كعادته، ويختبرها، ولكنه سيردد، غير عابئ بتردى الإيقاع: تمام، تمام. حتى قبل أن يمد يده إلى أى شىء، سيرددها بلاإنقطاع تقريبًا، على مدى عشرين دقيقة

يناظر خلالها أعمال اليوم، أما «محمد» فسيكون عندئذ كما كان، جالسًا، يتأهب للانصراف، لا يكاد يغفل أن أحداً لن يستطيع لمس أعماله أو استعراضها، وأنه، وهو الذى دسها فى الهواء، صائر إلى عماه عنها بعد وقت لن يطول، متعزياً بأنها - بثمة وسيلة - نسخت وطويت، له، باسمه، فى رحابات الكون، الحافظة، الصارمة. ويناديه الرئيس، من وسط أخشابه، ليسأله بفضول:

- هذه القطعة، من عملك اليوم. أليس كذلك؟

- إلى حد ما..

- يعنى..؟

- أعنى أنى صانعها إلى حد ما!

أتراك نظرت إليها كثيراً، كثيراً جداً؟

- لم أكد أنظر إليها.

- تعرف! تبدو وكأنها جزء من ذكريات شخص.. ويرمقه «محمد» محتاطاً لئلا يقسو، وينبهه بأمانة:

- صدقنى، ليست إلا أكثر سوءاً مما تظن!

وينصرف «محمد» مع زملائه، بينما يوافيه طعم الشاى بالحليب، ويغصه.

الأبدان الغضة كانت عندئذ ترشدهم، وتفتح لهم عيونهم على مساءات صيف ناعم أزرق تنساب فيما لا يشبه إلا القرين السحرى للنهار والليل، وكانت نظرة المنقذ تستعاد من عينيه، فيمس فى مقدوره كذلك أن يفتحهما على صيف له نفس العلامات المدوخة لأول صيف تذوقه بشر الأرض، دون أن يمس فى مقدور شىء أن يدله عما إذا كان قد شوّقه هذا الكمال الباذخ المنتصر فيما كان من حياته أو فيما سيكون، غير أنه فى تلك اللحظات المفعمة بخصب وخصب كانت النعومة تشوشه، وتحطه، وتمض روحه، ليحس أنه إنما يقاد إلى ما ينبغى عليه أن يتحداه، وينكسه.

كان «محمد» يتوارى من صيفه لأنه تطيّر، مرةً، من خطط الجمال المسمومة، المتلاعبة. وفى الصيف التالى كانت لوحته البيضاء بيضاء، لم تنل غير غبار سنة، توالى توليد حرمانها من صورة عصيّة لوجه «عائشة»، و«محمد»، الذى استنسخ فى كتل الهواء كل الهيئات التى اشتهاها من وجه «عائشة»، لم يحصد خطأ من إحداها على لوحته، وكانت لا تستقر له، فى النهايات، غير صورة وجه رقيق لا يؤتمن من دورة «عائشة». فى الشتاء، أهداها «محمد» مركباً بحرياً صغيراً، لعبة، عملها من خشب وحرير، فقالت له وهى تسيّرها على فخذها إنها فأل سيئ، ولكنها وعدته بهدية؛ دمية بالحجم الطبيعى لعروسة تقبل وتداعب وتقبح وتخاصم وأسرار أخرى لم تبح بها «عائشة» بنت العشرين التى وعدت. وفى الشتاء كان على «محمد» أن يتناسى أنه يترقب نهايات الصيف الذى سيحل لأن «عائشة» اشترطت أن توافقها حركات المركبة عندما تهب عليها نسمات أغسطس حتى تقدم هديتها.

كان كهنوت «عائشة» قد هيأ لـ «محمد» أن يتذوق فمها مرة، وأن ينال لسانها ورضابها كما كانت عائشة، تحوطه بنظرات مدوّمة، ممرورة، طويلة، ثم كتبت شيئاً على باطن كفها، بتوتر، وكوّرت له يدها وقالت:

- إسألنى سؤالى.

فقال «محمد» لها، وله:

- أنت! ممنوعة من جمالك. جمال «عائشة»، الذى هو لنا ومستغلق دونك. أنت محرومة من أن تنالى نفسك..

ألا تفكرين، حقيقة، فى هذا؟

طوقته «عائشة»، بنعومة وخفوت، وتذوقت فمه، ورضا به. وشربته.

هذه هى الخاطرة، التى توجب فقط أن ينطقها أحد لا لتعتنقها «عائشة» وحسب، بل ولتفتح لها كياناتها فى التو لتدخل وتسرى فى العائشات التى كانتها، منذ أولها وحتى اللحظة التى ستسحب فيها لسانها من فم «محمد» لتقول له بالصوت الهش المستعار من «باردة»:

- أول إنسان أحبه.

وتنقر على دماغه بسبابتها، وتكمل بذات النبرات التى كان يرد «محمد» بها على سؤال الاختيار من رئيس الورشة:

- دع هذا يستريح، قليلا.

و«محمد» لا يرغب أن يتواجها نوراً لنور، ولا يريد منها أن تقول حبها له، يريد شيئًا من العتمة، ويود لو أنه يسكت، فلا يسكت:

- «عائشة». لا أعرف كيف أرسم صورة لك. إنى أنسى ملامحك.

وهو يفهم أنه لا ينسى ملامحها وإنما يعوزه أن يطوّعها فتعصيه. ويصمتان. فتستعيد «عائشة» مرارتها:

- «محمد»، مَنْ أنا؟! صف «عائشة» يا «محمد»!

فيما بعد، وفى أحد صباحات مارس انتظرته «عائشة» لأكثر من خمس دقائق لتعيد إليه خاتمه، ولتؤدى له عبارات: أنا أخاف منى عليك.. إلخ، ونبقى أصدقاء.. إلخ، و«محمد»، الذى تراءى له هذا المشهد الصباحى بحذافيره وقتما أعلنت «عائشة» الانتظار حتى تقرر نسائم أغسطس شيئًا بشأنهما، مثلما تراءى له شخصه وهو يرمى الخاتم المردود تحت جزمته ويهرسه، كان يرد فى مارس بنبالة فادحة:

- نكون أصدقاء.

فى أغسطس لم يبد متوقعًا أن تُختبر المركبة الصغيرة، ولكن فكر «محمد» بها، وتمنى لو أن تختبرها «عائشة»، وهو معها، للحظة واحدة، معتقداً فى تحصنه من أوهام الالتئام بحبها من جديد، ومنساقاً إلى التأمل بأن أغسطس الذى أنتظر طويلا، سيعاد

انتظاره بكل التضاعيف المركّبة للنسيم. لم يكن «محمد» حينئذ يملك أن يرى «عائشة»، ولكنه كان يملك صورة مدى العمر ما لم يوف نذرهما ويدعا المركبة للنسيم لم يكن محمد حينئذ يملك أن يرى عائشة ولكنه كان يملك صورة وحيدة لها، في ذيل إحدى صفحات مجلة أطفال قديمة رخيصة، فقصها «محمد»، وصمّغها، وضغطها على ورقة كرتون ليقوّيها، فأفسدها الصمغ ورطّبها ومسخها، وبعد انقضاء الظهيرة في محاولة مخلصة، عاجزة، لإنقاذ الصورة واستعادتها، تناولها «محمد» بين إصبعين وأسقطها ببساطة في مطفأة سجائره، وهو يدرك على سبيل اليقين أنه ما أراد هذه البساطة لحركته، وأن «عائشة» استردت نفسها منه تماماً تماماً. كما. لو. أن. شيئاً. لم يكن.

كانت الفتاة ترسم، بالأحرى كانت تعلم طفلة مبادئ الرسم، وترشدها: أديري خطاً هنا، تحصلين على إبتسامة للوجه.. نفتح الفم قليلا لنؤكد النظرة.. أما الألوان، فلن يحيّرنا سوى اللون الأول. بدا يسيراً وغير ملفت أن يبدل«محمد» مكانه فيدرك وجه المعلمة ويطالعه، ولم يكن ليفعل. ومن مكانه، حيث وجهها سيظل محجوباً بشعرها وبحركات الطفلة، كان «محمد» يلعب مع صوتها، ويخمن الملامح والاسم لها، اللعبة التي نُحيت، في التو، من أساسها، عندما نُوديت الفتاة للتليفون.

قبل انقضاء عشرين ساعة، وفي جلسته المسائية أمام الورشة لم يحتشد «محمد» لتعديل اختيار مشغولياته، ولم يتابع كعادته أغسطس الذي كان يمضي، منصرفًا إلى التفكير في ذراعيها الشائهتين القصيرتين مثل ذراعيّ وليد؛ الذراع اليسرى البعيدة الممسكة بسماعة التليفون، الذراع اليمنى التي لا تفسر المكالمة، ومسلمًا بأنه لو لم تبُاغت العبة لحاز لها ذراعين إغريقتين شامختين. وفي ليلته، وبينما هو منكفئ على موسوعة مصوَّرة عن كل العصور، يفتش فيها عن ذراعي «بلوبي»، بدت له لعبته مستبدة، وآثمة على نحو ما، وبان لنفسه، للحظة، وكأنه تأهل لأنْ يرجو رجاءه؛ لأن يلمس، تحديداً، ذراعيّ «وداد».

بسبع حبات نمش على وجنتيها، كانت «وداد» تبتسم له، في عينيه، بوداعة وعذوبة، وهي تضمه إليها بقوة مدهشة، وتهمس:

- لا أستطيع احتضانك بما يكفي!

وكان - هو - يضمها إلى قلبه بامتنان، مستشعراً خجله من ذراعيه، آنسًا بذراعيها، وغير معصوم من الانتباه إلى أن جسدهما كان يتلقى، في رحمة، قبسًا من نسائم يوم أخير من أغسطس. ■

أجـــمـل صـــورة رأتـهـــا

ليل الشتاء طويل

ابتـــهـــال ســـالم

قـأزاحت الغطاء، تقرفصت واضعة يدها على خدها.

الإيقاع المنتظم للمنبه يؤرقها. الغرفة ضيقة، الملابس مكومة على ظهر السرير والكراسى.

أوراق مبعثرة فوق وتحت المكتب، الضوء يسقط بشدة على الحائط المواجه لسريرها، فتبرق عينا «عبد الناصر» وتتسع ابتسامته.

أجمل صورة رأتها له، مع أنها اعتادت على الكثير من صوره المطبوعة والمعلقة فى الشوارع والميادين والمدارس والجامعات والكشاكيل والمحلات والمستشفيات، «عبدالناصر»، «عبد الناصر» فى كل مكان، «عبد الناصر» حتى التنفس، هكذا كان وكانت تراه فى الطفولة والصبا.

حدثته: عاجبك الحال؟

- ....

- تضحك وتبص للسما؛ عرفت آخر الأخبار، صاحب البيت عاوز يرفع الإيجار، كان يستجرى يعمل ده وانت موجود؟؟

- ....

- روح يا شيخ، منك لله، خليتنا نحلم، ونحلم، ودلوقت مش عارفين راسنا من رجلينا.

تأملت جبهته العريضة وعينيه العسليتين النافذتين.

أردفت:

- ومع ذلك، انت جميل ولا يهمك، كله بيعدى.

- انتِ بتكلمى نفسك؟

رأته ماثلا فوق رأسها.

خبطت على صدرها:

- يا ساتر، يارب، انت هنا من امتى؟؟

قفز على السرير، مازحها:

- قولى - لى - الأول، هو مين دا الى جميل، يا جميل انت، يا حلو.

أزاحته عنها:

- بس اختشى.

لفت الشال على كتفيها:

- إيه اللى مصحيك لحد دلوقت؟

خفض صوته:

- قلقان.

نظرت إلى وجهه مليا، متأملة ملامحه المتنوعة، أخذ من أبيه الراحل طوله وسمرته ومن جده حاجبيه المعقودين ومنها عينيها السوداوين المستديرتين ومن خاله الشعر الكثيف، جميل هو، لكنه حزين، هكذا استشعر قلبها، لكنها تنتظر أن يفاتحها كعادته.

وضع وجهه بين كفيه:

- مش عارف يا أمى أختار، أسافر وأسيبك لوحدك ولا استنى وآخد ملاليم.

منذ زمان غير بعيد، وهى تنتظر هذه اللحظة وتخافها، لكنها اعتادت كما هى عادتها على قبول أشياء لا مفر منها.

تجولت ببصرها فى الحجرة، لاحظت اتساع دوائر النشع فى الزوايا العالية وتآكل حواف الكليم الذى أهدته إياها أمها ليلة زفافها.

تحاشت النظر إلى صورة «عبد الناصر».

أوشك الفجر على البزوغ، استدارت بوجهها نحو عينيه المطفأتين:

- انت عاوز إيه؟

أخذ نفساً قوياً:

- بصراحة من غير زعل؟

ردت مترقبة:

- من غير زعل.

- أسافر، لكن مش حا غيب عنك كتير، سنة أو اتنين، مش أكتر.

نفس الكلام سمعته من أخيها وأسرف فى الغياب سنوات طويلة حتى ملت عدها.

دنا منها:

- قلتى إيه؟؟

خفضت صوتها:

- اللى تشوفه.

صاح بنفاد صبر:

- يعنى موافقة؟

هزت رأسها إلى أسفل.

لمعت عيناه، قفز عن الفراش صائحاً:

- أما ألحق أنام - لى - ساعة عشان ألحق النهار من أوله.

توقف فجأة:

- آه، نسيت.

طبع قبلة سريعة على رأسها:

- تصبح على خير يا جميل.

النوم يخالفها والشتاء ليله ثقيل، برده ينفذ فى عظامها الواهنة، فردت جسدها، شدت البطانية حتى صدرها، اختلست نظرة إلى «عبد الناصر»، رأته ينظر إلى السماء، غطت وجهها متمتمة:

- كله بيعدى. ■

القصة

لحم «القرايب»

خالد إسماعيل

(١)

قا أشم رائحته.. وأرى وجهه الأسمر الباكى، كلما جلست إلى «مائدة الرحمن» فى «رمضان» بشارع «شامبليون»، قامته القصيرة.. حذاؤه المتهالك، «شرابه» المتكور حول كاحليه - سكاكين فى بطنى - وهو يحمل طبق الخوص «فيه صحون المرق والملوخية وقطع اللحم» فى طريقه إلى «المنضدة الكبيرة» كلما كانت «جنازة».

أشم رائحته وأصابعه - عمى أبو حسنية - هو وأنفار يحملون مقاطف «الصبخ» من «حوش» «بهايمنا» إلى أسفل جدار بيت «إلياس».

أخجل منه كلما كانت فى جيبى «١٠ جنيهات» صحيحة، وكلما قال لى «عبد العاطى» الساعى:

- صباح الخير يا باشا.. تأمرنى يا باشا.

لعبت مع «حسنية» ابنته - لعبة «السيجة» التى صنعتها من تراب «مجاز» البيت على هيئة مستطيل؛ قالت لى إنها سيجة «عيال مصر» وأبوها علمها سرها.. كانت على الجدار صورة فتاة بيضاء مكشوفة الذراعين تشبه الشيخ «عبد الوهاب» صاحب «الطاحون» فى قبلى البلد، وصورة «فواكه وخضراوات» منزوعة من كتاب «المشاهدات المصورة» الذى درسته فى أولى ابتدائى.

(٢)

قبل أن يمر «أبو المجد الغنامى» بنعاجه، وبائع «الحصُر»، وقبل أن تخرج «رحمه» و«روزا» ولِدَا بنات «إلياس» إلى غيط «المعابدة» - بحرى البلد - أكون أنا وأخى «عبد الرحمن» قد جمعنا بلح «نخل الطُرش»، وأكلنا «العنب البناتى» من بائع اعتاد المرور من «جنينة أحمد رشوان» كل صباح..

ثم أذهب إلى بيت «أبو حسنية»، تكون هناك «فوقية» وأختها «روحية» فنبدأ مشوار «السيجة» حتى يؤذن خالى «عطيفى» لصلاة الظهر، ثم تصنع «فوقية» - أكبرنا - «زمارات» من عيدان «البرسيم»...، تقترح «حسنية» لعبة «خضّ القرية»..، تحضر زجاجة طويلة فيها ماء كاللبن وبعض «كعاب» البوص ثم تنصب «الشعبة» ونحن وراءها نغنى:

- خُضّ القِرْبة خُضّ

طلّع زبده.. خُضّ..

أُذكّرهن بلعبة «العمليات» فتنام «فوقية» تشمر جلبابها وتهمس..

- آه.. بالراحة يا دكتور لحْسَن الواد يموت

تنزع «حسنية» يدى - بعنف - لتنام هى..

دخل «أبو حسنية» فرآنا، فدفسها بقدمه، ثم ألقى بأشيائنا خارج البيت وهو يلعن آباءنا وأمهاتنا..، فجريت ناحية «الجامع» واختبأت فى «دورة المياه».

(٣)

اتفقنا على أن نلعب فى بيت جدى «عبد الغفار» المهجور، وانضمت إلينا «عايدة» وفى اليوم التالى دعتنى لدخول غرفة مقام الشيخ «بيومي» - الذى مات جدى «عبد الغفار» قبل إتمام قُبّتها - تيجى نلعبوا عروسة وعريس؟

ثم خلعت «اللباس القماش» واستدارت..

دقائق مضطربة، ثم انطلق صياح الأولاد:

- هـ يـ يـه

صحن ملوحه

عَ السلطوحة

أفطر ياللى صايم

فوضعت «سروالى» فى جيبى وخرجت...

«لم يكن فى الشارع غير «أبو حسنية» يدخن سيجارة»..، وكلب «إلياس» يبول على حائط بيت جدى «عبد الغفار».

(٤)

.. أفرغنا «العبّ» الأول فى الشوال، وسرى دفء فى أجسادنا، وحكت «حسنية»

التى تجــاورنى حكاية البنت الحلوة التى خطفها «الغول» من حبيبها؛ وجعل إخوتها السبعة «عجول بقر» فتمنتْ من الله أن يجعلها حمامة فصارت تحط على ظهور إخوتها وتصبرهم، حتى مات «الغول» فى معركة ففسد سحره، وعادت الفتاة إلى حبيبها وعادت العجول السبعة إلى هيئة الرجال بإرادة الله...

وفى آخر النهار رأيت «أبو حسنية» يكبس «شوال القطن» وجدى يصب له «الشاى» وهو يداعبه:

- اشرب يا «أبو حسنية».. الله يرحم أبوك..

وجدتى تقول:

- يا «ابو حسنية» دا المرحوم أبوك كان عايق، ولولا الحريم كان زمانك مرتاح..، قاعد على زرعك وطينك..

(٥)

صرخة «أميرة»، جعلت أمى تجرى نحو الشباك، وأنا وراءها.. توافد على بيتها «اعتماد» و«سعاد» و«بنات إلياس»... فقالت أمى:

- أمِيرة جاها الوجع.. مسكينة، عاملة عملية «كحتْ» ربنا ينتعها الغلبانة.

«لم يشهد «أبو حسنية» لحظة ميلاد «صابر»، كان فى ترحيلة «الواحات» مع مائة رجل على رأسهم الريس «خليفة»، ولولا خطأ «أميرة» فى حساب مدة الحمل واستعجال الريس «خليفة» ما تركها وحدها..» وكان الشيخ «أنور» يقرأ الآن - ختمة - نذرها «أبو حسنية» لو قامت بالسلامة.

(٦)

أقف الآن أمام «بوابة» بيتنا المواجهة للجامع..، وشمس الشتاء جمع أجدادى «عبد الخالق» و«عبد الحى» على سيرة «شركة شل» و«السويس» و«الكانب الإنجليزى» وأسعار اللحم و«جمال عبد الناصر» و«الخير بتاع زمان» و«الكيماوى الذى جعل «العيشه ماسخة».. قطع الطريق جدى «عبد الخالق»..

- واعى يا «عبد الله» البت بت المقدس اللى هجت مع ولد «عبد الحكيم ملطى»؟

- آى واعيها.. ليها مدة كام سنة..

- مش قالوا نهاريها داسها «البابور» ولقيوها بحرى «أسيوط» ومش عارف ايه؟

«يفتح جدى عبد الله فمه بنصف ابتسامة وعينين مغمضتين»

- أها حكاية «أبو حسنية» عاملة زيها بالضبط..

قال جدى «عبد الحى» بحدة:

- كلام ما راكبشى على بعضه.. يعنى إيه قولة ساب الترحيلة وهج فى الوادى؟!

رد جدى «عبد الله»:

- يعلم بيه ربنا.. بزيادة شوفوا لنا قصة غير دى.. «أبو حسنية» كان يقول لجميع «يا عم» وكان جدى «عبد الحى» يعتمد عليه فى طحن «القمح» وإرسال جاموسته إلى عجل التعشير «بمشطا» وما قصد «أبو حسنية» فى خدمة إلا أداها عن طيب خاطر.

(٧)

.. وأنا عائد من «غرب البلد» رأيت «فهيمة» الحلبية - التى تضرب الرمل وتوشوش الودع و تخرج الدود من العيون والآذان - جالسة على عتبة «أبو حسنية» وحولها عيال و «حريم» و«أميرة» عاصبة رأسها بشال أسود..

وفى المساء عرفت من «أمى» أن «فهيمة» قد أخبرها الرمل بأن «أبو حسنية» لن يعود..

(٨)

.. قالت «أميرة» بعد أن تعشت وشربت الشاى إنها ترغب فى إرسال خطاب إلى «عبد السلام» أخوها المقيم فى «عين شمس الغربية»..، فأحضرت الورقة والقلم وكتبت..

بسم الله الرحمن الرحيم

- وبه نستعين -

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين النبى الأمى سيدنا محمد عليه وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

أخى الغالى عبد السلام: أهدى إليك سلاما لو صعد إلى السماء لصار قمراً منيراً ينير للناس حياتهم ولو هبط إلى الأرض لصار شجرة فروعها المحبة والوئام..

أخى عبد السلام:

أشتاق إليك كما يشتاق العليل إلى الدواء، والزرع إلى الماء والجندى إلى أرض الوطن والطفل إلى ثدى أمه وبعد:

تهدى إليك أختك «أميرة» كتير السلام، وإلى الست «أم ياسر» و«ياسر» و«حنان» وكل من يسأل عنها كبيراً وصغيراً له منها كتير السلام.. وبعد:

نعرفك يا «أبو ياسر» إنك زى ما انت عارف اتبليت بالجيزة والعيا بدرى، وربنا ما يعوزك لصنف مخلوق، وقعدة البيوت مش بالساهل، عشان كدة يا أخويا نعرفك إنه «أبو صابر» فاتت تانى سنة ولم نعرف ليه طريق مطرح، ويا ريته ما كان سافر ولا طلع من بيتنا أبداً و«صابر» يا عينى بان عليه اليتم بدرى، ووديته للدكتور كتير، وانت عارف إنه أختك لا معاها «حلق» ولا «كردان» وصلحت ما خليتش، حتى الفروج بعته والأرانب والعنز وعيالها عشان كده يا «أبوياسر» أنا ما ليش غيرك وقاصداك فى ٥ جنيه،

تبعتها فى أقرب فرصة مع أى حد جاى من مصر.. ربنا يخلف عليك بالحلال ويعوض عليك عوض الصابرين ويديم عليك عافيتك ويدور لك عينك ويكفيك شر الطريق وولد الحرام وبت الحرام ويجعل ليك ما عليك.

ملحوظة:

والنبى يا «أبو ياسر» ابقى قول للست «أم ياسر» تبعت لى الطرحة اللى قالت لى عليها يوم ما كانت فى البلد وما تنساش لاحسن أنا ما قادراش نروح هنا ولا هنا من غير طرحة وما معاييش غيرها دنشة الشقة.

- والسلام ختام وليس بيننا ختام -

أختك أم صابر

وكاتبه يحيى يهديك السلام

تحريراً فى ٥/٤/ ١٩٧٢.

(٩)

أطفأنا الحريق الذى شب فى «بوص» على سطح بيت «أبو حسنية» وقام جدى «عبد الله» بصفع «أميرة» لأنها اتهمت أخته - جدتى «هنومة» - بإشعال النار فى البوص، وبعد أيام عرفنا أن «حمدان» ابن المرحوم «بخيت العسكرى» غريب من الشرقية كان يعمل فى النقطة وانتدب ليقوم بدور «العمدة» عقب اغتيال العمدة فى ١٩٦٥، وأعجبته بلدنا فعاش ومات فيها بعد أن أنجب حمدان، قد أشعل النار فى قطة صغيرة اندست فى البوص فاشتعل.، وحدثت مصالحة بين «أميرة» و«أم حمدان» التى دفعت «جنيهين» ثمن البوص الذى احترق، وفى اليوم نفسه تلقت «أميرة» خطاباً من «عبد السلام»..

- أختنا الغالية «أم صابر» إحنا كويسين والطرحة الى طلبتيها هتوصلك فى أقرب فرصة أما الفلوس فأنا غصبن على وسامحينى ما قدرتش ندبرهم عشان أنا الشهر ده اتزنقت فى جمعية ودفعت القرشين اللى معايه وبعدين ربنا افتكرنا أنا و«أم ياسر» بشوية عيا وسامحينى يا «أم صابر» ويا ريت كان معايه وانتى يا «أم صابر» أختى وليكى متى الكتف ده زاد والكتف التانى ميه. وسلمى لى على «صابر» وربنا يطمن قلبك ويفرحك بيه».

قرأت الخطاب بصوت مسموع فانهالت «أميرة» بسيل شتائم ودموعها كالنهر..

- روح يا عبد السلام يا ولد أمى وأبويا

روح

شالله تقطعك عربيه

شالله دراعك ما يدّفن معاك

شالله يشرّحك حكيم

شالله تشحت عليهم

وانتى يا مسلوبه يا قحبه

شالله تجيكى شعراية دم تشل دراعك...

«عبد السلام» قبل أن يعيش فى «عين شمس» عاش سنوات تكفل خلالها «أبوحسنية» بكل نفقاته من أكل ودخان و«هدوم» لأن أباه المرحوم «حسين» طوق عدق «أبو حسنية» بعهد التزم بداه عليه بأن يصون لحمه ولحم أولاده من بعده وظل «أبو حسنية» وفياً حتى اختار «عبد السلام» الإقامة والزواج فى القاهرة».

(١٠)

«فوقية» تعيش الآن مع «أميرة» بعيداً عن جو البيت الذى يذكرها بالوحدة والعنوسة بعد وفاة أختها «روحية» فى مستشفى «المبرة» بأسيوط..

«عندما داهم المرض الخبيث جسد «روحية»، نقلها «رأفت سلمان» الذى يحمل ترخيص حلاق ورثة عن أبيه - إلى «المبرة» ومنع الأطباء الزيارات عنها ولما ماتت قامت «جمعية العاملين بالكتاب والسنّة» بأسيوط بشراء الكفن وإخراج الجثة من ثلاجة المستشفى وجاد بها شباب ملتحون بسيارة - ذات ليلة - فدفنّاها ونحن فى غاية الخجل».

(١١)

.. فى حالة تشبه «الجنازة» عشنا الأيام التالية لزواج «حسنية» فنحن لم نقم لها ليلة فرح واشترطنا على «فرج الله العبد» أن يكون فرح ابله «خير» على ابنتنا «حسنية» بعيداً عن منطقتنا «تحاشياً للحرج وكلام الناس».

«حسنية» أمها ماتت بالسكتة، فتزوج «أبو حسنية» من «أميرة» التى كانت معترضة على زواج «حسنية» من عبد فلم تحضر إجراءات الزواج..».

(١٢)

«أميرة» فى مدخل «دوار العمدة» تبكى، و«صابر» يصرخ من عذاب «الخيرزانة» التى تلهب قدميه وأنا خارج - كالفأر المبلول - أتسحب، بعد أن رجوت العمدة أن يعفو عنه فشتمنى..

- ما دام عامل فيها راجل.. روح هات له تار أبوه..

«بعض الحكايات سرت فى البلد كلها تقول إن «أبو حسنية» مات فى معركة بينه وبين شاب غنى من «الخارجة» وإن المائة رجل تنكرت له كذلك الريس «خليفة» وحكايات أخرى تقول إن «أبو حسنية» عشق امرأة أخذته من «الترحيلة» وعاش معها فى قرية اسمها «القصر» مشهورة بجمال نسائها.. كان «صابر» قد تسبب فى سقوط «أحمد» ابن العمدة من أعلى سور «البستان» فكسرت ذراعه وشهد عليه اثنان من عيال الحلب همّا «سيد أبو دوح» وعدلى ابن «نبيهة»..

(١٣)

«عايدة» طلقها «مهران» ابن عمها «لزم» ولم تنجب منه، تقضى أيامها فى «الوحدة الصحية» مع الكاتب «وهو من أوسخ عائلة فى مشطا» ولا يفوتها «سوق»، حيث تضاجع رجالا يأتون من بلادهم خصيصًا لزيارة بيت «المعلمة صفا» وبمرور السنوات صارت «عايدة» أشهر امرأة فى البيت، ولها شروط - تشترطها فى من يرغبها - من بينها ألا يكون مدخناً أو فلاحا يرتدى الجلباب البلدى.

«عايدة» عليها ديون كثيرة لبائع السمك و«أبو ضيف» الجزار و«جلال» بائع القماش و«نعيم» الفرارجى، و«اعتماد» تقول عنها إنها تستقبل شباباً فى بيتها «بعد نص الليل».

وكلما جلست مع أصدقائى فى «غرب البلد» صارحنى بعضهم بعلاقته مع «عايدة»..

«عايدة» بنت أخت «أبو حسنية» وكانت فى حياتها مشهورة «بالمشى البطال» مع رجال من بلدنا والبلاد المجاورة وظلت روحها «متشعلقة» أربعة أيام ثم فاض السر الإلهى فكانت فرحة ما بعدها فرحة فى قلب «أبو حسنية». ■

السيرة الذاتية لثلاثة من الحمير

ناجي الشكري

ثلاثة تلتقى عند بركة من برك مدخل زوارة السيخى الرطب المصبوغ بتلوينات ملحية، بدت وكأنها بقع متناثرة فى رأس رجل متوسط العمر. ثلاثة، يجمع بينها الهيام على وجهها كيفما اتفق. يستأذن أول الواصلين فى سرد سيرته، مطوحًا نظرته فى أفق شاسع بين علب فارغة منتصبة بملل مكتسب من تواجد عقول صورية لا تجيد تحويد الأيام القادمة بقدمها المقترح فى أغلب الأحيان، وبين زرقة سماء يعتقد أنها نصف الدنيا:

- حدثتنى أمى بأننى أقرب واحد شبهًا بأبى، الذى استطاعت أن تتعرف عليه يوم أن جيئ به ولا يفصلها عنها سوى حاجز ترابى ملىء بالتين الشوكى. وقد كان لقوة الرائحة.. وقوة الرغبة الخفية الكامنة فيه، أثر فى جعله يثور ويقتلع إمبراطورية المنع من جذورها فى بادرة هى الأولى من نوعها فى تاريخ الحمير.

وبقدر ما كان ذلك مبعث حبور أبيك، فإنه فى الوقت عينه مدعاة لسرور صاحبه لاعتقاده بأن التهام التين الشوكى سيوفر عليه تكلفة الغذاء. التقت نظراتنا - تقول أمى - التامة لأول مرة عند سقوط آخر طوبة فى جدار المنع.

يومًا صار العالم بأجمعه لا يساوى شيئًا أمامنا، لم نعد نرى منه غيرنا. لكن ثمة شيئًا يقف قبالتنا، عرفه أبوك منذ أول وهلة، قد تقول حاجز الرهبة القاطن فى القفص الصدرى، قد تقول حبل الربط أو التأديب، كما يسميه الإنسان الذى يفاخر كذبًا بأن تسميته هذه تصل بإنسانيته وعفوه للمخلوقات الأخرى (هنا بدأت اهتزازات الآذان فى دلالة على الإجماع بمصداقية تفسير المغامرة). لا هذا ولا ذاك، إنه (تنهيدة عميقة تجبره لأن يرفع رأسه لمنتصف قبة السماء ثانية). الوتد حيث الأرض متواطئة فى فعل الشد والمنع. الأرض، أى والله الأرض، لا أحد يمكنه تصديق ذلك. اكتشاف أبيك للأشياء منذ بدايتها سبب له نقمًا متلاحقة لاعتقادهم بأن ذلك يخرجه عن طور بهائميته المحدودة. لا أحد على الإطلاق يرغب فى أن نكون خارجين عما رسموه لنا منذ الأزل، ولو من باب الشذوذ ولمرة واحدة!!. أبوك - تقول أمى - استطاع وبفضل الله وبفضل نعله المثبت بصلابة متناهية أن يجيد لعبة القلع. ومن لحظتها كنت أنت تتمة لنسخة مكررة ستتوالى بفعل الرفس، والاقتلاع. وتبلغ اللحظة الحميمية ذروتها حين يكون أول تهامس وتلامس بيننا وعلى غير العادة ظل يطارحنى - تقول أمى - الاحتكاك الجانبى، وكان للحرارة المستشرية فعل سحرى يتضاعف فى حمية الوطيس ذاتها.

العفاء على العفاء.. واللحم على اللحم.. حتى خُيِّل إلينا فى لحظة من اللحظات أنه لم يعد هناك - وبفعل عنفوان الاحتكاك - إلا لون الحمرة وحدها.

ثم تتمازج الشفاه مع تأتأة وهمهمة بين المكتومة والمسموعة، تقودنا لملاحقة السماء وكأننا نشهدها - وعن قرب - على فعل المزاوجة الشفاهية. وفيما بدا المشهد بتسابق محموم، كنت البادئة فى القفز للهواء، مما جعلنى الظافرة الأولى بروح السبق.

فى انتشاء العودة.. وعند الاقتراب من التراب، تطايرت ذراته الهوائية المتلاحقة بإصرار مما حدا بصاحب أبيك لأن يعلن غيظه.. مستنكرًا فعل الإلتقاء. يا الله يا واسع العدل، كيف يتجرأ هذا المدعى للعقل والكمال على فعل الفصل ويعلن أن ما هو حلال عليه حرام علينا؟!

ثم كنت يا جحشى - قالت أمى - ثمرة هدم الجدار.. والالتقاء المشهود.

يتحفز الثانى لبدء سيرته، محركًا أذنيه لنفض ما علق منها من ذرات ترابية ظاهرة:

- بفعل السيرة الذاتية ذاتها قدمتكم، لقد أمطرونى ثناء لا نظير له، حتى إن صاحبى

يسبنى إلى أبى أكثر مما ينسبنى إلى أمى. فكان نداؤه المتكرر، أأطعمتم الحصان؟ وزيادة فى المبالغة كان يتساءل أحياناً.. أأعددتم السرج الفضى؟!!

كنت مدللا للغاية حتى إننى لم أعرف التربة.. ولا الأكلات الوضيعة إلا نادراً. إلى أن جاء يوم أنكر فيه نسبى إلى أبى وتناسى بين عشية وضحاها ما كان يكيله من مدح وثناء.

ـ الجحش ابن الجحش، يتجرأ على فرس كالغزال؟!

صيغة واحدة، وبنفس غير متقطع قالها صاحبى، فكانت وحدها كفيلة بالانقلاب والتبرم. وبالتالى انهمار سيل العصى والهراوات على امتدادى. كنت أحس فى كل واحدة أنها أشد وطأة من سابقتها. وكلما هبطت واحدة على جزء عظمى، أحسست برعدة قوية تشبه الرعدة المتكونة بفعل ضربة تيار كهربائى.

ووجدتنى ألعب بقدمى فى الهواء، أنثرها زارعًا غضبى، أحسست بحافرى الأيمن يغوص فى شىء ما، بدا لى وكأنه قطعة إسفنجية رخوة، ثم بانهيار كتلة متجمعة تناثرت أجزاؤها البيضاء المصبوغة بلون أحمر. تهاوت العصى القادمة من كل حدب وصوب..

تنامت تطويحاتى الدائرية المتعاقبة فى تسارع آلى... تناهى لى صوت جشب عن قرب منادياً بشىء ما. لمحت أحدهم متبرأ لا فى انثناء قدمى اليمنى، جمعت آخر ما تبقى لى من جهد، فككت به قيدى، ثم أطلقت ساقى للريح.

ـ طاخ.. طاخ.. طاخ..

دوى الصمت فى فضاءات المكان.

«بين أذنه والريح».

سمعت التهكم بوضوح.. أيقنت أن اليد المرتعشة لن تقوى على فعل شىء ما فى يوم ما.

غراب يحلق على ارتفاع منخفض، وكأنه يمارس لعبة التصنت، اشمئز الحمار الأول من قبح المنظر.. زفر فى الهواء بصوت مسموع، تناثرت ذرات خياشيمه المائية. طائر «غرنوق البحر» يمر دون استدارة أو انتباه، رقبته الممدودة بإصرار تشير بصرامته وجديته فى فعل الطيران.

ـ أقسم لكم بخطوطى النادرة، ووحشيتى الموصوم بها ظلمًا وعدوانًا، أننى ما همت على وجهى إلا لإحساسى بالجوع، فى سجن حديقة الحيوان.

ملّت جميع الوجوه الكالحة.. المتبرمة.. الباحثة عن انتفاخ الجيوب والكروش. قفزت جميع الأسوار عاليها وواطيها، قطعت جميع المسافات قصيرها وطويلها، بحثًا عن نهر أتفرج فيه على الحمار الأنيس.. ذاتى الأخرى الكامنة فى عمق البهائمية.

يصمت آخر المتحدثين، تطلق بومة قريبة نعيقًا مثقلا بهم لا يحد. تلحلى الرءوس الثلاثة ببطء للفرجة على نفسها بالبركة الملحية المستديرة. ■

القصة

داخل صندوق محكم

أحمد غريب

(١)

كان هناك أكثر من صوت يتحدث، ولم أكن أرى وجه أحد بدقة، كانوا جميعاً يتحدثون، ولم يكن هناك علامة على نيتهم فى أن يسكتوا.

ابتسمت، هكذا خُيل إلى أن الجالسين على جانبى الأيسر يرغبون فى ابتسامتى ثم وقفت بعد فترة وقلت إننى جئت ماشيًا، ومرهقا، ويجب أن أعود حتى أصحو مبكراً. وأجمعوا على أننى سأعود فى سيارة مع أحدهم، ويجب أن أجلس دون قلق.

تلقيت نظراتها ثانية بارتباك بمجرد أن جلست، وأحسست من عينيها أنها تفحصت جسدى جيداً قبل تلك النظرة، كانت ابتسامتها تقييمًا نهائيًا لما أملك، ولم أكن أعرف ماذا يجب أن أفعل، ولم أجد فرصة لأن أفهم ارتباكى وأعالجه، كان لدى نية فى أن أتخطى شيئاً ما ونية فى أن أنسحب، ولم أرجع بظهرى لأستند على الكرسى فقد شدتنى للحديث ثانية.

(٢)

من هذه الزاوية المفتوحة، حيث يبدو فى المقدمة مباراة لتنس الطاولة، كنت أراها تقذف الكرة بأنفها فتعبر الشبكة القصيرة بالعرض، ولا يبدو لى إلا أنف اللاعب الآخر وفمه. كان الباب خلفها حيث كانت بالخارج ترتدى زى التنس العادى ويبدو بعض أجزاء الملعب، تقذف بالكرة إلى من لا أراه، وجونلتها القصيرة ترتفع فتظهر مؤخرتها.

الملعب الكبير يتعامد مع الحجرة التى بها الطاولة وكان علىّ أن أمر بسرعة، لكنى خفت أن أفسد اللعب، فالمباراتان على أشدهما.

(٣)

كانت تسألنى عما أقوم به فى عملى، وتبغى الدقة. وجدت مرفقىّ يستندان على مسندى الكرسى، و جسدى يوحى بتضخم واستعلاء بينما أحكى عن عدم حبى لوظيفتى، وعن الملل، وللحظة قبلت المرآة، ولمحت قدمها تلمس الأرض ويدها تسوى حرف الجوب، ولم أكن أنطقها هكذا وإنما «جيبة»، وكنت أتهته نفس الكلام بحثًا عن نهاية لجملة نسيت بدايتها وأنا أتابع عودة ساقها الموضوعة على الأخرى لتلامس الأرض، واستوى الساقان. ووجدت الكلمة لكن مضيفتنا وضعت يدها على فخذى لتقاطعنى، وكانت تجلس بينى وبينها، ثم وقفت ووجهها ناحيتى وانحنت تسألنى «هل تشرب نسكافيه؟»، وعيناها تغوصان فى داخلى بينما تلامس كتفى براحة يدها، وبعد أن هززت رأسى استدارت إليها قائلة: «نسكافيه برده هه»، وذهبت.

(٤)

هل تتخيل أن أقصى درجات المغامرة هى أن تعيش حياة عادية؟ الحياة العادية أكبر رهان يمكن أن يعاش، ومصدر الخطورة فى الرهان هو حجمه: إنه العمر كله تقريبًا. أنت هنا لم تختر كرسى اللعب بل مشدود إليه دون حق الانسحاب، بل حتى الهزيمة لا تتوفر بشكلها الصريح، إنها مجرد الاستمرار فى اللعب دون نجاح معين، يحدد مواصفاته آخرون غيرك، المسألة كلها ليست بيدك، فقط عليك أن تعلم كم نقطة سجلتها وعليك أن تستمر؛ المغامرة هنا مائة فى المائة، وليس هناك أى تخطيط. هل يمكن أن تخطط للخطوة الأخيرة، للموت، أو لطقوسه على الأقل؟ أنا شخصيًا أنظر إليه على أنه لحظة مضت يمكن أن تتذكرها بملايين الطرق التى تشعرك بثراء الحياة، الموت مجرد ذكرى ستحدث لك، لكن إذا سحبت كلمة شخصيًا التى قلتها بهدف التضخيم ربما أتراجع عن الإجابة والسؤال معًا، وكشخص جبان يحاول أن يدعم إمكانياته ليفقد صفة الخوف قررت أن أحب أكثر من امرأة، لعل فوران سائلى بكل اللذة يسلمنى إلى لحظة الموت، عندئذ يتماهى الحاجز بينك وبين المرآة، أليس الموت هو لحظة الاتصال بين الحياة الفانية والأبد؟

(٥)

أوليتهما ظهرى لأشاهد أهداف المباراة التى جرت ظهر اليوم، وأعدت الفنجان إلى الطاولة، وأخذت سيجارة، فقالت: «انت مش بتحب الكيك؟»، ولم أرد. فسألت «هو مين اللى كسب؟»، فقلت اسم الفريق وجلست واضعاً ساقاً على ساق، وأضفت: أن «الحكم لم يكن عادلا»، وقامت مضيفتنا للثالث مرة عندما سمعت بكاء الطفل بالداخل، وعندما أحضرته كناقد خرجنا إلى البلكونة لأن التدخين سيضايق الولد، وأخذت أشرب النسكافيه، وقالت «أنت مش عايز تتكلم؟» ونظرت إلى الداخل ووجدتهم مشغولين بالطفل، وتوقعت أن تسألنى مضيفتنا عن أحوال خطيبتى عندما ندخل إليهم، وقلت «إننى تعودت مشاهدة الشروق من البلكونة ولا أدلخها فى هذا الوقت أبداً». «بتحب السهر قوى كده، ولا بتصحى بدرى؟»، وقلت إننى سأمضى بعد دقائق، وأضافت أنها ستوصلنى فى طريقها وأنها لا تحب السواقة لكن التاكسيات خطر بالليل، وقررت أن أجيب عن السؤال بأن خطيبتى بخير ومشغولة، قليلا، ودخلنا لكنها أخبرتنى أنها قابلت خطيبتى منذ يومين، وسألتنى متى سنتزوج؟ وقلت ربنا يسهل، ونسيت أن أسلم على الباقين فعدت لأسلم عليهم، وكنت مبتسماً من الحرج، وكانوا يحضنوننى وهم يسلمون.

(٦)

لمحت ورقة مثبتة على الباب، ووقفت أنظر إلى ما فيها، لكنها أخذتها وطبقتها بين يديها، وشعرت أننى أتآمر على نفسى وأن ذلك مرهق. أضأت مصباح الغرفة الرئيسى وتركت بقية البيت فى الظلام، لكنها أضاءت المصباح الجانبى وأغلقت الرئيسى، وراودنى إحساس بعدم الأهمية وقلت إننى جائع، وسألتنى «هل تريد أن تأكل فعلا؟»، ولم يكن هناك صوت إلا فى أذنى، ولاحظت أنها أقصر منى عندما خلعت حذاءها، وخمنت أنها لا ترتدى كولون، وقرأت لى أسماء أصحابى الذين كتبوا الورقة، وقالت إنهم ينتظروننى فى مقهى أندلسية وسألتنى «هل ستذهب إليهم؟»، ولم أرد وإنما جلست على السرير ثم تمددت، فقالت «فى غرفتك ثلاث مرايات»، ثم نظرت إلى المكتب وتغير وجهها عندما رأت صور الممثلات الموضوعة تحت زجاج المكتب، ووضعت يدها على مقبض الدرج الأول، ولم تفتحه. فقلت جملة من رواية كنت أقرؤها «إنك فى مكان جاء فيه المستقبل وذهب». فقالت «أنت لا تبدو لى غامضاً كما تتخيل»، ولم أرد، وتذكرت جملة أخرى ورددتها بينى وبين نفسى «غامض جداً. ومتطاير جداً فى الهواء. دون شىء يستقر عليه أو يحط رحله. إذا أردت أن تراه أغلق عينيك سوف تخطر لك أفكار، وسوف تتخلص من عقد، وسوف تظهر لك رؤى رائعة».

(٧)

جلست على المكتب فوق الصور ووضعت يديها بجوار فخذيها لتغطى بقية الصور التى لم تختف تحتها، وخفت على لوح الزجاج لأنها ممتلئة، ويبدو أنها فهمت قلقى تعلقاً بالصور فقالت «الحى أبقى من الميت»، ونظرت إلى غرفتى وكأنها تنظر إلى أنقاض فقلت «أنا ليس عندى شعور ضد المقابر ولم أكرهها أبداً». «وجلست على كرسى المكتب أمامها، فمددت ساقيها على كتفىّ واستندت على يديها إلى الخلف، وأضفت وأنا أرفع الجيبة إننى كنت أذهب إلى المقابر صباح الجمعة من كل أسبوع وأقرأ السورة بعشرة صاغ، ودفنت رأسى تماماً، حتى هبطت على وتركت المكتب، وارتحت لأن الزجاج لم ينكسر، ومدت يدها وفتحت الـ F. M فوجدت فريق ميتلوف يغنى «أفعل كل شىء من أجل الحب، لكنى لا أريد ذلك»، فقالت «انت حيوان داخل صندوق مغلق»، وأغلقت الراديو، وكانت أنفاسى تتلاحق لكنى وضعت شريط كاسيت لموسيقى هادئة، وقلت بدون ذلك سيسمعنا الجيران، ولم أكمل الجملة تقريباً لأنها مزقت قميصى أو البنطلون، وضربتها كثيراً، وكانت ممتعة إلى درجة لم أتخيلها حتى إننى تذكرت جملة شهيرة فى فيلم غريزة أساسية، وقلتها لها وكانت ترتدى ملابسها بكسل ولم ترد علىّ، ثم جلست بين رجلىّ وقالت إن حجرتى جميلة، وسألتنى متى سيعود أهلى من السفر؟ وقلت فى الصيف، فقالت إننا فى يونيو الآن فمتى يكون الصيف؟ فقلت فى يوليو بعد أن تنتهى الامتحانات. وقامت لتجلس على الكرسى اتكأت بظهرها حتى كادت تسقط لكنى أمسكتها قبل الأرض بقليل، فقالت إننى لن أضربها بهذا الإحساس لو كنت فى بيتها، وسألتنى «متى أخذت بالك منى؟». فقلت عندما أخبرنى صديق لى أنه يحبك، ولم أقل لها اسمه رغم أنها طلبت، ولم تجبنى عن نفس السؤال «متى أخذت بالها منى؟»، ولم أكن مهتماً بالسؤال لكنها طرحته أمامى، وقالت عندما أتصل بها غداً ستحدد لى موعد إجابتها. ■

إسرا .. إسرا .. يا إسرا

أشرف الخمايسى

قوجاءت «الغازية»، ودخلت نجعنا. دخلته فى ليلة عاصفة. دخلته فى منتصف الليلة العاصفة. النخيل كانت ترتج. والسماء مغبرة وصوت الريح مرعبًا. و«الغازية» دخلت نجعنا فى منتصف الليلة العاصفة ومعها كلب ضخم فى حجم ثور شاب. ووقفت أمام بيت الحاج «مجاهد» وضمت قبضة يدها وضربت بها خشب البوابة. ولم يفتح أحد. وطرقت كثيراً حتى فتحت البوابة أخيراً. ونظر الحاج «مجاهد» إلى الطارق فوجده امرأة واقفة تطير الريح شعرها. وكان سيسألها «إنسية أم جنية ؟!» عندما قالت «عابرة سبيل أضنتها العواصف تلوذ ببيتك». فقال وهو يفسح لها الطريق إلى الداخل «لذت ببيت لا يرد اللائذ. ادخلى يا امرأة». ودخلت «الغازية» وبينما كان يغلق البوابة اندفع الكلب الضخم ودفع البوابة ودخل وارتاع «مجاهد» من ضخامة الكلب لكنه هم بطرده إلا أن «الغازية» قالت بصوت مكسور «هو الآخر عابر سبيل أضنته العواصف يلوذ ببيتك» فقال الحاج متضايقًا «هممم» ومن الحجرة التى فى منتهى البيت طلعت «مالية» زوجة الحاج وعلى وجهها دهشة ممزوجة بالنعاس. واقتربت من «الغازية» وقالت لها «أهلا أهلا وسهلا». وقالت لها من أنت يا أخت؟!» والغازية شخاليلها صلصلت على صدرها وقالت «أنا واحدة اسمها إسرا». فقال الحاج وهو يشير إلى حجرة المسافرين «أهلا بك يا إسرا. اذهبى يا مالية وجهزى لإسرا لقمة. تفضلى يا إسرا»

وعلى إحدى «الدكك» تمددت «إسرا» بلا حياء أمام الحاج «مجاهد» الذى ارتبك. ويغنج الأنثى الغجرية قالت «لماذا يا حاج مجاهد تأخرت فى فتح بوابة بيتك لى؟!!» فقال «صفير الرياح العاصفة صم أذنى». واتجه الحاج إلى إحدى «الدكك» وجلس وقال «قولى لى يا إسرا. لماذا تسيرين وحيدة هكذا فى أنصاف الليالى؟!!» «إسرا» رفعت فخذها الأيمن فتدحرج ذيل ثوبها الناعم إلى خصرها فانكشف لحمها قالت «أنا لا أسير وحيدة». أنا معى كلبى. النجوم تطردنى دائمًا لأننى لا أمتلك بيتًا». و «ماع» كلامها و«تنعنع» صوتها «ناس النجوع يقولون على إننى وقحة لأننى غازية». والحاج «مجاهد» بهرته نصاعة وركها العارى. ودمه فار. وريقه جرى. وقام واتجه إلى «الدكة» المتمددة فوقها. وقعد بجانب صدرها الذى «يشخلل» وقال «غازية غازية. المهم أنك جميلة جداً يا إسرا». ووضع كف يده على رقبتها ونزل برأسه إلى رأسها وتنهدت «إسرا» تنهيدة الغوازى وفى الصباح صأصأت العصافير وطلعت شمسنا الدافئة من خلف سن جبل الشروق وأنارت عالمنا بنور الذهب و «مالية» أخذت «ماجوراً» فخارياً ودخلت به حظيرة المواشى وكان هناك كلب «إسرا» الضخم ووضعت «مالية» الماجور تحت ضروع البقر ووضعته تحت ضروع الجاموس وعندما خرجت من الحظيرة كانت خارجة مذهولة ولاحظ الحاج ذهولها فقال لها «يا بنت مالك؟!» قالت «الضروع لا تدر اللبن»

فقال لابد البهائم جائعة قالت شبعة وضروعها منتفخة ومملوءة باللبن لكنها لا تدره فقال إذن ماذا هناك؟! قالت مالية وهى تشير إلى حجرة المسافرين المرأة إسرا قدمها قدم نحس فتبسم الحاج وقال فى سره زوجتى الدميمة مغتاظة من إسرا الجميلة وانتقى من فئوس الزراعة فأسا حاداً وخرج وهو يسير على حافة الترعة «المرة» كان يدندن بانبساط إسرا إسرا يا إسرا. ودخلت زوجة الحاج غرفة المسافرين لتوقظ «إسرا» النائمة فأصابتها دهشة وأصابتها رعشة كانت جدران الحجرة ذات اللون السماوى قد تبقعت ببقع كثيرة سوداء وصفراء وحمراء وخضراء وزرقاء ورمادية وسقفها الأبيض صار أسود جداً وتأكد فى سريرة «مالية» أن قدم «إسرا» قدم نحس وأن قدمها قدم شريرة لكنها نكتت سبابتها فى لحم ورك «إسرا» الناصع وقالت «الصباح» وتلوت «إسرا» قبل أن تعتدل واعتدلت وفركت عينيها وقالت «صباح جميل» و «مالية» وضعت أمام «إسرا» صينية عليها طعام وقالت «ماذا حدث لجدران الحجرة؟!!» و «إسرا» هتفت بضيق «جبن شديد الملوحة يكون إفطارى!!» وتساءلت «أين اللبن يا أخت؟» مالية «قالت» بهائمنا هذا الصباح بخيلة» وقطبت «إسرا» جبينها فزام الكلب الضخم وهو رابض فى حظيرة المواشى وقالت إسرا أين الحاج يا أخت؟ كان الحاج «مجاهد» فى الحقول يضرب أرضها بفأسه الحادة وهو يدندن «إسرا. إسرا. يا إسرا» و «مالية» قالت «يا إسرا الصباح رائع

والشمس دافئة ولا عواصف يمكنك بعد الإفطار أن تغادرى البيت وتكملى طريقك التى كنت تسيرين فيها ليلا لكن إسرا نغجت أنا متعبة أنا أنوى البقاء هنا لبعض الوقت و «مالية» انزعجت وقالت فى سرها «شرور عظيمة ستصيب البيت لو بقت هذه المرأة» وقالت لإسرا لكن يا إسرا نحن لا نملك لك طعاماً بهائمنا لا تدر لبناً وحقولنا أعتقد أنها لن تنبت زرعاً فقالت إسرا أنا لا أحتاج طعاماً أنا أحتاج راحة جسدى و «مالية» انزعجت وقالت فى سرها بالتأكيد تتشقق هذه الجدران ويسقط البيت وزعقت فى وجه إسرا لكنى لا أريد منك البقاء فى بيتى أريد منك أن تذهبى اذهبى اذهبى وهرولت خارجة من الحجرة و «إسرا» عيناها احمرتا وأخرجتا وهجاً براقًا وزمجرت وفى حظيرة المواشى زمجر الكلب الضخم وقفز على بوابة الحظيرة وهشمها وانطلق نحو «مالية» التى كانت تهرول ناحية غرفتها التى فى منتهى البيت. و«مالية» ركبها الرعب فجرت بكل سرعتها لتدخل الحجرة وتغلق عليها بابها ودخلت غرفتها فعلا لكنها لم تستطع غلق الباب الذى دفعه الكلب وانقض عليها كانت شمسنا واقفة فوق سن جبل الشروق وكانت منيرة والحاج «مجاهد» فى حقله القريب من البيت يدندن «إسرا. إسرا. يا إسرا» لكنه هذه المرة لم يكمل دندنته إذإنه سمع صوت زمجرة عاتية وصوت صراخ زوجته المرعوبة وألقى الفأس وجرى كالعاصفة نحو بيته وهجت من طريقه طيور «أبو القردان» البيضاء و «العصافير» و «الهداهد» إلى السماء واخترق الحاج بيته كانت ضوضاء الرعب تنبعث من الحجرة التى فى منتهى البيت الحجرة التى ينام فيها مع «مالية» وبعض الحمام الذى أحب بناء أعشاشه تحت سريرها طويل الأرجل. واندفع نحو بابها وعندما فتحه رأى الكلب الضخم يأكل زوجته وانتبه الكلب المسعور على صوت فتح الباب فاستدار نحو الفاتح والحاج «مجاهد» خاف على نفسه فأغلق الباب كان الحاج يلهث وعيناه تروحان إلى السموات والأراضين وباب حجرته الذى يقبض على «أكرته» و «مالية» بالداخل تتخبط فى الحوائط ودمها يطير فى الهواء كالرذاذ فيلون طيور الحمام التى كانت ترفرف مهتاجة فى سماء الحجرة والكلب ينكث أظافره فى لحمها وينهشه و «مجاهد» جرى نحو آلات الزراعة وقبض على بلطة ثقيلة وعندما فتح الباب مرة أخرى أغلقه بسرعه لما رأى الكلب مرة أخرى يستدير إليه. وهذه المرة التصقت بذهنه صورة زوجته الممزقة والمخضبة بالدماء والهامدة تمامًا وقلبه فى هذه اللحظة ناح. وفتح «مجاهد» فمه وعوى «يا واااحد الكلب يأكل زوجتى» وجرى خارجاً من البيت وهو يعوى «يا واحد الكلب يأكل مالية» واخترق الحقول «يا واحد الكلب يأكل مالية زوجتى» والناس تركوا الأعمال التى فى أيديهم ونظروا إليه كانت عيون الناس واسعة بالدهشة وشيخ البلد الريس «عمران» أمسك «مجاهد» الصارخ فى الطرقات من عبه وزعق فيه «ما الحكاية يا مجاهد يا أخى؟!» و «مجاهد» شق «جلابيته» وصرخ «الحكاية!!!». وانتزع عمامته من رأسه وألقاها على الأرض «الحكاية!!!!». وشد شعر رأسه الأبيض وعوى «يا واحد الكلب يأكل زوجتى» والناس جروا إلى بيت الحاج «مجاهد» وأمام البوابة المغلقة كان كلب «إسرا» مقعيًا له هيبة يلعق بلسانه الطويل الدماء المتناثرة على صدره وذراعية وعندما هم الناس بدخول البيت زمجر الكلب زمجرة مثل الرعد الهادر وفتحت البوابة وطلعت «إسرا» الغازية على الناس والشخاليل تصلصل على صدرها وقال شيخ البلد الريس «عمران» «من أنت يا حرمه!!!؟؟» فردت عليه وصوتها يميس «أنا واحدة اسمها إسرا» فزعق شيخ البلد «يا إسرا كلامك يميس وشخاليل صدرك تصلصل وبداخل البيت امرأة مقتولة وخارجه كلب ضخم قاتل !!» قالت «الكلب الضخم كلبى لا أخافه يغضب لغضبى ويفرح لفرحى» والشيخ «عمران» اندهش «كلبك !! قولى لى يا إسرا ماذا تفعلين هنا؟!» و «إسرا» استندت بكوعها الأيمن على حلق البوابة وقبضت بأصابعها اليسرى على خصرها أنا هنا فى بيتى والشيخ «عمران» قال «إهيه!!!». وواحد من الناس علا صوته «انكشف الملعوب يا خلق كلب إسرا أكل مالية وإسرا سرقت بيت مجاهد» وارتفعت أصوات الناس «إسرا قتلت مالية وسرقت البيت والشيخ «عمران» هجم على «إسرا» ليجذبها خارج البوابة و «إسرا» زمجرت واحمرت عيناها والكلب الضخم زمجر وقفز فوق الشيخ «عمران» وقبض بأسنانه على رقبته النحيفة فتفجرت منها الدماء والناس هجموا على الكلب ليخلصوا «عمران» منه لكنه استدار وشرع فى القفز عليهم ففروا من أمامه إلى الحقول والكلب نهش جسد الشيخ «عمران» وجرجره إلى مصرف المياه المار أمام البيت وألقاه فيه و «إسرا» واقفة تقهقه بجنون والكلب جاء وربض تحت قدميها ولعق الدماء العالقة بصدره ومخالبه والناس فروا إلى طرقات النجع وفروا إلى البيوت وفروا إلى دوار العمدة وقالوا له «إسرا الساحرة معها كلب مسحور يأكل الناس وهى تسرق بيوتهم» والعمدة بهت واغتم وقال «يارب من أين جاءت لنا إسرا الساحرة!!» وقال «قولوا لى يا ناس ما العمل؟ وفجأة قال فرحاً كلب إسرا القاتل تقتله كلابنا وزعق لموا كل كلاب البلد واطلقوها على كلب إسرا لتقتله والناس جمعت كلابها فى ساحة «الرهبة» أسفل شجرة «الكافور» العالية. كانت كلاب كثيرة ومختلفة الألوان والأحجام سوداء وبيضاء ورقطاء وبنية ورمادية وحمراء أرمنتية وبلدية وهجينة ذئاب وهجينة ضباع وهجينة ثعالب كلاب كثيرة كلاب كثيرة كثيرة آلاف الكلاب كلاب كثيرة حتى إنها جلست على «الدكك» التى يجلس عليها الناس وجاء العمدة إلى الساحة ونظر إلى الكلاب وقال للناس «سوقوها إلى بيت مجاهد واقتلوا كلب إسرا. سيروا على بركة الله وسار الناس أمام الكلاب وخلفها مثيرين سحابات غبار كثيفة حتى وصلوا إلى مشارف الحقل الواسع الذى

يتوسطه بيت «مجاهد»، وهناك صاح الناس في الكلاب اللاهثة «هو.هو» بشك بشك عليه عليه كانوا يهيجون الكلاب لتنطلق نحو كلب «إسرا» الرابض أمام البوابة وانطلقت فعلا انطلقت مثل سهام لحمية وفي لحظات اشتبكت مع كلب «إسرا» وعلا صوت النباح الغاضب وعلا صوت النباح الخائف وتراب الأرض هاج وطار إلى السماء وطارت كذلك أجسام كلاب وسقطت في المصرف وطارت أجسام كلاب وسقطت في الحقول وطارت كلاب وسقطت على سقف بيت «مجاهد» وفي ساحته وكلب «إسرا» يرعد ويهدر ومخالبه فولاذ رهيف يقطع الرقاب ويمزق الأجساد وكلاب النجع رغم الهول كانت شجاعة لقد تكاثرت على جسد كلب «إسرا» وأعملت فيه مخالبها لكن مخالبها لم تستطع مجرد جرحه كان شعره غزيراً فاحماً وجلده مثل صفائح حديد أما كلب «قارون» الضامر فإنه هجم على ذيل كلب «إسرا» وقبض بأنيابه على جزء منه فاقتطع منه قطعة ضئيلة وجرى بها وهو يشخب في دمائه وزاد هياج الكلب الضخم فقتل مئات الكلاب غير ما جرح منها والباقي هرب وناس النجع نفوسهم انكسرت ورقابهم قصرت وجاءهم إحساس بأن «إسرا» وكلبها لن يمررا ما حدث بسهولة وبأنهم الضحايا الجدد وناموا الليل في كابوس طويل وصحوا قبل الفجر عدة مرات على صوت الحاج «مجاهد» الهائم في طرقات النجع وفي الحقول وبين قبور «الجبانة» غرب نجعنا «يا واحد الكلب يأكل مالية زوجتي» وكان أيضاً يدندن «إسرا. إسرا يا إسرا» ودموعة تنهمر مثل فيض دافق وقال أخونا «شهد» إن الحاج «مجاهد» جن وقال «أكثر الله خيره من مدايا إخوان يتحمل نصف الذي أصابه؟!» ورفض «باكا» ولد شيخ البلد الريس «عمران» أن ينصب سرادقاً لتلقي العزاء في أبيه الذي أكله كلب «إسرا» وقال «أنصب وجثة أبي ملقاة في مصرف مياه ضحل تأكلها الأسماك ولا أستطيع إخراجها ودفنها؟!! أنصب يا ناس والكلب ابن الكلب والهائجة المومس إسرا بنت الهائجة قاعدان على وجه الدنيا!! وفي الليل كانت الريح شديدة وأشباح النخيل تميل ثم تنتصب تميل ثم تنتصب وتصرخ وصوت الحاج «مجاهد» يتموج مع الريح نائحا «يا وااحد الكلب يأكل زوجتي مالية» ويتموج مع الريح مترنما إسرا. إسرا. يا إسرا ونحن في بيوتنا بكينا وحريمنا ولولت وأطفالنا نظروا إلينا باندهاش وخوف ومر الليل كئيباً وفي الصباح طلعت شمس الصباح شمس صفراء صفراء مثل وجوهنا الصفراء لم تنم مثلنا وخائفة من كلب «إسرا» مثلنا وكنا سنخرج للحقول عندما علا صوت العمدة من ساحة «الرهبة» يا خلق تعالوا يا خلق تجمعوا في الرهبة وتجمعنا في «الرهبة» وجلسنا على «الدكك» الكثيرة الموضوعة تحت شجرة «الكافور» العالية وقال العمدة «أنا سأقول كلاماً كبيراً» وقال «إسرا رويداً رويدا ستحتل كل بيوتنا وكلبها سيأكلنا ويأكل حريمنا وعيالنا» وارتفعت الشمس فوق سن جبل الشروق ونورها الباهت سقط على وجه العمدة الممتقع «ياناس إسرا نجعلها عمدتنا تتحكم في نجعنا لكنها تترك لنا بيوتنا وكلبها لا يأكلنا هذا هو الحل للبقاء» وقام العمدة وقال أنا ذاهب لأتنازل لها عن العمودية وقبل أن يخطو خطوة واحدة ارتفع صوت «قارون» وهو يتقدم نحو «الرهبة» مهرولا «كلبي يا ناس نهش قطعة لحم من كلب إسرا. كلبي اليوم عاد وفي جسده مائة جرح وفي فمه قطعة لحم من كلب إسرا» وحضن العمدة «قارون» وهو يزعق «يا سلام يا قارون كلبك يا قارون أعطانا الأمل يا إخواننا كلب إسرا قابل للتمزيق لن نتنازل عن العمودية وسنقتل إسرا وكلبها» واختلطت أصوات الناس الزاعقة «الله أكبر الله أكبر الله أكبر» وما إن وضعت الشمس قدميها على سن جبل الغروب حتى أمر العمدة بدق طبول الحرب واستمر القرع حتى ظهور شمس الشروق كان قرع الطبول يرج صمت الليل ولم تنم النخيل ولا الزروع واهتاجت أعصاب الريح فعصفت وطيور البراري طارت في الهواء العاتي وتخبطت بجنون وفي البيوت القلقانة كان الرجال يسنون أحدة الطواري والبلط وأسنان المناجل وأخونا «قدوم» مر على كل بيوت النجع وأخذ منها كل البهائم جاموس وبقر وجمال ونعاج ومعيز حتى القطط لم يتركها حتى الكلاب التي ما زالت الدماء تنز منها أخذها وجمع كل الحيوانات خارج النجع ناحية الشق الغربي وأخونا «قنص» وقف في الساحة الضيقة التي أمام مسجد نجعنا ووضع على جانبي فمه راحتي يديه وأطلق صياحا مثل عواء الذئب ولم يمر وقت طويل حتى كانت أسراب الطيور تملأ السماء المعتمة وتحط على حوائط البيوت وتتعلق بأي بروز لقد كان شكل مئذنة المسجد المارقة في السماء مذهلا وهي مغطاة تماماً بأجساد الطيور وكانت أجنحتها ترفرف لمواجهة عصف الريح مئات الآلاف من الأجنحة تضرب الهواء فتحدث صوتاً مهيباً وخلال هذا كانت الطبول تقرع وصداها المتماوج مع الهواء يرتد مثل نبض قلب مارد جلس على سن جبل الغروب وصوت «مجاهد» الحزين يتلوى بعيداً «يا واحد» الكلب يأكل زوجتي» وكانت قوارب صغيرة تعبر النهر من ضفته البعيدة إلى ضفاف نجعنا مملوءة بالبشر وضفافنا وقفت عليها أعداد لا تحصى من ناسنا الذين يسكنون النجوع الأخرى وكان أخونا «عاطي» واقفًا بينهم يقول بصوت عال «يا ناس إسرا سرقت بيت مجاهد يا ناس كلب إسرا أكل مالية زوجته يا ناس كلب إسرا غلب آلاف الكلاب لكن كلب قارون نهش قطعة من ذيله وجاء الصباح وخرجت شمسنا من خلف سن جبل الشروق مثل برتقالة ضخمة مبهجة وبدأنا الزحف» جيش الناس والبهائم يمشي حثيثا على الأرض بينما أسراب الطيور تظلله وآلاف الأشعة اللامعة تبرق وهي تنطلق من الأحدة المسنونة إلى زرقة سمائنا وسطوح بيت «مجاهد» تبدو من بعيد تدنو . تدنو. ويتضح لنا البيت كله ويتضح لنا كلب «إسرا» رابضاً أمام بوابته الضخمة . ■

الاشارات والتنبيهات

مسرح

مأزق المسرح العربى بين نوستالچيا الفكر وجمود الإبداع

فلما كان المناخ الثقافى العام فى واقعنا العربى هو مناخ منع وتحريم، حيث سلطة (اللا) هى الأكثر حضورًا فى أفق الفكر والإبداع، لذلك يتجه المسرح العربى نحو تكريس الأيديولوچيا السائدة التى تؤكد عبثية الفعل الإنسانى، ويظل عاجزًا عن الانطلاق بعيدًا عن ذوى اليقين النهائى، حيث الحقيقة دائما لها وجه واحد.

فكر متجمد يسكن أعماق الواقع العربى.. قهر، تسلط رضوخ، قمع، رؤى غيبية، سلفية، استلابات واختزالات، كبت، وتزمت، وخوف وهروب ولاشك أن هذه الآليات المدمرة قد دخلت فى إطار الثابت والمطلق، لتعصف بالوجود العربى، وتزداد الفجوات، وتمتد العزلة فتصبح النتيجة هى لغة أحادية تحمل ثنائية الانشطار النفسى، وازدواجية المطلق والنسبى.. لكن، دون حوار. لذلك يأتى الإبداع المسرحى العربى عقيمًا.. مفتقدًا للذاكرة والجذور.. لغته شعائرية، مزدحمة بالصوامت والتناقضات، بفعل خيانته الدائمة للفكر الرحب، وللحاجات الجسدية، والجنسية، لتصبح فى النهاية أمام كتابات مثقلة بالإسقاطات والاستعارات والكنايات. ففى مسرحنا العربى يتعايش الزمان والمكان والإنسان فى إطار ثقافة بلا مركز، ثقافة الصدى وليس الصوت.

وإذا كان المسرح هو التحدى، وهو الصيغة البديلة للسائد والساكن، حيث العالم الذى نصنعه بإرادتنا، والوجود المتحرر من الصدفة والعشوائية - لذلك تأتى هذه الدراسة فى إطار التفسير العلمى لآليات نوستالچيا الفكر، وجمود الإبداع العربى على مستوى النص والإخراج والأداء - وصولا إلى رؤية نقدية قد تفسح المجال لإبداع مسرحى عربى بلا صوامت ولاتناقضات.

مفهوم النوستالچيا

- النوستالچيا «NOSTALGIA» هى توق وحنين غير سوى للماضى، ينتج عن عدم قدرة الذات على التكيف مع المستجدات والمتغيرات، وبالتالى عدم القدرة على الإندماج الاجتماعى الذى يفجر الإحساس بالاغتراب. وبصفه عامة فإن هذه النزعة توجد فى كل خطاب يستند إلى مفهوم الرجوع، العودة، الانبعاث، النهوض بشىء مكتمل، أو شبه مكتمل، ولو كان منتكسًا،والالتفات إلى ما كان وإعادته إلى المقدمة حيث يجب أن يكون»(١).

وإذا كان الإبداع لايتم فى الفراغ، فإن هذا المنظور يتسلل إلى وجدان المبدع فيدفعه إلى الغوص فى أعماق ذاته وعزلها عن محيطها، ونفى الحاضر والمستقبل باسم الماضى الجميل - الذى ليس بالضرورة أن يكون كذلك حين يخضع للتحليل الموضوعى، ولاشك أن المتغيرات لن تتوقف عن الحدوث لمجرد رفضها واعتزالها، والماضى الجميل لن يعود.. لكن يبقى الحنين إلى حلم أتى بعد فوات الأوان. وحتى نتعرف عمليًا على أبعاد هذه النزعة نتوقف أمام مقالة للشاعر نزار قبانى،بعنوان «القصيدة السياسية وزيرة للدفاع» .. يقول:

تحاول القصيدة السياسية العربية أن تنقذ غشاء العذرية العربية من الاختراق، وأن تملأ الفراغ القومى الرهيب الذى يحاصرنا، وتكون بديلا للقوى السياسية والعسكرية التى استقالت من المعركة.. وانسحبت من جبهة المواجهة... فى هذا الزمن الذى خلع فيه الثوار بذلاتهم الكاكية ولحسوا إمضاءاتهم الأولى.. ومواثيقهم الأولى.. وغيروا جلودهم الأولى..

القصيدة السياسية فى هذه المرحلة، هى جيش شعبى مهمته قرع الطبول، وإشعال الفوانيس فى حارات الوطن العربى من طنجة إلى حضرموت..

وظيفتها أن تلغى كل نشرات الأخبار التليفزيونية المنقولة عن «الواشنطن بوست»، «وجيروزاليم بوست»، وأن يستبدل بها قصيدة لعمرو بن كلثوم، أو طرفة بن العبد، أوعنترة ابن شداد.. فهى برغم قدمها، واختلاف خطابها اللغوى والثقافى تظل مسكونة بالهاجس القومى والقبلى، وتساوى كل هذه النفايات الشعرية الحديثة، التى تتكوم على أبوابنا منذ سنوات، دون أن تفكر دائرة التنظيفات فى البلدية بإرسال سياراتها، لجمعها ورميها فى مكان آخر»(٢)

من خلال هذا النص يتضح رفض الشاعر لكل المتغيرات، ويلامس القارئ وهج الحنين إلى زمن مضى، وليس بالإمكان أن يعود.

لاشك أن هذه النزعة تتضافر مع عديد من الآليات التى شكلت الفكر العربى ودفعته نحو صيغ جامدة انحسرت معها العقلانية، لذلك فنحن بحاجة إلى نوع من تفجير الواقع كشفا للزيف والتضليل والأيديولوچيا السلفية التى ترسخ سطوة الهيمنة الغيبية بغرس الأفكار الشائهة وتكريسها من خلال التكرار والإلحاح عليها، أو عن طريق البريق الساحر الذى يدفع البشر إلى التحليق بعيدًا عن واقعهم تجنبًا للوصول إلى زوايا التمرد على الواقع لتصبح المحصلة النهائية هى أن الظلم والقهر وعدم المساواة هى قدر محتوم وظاهرة طبيعية فى وجود الإنسان، الذى يجب عليه أن يبقى أسير قيوده ولايحاول التدخل بإرادته لتغيير أوضاع قائمة، وإلا كان الدخول فى دوائر الكفر والمروق والعصيان.. وبذلك يتنازل الإنسان طواعية وبكامل إرادته عن وعيه ويضيع فى براثن التخلف.

ولما كان انحسار الفكر العقلانى على المستوى الاجتماعى والإبداعى يشير بوضوح إلى أعماق الذات العربية الرافضة للمنظور الجدلى - فإن هذه الآلية تتضح من الرؤى الأحادية لمشكلات الوجود، وقضايا المجتمع

التى تعاش من خلال الذات، ليجرى الحوار من منظور واحد، يطرح الظاهرة ويقدم حلولها، بلا جدل أو إدراك للعلاقة بين التاريخ والزمان والمكان ـ إنه واقع شديد القتامة يسهل فيه التحالف على المقهورين، فيصبحوا وسطًا ملائمًا لتأصيل الاستكانة والخرافة والجهل.

جدل الفن والواقع

تشير الدراسات السوسيوثقافية للمسرح إلى أن آليات التسلط والقهر والرضوخ والاستكانة والارتداد والسلفية ـ تعربد فى أعماق الإبداع العربى فتدفعه بعيدًا عن موجات الحياة الفوارة بجنون التجربة، والحلم والمستقبل والقلق والغموض، وتجعله مبتورًا، محرومًا من ملاصقة الجمرات النارية التى تعربد فى الأعماق. وهكذا يمر الإبداع فى هدوء متواريًا خلف المنظور الأخلاقى المحايد، وموازيًا للأيديولوجيا السائدة ومكرسًا لها. ويبدو أن فلسفة الفكر العربى، والظروف التى أحاطت بنشأة المسرح فى ذلك الواقع الرافض للجدل ـ يبدو أنها لعبت دورًا فعالاً فى توجيه الإبداع المسرحى نحو السكون والجمود. فميلاد المسرح العربى لم يكن شرعيًا أو طبيعيا، ولم يكن كنتيجة مباشرة للحاجة إلى التعبير الديمقراطى العلنى وإنما [كان عبارة عن استجابة فردية لإغواء الغرب بتسهيل من ظروف التبعية الشاملة التى تعيشها مجتمعاتنا، وما هو موجود الآن من فن تمثيل ومناهج تدريب للممثل ـ ليس فى الغالب ـ سوى إرث غامض مختلط يمتد بنسبه إلى الرواد من جهة ـ مثل جورج أبيض، والريحانى، والكسار ـ ومن نقلوا «الفورفيل» الفرنسى فى قالبه المصرى (الفرانكو آراب) ثم استقلوا لينفردوا بتثبيت أنماط التمثيل الهزلى، والكاريكاتورى، ومن جهة أخرى فهو يمتد إلى ظلال الصور الشعبية للأداء دون تحديد واضح لمعالمها](٣)

ولما كانت فلسفة الفكر العربى تميل إلى أنه فى البدء كانت الكلمة ثم كانت الحركة ـ فإن هذه المقولة توضح الأسباب التى جعلت المسرح فى حالة تعارض مع السلطة القائمة.. فالمسرح «فعل» قادر على تفكيك آليات الواقع وإعادة صياغتها وفقًا لما يجب أن يكون «أما الكلمة/ النص ـ فبرغم تعارضها مع السلطة أيضا ـ إلا أنها معارضة مستأنسة بلا أظافر، بعيدًا عن الخلخلة التى يحدثها العرض المسرحى» (٤)

وكما يقول «بيتر بروك» ـ فى كتابه ـ (المساحة الفارغة) (فى معظم النظم السياسية، وحتى عندما تكون الكلمة حرة، والصورة حرة ـ تبقى خشبة المسرح آخر وسيط يحظى بحريته ـ فبغريزتها تعرف الحكومات ما للحدث الحى من كهربة خطيرة)

ولاشك أن (الكهرباء) التى يقصدها بروك هى ذلك الاحتكاك الاجتماعى متعدد المستويات بين أطراف قد لايحدث أن تجتمع أبدًا إلا فى حالات استثنائية مثل الثورة، أو المشاركات الاجتماعية الفظة التى تحتفظ بها البشرية فى خيالها نموذجًا لأيام وحدتها والتئامها. فقد (يحدث أحيانًا أن يتحول المسرح إلى ساحة محكمة، يُحَاكم فيها المجموع، أو يتدرب جماليًا على محاكمة فردية ـ ليست سيكولوجية أو أخلاقية أبدًا ـ مع أنها توحى بذلك وإنما هى محاكمة سياسية بالدرجة الأولى، حيث تُبنى على منطق الجدل والحوار من ناحية، وتسعى إلى العلانية من ناحية أخرى.. صحيح أن الأمر يبدو لعبة إيهامية إلا أنه يستمد خطورته من هذا الازدواج الأخير (اللعبة ـ الإيهام) ـ فاللعب يتحول إلى نشاط يفترض الصدق، أو يحاول فرضه)(٥).

على مستوى جمود الإبداع المسرحى، والرفض اللاواعى للتغيير شكلا ومضمونًا وأداء ـ وكما يرى «فواز الساجر» فإن (جورج أبيض قد دافع عن الدور النبيل والسامى للمسرح، وتعامل بجدية مع فن التمثيل ـ لكنه خلق فى الوقت نفسه كمية من التقنيات والقوالب الجامدة أدت ـ على الرغم من نزاهة القصد ـ إلى تجريد الفن المسرحى من جوهره الديمقراطى، فقد ظل تأثير الرواد عميقًا ومستمرًا على الأجيال المتعاقبة من الممثلين المصريين، الذين أثروا بدورهم على الواقع المسرحى العربى، فتبلورت القوالب الأدائية الصوتية ولعبت دورها فى جمود وثبات الرؤية المسرحية للتمثيل)(٦)

إن هذا الثبات يرتبط على المستوى الواعى بدور السلطة الرقابية فى تغييب وعى الجماهير بإغراقهم فى دوائر الزيف والهزل، والكاريكاتورية المبالغ فيهاحتى يضيع الجدل العقلى المتوهج فى موجات الإثارة والجنس والضحكات الجوفاء، ويصبح المسرح المطلوب جماهيريًا هو نوع من العزف على أوتار الغريزة بعيدًا عن طبيعته الفعّالة التى تعارض، وتجادل وتطرح التساؤلات وتطلب الإجابات المغايرة وهكذا تظل قوى الهيمنة، وآليات السادوماسوشيزم والدوران اللانهائى فى أفق «الفالوس» و«اللوجوس» والرؤى الأبوية الذكورية.. هى العوامل التى تشكل منطق الترويض الفكرى والاجتماعى «وهكذا وجد المسرح العربى نفسه مضطرًا للحفاظ على الأنماط والقوالب الثابتة التى أرساها الرواد بينما تم عزل الجسد عن حيز الخلق الإبداعى، ودفعه إلى تلك المجانية المباشرة التى تدفع الممثل إلى إتيان أفعال عابثة لاتفيد الأحداث فى شىء»(٧).

ولاشك أن مفهوم «الجسد» فى المسرح العربى يمثل إشكالية معقدة.. (حيث مفهوم الجسد/ العورة فى التراث الدينى الإسلامى، والتى تشمل جسد المرأة بكامله ـ بل وصوتها أيضا، وتغطى ثلثى جسم الرجل، والمعروف أن صورة الجسد العارض تنحصر إما فى الجسد الراقص الموصوم بالتعرى العاهر، أو فى الجسد المهرج المنعوت باللهو الفارغ ـ حيث ينظر رجل الدين، والشخص المتدين معًا إلى الجسد ـ فى حالته العادية كرمز مادى يشير إلى الشهوات والرغبات الحسية الشيطانية، التى تشكل عتبة الدخول إلى جحيم الخطيئة، وهو أمر متواتر فى المسيحية أيضا، إلا أنه يأخذ بعدًا خاصًا فى المجتمعات الإسلامية، الذى لايمثل الدين بالنسبة له مجرد لاهوت منعزل عن الحياة اليومية، محدود بحدود دار العبادة، وإنما هو نظام للسلوك وللحياة، أى نسق وجود اجتماعى متكامل، يحقق منظومة أخلاقية ـ يصبح الخروج عليها جسديًا ـ هو شذوذ وانحراف وخطيئة تستحق التكفير)(٨)

وهكذا ـ وكما يؤكد (برادلى) فإن المسرح الذى ظهر فى العالم العربى.. كتقنية جديدة للجسد، قد حمل معه إلى هذه الأرض الجديدة تصورات مستحدثة للجسد فى حالة العرض، وجدت ـ للأسف ـ مرجعيتها الوحيدة فيما قد ترسخ منذ أجيال حول مفهوم العرض المتعارف عليه بالنسبة للعقل العربى من خلال سيادة لونين من ألوان العرض هما الشرقى، والنمر التهريجية المرتجلة، فى الوقت الذى كان عليه أن يواجه اختلاف التقنيات الجسمية

الإشارات والتنبيهات

التى تختلف بالضرورة من سلالة إلى سلالة ومن بلد إلى آخر، والتى تتكيف وفقًا للملابس التى تلبس، والأرض التى يُمشى عليها، وطريقة الجلوس، والانحناء، والعبادة، والخصائص الجسمية للسكان.

ـ تمتد فلسفة الفكر العربى، وتتقاطع مع الآليات الاجتماعية والسياسية لتشكل تلك الرؤى الجامدة التى تدور فى أفق الثابت والمطلق. والتى تكشف بوضوح عن عجز الإبداع العربى عن الانطلاق بعيدًا عن ذوى اليقين النهائى... فمن المعروف أن تراثنا الفكرى يرفض نهائيًا مفهوم ـ الصراع (فالقدر الفردى ومن ثم حرية الاختيار والمبادرة، والمسئولية الفردية، تضعنا كلها أمام مأزق أيديولوجى، فى ظل علاقة بالكون يكون فيها الإنسان عبدًا لمشيئة قدرية. والعبد ـ بأى صورة ـ لايمكنه أن يكون دراميًا، إلا فى حالة تمرده النهائى، وهى حالة يتعذر عرضها على جمهور ينظر إلى هذا التسليم كبديهية غير مطروحة للجدل. ففى ظل مفاهيم التسليم والسلام والحتمية والواحدية التى يرسخها الفكر الدينى، ولايقبل فيها نقاشًا، وكذلك مبدأ الثواب والعقاب، وقائمة التحريمات التى تفرضها التعاليم الدينية انطلاقًا من وضعية يكون فيها الدين ليس هو مجرد العلاقة الشخصية بين الإنسان والله، ويكون المعبدمسرحها، حيث يصبح طبيعيًا أن ما فى الداخل هو للدين والله، وما فى الخارج هو للدنيا والإنسان، لكن الأمر هنا يختلف ـ فالداخل والخارج لله والدين هو نظام الحياة بكل ما تمتلئ به من تفاصيل وسلوكيات يومية(٩)

وهكذا يتوارى الإبداع هادئًا ساكنًا ومكرسًا للكائن فى حدود القوالب النمطية، والمضامين الآلية التى تصور عقاب الخروج عن المألوف حيث السقوط المحتوم. وكما يرى صالح سعد فإنه من الصعب القبول بفكرة إعادة إنتاج معايير الطبيعة والمجتمع حيث الدخول فى دائرة (البدع) وليس (الإبداع) فالمحاكاة تصبح (غيبة)، والتجسيد يصبح (تغيير لخلق الله) و(تشبه بالفرنجة)والتساؤل الوجودى (تجديف) إلى آخر هذه التصنيفات التى لاتزال لصيقة بالمسرح والدراما حتى الآن.

ـ رؤية نقدية..

إذا كانت الممارسات النقدية فى مصر والعالم العربى ـ قد اتجهت نحو الإخفاء اللاواعى للأيديولوجيا المتضمنة فى الإبداع الفنى، ليصبح النقد مجرد رجع لأصداء التحولات الدائرة على المستوى الاجتماعى والسياسى، لذلك فقد تجرد النقد من فعالية التساؤل والتجاوز والتغيير، وتعثر فى آليات استاتيكية ثابتة. ولاشك أن هناك ارتباطا وثيقا بفرضيات النموذج الليبرالى الإنسانى الذى يدور فى إطار التسامى الأخلاقى، ويتباعد بالفكر إلى منظور محايد، حيث تتجرد الرؤى فى علاقاتها المركبة بالتاريخ والمجتمع والعقيدة لذلك عجز النقد عن صياغة إشكالية المسرح ضمن منظور يتيح أن يضع موضع التساؤل.. كل المفاهيم المغلوطة التى تحول تحقيق تجاوز حقيقى لمأزق المسرح.

ولعل محاولات هدم فرضيات النموذج النقدى الليبرالى الأخلاقى، وقلقلة أسسه الثابتة تقودنا للكشف عن الموجات الفكرية النابضة التى قد ينطوى عليها النص، وكذلك فإن محاولات تقويض تلك السلطة التى تستمدها النصوص من تماسكها الخارجى ، ومن استدعائها لأشكال الماضى وطقوسه، استنادًا إلى وحدتها وتناسقها والتى تفرضها الأيديولوجيا السائدة المسيطرة ـ هذه المحاولات قد تمكن من الوصول لمستوى تشوير الأيديولوجيا ضد نفسها، ويصبح من الممكن أن تزداد حدة الوعى، وصولا إلى الزاوية الحرجة التى يتم فيها التمرد على الواقع القائم وتجاوزه.

فإذا كان الإبداع هو نشاط مناهض للوهم الأيديولوجى ـ فإن الرؤى النقدية الرحبة، تستطيع أن تقاوم الترويض الثقافى والمنهجى، وتدعو إلى وعى لايقع فى شرك حدود المنهج، وله فعالية استكشاف أبعاد النصوص فى توالدها المستمر للكشف عن علاقاتها المتشابكة وتحريرها من أسر الدلالة الواحدة.

وهذا الاتجاه لايدعو إلى منهجية جديدة، ولايسعى إلى تحجيم ثراء النص بإخضاعه لفكرة معينة، ومحاولة هدم هيمنته، وتقويض منطقه السلطوى، فيصبح النص مجالا إبداعيا متوترًا ومتناقضًا.

والنصوص تحمل فى ثناياها لغات متعددة، وخطابات تحيل إلى نصوص تاريخية وعقائدية وفلسفية وأدبية واجتماعية. هذه اللغات تعرض الكيان السياسى والاجتماعى باعتباره حوارًا يشير إلى أطر مرجعية دالة. إذا كانت القراءة التقليدية للنصوص تتم من خلال دلالة معينة لها ـ بالطبع ـ دوافعها الأيديولوجية، فإن النتيجة الحتمية تتجه دائمًا نحو تكريس السائد وتأكيد الصورة الواقعية المنطقية المزيفة للوجود الإنسانى. أما القراءة من المنظور الرحب اللامركزى فهى تميل إلى هدم الدلالات الثابتة بشكل يوضح أن لاوعى النص وعلاقاته المركبة لاتسمح بالجزم بمعنى ما، ولكنها تسمح بتعدد إمكانات المعانى ونسبيتها ليصبح النص فى النهاية ساحة تفجير للمعانى. وهكذا يصبح من المتاح أن نكشف عن زيف المنطق الذى يؤطر النظريات الفكرية والأبنية السياسية والهيئات الاجتماعية وصولا إلى كشف الدور المضلل الذى يلعبه الزيف الأيديولوجى فى تكريس معان نأخذها مآخذ الحقائق، ونبنى عليها أطرنا المرجعية. ■

وفاء كمالو

المراجع والهوامش

١ ـ عزيز العظمة. سياسة الهروب من الواقع (لندن: دار الساقى، ١٩٩٤)

٢ ـ جريدة الحياة، (٣٠ أغسطس)، ١٩٩٦.

٣ ـ د/ صالح سعد. مجلة عالم الفكر (الكويت: ١٩٩٦)

٤ ـ ب. باقى قاموس المسرح، موسكو، دار التقدم، ١٩٩١.

٥ ـ المرجع السابق.

٦ ـ د/ فواز الساجر، ستانسلافسكى والمسرح العربى، ترجمة. فؤاد مرعى، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٤.

٧ ـ د/ صالح سعد مرجع سابق.

٨ ـ المرجع السابق.

٩ ـ المرجع السابق.

اوبرا .. حسن البصري

رؤية جمالية وإبداعية

– ١ –

قد أهم ما يتبادر إلى الذهن عند رصدنا للفروق الجمالية لحسن البصرى بين النص الأصلى فى (ألف ليلة وليلة) والنص الشعرى الذى صاغه باقتدار الشاعر محسن الجوهرى، أن النص الأصلى يرى حكاية «حسن الصائغ البصرى» منذ طفولته حتى زواجه، ثم ضياع زوجته وأولاده، أو اختطافهم من قبل قبيلة الأم، حتى عراكة الأهوال والجن وغرائب الطبيعة حتى استعاد زوجته وأولاده من جديد.

يتميز هذا النص الروائى بنفس الخصائص الفنية التى تتميز بها (ألف ليلة وليلة) نفسها، أول هذه الخصائص أن المساحة الإبداعية للخيال بلا حدود، فحسن البصرى يخوض الأهوال ويعارك الجن، ينزل إلى بلاد الثلج فبلاد النار، حتى يصل إلى إنقاذ واسترداد زوجته، هذه الرحلة قد تكون تجسيداً لرحلة الإنسان نفسه عبر حياته من أجل الوصول إلى هدف إنسانى شامل، ثانى هذه الخصائص أن هذه المساحة الإبداعية مملوءة بكل عناصر الصراع العضلى والعقلى، فتارة يصارع حسن البصرى خصومه بقواه العضلية، وتارة أخرى يصارعهم بذكائه وبصيرته مما ينتج عن ذلك ويترتب عليه صياغة وبناء التضاد والتناقض بين عناصر الواقع وما فوق الواقع؛ الحقيقة والخيال، المعقول وما فوق المعقول، الزمن والزمن المضاد، العدل والعدل المضاد، الأخلاق والأخلاق المضادة، وبالإجمال إبراز التناقضات التى تكشف جماليات بناء القيم الأساسية فى الحياة والإبداع معاً. أما ثالث هذه الخصائص فيتحدد فى النسيج الروائى والإبداعى نفسه من خلال ذلك المزج الباهر بين عناصر الإنس والجن، الأحلام والقدرة على تحقيقها، بين القوى الفاعلة من أجل تحقيق الخير والقوى المضادة الشيطانية المسيطرة على عوالم الجن وما فوق الواقع، بين الشوق لتحقيق المستحيل ولحظات الانكسار والانتصار، أما رابع هذه الخصائص فيتركز فى معنى رحلة حسن البصرى ومضمونها الفكرى، رحلة استعادة زوجته الباهرة الجمال وأطفاله الأبرياء، رحلته نحو امتلاك الحقيقة تحقيقاً وتأكيداً لقيم الحق والخير والجمال.

– ٢ –

ما الذى حققه الشاعر محسن الجوهرى فى صياغته الشعرية المبدعة لهذه الحدوتة؟

ذلك هو السؤال الذى يجب أن نتعرف على إجابته وسط هذا الخضم الهائل من التفاصيل الجذابة الباهرة التى صاغها بعبقرية نادرة المؤلف الأصلى لألف ليلة وليلة.

فى هذا الإنجاز الشعرى يقبض محسن الجوهرى على اللحظة الشعرية الرومانسية فى حدوتة حسن البصرى؛ لحظة اللقاء الأول بينه وبين حبيبته بدر البدور، لحظة يتراقص فيها القلب، تتمايل فيها المشاعر والأحاسيس بجمال بدر البدور هنا يجب أن تتحرك كل عناصر التكوين المسرحى تعبيراً عن هذه اللحظة وكشفاً لها، الإضاءة والحركة بجانب الموسيقى، تعبيراً مقتصداً - دون إسراف أو ثرثرة تشكيلية - ذا تتابع باهر ومنضبط، هى لحظة الوجد والشفافية، فالشاعر هنا يكشف لنا بمفرداته اللغوية - فضلاً عن البناء الدرامى ذاته - عن هذه اللحظة النورانية المكثفة، والتى يمكن أن يتراقص فيها البحر والسمك، وتتمايل الجبال فرحاً، فضلاً عن رقص الطيور والأشجار تأكيداً لمعنى السعادة والفرح فى لقاء حسن البصرى وبدر البدور، وهو ما يدفع بالبناء الشعرى الدرامى إلى مزيد من التكثيف والتركيز تأكيداً لحرص المؤلف على صياغة وبناء الجو الخيالى الباهر لحدوتة حسن البصرى، حيث عالم الجن والغرائب والمدهشات فى اللون والخط والمساحة والكتلة والفراغ.

يتميز البناء الشعرى الأوبرالى الذى صاغه محسن الجوهرى بتأكيد قيم وجماليات فن الأوبرا؛ تلك الجماليات التى تجمع بين بساطة الحدث الدرامى، عمقه الفكرى والإنسانى، عذوبته وجلاله، فخامته الرومانسية، ثم أخيراً نتيجته الفرحة؛ تلك التى تلتقى وتتفرج عندها الأضداد.

هذا النص الشعرى يعد تعبيراً عن روح الدراما؛ اللحظة التى تشف فيها الروح ويتفجر الحلم الإنسانى؛ لحظة المواجهة مع الحقيقة والقبض عليها، الانكشاف والتألق، التطهر والنقاء والارتقاء، ولأن هذا النص يستقر فى المنطقة الفاصلة بين الحقيقة والخيال؛ الحقيقة بظلالها والخيال بإضاءاته الباهرة، لذا يصبح من الواجب التعبير عن هذه المساحات بما يحقق مزجاً عضوياً بين الحلم والحقيقة، أى محاولة خلق جو من الأحلام، تخرج من الواقع لتكبر وتنشط وتزدهر، تأكيداً لقيمة الحب الإنسانى الخالدة على مدار التاريخ.

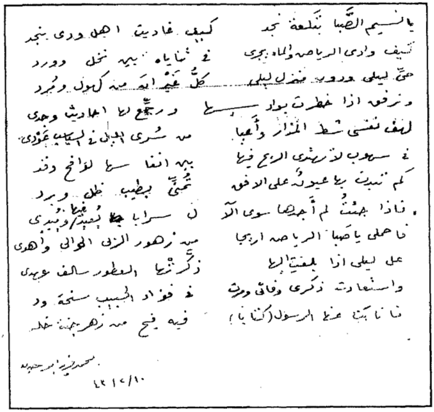
إن الإضاءة، الحركة المسرحية، حركة الراقصين والراقصات، حركة الديكور داخل الفضاء المسرحى، كل هذا يجب صياغته صياغة عضوية ضمن نسيج العمل الدرامى على خشبة المسرح، أى يجب توظيف هذه العناصر مجتمعة أو بالتتابع بهدف خلق عالم من الحلم الشفاف الجميل.

هنا، يجب الاهتمام بالشاعرية الديناميكية للإضاءة، بحيث تكون أقرب إلى ملامسة النفوس، بل وملامسة الفراغ على استحياء؛ إضاءة أقرب إلى الفجر أو الغسق، بين الصريحة والانفعالية تتناوب قدراتها التعبيرية مع الحركة المسرحية للراقصين، تتقدم هذه العناصر الموسيقى، تمهد لها بخلق الجو الدرامى، وتشارك فى بناء المعنى الفكرى والدرامى المحددين.

تلك هى بعض الوظائف الجمالية التشكيلية الحيوية التى يجب أن تكون عليها عناصر العرض المسرحى المشاركة فى صياغة وبناء أوبرا حسن البصرى. ■

مجدى فرج

مخطوطة شعرية لمحمد فريد أبو حديد



يا نسيم الصبا بتلعة نجد — كيف غاديت أهل ودي بنجد
كيف وادي الرياض والماء يجري — في ثناياه بين نخل وورد
حيّ ليلى وحيّ منزل ليلى — كل غيداء منه كحول وبرد
وترفق إذا خطرت بواد — ورجّع لي الأحاديث وحدي
ليف نفسي شط المزار وأعيا — من سرى البال في السباسب عودي
في سهوب لا تروى الريح فيها — بين أنفاسها لواقح وند
لم تبدّ بها عيونه على الأفق — تمتّع بطيب ظل وبرد
فإذا جئت لم أجدها سوى الآل — سرابا بعيدا ومبدي
فاحملي يا صبا الرياض أريجا — من زهور الربى الحوالي وأهدي
على ليلى إذا بلغت إليها — ذكرتها العطور سالف عهدي
واستعادت ذكرى وفاق وحب — في فؤاد الحبيب سنحة ود
فأنا بت عند الرسول (كما بأ) — فيه فيح من زهر جنة خلد

محمد فريد أبو حديد
١٠/٢/٤٣

يقترن اسم محمد فريد أبو حديد، في تاريخنا الأدبي، بمؤلفاته في القصة التاريخية والشعبية التي أثرت المكتبة العربية بمجموعة من الأعمال التي تنبض بالفكر القومي، كما يقترن اسمه بتجربته الرائدة في الشعر المرسل الذي ترجم به عدداً من المسرحيات الشعرية، في مقدمتها بلاشك «ماكبث، لشكسبير (١٩٥٧)، أغنت الإبداع العربي بما قدمته من تجربة جديدة في النظم، يعترف بفضلها النقاد والشعراء..

لهذا يُذكر محمد فريد أبو حديد كأحد الآباء الروحيين الذين مهدوا لحركة الشعر الجديد، التي تحررت من الوزن العمودي والقافية.

وإلى جانب الرواية التاريخية والشعبية والترجمة، كتب محمد فريد أبو حديد أدب الأطفال والمقال والأبحاث الأدبية، وكتب أيضاً، بالشعر المرسل، بعض المسرحيات الغنائية مثل «ميسون الغجرية» (١٩٢٨)، «عبد الشيطان» (١٩٣٣)، «خسرو وشيرين» (١٩٣٤).. (انظر مجلة «القاهرة» العدد ١٢٨ يوليو ١٩٩٣ محمد فريد أبو حديد مائة عام على مولده).

أما بالنسبة للقصائد الغنائية فكان محمد فريد أبو حديد يلتزم فيها بالشعر التقليدي، لاقتناعه بأن هذا الشكل لا يحول دون التعبير الفني الذي يبدو فيه متأثراً بالأساليب الغربية.

وأول ما يلفت النظر في هذا الإنتاج المتنوع، الذي بدأ سنة ١٩١٤ في «السفور» و«السياسة الأسبوعية» و«الهلال»، إيمانه العميق بالأمة العربية، وبقدرة لغتها على توحيد المشاعر والأفكار، وبإمكانياتها الكامنة - في إطار حركة التاريخ - على صنع حضارة عصرية رفيعة، تتجاوز ما أنجزته في ماضيها، تحتفظ فيها بالعناصر الجوهرية لشخصيتها، وفي الوقت نفسه تفيد من اتصالها بالفنون والشعوب والحضارات الأخرى، التي تشكل في مجموعها تراث الحضارة البشرية.

ومحمد فريد أبو حديد ولد في القاهرة في أول يوليو ١٨٩٣، وحصل على البكالوريا في الإسكندرية سنة ١٩١٠، وتخرج في مدرسة المعلمين العليا في العاصمة، القسم الأدبي ١٩١٤.. وبعد عشر سنين، في ١٩٢٤، حصل على الليسانس من مدرسة الحقوق الخديوية، وعمل بالتدريس في وزارة المعارف، ثم في إدارة التعليم بوزارة الأوقاف، وفي جامعة الإسكندرية عند إنشائها، ودار الكتب.. وابتداءً من الثلاثينيات، شارك في إنشاء مجلة «الرسالة»، ولجنة التأليف والترجمة والنشر، ونادي القصة، ورأس تحرير مجلة «الثقافة».

وتوفي في ١٨ مايو ١٩٦٧.

والقصيدة التالية مخطوطة بقلم محمد فريد أبو حديد، تحمل تاريخ ١٠ فبراير ١٩٤٣، ليس لها عنوان عثرت عليها منذ سنوات مطوية داخل كتاب قديم من كتب محمد فريد أبو حديد، معروض للبيع على سور الأزبكية، فاشتريته بقروش قليلة، ووجدت على صفحته الأولى إهداء المؤلف.

ومع أن الكتاب فُقد من مكتبتي بالاستعارة، فقد بقيت القصيدة بين أوراقي كأنها كُتبت على الصخر لا على الورق، ليطالعها القراء في الذكرى المئوية لميلاد محمد فريد أبو حديد. ■

نبيل فرج

بين الجنون والبهجة

قد تُعنى هذه الإطلالة النقدية، بمطالعة ديوانين صدرا حديثًا لشاعرين غير متجايلين، وإن كانا يشتركان معًا فى معايشة اللحظة الشعرية الراهنة.

وقد انصبت هذه الإطلالة على قصيدة واحدة عند كل منهما. حيث إنهما - القصيدتين - تكادان تكونان هما المدخل الحقيقى لقراءة عالم كل ديوان على حدة.

الشاعر الأول هو: بدر توفيق صاحب ديوان [الجنون الجميل] الصادر مؤخرًا عن المجلس الأعلى للثقافة.

أما الشاعر الثانى فهو: مشهور فواز صاحب ديوان [هجمة من الغرام فى البلاد] الصادر حديثًا على نفقة المؤلف.

١ - فتنة الحياة لدى الوحيد المسن:

تأتى قصيدة «الوحيد المسن» للشاعر بدر توفيق، ضمن مجموعته الشعرية الجديدة «الجنون الجميل» - والتى صدرت عن المجلس الأعلى للثقافة مؤخرًا لتثير حالة إنسانية ووجودية مدمرة، تتمثل فى محاولة افتراض إجابة عن سؤال كبير من أسئلة هذا الوجود، يتعلق بجدوى الحياة، وضرورتها، ويزداد مثل هذا السؤال توحشًا وضراوة، حينما يأتى من هذا الوحيد المسن الذى يقف - تقريبًا - على حافة إدراك حقيقته الكبرى!!

وعنوان القصيدة - بداية - ينذر بحالة من الاستيحاش والملال، تفرضها مجموعة الهموم والأزمات التى أثقلت كاهل الإنسان المعاصر، وفجرت ينابيع أحزانه التى يؤذن هدير سطحها بأعماق بعيدة، تتحلُ فى توق نفسه المعذبة إلى التوازن والغبطة والتحرر من كل ما يحول دون أن يلهب فى حقيقتها، وتزداد الحاجة إلى طرح مثل هذه الأسئلة كلما أحكم الرتاج، وحوصرت رغبات الإنسان فى التحرر، وكلما جثم على قلبه ما فى المدنية من زيف وغرور وتعاسة.

و«الوحيد المسن» هذا العنوان/ السؤال، يثير - فيما يثير - حالة من القلق الميتافيزيقى حول الغاية والمصير، وحول البحث عن إجابات كثيرة، لأسئلة أكثر يكتوى الإنسان المعاصر بسياطها فى أحايينه المعيشية الموكل لها. وسنورد - هنا - نص سؤال الوحيد المسن أى القصيدة كاملة، يقول بدر توفيق:

حين يسرى فى الليل قلب الوحيد المسن،
وهو متكئ فى الظلام على حافة الشرفة المظلمة،
تتراءى له كائنات لا يلقاها إذا صعد اللجر فوق الظلام!
فالوحيد المسن الذى لم يعد راغبًا فى النوم ولا فى الحياة،
يتمشى فى الليل عبر الشوارع،
يتسلل بين الحدائق فى الليل يبحث عن برتقال المطر،
ويحاذر أن يتعثر فى حجر لا يراه،
ويحاذر أن يفجأه لص أو ثعبان طائش؛
يتوجس قلب الوحيد المسن فيرتد للبيت، للشرفة الآمنة،
يتأمل فى الليل:
فيرى فى شواشى الشجر المهتز أجسادًا علكت فى مشانق،
ويرى أصص الزرع فى شرفة الجار،
كرءوس ميتة وقف الشعر فيها،
ويرى فى السحاب كهوفًا يدخل فيها القمر ويخرج!
الوحيد المسن على متن الليل يرتد طفلا يخاف ويبكى:
البحر يصير بساطًا من الأعشاب الجافة،
الجبال تغادر مواقعها،
الأرض تلك مواثيقها، وتكف عن الدوران!

كل شيء هنا يوحى بالوحشة، ويدعو إلى الفرار، ويأذن بالتلاشى والوحيد المسن على أثر هذا، لم يعد راغبًا فى النوم ولا فى الحياة، لسبب بسيط جدًا، وهو أنه أصبح مفتقدًا لمبررات النوم/ الطمأنينة، ولمبررات الحياة/ الرغبة فى الحياة، فالوحدة، وتقدم السن مبرران قويان لشعور الإنسان بأنه منبوذ وفضلة، ينبغى الخلاص منها، وهو شعور إنسانى مدمر، يحيل ما تبقى من هامش الحياة إلى صور قاتمة بشعة ومفزعة. والمشهد الشعرى - فى الوحيد المسن - بمستوييه المعنوى والبنائى يتبنى موقفًا دلاليًا، تتكثف فيه مفردات التلاشى والامحاء، نستطيع أن نتلمس هذا من خلال تأمل مفردات: «الليل، والوحدة، والظلام، والتسلل، والتوجس»، ومن خلال ما يترتب على الأبعاد الدلالية لهذه المفردات من أفعال، كالأفعال: «يحاذر، يتعثر، يبحث، ومن خلال ما يترتب على هذه الأفعال من نهايات تفضى إليها، كرؤية أصص الزرع فى شرفة الجار، رءوسًا ميتة وقف الشعر فيها، وكرؤية البحر بساطًا من الأعشاب الجافة، وكرؤية الجبال وهى تغادر مواقعها، والأرض وهى تلك مواثيقها، وتكف عن الدوران. إنها رؤية تشبه رؤية يوم الزلزلة، غير أن الزلزلة التى أصابت الوجود هنا، لم تأت نتيجة أحداث قدرية لا شأن للإنسان بها، وإنما هى زلزلة داخل النفس الإنسانية التعسة، التى تشعر بالوحدة والاغتراب، بعد أن ساورها شعور بالنبذ من الآخر، وإحساس مهلك بانتهاء الدور، ذلك الإحساس دفعها إلى حالة من الاستلاب، والإحساس بخراب العالم، الذى كانت تمثل هى فيه - قبل ذلك - لونًا من ألوان الجدوى وسرًا من أسرار المعنى.

ولكن ما جدوى الحياة إذن بالنسبة لهذا الوحيد المسن فى مثل هذا الطقس؟!

أعتقد أن الموقف الشعرى رغم قتامته وسوداويته، إلا أن تعلقًا ما بشيء كالحياة نراه يسفر - فى خجل - عن وجهه بين الحين والحين، هذا الشيء الذى كالحياة، لا يمكن بطبيعة الحال - أن يكون الحياة ذاتها، وإنما هو شيء ربما نستطيع أن نطلق عليه محاولة إنتاج حياة، وسط طقس ينذر كله بعدم جدواها، فها هو ذا الوحيد المسن عندما يرتد للبيت «للشرفة الآمنة، يتأمل فى الليل» فى إشارة إلى محاولة الفعل ولو عن طريق التأمل الذى سيعينه قطعًا على فتح كوة للتذكر، تعينه هى الأخرى - ولو فى الحلم - على الفعل، فنشهده «يتسلل بين الحدائق فى الليل يبحث عن برتقال المطر» ولنا أن نتأمل هذا المطر البرتقالى، الذى لم نشهد له أثرًا على أرض واقع خرب، كواقع هذا الوحيد المسن، غير أننا نستطيع أن نقتنع بوجوده - مؤقتًا - على أرض هذا الحلم المختلس!!

ولكن ما هذا الحلم الذى يتسلل إليه «الوحيد المسن» خفية، فيحاذر أن يتعثر فى حجر لا يراه، أو أن يفجأه لص أو ثعبان

الإشـارات والتنبيـهـات

طانش؟!. إنه الحلم بالغربة فيما يشبه الحياة، بعد أن افتقد «الوحيد المسن» مبررات الحياة، وبعد أن أصبح غير راغب فى النوم ليحلم، ولا فى الحياة ليحاول فيما يشبه الحياة!!

١ - الغياب المسيطر فى مواجهة الحضور المنكسر:

يمكن للمتأمل للبنى التشكيلية والمعنوية، فى قصيدة «القصيدة تكتب غبطتها» للشاعر مشهور فواز - ضمن ديوانه «هجمة من الغرام فى البلاد» - أن يقف على طقسين دالين متوازيين ومتنافرين فى ذات الوقت، هذان الطقسان يمثلان حالتى الغياب والحضور فى القصيدة، ويجيئان تلبية للفرضية الدلالية فيهما، بما تحمله هذه الفرضية من انعكاسات للداخل على الخارج، أو للغياب المسيطر، على الحضور الهش المنكسر، فالقصيدة تعالج حالة من حالات الانكسار فى حياة الإنسان، ربما تتمثل هنا - وكما هو حادث بالفعل - فى تجربة حب فاشلة، أحدثت - بمفاجأتها - خللا مدمرًا فى نفس بطل هذه التجربة، الذى أحدث هو الآخر حالة موازية من حالات المقاومة، وضبط البنى النفسية والعصبية - لديه - خشية الانهيار التام، الذى حاول الشاعر أن يتقيه هنا بالشعر؛ فالقصيدة التى تكتب غبطتها، هى ذات القصيدة التى وجلت بدايتها، وارتمت كحضارة الجميز، فى إشارة إلى موازاة حالة الانكسار التى أصابت البطل، بحالات الانكسار الكبرى فى حياة الأمم والشعوب، يقول الشاعر:

وجلت بدايات القصيدة
فاحملينى لليمام
وأعلنى أن ارتداد الباب يترك رجفة فى القلب
قولى: كان مضطربًا
وأوجعه ارتداد الباب
ضللت القصيدة
فارتمى كحضارة الجميز
هل كانت ملامحه تدل على اغتراب
هل توجس خيفة من راحتين وحيدتين
أم أنه فى الليل أشعل تبغه
وتحدرت - رغمًا - مواجعه على قدمين؟

إن حديث البطل عن نفسه بضمير الغائب هنا، وتوجيهه الخطاب إلى الذات المخاطَبة والموغلة فى الغياب هى الأخرى، ليسفر عن طرح سالب، وافتراض مؤجل للمساكنة أو حتى للمؤانسة، لتنتشر فجيعة الفقد، فتتخلل المكان، وتسبح فى الزمان، والأفعال:

أوجعه،
ارتمى،
توجس،

جاءت بمنطوق الحديث عن الغائب - كما ذكرت منذ قليل - فى محاولة من البطل للتنصل أو للتعالى على نواتج هذه الأفعال، رغبة منه فى الفرار من جراء الوقوع فى شرك حتمية المواجهة، نشدانًا لمحاولته إنتاج حتمية أخرى مغايرة ولو على سبيل افتراضها، غير أن الأفعال التى كان ينبغى أن تجىء فى صالح افتراض حتمية الفرار، وخلق المغايرة، ومحاولة استحضار الغائب لمساكنته أو الاحتماء به تجىء على لسانه هو:

فاحملى،
وأعلنى،
قولى،

دون أن يسفر الموقف بلهجته الآمرة عن أى من الاستجابات، لأى من هذه الأوامر، التى لم تأت - فيما يبدو - إلا لتكشف عن المدى المدمر الذى اتسعت دوامته فى نفس وقلب البطل، فبدا يوهم نفسه بتلقى إستجابات من الطرف المرغوب فى مساكنته، والاحتماء به، ولذا فإننا حينما نتابعه وحيدًا يشعل تبغه فى الليل، ونتابع راحتيه وحيدتين، يكون بمقدورنا أن نعى عمق مأساة هذا الحضور الهش، الذى يواجه وحده كل هذا الغياب المسيطر! ليقرر فيما يشبه الاعتراف المرير بالهزيمة:

قولى: لقد أعزت به الأيام مجد بها
فأوشك أن يصب دِماه قربانًا
لجرح موغل فى العَمق
ملتف على قنديله
لاتخجلى
قولى هى امرأة جفلت
فإذا هنالك نخلة فى التيه قاتمة
وباب البيت مرتج
وهو فى صمته يلقى الحجارة فى الطريق
ولا يشى بفراشه
لكنه - قولى - مغال فى الهدوء
ومدهش
يبس يحاصره
فلينشىء حصنه بطراوة الذكرى
ويستعصى على الأيام

والموقف هنا يطرح نواتج ما بعد الاعتراف بالهزيمة، ويفصح - فيما يشبه البوح عن مقدار الفجيعة، من خلال مواجهة صادقة مع النفس «لا تخجلى، قولى...» لينذر الطقس كله بحالة من الموات، تأذن باكتمال الوحشة، وسيطرة الغياب، الذى أصاب حياة البطل بالشلل التام «فإذا هنالك نخلة فى التيه قاتمة»، ولايتبقى لبطل هذه المأساة سوى أن يحصن نفسه بطراوة الذكرى، مستغرقًا فى ديمومة صمته، لا يشى بفراشته، يتسلى بإلقاء الحجارة فى الطريق، فى محاولة أخيرة للتجاوز والخروج بأقل المكاسب، وفى محاولة أخيرة منه لتطمين الذات المجروحة، يبدو كالذى يهوّن من شأن الخسارة: «قولى هى امرأة جفلت»، غير أن الموقف لا يتقبل خديعتنا بهذه السهولة، لنكتشف أنها - فقط - مغالاة فى الهدوء، ومحاولة مشروعة فى مداراة العطب. ولذا فإن الموقف - بعامته - لا يطرح تلك الصحوة المباغتة التى سنفاجأ بها بعد قليل، والتى تبدو غريبة على جسد التجربة وناتئة تلك الصحوة التى تتمثل فى قوله:

نفضت نهايات القصيدة رجفة
وتحمست للصحو
سمىّ الزهر باسم واضح كالزهر
لاقينى على درج المصابيح
اسطعى فى طقس أوردتى
لقد جفلت ملامح جفوة.
للخطو أن يحذو دمانا
للعصافير التى حطت على شباكنا أن تسترد غناءها
سمىّ النهار - كما ألفت - هوى
وعودى
إن «حلوان» التى ألفتك قاتمة
وقولى:
ما علينا لو نسمى طلعنا فجرًا
ونبتدئ النشوء.

غير أننا نستطيع أن نتفهم هذا الدخول الناتئ على جسد التجربة، إذا أدركنا حالة

الإشـارات والتنبـيهـات

الشـاعـر الملحـة ـ منذ البـداية ـ للتـجـاوز، ومحـاولة خلق واقع، لا يسمح بسيادة وتمكن واقع الهزيمة من نفسه وقلبه، هكذا كعادة قادة الحروب العظام الذين يخوضون المعارك الكبيرة، فلا يتحاورون إلا من خلال مفردات الزهو، ولا يتكلمون إلا بلغة المنتصر، ولا يعترفون بالهزيمة. والموقف الشعرى يتجه بنا ـ على الفور ـ إلى ما ذهبنا إليه من معنى، فلا يُسفر عن أى تحرك من الطرف المخاطَب فى النص تجاه الطرف المخاطِب، والأفعال كالعادة تجىء كلها من جانبه هو أى المخاطِب:

سمى،

لاقنى،

اسطعى،

ولذا فالمكان/ حلوان، ما زال قاتمًا، والزمان لا يزال افتراضًا: «ما علينا لو نسمى طلعنا فجرًا». فالموقف إذن على ما به من صحو غير مبرر على مستوى الحدث إلا أن هذا الصحو المفترض من جانب الشاعر، ما زال يكرس من سطوة هذا الغياب، ويعمق من حدة هذا الانكسار. ■

عبد الحكم العلامى

ألمانيا

عالم فيرنر هيرتسوج

ف ولد فيرنر هيرتسوج Werner Hertzog فى ٥ سبتمبر ١٩٤٢ فى ميونيخ بألمانيا.. ويعتبر من أهم وأبرز الشخصيات فى السينما العالمية المعاصرة ومن أكثرهم حداثة وتفردًا ... وفى مجال السينما.. وقبل خسارة ألمانيا لرهانها فى صناعة السينما.. كانت البداية.. وكان الظهور المتوهج لاستعراض أفلام هيرتسوج وتقديمها إلى العالم ... وبالها من مصادفة فى هذا العالم الساحر.. فإن كل ما صوّر وكل ما أُنتج استمد شهرته من عالم هيرتسوج .. الذى كان له غاية محددة من إبداعاته السينمائية قال عنها ... (إننى أبحث وأنقب عن خطة عمل.. وعن سينما خاصة تعيش وتبقى .. إن مناظر الطبيعة المتوحشة غير القابلة للترويض .. هى التى أحلم بها...) ..

.. استحوذت السينما بعاملها السحرى على هيرتسوج منذ سن مبكرة ... حين صنع أول أفلامه وهو ما زال تلميذًا... ومن الغريب أنه لم يتلقّ تعليمًا نظاميًا فى السينما.. فقد دأب منذ البداية على تعليم نفسه بنفسه ... درس التاريخ والآداب والمسرح.. كان ذا طباع برية غير قابلة للترويض فى تحصيله العلمى وفى بنائه الفكرى.. سافر كثيرًا منذ الستينيات مرتحلا إلى مناطق عديدة ونائية فى العالم... جاب صحارى أفريقيا وأدغالها وأمريكا اللاتينية وجزر الكناريا.. باحثًا عن حلمه الخاص.. محاولا اكتشاف الآخر فى الإنسان وفى الطبيعة.. والتعرف على أجناس بشرية لا تزال تعيش أنماطًا من الحياة البدائية.. وكان يرصد بكاميراته التى يحملها دائمًا معه كل شئ.. كان جُلّ اهتمامه بأوضاع تلك الأجناس البدائية من البشر وعلاقتها الجدلية بالمدنية فى عالمنا المعاصر.. وكان ذلك إلهامًا ثريًا وخصبًا لإبداعه السينمائى.. وهو بلا شك وريث شرعى لتراث الثقافة الألمانية الراسخة علمًا وفلسفة وفنونًا وآدابًا... وإبداعاته السينمائية تتميز بأنها ذات طابع فلسفى تأملى متفرد يقدم فيه رؤيته الخاصة عن بعض قضايا الحضارة والمدنية والإنسانية.. ويتجلى هذا العالم الخاص بهيرتسوج حين قدم فيلمه الرائع (آجويرا - غضب الرب ..) عام ١٩٧٢ (Aguirre The Wrath of God) ..

وفيلم (كل رجل لنفسه..) Every man for himself .. فى عام ١٩٧٥ من خلال دراما قوية وعنيفة... وقدم عالمه الوحشى المتفرد فى معزوفته السينمائية الفريدة والرائعة (فيتز جارالدو..) ١٩٨١ .. من خلال تقديم أوبرا خيالية صاخبة لحفل موسيقى غرائبى للجحيم فى الغابات البرية..

إن أهم ما يميز عالم هيرتسوج الإبداعى ويمنحه تلك الخصوصية المتفردة.. أن له رؤية قاسية وحادة محطمة لكل ثوابت الرؤيا الذاتية التى تُطرح من خلال الأفلام لكى تبقى عبر الأجيال...

إن تحطيم كل الثوابت المتعارف عليها فى كل لقطة من أفلامه هو غايته فى سبيل بناء رؤيته الخاصة للعالم حوله... وهذا ما أكسب هيرتسوج القدرة على تغيير رؤيتنا للعالم.. إنه يستمد شخوص أفلامه من مواقف وأحداث موغلة فى الوجودية..

وهذا ما نتلمسه فى واحد من أهم أفلامه..

(لغز كاسبارهوزر..) ١٩٧٥ أو: كل واحد لنفسه..) ..

وهذا الفيلم مبنى على حالة حقيقية أثارت جدلا واسعاً فى نورمبرج..

وكاسبرهاوزر هو الحالة الوحيدة المعروفة فى تاريخ البشرية التى فيها (يولد) إنسان وهو بالغ.. إنه شخص غير محدد الملامح.. أبكم وغير متمدين لم يُهذب... إنه مثل كتلة صماء سقطت من كوكب آخر...

وتنشأ قصة إحساس.. وموت بطيء لكل شيء إنسانى حوله وبطريقة تلقائية .. حين يُنبذ فجأة من الجميع .. ويُواجه بمجتمع الطبقة المتوسطة المتمدنة.. وحين قُتل فى النهاية .. يبحث كل فرد كالمحموم حوله عن علائم التشوه فيه متجاهلين كلية أن التشوه الحقيقى فى مجتمعهم وفى محاولته تشكيل كل شيء طبقًا لمقاييسه..

.. لا يمكن نسيان الجمل القصيرة التى نطق بها كاسبر معبرًا عن وضع حياته.. (أى نعم .. أننى أشعر بأن ظهورى فى هذا العالم ما هو إلا سقطة عنيفة..) إن نظريته المستقلة .. مثل نظرياته عن حياة التفاح..

(تفاحة صغيرة ماهرة..!) ..

إن رؤئ أحلامه الرمزية والموسيقى والمناظر الطبيعية الخلابة فى مقابل محن كاسبر.. تمتزج معًا.. فتروى قصة معاناته بصورة تثير الشجن.. أنه يود أن يفهم هذا العالم حوله ولكنه يفشل.. شأنه فى ذلك شأن أبطال أفلام هيرتسوج كما أن تفسيره للعالم لم ينته به إلى نتيجة ترفعه فوق الشخصيات المعترف بأنها تمثل هذا العالم... وللوصل إلى أقصى درجة من التماثل والصدق والشفافية فى الأداء كان اختيار الممثل الذى يقدم هذه الشخصية المركبة شديدة الخصوصية.. وهنا كان اختيار هيرتسوج العبقرى لتمثيل الدور الرئيسى (كاسبرهاورز) .. إلى عامل فى متجر ومغنٍ وراو للقصص الشعبية يدعى (برونو-س) ، هو فى الحقيقة صورة حديثة كسبرهاوزر، إذ كان قد أمضى معظم حياته (من الثالثة حتى السادسة والعشرين..) فى دور لرعاية الطفولة. وفى مؤسسات عديدة

الإشارات والتنبيهات

للتأهيل - الأمر الذى دعا بعض النقاد إلى اتهام هيرتسوج بتعريض «برونو» لسخرية العامة.. وإن كانت الشخصيات التى تستحق السخرية هى الشخصيات الممثلة للمجتمع.. أما «برونو» فيصور آلامه وكرامته على المستوى الشخصى تصويرًا صادقًا وعبقريًا.. لقد أدى دور رجل ينزع إلى تركيز الانتباه على اللغة المفتقدة لخلق حالة من التواصل والفهم أكثر منها لشخصية تحتاج إلى ممثل.. وكانت النتيجة مبهرة.. فمخارج الألفاظ قد تكون متخلفة .. إلا أنها فى الوقت نفسه تعبر عن طاقة وإصرار كاشفة عن لحظات على درجة كبيرة من المكانة والسلطة والكرامة..

إن كاسبرهاوزر واحد من أهم أعمال هيرتسوج وأكثرها تحقيقًا لرؤيته.. واهتمام هيرتسوج برسم شخصياته وتحليل أبعادها النفسية والحياتية المركبة .. ودقته فى خلق حالة من التوحد والتماثل بين شخصيات أفلامه على الورق.. وفى صورتها السينمائية على الشاشة.. من أهم سماته.. وهنا نجد ارتباطه الكبير مع الممثل العبقرى الراحل (كلاوس كينسكى) الذى اشتهر بوجهه القاسى والمفزع من خلال أفلام هيرتسوج.. لقد كان كينسكى يبدو كإنسان وحيد.. متشرد.. قرصان.. وغريب ونظرة إلى وجهه تؤكد كل ذلك فهو يعبر عن اليأس- عن معاناة الوجود والحياة المهددة والميل إلى الجنون ومع هذا فهو أيضًا وجه جميل.. يستطيع أن يتحول من القسوة إلى الرقة.. من الغازى إلى الخيالى.. ولهذا كان من أعظم وجوه السينما الحديثة..

إن ما قدمه هيرتسوج للسينما الألمانية بوجه خاص وللسينما العالمية بوجه عام من إبداعات ترسيخًا لرؤيته الخاصة المتفردة لماهية السينما.. وتحقيقه لسينما خاصة به.. غير قابلة للتقليد أو المحاكاة، قد حجز له مكانة مؤكدة بين أهم صناع السينمافيلموجرافيا :-

قدم هيرتسوج من الأفلام القصيرة والمتوسطة:

«هرقل» ١٩٦٢ - «لعبة فى الرمال» ١٩٦٤، «الأطباء الطائرون فى شرق أوروبا ومستقبل معوق» ١٩٧٠ ..

أفلامه الروائية :

● «علامات الحياة» ١٩٦٧ (جائزة مهرجان برلين الدولى ١٩٦٨ .

● «فان مورجان» - ١٩٦٨ - صُوِّر فى أفريقيا.

● «حتى الأقزام بدءوا صغارًا» ١٩٦٩ (صُوِّر فى المكسيك وجزر الكناريا) ..

● «أرض الصمت والظلام» ١٩٧١ .

● «أجويرار «غضب الرب» ١٩٧٢ .

● «لغز كاسبارهاوزر» ١٩٧٤ .

● «قلب من زجاج» ١٩٧٦ .

● «نوسفراتو» ١٩٧٨ .

● «فويتسيك» - عن مسرحية چورج بوستر ١٩٨٧.

● «فيتو كارالدو» ١٩٨١ .

● «حيث يحلم النحل الأخضر» ١٩٨٣ .

● «أصداء إمبراطورية» ١٩٩٠ .

● «صرخة الحجر» ١٩٩١ (مهرجان ڤينيسيا) .. ■

محمد فايد

مراجع :

١ - الفيلم الألمانى الحديث.. «روبرت فيشر».

٢ - دراسة للسينما الألمانية.

٣ - نشرات ودوريات حول مهرجان برلين السينمائى.

٤ - نشرات ودوريات أسبوع السينما الألمانية بالإسكندرية.

الغلاف الخلفى :

الزعيم سعد زغلول

بريشة الفنان : جودة خليفة



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب